علوم القرآن

مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه

الدكتور عدنان محمد زرزور
رئيس قسم العقائد والأديان بكلية الشريعة
أستاذ التفسير والحديث بكلية الآداب
جامعة دمشق

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م



بيروت : ص٠ب ٣٧٧١ ـ ١١ هاتف ٤٥٠٦٣٨ برقيا (اسلاميا)
دمشق : ص٠ب ٨٠٠ هاتف ١١١٦٣٧ برقيا (اسلامي)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الذي أنزل على عبده الكتاب بلسان عربي مبين ، وجعله حجته على جميع خلقه الى يوم الدين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه الى يوم الدين . ربّنا أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

وبعد ، فهذه فصول في علوم القرآن الكريم سبق لها أن طبعت أكثر من مرة ، ولكنني لم أتمكن من طبعها على هذا النحو المنسق المجتمع في مجلد واحد حتى الآن . وعسى أن يكون ذلك دليل خير إن شاء الله اذ تأتي هذه الطبعة في مستهل القرن الخامس عشر الهجري ، جعله الله تعالى قرن الإسلام والقرآن؟ ومن يدري فلعل المؤرخ ان يكتب في يوم من الأيام : كان القرن الخامس عشر الميلادي بداية العصور الأوروبية الحديثة ،وكان القرن الخامس عشر الهجري بداية العصر الاسلامي الثاني أو الحديث ؛ ولقد قال سيدنا رسول الله ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ . . »

وعسى أن تشهد بداية هذا القرن بداية هذه العودة الإسلامية الموعودة والمنشودة . . . وعسى أن يسهم في ذلك حملة القرآن ـ جعلنا الله تعالى منهم ـ في هذه العودة ، كلٌ بما يسّره الله له . . . والقرآن الكريم هو في تاريخ الإسلام والمسلمين ، وفي مستقبل الإسلام والمسلمين . . وسائر الخلق أجمعين : مفتاح كل تقدم ، وأصل كل خير ، وعنوان كل نجاح ، وفلاح الى يوم الدين .

ولعل هذه الفصول أن تكون عوناً لإخواني من الطلبة والدارسين على الدخول الى تفسير القرآن ، والعيش في ظلاله ورحابه . . . وأن تمكنهم من الوقوف على طرف قليل من إعجازه الذي يبهر العقول ويأخذ بالألباب .

وأذكر ـ بهذه المناسبة ـ أنني مدين في صفحات وأفكار كثيرة في هذه الفصول والأبواب لإخواني الطلبة الذين ألقيت عليهم هذه المحاضرات ؛ لا لما أثاروه عندي من خواطر ، بل لما دوّنوه كذلك في كراريسهم من ملاحظات ونقاط كانت تأتي في عَرض الدروس والمحاضرات . . . انتفعت بها فيما بعد في إعداد هذه الفصول . ولم تجر عادتي حتى الآن بأن اكتب لدروسي أصولاً ، وما يزال يغيب عني ـ أيضاً ـ الكثير مما يُفتح به على المدرّس أثناء المحاضرة والتدريس . ولا أدري ـ والله يعلم ـ إن كنت قد أفدت من تدريسهم أكثر مما أفادوني من دروس معلمهم ، أو من كتب لهم ـ أو عليهم ـ أن يكون لهم معلماً أو دالاً على طريق العلم . على أنني أعلم أن الكثيرين منهم ما زالوا في انتظار طبع هذا الكتاب بشكله المتكامل على

وجه التقريب . . . ولا يسعني هنا مع شكري لهم وامتناني لعملهم إلا أن أعدهم بأن استدرك في طبعة رابعة قادمة فصولاً أخرى ألقيتها عليهم ولكنني لم أفرغ بعد لمراجعتها وتدوينها على هذا النحو ، وأرجو أن يجدوا في موضوعي النسخ والتعريف بتفسير الظلال ، اللذين لم نتطرق لهما خلال المحاضرات بمثل هذا التوسّع ، ومن خلال هذا المنظور الواضح . . شيئاً من العوض الموقوت عن بعض الفصول التي عرضت لها - نظرياً وتطبيقياً - ولكنني لم أتمكن من إعدادها بشكلها النهائي بعد .

وكل ما أرجوه في نهاية المطاف أن يجد كل ناظر في هذا الكتاب ، وبخاصة ممن سبق له الوقوف على بعض مسائل هذه العلوم في الكتب القديمة أو المعاصرة ، شيئاً من حسن العرض ، وجودة الترتيب والتهذيب ، وأن يلاحظ حرصي الدائم على طرح مسائل هذا العلم من وجهة نظر المتعلم لا المعلم ، ومحاولتي ألا يخلو فصل من فصول هذا الكتاب من إضافة أو تجديد أو تصحيح وتقويم . وبخاصة بعد أن كثرت الكتابة في مسائل علوم القرآن في السنوات الأخيرة ، وكثر معها مع الأسف الإعادة والنقل والتكرار ، على مستوى التأليف الجامعي على وجه الخصوص ، دون التنبه - فيما يبدو - الى الغرض الأساسي من تعليم هذه المسائل لطلبة الجامعات ، ومدى اختلاف حاجاتهم واختصاصاتهم . وهذا هو بعينه الذي لم يمنعني ، أو بعبارة أدق : هذا هو ما حملني على اعتماد بعض الصفحات القيمة التي كتبها بعض العلماء المعاصرين ، والتي سدّت في أبوابها مسداً عظيماً بحيث لا يغني عنا تجاوزها أو محاولة النسج على منوالها . . .

وأعني بها على وجه الخصوص كتابات الأستاذ العالم الثبت محمد عبد الله دراز ، والأستاذ المفكر الكبير مالك بن نبي ، والأستاذ الداعية الناقد المفسر سيد قطب رحمهم الله جميعاً .

وأخيراً ، فإنني أدعو الله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجنبنا الزلل والخطأ ، وأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وأن يجعلنا من خدَّام هذا الكتاب الكريم ، وحملة هذه الشريعة الشريفة ، إنه سميع قريب مجيب . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفاتح من المحرّم الحرام ١٤٠١ هـ

عدنان زرزور

الجزء الأول
تاريخ القرآن وعلومه

الباب الأول
مدخل الى القرآن وتفسيره

الفصل الأول
القرآن الكريم واللغة العربية

نشير هنا الى بعض الآثار التي تركها القرآن الكريم في اللغة العربية، وبخاصة من الوجهة التاريخية، لأن تفصيل القول في هذه الآثار يحتاج الى دراسات ـ مستقلة متخصصة، أما موضوع إختيار اللغة العربية لينزل بها آخر كتب الله للإنسان، وخاتمة رسالات السماء إلى الأرض، واختيار العرب لحمل أعباء هذه الرسالة ونشرها وإذاعتها في العالمين، وكذلك الحديث عن الأثر الذي تركه القرآن الكريم بالنسبة إلى القوم الذين نزل بين ظهرانيهم وبالنسبة إلى الإنسانية جمعاء... كل ذلك أوضح من أن نشير إليه في هذا التقديم.. وأطول ـ من جهة أخرى ـ من أن تتسع له هذه الصفحات. وبحسبنا هنا أن نشير إلى قول الله تعالى في شأن هذا الكتاب ـ مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام ـ ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ وقوله تعالى: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون!!﴾ فإذا أضفنا إلى مثل هذه الآيات قول النبي صلى الله عليه وسلم: «تجدون الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا. وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم كراهية له قبل أن يقع فيه...»[1] أدركنا طرفاً من الخصائص التي امتاز بها العرب ـ والتي

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم. والمراد بهذا الشأن: الاسلام. انظر البيان النبوي للمؤلف ص١٠٣.

تتمثل أصولها عندنا في التجريد الذهني والموضوعية والقدرة على التوازن..
هذه الصفة الأخيرة التي تعد من أبرز خصائص الإسلام، وربما كانت من أعلاها منالاً كذلك، كما أدركنا تلك المكانة التي رفع القرآن الكريم العرب إليها، والذكر الذي أحدثه لهم وهم يطلّون به على العالم رسالة إنسانية ورحمة للعالمين... دورهم فيها دور التبليغ والجهاد والهداية وإخراج الناس من الظلمات الى النور؛ لا دور المدل بعصبية أو عنصرية، بل دور التكليف الأشد والجهاد الأفضل، لأن المزايا الإنسانية تكليف وأعباء لا متع وأزياء: وسوف تسألون!! بل إن الله تعالى لم ينوع بين الأمم والشعوب ولم يميز بعضها على بعض بميزات عقلية أو أدبية أو عملية إلا لتكمل الإنسانية بعضها بعضاً، لا ليفخر بعضها - بذلك - على بعض، لأن الفخر بمثل هذه الأمور الفطرية - كاللون أو الجنس - يمثل مرحلة من مراحل الطفولة أو المراهقة التي يجب على الإنسانية أن تتجاوزها، أو كان يجب عليها أن تتجاوزها من حين نزل قول الله تعالى: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ لأن الله تعالى يشير بعد ذلك إلى ميزان التفاضل الحقيقي، وأنه ينبع من الأعمال الكسبية، ومن الإرادة الحرة، والعزيمة النافذة، فيقول تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ أي إن ميزان التفاضل لا ينبع من تلك الخصائص التي امتاز بها شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، لأن ذلك التفاضل أريد به التأكيد على وحدة المجتمع الإنساني وتعارفه لا تناكره واختلافه، كما أن لكل فضيلة ضريبتها الخاصة بها...
ونحن لا نشك في أن جماع الفضائل الإنسانية التي جاء بها القرآن الكريم - بوصفه كتاب الإنسانية الأخير - تمثل منها عند العرب في جزيرتهم، فطرة واستعداداً، ما لم تملك مثله أمة من الأمم أو شعب من الشعوب. وهذا عندنا واحد من أسباب كثيرة اختير العرب من أجلها لحمل أعباء هذه الرسالة والدعوة إليها في بقاع الأرض. وتفصيل القول في هذه النقاط والأسباب أمر يطول.

ولكن إذا كنا سنتحدث بعد قليل عن توسيع نطاق انتشار اللغة العربية

الذي حدث بفضل القرآن الكريم فإننا لا نستغني هنا عن الإشارة إلى أن هذا التوسيع الذي صاحب إنتشار الإسلام ورسالة القرآن في العالم كان جزءاً لا يتجزأ من عالمية الدعوة الإسلامية كما أراد الله تعالى لها أن تكون منذ اليوم الأول للبعثة المحمدية، فلم يكن مثل هذه التوسع أمراً طارئاً أو مصلحة موقوتة أو موقفاً من مواقف السياسة والتدبير. ولا يعارِض هذا ـ وذلك ما نود الإشارة إليه ـ بمرحلية التبليغ التي رسمها القرآن الكريم للنبي ﷺ والتي بدأت بالأقربين﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ثم بمكة ومن حولها﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾... لأن هذه هي الوسيلة الطبيعية في التبليغ، وهي وسيلة أو طريقة في إيصال هذه الرسالة إلى الناس ليس غير، أما عالمية الدعوة فقد كانت تتمثل في خطاب العشيرة وفي خطاب أهل مكة وفي خطاب العرب.. بقوله منذ اليوم الأول: «يا أيها الناس» ـ وليس «يا قوم» كما كان يفعل الأنبياء السابقون ـ و «يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً» وقوله تعالى:﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً...﴾ إلى آخر هذه الآيات الكثيرة.

أثر القرآن في العربية من الوجهة التاريخية:

نعود بعد ذلك الى الكلام عن الأثر الذي تركه القرآن الكريم في اللغة العربية من الوجهة التاريخية، قبل الكلام على الأثر الخاص او الموضوعي. ويتمثل هذا الدور ـ باختصار ـ بدور القوة الدافعة من جهة، والواقية من جهة أخرى:

١ ـ دور القوة الدافعة:

عرَّب القرآن بين يدي اللغة العربية معظم أقسام العراق والشام وجميع أنحاء إفريقية الشمالية، يقول بعض الباحثين المتخصصين في قضايا العروبة والقومية[1]. إنه يجب «أن لا يغرب عن البال ان العرب قبل الإسلام كانوا

---

(١) ساطع الحصري في كتاب: ما هي القومية.

قليلين ، كما ان مواطنهم كانت محدودة نسبياً ، فإن البلاد التي تستحق النعت بالعربية ، كانت منحصرة في الجزيرة العربية ، وبحافات بعض البلاد المجاورة لها ، وأما حدود العروبة الى سائر أنحاء العالم العربي الحالي فقد تم بفضل الفتوحات العربية التي سارت تحت راية الإسلام ».

« فإن معظم أقسام العراق والشام ، وجميع أنحاء إفريقية الشمالية ـ من مصر والسودان الى المغرب الأقصى ـ كانت غير عربية ، ولم تستعرب إلا بعد الإسلام ».

وليس معنى ذلك أن العرب بقوا منطوين على أنفسهم في جزيرتهم على كر الأزمان ، بل إنهم كانوا ينزحون من الجزيرة الى البلاد المجاورة ، إلا أن قبائلهم التي نزحت قبل حمل رسالة القرآن « كانت تفقد صلاتها مع موطنها الأصلي ، وتتعرض إلى سلسلة من الأحداث والتطورات التي تنسيها ماضيها ، وتؤدي الى اندماجها بسكان البلاد التي تستوطنها ».

ويقول : « ولكن الموجة البشرية التي تدفقت من الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام قد امتازت عن سابقاتها من هذه الوجوه امتيازاً هاماً جداً ، إنها لم تفقد أصالتها بمنبعها الأصلي ، بل ظلت وثيقة الاتصال به من الوجهتين المادية والمعنوية وفضلاً عن ذلك : استطاعت ان تنشر لغتها في مواطنها الجديدة ، وانتهت إلى تعريب سكان أقطار واسعة من البلاد المفتوحة تعريباً تاماً ».

هذا هو دور القوة الدافعة الذي تم بفضل القرآن الكريم بالنسبة لنشر اللغة العربية وتوسيع آفاقها.

يضاف الى ذلك ان القرآن الكريم ـ بوصفه المصدر الأول للثقافة العربية الإسلامية ـ قد وسع من أماكن انتشار هذه الثقافة في سائر الشعوب الإسلامية التي آمنت بالقرآن ، ولكن لم يكتب لها أن يتعرب لسانها هذا عدا الأثر الواضح الذي تركه في لغات هذه الشعوب ، أو اللغات التي شاركت لغة القرآن في صنعها بين ظهرانيهم ، بالإضافة إلى إصابتها جميعاً قدراً لا بد منه من اللغة العربية ، وهو القدر الذي تقيم به بعض سور القرآن الكريم لأداء الصلاة

والعبادة وبعض التصرفات والقراءات والأحكام الدينية الأخرى.

وإن من أهم الأمور التي يجب اعتبارها في هذا الموطن أن القرآن الكريم قد تعبد المسلمون بتلاوته بألفاظه وحروفه، لأن التحدي - كما سنرى في تعريف القرآن - قد وقع بلفظه ومعناه، ولهذا لم يكن القارىء لترجمته قارئاً للقرآن، وعلى هذا: لا يترتب على تلاوته هذه أي أثر من آثار الثواب الذي وعد به النبي ﷺ قارىء القرآن، وهو أن له بكل حرف عشر حسنات - كما جاء في الحديث - قال النبي ﷺ «لا أقول (الم)، حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» هذا إلى جانب بعض الأحاديث النبوية، ومعنى ذلك أننا نملك معادلتين اثنتين، تنص الأولى على ثواب قارىء القرآن وتحض المسلمين - كل المسلمين - على تلاوته وتدبره. وتنص الثانية على أن الترجمة لا تعتبر قرآناً، كما أجمع على ذلك العلماء في جميع العصور. وبهذا يغدو التعريب بالقرآن وتحت رايته جزءاً لا يتجزأ من رسالة الإسلام.

حول تخلف حركة التعريب عن انتشار الاسلام:

إن لتخلف حركة التعريب عن انتشار الإسلام في بعض المواطن أسباباً تاريخية وموضوعية لا مجال هنا للإفاضة في الحديث عنها، ولكن في وسعنا أن نشير إلى أن انتشار الاسلام الذي تم في جزائر الهند الشرقية ووصل إلى أقاصي أندونيسيا قد تم بجهود أفراد من التجار الذين كانوا يرحلون من جنوب الجزيرة العربية بحراً بالسفن الشراعية، وإن هؤلاء مع بعض الدعاة القلائل كانوا قادرين على دعوة الناس إلى الإسلام بعملهم وقولهم، ولكنهم لم يكونوا يملكون القدرة على تحويل الناس عن لغة معاملتهم وخطابهم... هذا بالإضافة إلى ما تم في هذه البلاد - مثلاً - من تعريب شامل في معاهد العلم الديني والدراسات الإسلامية بعد ذلك.

كما أن انتشار الإسلام في بعض المراحل تم على أيدي المغول وعلى أيدي السلجوقيين والعثمانيين، بعيد حملهم لرسالة القرآن، وقبل أن يتعلموا هم لسانَه العربي المبين!

أما البلاد التي دخلها القرآن في زمن الفتوح الأولى ، فان اللغة العربية لم تنحسر عنها ، والمثال الرئيسي هنا هو بلاد فارس ، إلا بعد بضعة قرون على التحقيق ، وبعد الحركات الشعوبية والانفصالية التي قادها حكام طامحون وقاوموا في تيارها ما يستطيعون مقاومته من عوامل الاستعراب . . . على أن التعبير هنا بالانحسار لا يبدو أنه تعبير دقيق ، فان هذا لم يتم حتى في عصور الاستعمار الحديث!

يقول طه حسين : « وما كاد العرب بعد الفتوح يدخلون في بلاد فارس ويستقرون فيها حتى تعلم الفرس هذه اللغة الجديدة ، وغلبت على ألسنة كثير منهم وأقلامهم ، وما أكثر الفرس الذين شاركوا في إنشاء علوم اللغة العربية وتدوينها ، وما أكثر الفرس الذين استأثروا ببعض هذه العلوم حتى أصبحوا كأنهم أصحابها ، وكلنا يعلم أيضاً استئثار الفرس بتدوين علوم البلاغة العربية .

ويقول الدكتور طه أيضاً : « ومع أن الفرس قد أحبوا لغتهم الفارسية ونظموا فيها الشعر منذ أواسط القرن الرابع للهجرة فقد ظلت اللغة العربية لغة العلم والفلسفة عندهم إلى أواخر القرون الوسطى ، وأنظر إلى كتب ابن سينا والتفتازاني والسيد الجرجاني والطوسي وغيرهم . وكل هذا بفضل القرآن الكريم ، فبفضله انتشر الإسلام » .

والذي نراه ـ بهذه المناسبة ـ في أمر اللغات الكثيرة التي تتخاطب بها الشعوب الاسلامية اليوم ، أنها لا تشكل خطورة على الثقافة العربية الإسلامية ولغة القرآن ـ بين ظهرانيهم ـ إلا حين تنتقل من كونها أداة للخطاب في السوق والحياة اليومية ، الى جعلها « لغات قومية » لها أدبها وحضارتها وتاريخها الذي يفصلها عن أدب العربية وحضارتها وتاريخها . أما أن تبقى هذه اللغات أقرب الى اللهجات أو أقرب الى العامية المختلفة المنتشرة في البلاد العربية ذاتها ، ليست ذات مدلول حضاري وثقافي خاص ، ومغايرٍ لمدلول لغة القرآن . . . فذلك ليس فيه خطورة على وضع الشعوب الإسلامية بوصفها المجال الحيوي والطبيعي ومنطقة انتشار اللسان العربي في العالم ، أو بوصفها البلاد التي تلتقي مع البلاد

العربية في دائرة الحضارة الإسلامية، وهذا الموضوع على كل حال جدير بأن يفرد بالبحث[1].

ولا يحسن إنهاء هذا الحديث الموجز عن القوة الدافعة التي أصابتها اللغة بفضل القرآن الكريم، قبل الإشارة إلى أنه لا يصح تفسير هذا المد الهائل الذي أصابته اللغة العربية بغير عوامل جلال القرآن ورسالته، وعامل حب هذه اللغة وتفضيلها على اللغات المحلية الخاصة السابقة لدخول أصحابها في الإسلام، ولهذا فإن من فساد الرأي ما ذهب إليه بعض المغرضين من أن اللغة العربية اعتمدت في انتشارها على السلطة الحاكمة، أو السلطة الغازية، لأن هذه المنطقة غزيت قبل الإسلام وأيدت لغة الغازي بالسلطة السياسية، لكن الشعوب المغلوبة رفضتها متشبثة بتراثها ولغتها، وبقيت متشبثة بها حتى دخول الاسلام، ثم تم هذا التخلي بعد ذلك في ظل القرآن، وغير بعيد في الوقت نفسه عن قوانين علم الاجتماع، تقول الدكتور بنت الشاطىء[2]:

« ولم يكن موقف الشعوب من لغة القرآن أن فرطت في ألسنتها فجأة، أو أكرهت على التخلي عنها بحد السيف، كما ذهب المؤرخ فيليب حتي في تاريخه الكبير ولا صدرت قوانين ملزمة به من الدولة، وإنما مر الصراع اللغوي في مراحله الطبيعية التي تحكمها سنن الاجتماع، فبدأ بمرحلة عزلة تفاوتت بين قطر وآخر باختلاف طبيعة الاقليم قرباً وبعداً، وميراثه الفكري والحضاري، ومسلكه الصوتي واللغوي ... » ثم تقرر أن هذه « المرحلة اللغوية لم تطل، والقرآن الكريم هناك يفتح للعربية قلوب من أسلموا ».

وتقول في التعقيب على انتصار العربية على اللغات الأجنبية المفروضة على

---

(١) راجع على سبيل المثال الفقرة السابعة من كتابنا « إنسانية الثقافة الإسلامية » نشر المكتب الإسلامي ببيروت.

(٢) من كتاب: لغتنا والحياة.

المنطقة - الرومانية واليونانية والفارسية والبيزنطية - ثم في مواجهتها للغات الوطنية :

« وكان من المتصور ان تجمع هذه الشعوب بين العربية لغةَ دينٍ ، وبين لغاتها القومية التي صانتها طويلاً ضد الغزو ، لغة حياة ، ولكن لم يمض جيل أو جيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشعوب أمة واحدة ، هجرت إليها ألسنتها القومية دون أن يجبرها أحد على ذلك ، كما لم يكرهها مكره على أن تتخلى عن عقائدها وأديانها لتعتنق الإسلام ، بل تركت لغة العرب تخوض معركتها مع لغات الشعوب الداخلة في الإسلام »[1] .

٢ - دور القوة الواقية :

أما دور « القوة الواقية » أو دور حفظ اللغة العربية ، الذي تم بفضل « وجود » القرآن الكريم فهو أخطر دور يمكن أن يؤديه كتابُ لغةٍ من اللغات ، هذا إن كان قد وُجد كتاب آخر أدَّى قريباً من مثل هذا الدور أو عُشره في لغةٍ من لغات الأرض! . ونكتفي هنا بتقرير خطورة هذا الدور الهام الذي كتب للغة العربية على يد القرآن الكريم دون محاولة الذهاب الى عقد الموازنة والترجيح بينه وبين الدور السابق ، على نحو ما فعل بعض علماء الاجتماع ، لأننا لا نحب عقد المقارنة أو المفاضلة في هذا الباب ، لأن كلا الدورين ينبع عندنا من نقطة واحدة هي عالمية الرسالة وخلودها ، أو عمومها وخلودها . أقول نقطة واحدة لأن الخلود هو ضرب من العموم أو الشمول الزماني إلى جانب الشمول المكاني لجميع الناس . فوصول القرآن العربي إلى جميع الناس في جميع العصور يساوي في حكم الإسلام وصوله إليهم جميعاً في عصر واحد ، من هنا جلَّ هذا الكتاب الكريم عن التحريف والتبديل مصداقاً وتفسيراً نقرأه في كل جيل لقول الله تعالى : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ .

نعود فنقول : لقد وقف القرآن ، وخصوصاً في الزمن الذي انقسمت فيه الدولة العربية الاسلامية إلى مدن ودويلات ، حائلاً وسداً دون سريان اللهجات

---

(١) المصدر السابق .

المحلية وانتشارها ، ولولا هذا الكتاب الكريم لما كان نصيب اللغة العربية من التجزؤ والانقسام بأقل منه في اللغة اللاتينية وما آلت إليه اليوم . . . وبفضل هذا الكتاب الخالد بقيت الوحدة اللسانية - والفكرية - قائمة بين شعوب الاقطار العربية ، وبفضله كذلك نقرأ اليوم أدب العربية من عصر الجاهلية إلى العصر الحديث . . . في مدة خمسة عشر قرناً من الزمان![1] .

يقول ساطع الحصري : « ومما يجب ان لا يغرب عن البال أن اللغة العربية ، بعد أن أصبحت لغة الجميع في هذه البلاد الشاسعة ، (المشار اليها في الفقرة السابعة) تعرضت إلى محن خطيرة ، مدة قرون طويلة ، بسبب ما طرأ على العالم العربي من التفكك السياسي ، والجمود الفكري والاجتماعي ، والانحطاط الثقافي ، لأن كل ذلك كان من شأنه أن يؤدي إلى انحلال الروابط المادية والمعنوية بين مختلف الأقطار العربية ، ويفسح مجالاً واسعاً لتغلب العامية ، ويطلق العنان للهجات المحلية . ولذلك أصبحت اللغة العربية معرضة لخطر التفكك التام ، والتفرع إلى لغات عديدة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً ، لا يترك مجالاً لتفاهم المتكلمين بها . . . وذلك مثلما حدث للغة اللاتينية » .

ثم يقول : « ولكن القرآن وقف سداً منيعاً أمام هذه الأخطار الجسيمة ، وحال دون استشراء هذا التفكك وذلك لكونه عربياً ، ولكون الديانة الاسلامية تفرض على جميع المسلمين والمسلمات حفظ طائفة من آياته ، وتلاوتها كل يوم عدة مرات خلال الصلوات » .

---

(١) هذا هو منشأ هذه الظاهرة الفريدة ، بل لو قدر لرجل مات من ألف سنة أن يحيا بيننا اليوم فسمع المتحدثين بالعربية لعرفها وما أنكرها . وربما علل بعضهم ما أشرنا إليه من عدم تعرض العربية لخطر التفكك والانحلال بأن ذلك يعود إلى عناية علماء الاسلام بضبط لغتهم ، وذلك من أجل المحافظة على القرآن الكريم . وهذا عندنا وارد بدون شك ولا يعارض ما قدمناه ، ولكن ذلك الضبط لم يكن في وسعه حماية اللغة العربية من تلك الاخطار لولا وجود القرآن الكريم نفسه ، كما يقرر ذلك جمهور الباحثين والدارسين . ومعنى ذلك أن القرآن الكريم كان « باعثاً » على ذلك الضبط ، و« حافظاً » لهذه اللغة بعد ان تم لها ذلك الضبط .

ونستطيع أن نقول في التعقيب على هذا الموضوع ـ بكلمة عابرة ـ إن الدعوات المشبوهة الى العامية ـ التي أرَّخت لها بدقة الدكتورة نفوسة زكريا في كتابها : تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ـ سيكون نصيبها الفشل المحقق ، لا نقول هذا رجماً بالغيب ، ولكن بالنظر إلى التاريخ الذي تحدثنا عنه قبل قليل ، والذي أثبت استعصاء اللغة العربية الفصيحة على الاضمحلال والتفكك والزوال ، ما دام القرآن موجوداً يعلن خلود لغته خلوده ، قال تعالى :﴿إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون﴾، وصدق الله العظيم .

ملاحظتان هامشيتان :

ونعرض هنا لملاحظتين سريعتين : **الاولى** أن الأستاذ الحصري بعد حديثه عن اللغة بوصفها العامل الاول في تكوين القومية ، بالاضافة الى عامل التاريخ ، كما أشار إلى ذلك وأفاض فيه ؛ وذلك لوجود عرب غير مسلمين ومسلمين غير عرب . وهذا الوجود لا يعنينا أن ننازع فيه الأستاذ الحصري أو غيره ، كما أنه لا يعنينا فك ذلك الارتباط أو توثيقه ؛ لأن بحثنا الذي أشرنا فيه الى دور القرآن الكريم في توسيع رقعة العربية وحفظ هذه اللغة خارج عن هذا النطاق ، لكن الذي يجب ألا يغيب عن الذهن بحال أن اللغة في حقيقة الأمر وعاء للفكر والحضارة والتاريخ والتراث . . وليست مجموعة من الأصوات تلقى في الهواء ولدت بدون ضرورة وتذهب هكذا بدون مدلول . واللغة العربية بهذا الاعتبار وعاء للفكر والحضارة الاسلامية منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم الى آخر كتاب دوّن بها في اللغة والأدب والتاريخ والتفسير والحديث والتراجم والفلسفة والفن . . . الخ . ولهذا فإن ما ندعوه الآن بالثقافة هو ما دوّن بالعربية في ظلال الاسلام . . . والشعوب الاسلامية ـ غير العربية ـ لا تختلف معنا في مضمون هذه الثقافة وإن اختلفت في أداة التعبير عنها ، كما أشرنا إلى ذلك ، ولهذا فإننا نختلف مع الأستاذ الحصري في طريقة الطرح من الأصل! لأن مشكلات هذا الموضوع ، إن وجدت ، لا تعرض ـ فيما نقدر ـ من الوجهة التي أشار اليها .

ولهذا ـ ولعل هذه النقطة أن تومىء إلى بعض زوايا طرح هذه القضية من وجهة نظرنا ـ فإنه لا يجوز إهمال الحلقة الثانية التي تلي الحلقة القومية وهي دائرة الشعوب الإسلامية ، وهذا واضح من التحليل الأخير للغة ومفاهيمها ومضامينها كما قدمنا ، لكننا إذا أضفنا إلى ذلك التاريخ ـ على صعيد الماضي والحاضر ـ فإننا لا ندرك أهمية هذه الدوائر فحسب ، بل ندرك في الواقع مدى المكانة التي نحتلها عند هذه الشعوب والدور الذي ينتظرون منا أن نؤديه في تأكيد الهداية بهذا الدين ، وتعريب القلب واللسان جميعاً! إن المسلم الهندي الذي يذكي فيه التاريخ روح الارتباط بالعرب والإيمان بالكتاب العربي المبين والرسول العربي العظيم ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ فيتعلق شعوره بنا وانتماؤه إلينا فيفرح باندحار أجداده أمام جحافل العرب المسلمين يوم فتحت بلاده ، لأن هذا الاندحار هيأ له فرصة الهداية إلى هذا الدين . . . إن هذا المسلم ارتبط بالتاريخ بعد ارتباطه باللغة كما قدمنا . وما تزال دائرته هي المجال الحيوي المباشر للدائرة العربية ، والتي نطل عليها كباراً أصلاء لا مقلِّدين غرباء! .

اما **الملاحظة الثانية** فتتمثل في نظرتنا إلى دعوة بعضهم إلى الكتابة بالعامية ـ كسعيد عقل ولويس عوض وضربائهما ـ على أنها دعوات مشبوهة كما قدمنا ، هدفها الأخير قطع الأمة العربية الإسلامية عن ماضيها وتراثها وتاريخها ، لتبدأ ـ على زعمهم ـ من الصفر ، وللتمزق من ثم إلى شعوب متباينة وأمم شتى! وكأن أصحاب هذه الدعوى ـ بالنظر إلى ما قدمناه من الدور السابق للقرآن الكريم وفضله على العربية ، بل ما منحه إياها من الشعور بالرفعة والسمو والقداسة ـ إن صح التعبير ـ يقومون بحركة إلتفاف وتطويق حول القرآن الكريم نفسه ، وحول الثقافة العربية والفكر الإسلامي على وجه العموم . علهم ينجحون حيث أخفق الكثير من محترفي الاستشراق والتبشير ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ .

الأثر الموضوعي للقرآن في اللغة العربية :

أما الأثر الخاص أو الموضوعي الذي تركه القرآن الكريم في اللغة العربية فأكبر من أن تتسع له واحدة أو اثنتان من هذه المحاضرات التمهيدية . وبحسبنا أن نشير إلى ما نقله السيوطي في التدليل على أن القرآن الكريم كان السبب المباشر في نشأة معظم علوم العربية والعلوم الإسلامية ، وكيف أن العلماء تفرغوا على خدمته والعناية به في علوم كثيرة أنشؤوها لذلك . . وما زالت هذه العلوم تنمو وتتنسق وتتفرع حتى قامت على سوقها في القرن الرابع الهجري الذي يعتبر أزهى عصور التأليف في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية .

وربما كان موضوع العلوم التي نشأت راجعة إلى القرآن الكريم ، أو نشأت في سبيل خدمته وتيسير فهمه أدخل في الأثر التاريخي السابق ، أو أدخل في باب الثقافة التي سنتحدث عنها في الفقرة التالية . ولكننا على كل حال نذكر هنا بالآثار الموضوعية ـ المباشرة والمحدودة ـ التالية :

١ ـ توحد لهجات العرب : كان للعرب قبل نزول القرآن الكريم لهجات كثيرة متباينة تربو على العشرين[1] ـ منها الرديء المستنكر ؛ ومنها الفصيح

---

(١) أنظر الكتيب الخاص بهذه اللهجات بعنوان « لهجات العرب » للعلامة المحقق أحمد تيمور باشا رحمه الله . المكتبة الثقافية بمصر العدد ٢٩٠ . وقد عدّ من هذه اللهجات : القطعة : كقوله يا بلحكم ، بدل : يا أبا الحكم ـ فيقطع كلامه ـ . وهي لثغة في بني طيِّىء .
والعجعجة : إبدال الياء ـ جيماً ـ جياً في الوقف ، نحو : تميمج ـ في : تميمي . وهي في قضاعة وناس من بني سعد .
والعنعنة : إبدال العين من الهمزة . وتنسب الى تميم ، قال ذو الرمة : أعَن ترسمت من خرقاء منزلة .
أراد : أأن .
والكشكشة : ابدال الشين من كاف الخطاب .
والتلتلة : كسر أول حرف المضارعة .
والطمطمانية : ما يشبه كلام العجم ، والطمطمة : إبدال اللام ميماً . والتضجع : إمالة الحرف الى الكسر .
والفحفحة : جعل الحاء عيناً . . . الخ .

المقبول ، نتيجة لاختلاف الأقاليم وظروف الحياة البدوية والحضرية ونحو ذلك ، ولكنها على ذلك متقاربة في أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها ، ولم تكن المغايرة بينها تخرجها ـ على كل حال ـ عن إعتبارها في الأصل لغة واحدة ذات قوانين تطرد في جميعها ما عدا لغة حمير فإنها تخالف لغة مضر خلافاً ظاهراً ، ولا توافقها في أكثر أوضاعها ومقاييسها .

والى جانب هذا الاختلاف من حيث هيئة النطق وما اليه مما يسمى باللهجة ، فقد كان هنالك اختلاف لغوي آخر من حيث معاني الكلمات ، على نحو ما ذكر السيوطي في كتابه « المزهر » وأكده ببعض القصص ، على بعد بعضها وغرابته .

وعلى أية حال فقد قضى القرآن الكريم حين نزل بلغة قريش على هذا التناكر والاختلاف وجمع العرب على هذه اللهجة ـ أو اللغة ـ على المدى البعيد ، وقد قيل في لغة قريش إنها كانت أفصح اللغات وأعذبها لأنها صقلت بحياة الحضر ، وبكثرة الاختلاط بالقبائل العربية نظراً لمكانة قريش الدينية والتجارية في جزيرة العرب ، وقد كانت هذه اللغة يومئذ أوسع اللغات انتشاراً في الجزيرة ، وكان الناس يقبلون عليها ويستريحون اليها أكثر من غيرها . ويوجز الشيخ العلامة محمد الخضر حسين أسباب تفضيل لغة قريش عن سائر لغات العرب ، واعتبارها أفصح هذه اللغات ، بوجهين :

أحدهما : بعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم . ولهذا لم يحتج أهل الصناعة العربية إلا بلسانهم أو ما كان قريباً منه ، ولم يعتمدوا لغات القبائل التي تجاور غيرها من الأمم كلغة لخم وجذام وقضاعة وغسان ، ولم يخالفهم في شرطهم هذا إلا أبو عبد الله بن مالك فنقل في كتبه لغة لخم وقضاعة وغيرهم ممن يسكن أطراف الحجاز .

ثانيهما : أن العرب كانوا يفدون عليهم في موسم الحج ويقيمون عندهم قريباً من خمسين يوماً فيتخيرون من لغات أولئك الوفود ما تعادلت حروفه

وخف وقعه على الأسماع، ويرفضون كل ما يثقل على الذوق ولا يجد في السمع مساغاً[1].

فإذا ذكرنا الجامعة التي أقامها القرآن للعرب، وتوحيدهم الذي تم على يديه، ذكرنا فضله في الذهاب بالجانب الأعظم من تناكر اللغات واختلاف اللهجات، وهم يقرؤونه بلغة قريش في الاعتبار الأول.

٢ - أما التأثير الذي أحدثه القرآن في ألفاظ العربية معانيها فهو تأثير هائل، أو هو ثورة كبرى في الواقع. وهذا الموضوع جدير بأن يفرد ببحث جاد دقيق، وبحسبنا في هذا التقديم السريع أن نقول إذا كانت اللغة صورة لحياة الأمة وبيئتها ومعارفها، ووعاء لأفكارها وثقافتها، فإن تأثير القرآن الكريم في كل ذلك بالنسبة للعرب كان هائلاً... لقد تأثرت ألفاظ اللغة العربية تأثراً مباشراً من حيث تهذيبها وترقيق حواشيها - والقرآن ينقل العرب من حال إلى حال، من البداوة الى الحضارة، ومن الجزيرة الى الأمصار - ومن حيث هذا الحشد من الألفاظ المشتركة والاصطلاحية والألفاظ الإسلامية الجديدة.

أما الألفاظ الاصطلاحية فيراد بها تلك التي خرجت عن دلالتها الأولى إلى الدلالة على معان جديدة - اصطلاحية - لم تكن معروفة وموجودة عند العرب، فقد اقتضى القرآن - فوق الحياة الجديدة ونظام الدولة وما يتصل بذلك - علوماً شرعية ولغوية وكلامية وطبيعية... وفي كل علم مصطلحاته وتعريفاته... حتى لقد قام بعض المصنفين بوضع معاجم خاصة لتلك المصطلحات العلمية مثل كتاب «التعريفات» للجرجاني و«كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي...

قال ابن فارس: «كان العرب في جاهليتهم على إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال، ونُسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونُقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أُخر، بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شُرطت، فعفّى

(١) دراسات في العربية وتاريخها ص١٢٨ طبع دار الفتح بدمشق.

الاخر الأول ، وشُغل القوم ـ بعد المُغاورات والتجارب وتطلّب الأرباح والكدح للمعاش في رحلة الشتاء والصيف ، وبعد الإغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة ـ بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكم حميد ، وبالتفقة في دين الله عز وجل ، وحفظ سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الاسلام .

« فصار الذي نشأ عليه آباؤهم ونشأوا عليه كأن لم يكن! »

« وحتى تكلموا في دقائق الفقه وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دُوِّن وحُفظ حتى الآن » .

وبعد أن ذكر ابن فارس طائفة من العلوم الشرعية ومصطلحاتها التي جدت على لغة العرب ، قال : « فسبحان من نقل أولئك في الزمن القريب بتوفيقه عما ألفوه ونشأوا عليه وغذوا به ، إلى مثل هذا الذي ذكرناه » .

ثم عرض لبعض التعريفات أو الألفاظ الاسلامية التي جاءت على وفق المعاني اللغوية ، وما أضافته إليها وقيدته ، وقال : « فالوجه في هذا إذا سئل الانسان عنه أن يقول : في الصلاة اسمان لغوي وشرعي ، ويذكر ما كانت العرب تعرفه ، ثم ما جاء الاسلام به . وهو قياس ما تركنا ذكره من سائر العلوم . . . »[1] .

إن الأمر في الواقع أبعد من مسألة المصطلحات والتعريفات فقط ، بل هو ينطلق من أن القرآن الكريم كان المحور الذي نشأت حوله جميع معارف العرب التي جدّت في حياتهم بعد الاسلام ، حتى صح لنا ما أشرنا إليه في فقرة سابقة من أن القرآن الكريم يشكل المصدر الأول للثقافة العربية الإسلامية ، هذه الثقافة الغنية الواسعة التي اشتملت على علوم القرآن والحديث ، والأدب واللغة والسيرة والفلسفة والفقه والأصول . . . والتي اتسعت لها لغة العرب بعد نزول القرآن .

---

(١) الصاحبي ٤٤ ـ ٤٧ المكتبة السلفية ١٩١٠ .

ولعل هذا يختصر علينا طريق المتابعة في الأغراض والمعاني التي تركها القرآن في اللغة العربية ، لأن الألفاظ في الواقع ليست أكثر من وعاء للمعاني والأغراض الجديدة ، ولكن كما أثر القرآن في معاني اللغة من حيث ما جاء به من اشتراع جديد كان له أثر في خلق معان جديدة . « فقد تناول أيضاً معانيهم التي كانوا يتعاورونها بينهم فتصرف فيها وهذّبها ، وزاد بها أو نقص منها ووضعها مواضع تناسبها ، بحيث أصبحت تلائم كل الأذواق في كل العصور ، بعد أن كان فيها ما لا يسمح لها بالبقاء إلا في عصر جاهلي له ذوق خاص » .

هذا وقد تأثرت معاني اللغة العربية أيضاً من خروجها الجديد الى الممالك المتحضرة تنتزع منها معاني وأخيلة هي وليدة الحضارة وربيبة المدنية ، بل هي تراث أمم مختلفة ونتاج لغات متعددة .

وقد لخص الشيخ محمد الخضر حسين تأثير الإسلام في اللغة العربية ـ من هذه الجهة ـ بقوله :

« طلع الإسلام على العرب وفي هدايته من المعاني ما لم يكونوا يعلمون ، بل في هدايته ما لم تف يومئذ بالدلالة عليه ، فعبر عن هذه المعاني بألفاظ ازدادت بها اللغة نماء » .

« ومن الجلّي أن القرآن الكريم والحديث النبوي قد سلكا في البلاغة مذاهب ينقطع دونها كل بليغ . ثم إن فتح الممالك الكبيرة كبلاد الفرس والروم زاد مجال اللغة بسطة بما نقل اليها من المعاني العلمية أو المدنية » .

ثم قال : « ففضل الإسلام على اللغة العربية يظهر في غزارة مادتها ، وبراعة أساليبها ، واتساع مذاهب بيانها ، وكثرة الأغراض التي يتسابق إليها فرسان الخطابة والكتابة » .

الفصل الثاني

أثر القرآن الكريم في الحضارة والثقافة الإسلاميّة

وإتماماً للموضوع السابق حول القرآن الكريم واللغة العربية ، نعرض هنا لطرف من التصور الثقافي والبيئة الحضارية أو الواقع الحضاري الذي أحدثه القرآن الكريم واتسعت له لغة العرب على نحو مثير للدهشة والإعجاب ، لأننا نخشى أن يفهم من حديثنا السابق ان اللغة العربية تغيرت مع الثقافة الاسلامية أو الثقافة التي جاء بها القرآن الكريم بإضافة ـ أو حذف ـ كلما تناسب الكلمات التي أدخلت أو أهملت . . . وأن الأمر وقف عند هذا الحد!! ولو كان الأمر كذلك لما كانت اللغة أكثر من « قاموس » بأسماء الأشياء!! ولكن الواقع غير ذلك : « فاللغة هي عبارة عن نظام من الرموز ذات المعنى تعبر عن التنظيم الكامل لحياة وتفكير حضارة من الحضارات » وإذا كانت « الثقافة » تتضمن أكثر من اللغة ، كالتقاليد والمؤسسات والقوانين والآداب والفنون ، والمهن والمهارات وكل ما صنعه الإنسان ، فإن اللغة تحتل من بين جميع هذه المظاهر مكاناً فريداً بوصفها « مرآة الثقافة كلها » لأن كل ما يصنعه الإنسان يحمل اسماً ، فقوانينه ومؤسساته ودياناته لها تعبيراتها اللفظية ، والأشياء التي تكون في الطبيعة تظهر أيضاً في اللغة ، ولكن من وجهة نظر ثقافة معينة على الدوام . ولهذا فإن اللغات لا تختلف فقط في الكلمات التي تعبر عن معان مشتركة ، ولكنها تختلف أساساً في الطرق المختلفة للتفكير ، أو في مجموعة المعاني التي يعبر عنها خلال اللغة ، فلكل ثقافة مفاهيمها الخاصة بالحياة والعالم ، وتنعكس هذه

المفاهيم على طبيعة لغتها.

يقول الأستاذ العلاَّمة فيليب هـ. فينكس: «ومن خلال اللغة يسهم الفرد في المعاني الحيوية للثقافة. والسبب الأساسي لتعلم اللغات الأجنبية أن يستطيع الفرد فهم الثقافات التي تمثلها هذه اللغات فهماً حقيقياً ومن الداخل. فدراسة اللغة اللاتينية لا تستهدف تدريب العقل ولا مساعدة الفرد على فهم أفضل للغة الإنكليزية فحسب... ولكن الهدف الأساسي من هذه الدراسة أن تقدم للفرد معنى الحضارة الرومانية، ذلك الكل المعقد الغريب من التقاليد والقانون والمفاهيم التي أتاحت لقرون عديدة بعض الأساس للأمن والوحدة لشعوب عديدة يائسة. ودراسة اللغة اليونانية القديمة تربط الفرد ربطاً وثيقاً بحضارة تقوم على تأمل فلسفي عميق، وتتميز بالمسرحية والتاريخ، وبديمقراطية سياسية ذاتية، وبخلق فني جبار... الخ».

والذي نود تقريره هنا: هو القول بأن دراسة اللغة العربية تقدم للفرد معنى الحضارة الاسلامية، وتربطنا ربطاً وثيقاً بهذه الحضارة التي تقوم على مبدأ الإيمان العميق بالإله الواحد، وتنبني على قواعد من التوازن والشمول والإيجابية، وتدور على مبررات إنسانية قوامها روح المساواة بين الأفراد وبين الأمم والشعوب.

فإذا علمنا أن هذه المبررات وتلك القواعد إنما جاء بها القرآن الكريم، وأضفنا إلى ذلك ما قدمناه في الأثر الموضوعي السابق، أدركنا معنى صدور الحضارة العربية والفكر الإسلامي عن القرآن، واستطعنا من خلال ذلك التقدم لإيراد بعض الأمور الشارحة والموضحة لهذه الحقيقة الكبيرة:

لقد مرت البشرية ـ كما يؤكد المفكر الجزائري الكبير الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله ـ بأكبر تجربتين حضاريتين في التاريخ: التجربة الرومانية، والتجربة الإسلامية. وقد كانت الحضارة الأولى متجلية بالروح الامبراطورية التي تقسم الإنسان إلى مواطن يتمتع بكامل الحقوق، وإلى غير مواطن مسلوب من كل الحقوق، وعلى هذا الأساس حكمت وقننت وعالجت ومنحت، وهي وإن

أخفقت في معالجة مشكلات الإنسان قديماً ، فقد أتيح لها أن تبدو في صورة جديدة تتمثل في الحضارة الغربية المعاصرة ـ التي تخطت الحضارة الإسلامية التي سبقتها وكانت حلقة ضرورية في سلسلة الحضارات الانسانية ـ التي أخذت من تلك الحضارة الرومانية روحها الاستعمارية ، وتشربت مبادئها ، وكثيراً من نظراتها الجوهرية .

وتهمنا هنا الإشارة إلى أن الروح الاستعمارية في هذه الحضارة الأوروبية مساوية للروح الامبراطورية التي عاشت عليها الحضارة الرومانية القديمة . في حين أن روح الحضارة الاسلامية ، أو المبرر الذي عاشت عليه هذه الحضارة يتمثل في روح المساواة التي جاء بها القرآن الكريم ونطق بها النبي صلى الله عليه وسلم وأكدها في آخر خطبه الجامعة في حجة الوداع « . . . كلكم لآدم وآدم من تراب . . . لافضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أبيض فضل إلا بالتقوى » .

يضاف إلى ذلك أن النظرة إلى الوجود المتمثلة في مبدأ الإيمان بالله الواحد القهار ـ وما يتبع ذلك وينبني عليه من النظر إلى الكون والحياة والإنسان ـ هي التي أعطت للحضارة الإسلامية طابعها الخاص ، وجعلتها ـ من قبل ـ قادرة على أن تهضم وتتمثل ـ ولا تذوب بالطبع ـ في تيار العقائد والمذاهب التي كانت سائدة في « بيئة » الحضارة الإسلامية . وهي البيئة التي شهدت في الواقع أعرق الحضارات القديمة في بلاد الشام والرافدين ووادي النيل وبلاد فارس . . . الخ .

ولا مجال هنا للإفاضة في هذه الجوانب المتشعبة من البحث ، ولكن نكتفي بالتذكير بأن القرآن الكريم الذي انبثقت منه روح هذه الحضارة يشكل في نفس الوقت ـ وبدرجة واحدة ـ **مصدر الثقافة الإسلامية الأول وملاذها الأخير** . ولا نقوم هنا بتحليل عناصر « الثقافة » ولكننا نذكر أن تصنيف هذه العناصر وتقديم بعضها على بعض[1] ـ وهو الذي يميز ثقافة عن ثقافة أخرى ـ

---

(١) أنظر كتاب « مشكلة الثقافة » للأستاذ مالك بن نبي رحمه الله.

يعود إلى القيم الدينية التي جاء بها القرآن الكريم، مع تسليمنا بما ذهب اليه الفيلسوف الناقد « ت . س . إليوت » من القول بالأصل الديني لكل الحضارات والثقافات، والذي بنى عليه قوله بوحدة الثقافة الأوروبية المعاصرة ـ وهو ما كنا لاحظناه وأشرنا إليه قبل أن نقرأه عند إليوت ـ وقوله بتلاشي هذه الثقافة حين تفقد أصلها الديني[1] .

---

(١) راجع كتاب « ملاحظات نحو تعريف الثقافة » لإليوت. ترجمة الاستاذ الدكتور شكري عياد وقارنه بما كتبه الأستاذ مالك بن نبي في كتابه « شروط النهضة » وتحليله لعناصر الحضارة (إنسان + تراب + وقت) ودور العقيدة الدينية (كعامل مركب) لهذه الحضارة.

الفصل الثالث

القرآن والمنهج العلمي

يعتبر الحديث في هذا الموضوع تتمة للحديث في الموضوع السابق، بل هو وجهه الآخر إذا نحن قابلنا بين الثقافة والعلم، وعنينا بالثقافة كل ما له صلة بالنشاط الفكري والأدبي وما يتبعه من العادات والأخلاق والفنون... لأمة من الأمم. وخصصنا بمصطلح العلم: العلم التجريبي الذي يمكن عده مشاعاً بين الأمم على اختلاف « ثقافاتها » وحضارتها؛ نظراً لأن « حقائقه » لا تختلف بين أمة وأخرى، لأنها قائمة على « التجربة »... فضلاً عن استحالة اعتبار هذه الحقائق خاصة بأمة دون أمة أو شعب دون شعب، وذلك لأن موضوعه « الطبيعة الخارجية » وهي واحدة لا تختلف في حين أن الانسان أو « الطبيعة الذاتية » تخضع لجملة من الآراء والعقائد والأخلاق والمقاييس التي قد لا تحصى كثرة كما هو معلوم مشاهد.

وإذ كنا في الفقرة السابقة عرضنا لمكانة القرآن الكريم في الثقافة العربية الإسلامية؛ فإن السؤال الذي يطرح نفسه بعد ذلك هو السؤال عن دور القرآن الكريم في تطور العلم التجريبي في العالم الإسلامي، ومدى إسهامه في تاريخ هذا التطور. وربما عرض هذا الموضوع أو السؤال مرة أخرى عند الكلام على التفسير العلمي للقرآن الكريم، حيث نجد لدى البعض حماسة تدفعه إلى الاعتقاد بأن كل ما وصل اليه القوم في الحضارة الأوروبية من منجزات علمية

متقدمة... موجود في القرآن الكريم أو أنه أشار إليه على أقل تقدير... فيحمله ذلك على سوء التفسير والتأويل... ظناً منه أن القرآن الكريم إذا خلا من مثل هذه الإشارات لا يكون كتاباً علمياً أو لا يكون كتاباً عصرياً يصلح لهذا القرن أو القرون التالية كما صلح في القرون السالفة... علماً بأن صلاحه هذا مرهون بمدى تعامله الشامل والمتوازن مع فطرة الإنسان السليمة سواء صنع هذا الإنسان آلات أم لم يصنع!!.. هذا التعامل الذي لم يدان القرآن الكريم فيه أي عقيدة أو فلسفة أخرى؛ قال تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾!!

نعود من هذا إلى الحديث عن التفسير العلمي للقرآن أو عن دور القرآن في تطور العلوم لنذكر أن هذا الموضوع يمكن أن ينظر إليه من زاويتين أو جانبين: جانب المنهج الذي جاء به القرآن الكريم، وجانب تاريخ تطور العلوم التجريبية. والقرآن الكريم كتاب علمي بالاعتبار الأول أو نظراً إلى الجانب الأول، وهو جانب المنهج الذي جاء به القرآن الكريم والذي أتاح للإنسان أن يطور علومه ومعارفه فلا يصده عن ذلك صاد أو معارض، ولا يلقى أي معارضة جدلية أو كلامية ـ أي دينية ـ على نحو ما حصل في أوروبا في العصر الوسيط. ونعني بالمنتج هنا: المناخ العقلي والشروط النفسية والاجتماعية التي أوجدها القرآن الكريم في المجتمع الاسلامي، والتي سمحت لهذا المجتمع بل حثته وطلبت إليه أن يلاحظ ويفكر ويعتبر، ويخلع عن عاتقه ثوب التقليد والمحاكاة والاتباع للآباء والأجداد... وكل ما من شأنه أن يعوق حركته في النظر والتفكير من موروثات البيئة أو ضغط المجتمع: «قل إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا...» ﴿قل أنظروا ماذا في السموات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ ولهذا لم يكن بعيداً عن التصور أو الفهم أن يبدأ نزول القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿اقرأ...﴾، وهي الكلمة التي تمثل «انفتاحه» على عالم الأفكار لا على عالم الأشياء لأن الأفكار هي الأصل، ولأنها هي المؤثرة في الأشياء.

أما جانب تاريخ تطور العلم، وما قدمه فيه القرآن الكريم. وأضافه من حقائق أو «نظريات»، فليس هو بالجانب الأهم أو الجانب الذي يجب أن ينظر منه إلى هذا الموضوع. ومع ذلك فإلى جانب المنهج الذي أشرنا إليه - وهو الأصل - فقد جاء في القرآن الكريم إشارات كثيرة ومتنوعة شملت أغلب فروع المعرفة العلمية وتختلف هذه الإشارات في الدلالة والوضوح قرباً أو بعداً بما يتناسب طرداً - فيما يبدو - مع حركة العقل الإنساني وسرعة تمكنه من فهم واكتشاف القوانين التي تحكم تلك الظواهر.

ويتلخص عندنا الكلام في هذا الموضوع بالنقاط التالية:

١ - القرآن الكريم هو في الاعتبار الأول كتاب هداية وتشريع ودستور جامع للحياة الإنسانية لا يطلب العاقل منه إلا أمراً واحداً هو ألا يصده عن النظر في الكون واكتشاف قوانين الطبيعة.

٢ - بل إن القرآن الكريم رسم للإنسان هذا المنهج وحثه عليه وطلب منه تطبيقه وتنفيذه، ولهذا لم يكن بدعاً أن يؤتي هذا المنهج ثمراته في العالم الاسلامي، على النحو المعروف في التاريخ. ونذكّر هنا - بإشارة عابرة - بآثار هذا المنهج بعد قرنين من نزول القرآن (الجبر واكتشاف النظام العشري وقياس محيط الكرة الأرضية...) وآثار منهج ديكارت (مقالة في المنهج) التي آتت أكلها بعد قرنين، كذلك حين ولد الحصان البخاري في قدر «بابان» و«واط»![1]

ولا نتحدث هنا عن انتقال هذا المنهج أصلاً من العالم الاسلامي إلى أوروبا[2]. كما لا نتحدث عن الأسباب التي عاقت العالم الإسلامي عن متابعة

---

(١) راجع الرسالة القيمة للأستاذ المفكر مالك بن نبي: «انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث».

(٢) انظر كتاب الأستاذ الدكتور علي سامي النشار: «مناهج البحث عند مفكري الاسلام، =

علومه ومعارفه[1] والتي لا تنبع من الدين أو من القرآن كما يتصور البعض في مقايسة سطحية ساذجة بين أوروبا والعالم الإسلامي . والكلام حول هذه النقاط خارج عن حدود حاجتنا في هذا الوطن ، لكنّ من المضحكات والمنغِّصات في آنٍ واحد أن المناخ الذي أوجده القرآن الكريم ، والمنهج الذي دعا إليه يوضع في حساب القوم الذين أفادوه منه ، ويقال بعد ذلك في القرآن إنه يعارض العلم أو يتعارض معه!!

٣ ـ أما الإشارات التي وردت في القرآن الكريم حول بعض القضايا الكونية والنظريات الطبيعية[2]، فقد جاءت كإطار أو حوافز للعقل الانساني ، وعلى نحو يتم إدراكه تماماً خلال العصور اللاحقة ، كما رأينا الآن في بعض القوانين والمظاهر . ولو جاءت في عصر نزول القرآن ـ وقرئت بعد ذلك في قرون لاحقة بالطبع ـ على النحو الذي تُعرض فيه الآن في كتب الفلك أو الفيزياء . . . إذن لكذّب الله ورسوله!! أو لكان القرآن الكريم سبيلاً لصد الناس عن الدين في بعض العصور . . . والقرآن الكريم أراد الله له أن يكون كتاب الإنسان في جميع العصور . . . لا يعجز عن خطاب الانسان في أي عصر

= واكتشاف المنهج العلمي في العالم الاسلامي » وبخاصة الصفحات ٣٥٩ ـ ٣٨٥ دار المعارف ١٩٦٥ .

(١) نقول هنا إن أوروبا بدأت متأخرة ، لكن خطواتها كانت ثابتة ومطمئنة ، وساعدها في ذلك طبيعة النظام الاقتصادي الفيودالي ، واكتشاف مناجم الذهب الهائلة في أوستراليا وافريقيا والعالم الجديد ، إلى جانب عدم تعرض عملها للغزو والتخريب كما حصل للعالم الإسلامي على يد الصليبيين وفي حروب التتار والمغول المدمرة التي كانوا يقيسون فيها الانتصار بمقدار ما يقتلون ويسفكون ويخربون من دور العلم ومراكز الحرف والصناعات . . . ولهذا فقد شغل العالم الاسلامي بالدفاع عن نفسه بدل تطوير علومه ومعارفه . ولعل بقية العجب في هذه النقطة يكمن في حماية العالم الإسلامي نفسه لأوروبا من أن تصل اليها مثل هذه الحملات المدمرة إلا أشلاء مبعثرة بعد ان تلقى هو عنف الصدمة . أنظر تفصيلات قيمة حول هذا الموضوع في محاضرة للأستاذ العلامة علال الفاسي ألقاها في الملتقى الفكري الاسلامي في الجزائر بعنوان : « الإسلام والتنمية في الاقتصاد العصري » ونشرتها جريدة العلم المغربية قبل أن تنشر في أعمال الملتقى المذكور .

(٢) راجع كتاب الإسلام في عصر العلم للأستاذ محمد أحمد الغمراوي .

ولا يحمّله كذلك أكثر مما يطيق.

٤ - وعندي أن بعض المفسرين القدامى أدركهم جهل عصرهم بالمدلول العلمي لمثل تلك الإشارات - وبخاصة في عصور التقليد والانحطاط - فأخطأوا في تفسيرها، أو فزعوا إلى الروايات الاسرائيلية التي كانت تدور في الأصل حول موضوعات رئيسية ثلاث منها الطبيعة وتفسير الكون... فدوّنوها في كتب التفسير على أنها شرح وبيان لبعض الآيات القرآنية الكريمة، افأساؤوا بذلك - عن غير قصد بطبيعة الحال - إلى الدين، وإلى الأجيال اللاحقة التي جاءت من بعدهم! ولينظر من شاء منكم في تفسير قول الله تعالى: ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ وقوله: ﴿ ... ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّد في السماء! ﴾ وقوله: ﴿ يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل ﴾ وقوله تعالى: ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها... ﴾ الخ هذه الآيات الكثيرة المبثوثة في القرآن الكريم حول كون الله الواسع[1].

٥ - ولهذا فاننا ننظر إلى محاولات بعضهم تحميل نصوص القرآن ما لا تحمل والزعم بأن كل اكتشاف أو قانون له شاهد أو أصل في كتاب الله الكريم... ننظر إلى هذه المحاولات على أنها تبرير لواقع الكسل والجمود، وعجز عن الامتثال لأوامر القرآن الكريم نفسه بالنظر والعمل والعلم... وجهل بدور القرآن بوصفه كتاب هداية وإرشاد وتشريع في المقام الأول.

ولكنا نضيف هنا لنطمئن هؤلاء المتعجلين وأولئك المستخفين: إن القرآن الكريم الذي لم يأت في دنيا العلوم بكل شيء، وليس من طبيعته ورسالته أن يأتي بها كما قلنا، لا يوجد فيه الآن، ولن يوجد فيه غداً أو بعد غد، ما يعارض حقيقة علمية ثابتة، ارتقت من درجة الفروض إلى مقام الحقائق التي لا يتطرق إليها الشك[2].

---

(١) قارن تفسير هذه الآيات وآيات أخرى كثيرة بما ورد في الكتاب السابق.

(٢) راجع كتاب «الإسلام يتحدى» المفكر الهندي وحيد الدين خان.

٦ - والسؤال الذي يطرح نفسه أخيراً هو: هل انقطع سبيلنا إلى المنهج الذي جاء به القرآن، وإلى المناخ العقلي والشروط النفسية والاجتماعية التي أوجدها، والتي أشرنا إليها فيما تقدم؟ أو هل نحن بحاجة إليه بعد هذا التقدم الهائل في العلوم والصناعات في الحضارة الأوروبية المتمكننة؟

إن سبيلنا الى هذا المنهج - أولاً - لم ينقطع، وهذا المنهج قائم في حروفه وكلماته على شكل نصوص وكلام مكتوب، ولكن آباءنا «عاشوه» واقعاً يوم لم يعرفوا الفرق بين ما يسمى «النظرية» و«التطبيق»... عاشوا مناخه ومارسوه قولاً وعملاً كما يقال. ونحن اليوم بحاجة إلى أن نعيشه في المجتمع ونمارسه كما مارسوه، وأن نوجد نفس المناخ الذي دعا إليه القرآن حتى لا توظف عقولنا وخبراتنا على شكل «أدوات» في جسم الآلة الأوروبية أو الغربية. نحن بحاجة ماسة إلى أن نوظف هذه الخبرات في «جهازنا» الخاص، وإذا كان هذا لا يتعارض مطلقاً مع الإفادة من آخر منجزات الحضارة الغربية، فإن هذه الإفادة يجب أن تأتي على شكل بناء لا على شكل تكديس، لأن البناء والتقدم ليسا عملية آلية محضة، أو بضاعة تشترى، أو أشياء تنقل أو صوراً تحاكى... ولكن البناء والمدنية معان نفسية روحية تنبثق من الذات ومن الفطرة والروح. فإذا عبرنا عن هذه المعاني بكلمة «الأصالة» فإن في وسعنا أن نضيف اليها «المعاصرة» حتى لا نبدأ في علومنا من الصفر، أو نعود لتطوير آخر جهاز توصل إليه الأجداد الأوائل؛ ظناً منا أن هذا هو طريق المحافظة على الأصالة، أو البناء المتفرد الخاص!!

وبعبارة أخرى: إن مبرراتنا وحوافزنا لتقدم علمي جديد يجب أن تنبع من مجتمعنا ومن قيمه الحضارية والثقافية. ويمكن هنا - زيادة في الإيضاح - أن نذكّر بحديثنا السابق عن الثقافة لنقول إن الحوافز الروحية والعملية في البناء يجب أن تنبع من هذه الثقافة أو من تلك الطبيعة الذاتية التي لحقها الخلل، وأصابتها المفاهيم الأوروبية الخاصة بالقوم، بالانبهار والعطالة، وذلك حتى لا نقع ونحن في طريقنا إلى مزج «المعاصرة» بالأصالة، في خطأ الاقتباس

الفكري والتقليد الحضاري أو الثقافي ظناً منا أننا ندفع في بلادنا عجلة التقدم العلمي المادي. وأسوأ ما في هذه الصورة أن يكون تقليدنا لأوروبا في هذا الجانب ـ الثقافي والحضاري ـ كما قلنا، وأن يكون كذلك في هذه المرحلة التطورية من حياتها ـ مرحلة الغريزة ـ على الرغم من هذه الصحوة العلمية الجبارة التي انفصلت عن الضمير[1].

ومن هنا تظهر أهمية ما قصدنا إليه حين أشرنا ـ ولو بشكل موجز ـ إلى دور القرآن الكريم في الثقافة العربية الإسلامية وفي منهج العلوم التجريبية والمناخ العقلي لتطور هذه العلوم، حين جمع الأمرين كليهما على صعيد واحد.

---

(١) أنظر كتاب «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا» للأستاذ أنور الجندي. ص٦٦.

الفصل الرابع

القرآن والزمن

وأخيراً فإننا نختم هذا الباب التمهيدي بالإشارة إلى لون آخر من ألوان المصابرة والصمود التي كانت تجدها الأمة على الدوام في رحاب هذا الكتاب الكريم،اعتصمت به في الشدائد ، فلم يكن لها أو للغتها القوة الواقية فحسب ، بل كان لها ، من خلال صوره وظلاله ، حافزها على العمل ، وداعيها إلى الكفاح والصمود . وربما كان إلمامنا القادم بحركة التفسير وتطوره بوجه عام يفيدنا في معرفة الوجه الذي فهم عليه القرآن الكريم خلال العصور . . . وكيف أنه كان على الدوام يلبي حاجات الأمة وتطلعاتها وأشواقها ومعارفها . . . ويذكي آمالها ، ويمسح عنها جراحها . كانت تجد فيه الكفاية وهي في صحبته . فإذا تخلفت عنه نهض بها ،وأقالها من عثرتها . . . ولكنها في الزمان الذي فات ، والزمان الآتي الذي لا يُعلم مداه لا تسبقه هي ولا غيرها من الأمم والشعوب ، ولا تستغني هي عنه إن استغنت عنه أمم أخرى تدين بثقافة غير ثقافته وحضارة غير حضارته!

ونكتفي هنا بذكر بعض المعاني التي كتبها الأستاذ المفكّر عباس محمود العقاد تحت نفس العنوان الذي اخترناه لهذه الفقرة ، نثبته هنا قبل أن نجد مصداقه في دراستنا القادمة لبعض النصوص القرآنية . قال العقاد :

« بقي القرآن الكريم في العالم الإسلامي نحو ألف وأربعمائة سنة قوة عاملة يعتصم بها في إقباله وإدباره ، وفي عزته وانكساره ، بل كان هو القوة العاملة

التي نفعته حين فارقته جميع القوى التي تنتفع بها الأمم ، فكان له قوة تعينه على التقدم والنماء ، كما كان له قوة تعينه على الثبات والمقاومة . وابتُلي المسلمون في أيام ضعفهم بسطوة الطامعين فيهم ، وعداوة القادرين عليهم ، فلا تعرف دولة من الدول الطاغية المتغلبة لم تفتح بلداً من بلدان المسلمين ، أو لم تدخله بالحيلة والمكيدة ، ولا تعرف لهذه البلاد المغلوبة قوة تعوذ بها ، وتأبى عليها أن تسلم بالهزيمة ، وتنهض في جوف الدول المحيطة بها ، غير إيمانها بهذا الكتاب : إن الإيمان بالقرآن وقبول الخضوع لغير رب العالمين نقيضان لا يجتمعان في قلب إنسان » .

« ونحن اليوم ننظر إلى الدول الغالبة ، فلا نرى لأبنائها حيرة أشد من حيرتهم في البحث عن الإيمان الموجّه ، والعقيدة الراجية : كلهم يريدون أن يستقروا على أمل في الحياة ، وعلى فكرة واثقة بالعمل الصالح ، والرجاء الموفق والسّعي المطمئن إلى هداه ، وإلى المصير وإن كان لا يراه » .

« وعندنا نحن هذا الإيمان الموجه ، وهذه العقيدة الراجية ، عندنا الإيمان متأصلاً والعقيدة ناجية من تجارب الزمن ، مختبرة بالمحن والشدائد ، صالحة لكل أمس كان في يوم من الأيام غداً مجهولاً قبل أن يماط عنه حجاب الغيب ، صالحة لكل غد نستقبله ونجهله اليوم ، ولكننا لا نجهل أن الإيمان فيه قوة ، وأن ديننا يمنحنا تلك القوة ، وأننا على سنة القصد ـ على الأقل ـ حين نفيد مما في أيدينا ولا ننبذه جزافاً لنبحث عن سواه ، وقد جرب غيرنا سواه حيث اضطرته فاقة العقيدة إلى التجربة المجهولة ، فإذا هو في طريق العقيدة على غير اعتقاد ، وإذا هو يشد الرحال ليبحث عن الزاد ، ولا رحلة بغير زاد » .

« لقد كان هذا الدين حافظاً لنا في أمسنا ، فما لنا لا نحفظه في يومنا وغدنا ولا شطط ولا مشقة؟ وماذا ينكر اليوم أو الغد منه ، وهو يسير معه حيث سار ، ويمده من قوة ويسدده من عثار »؟

« إن دين رب العالمين ،

إنه دين إنسان العالمين! دين الإنسان الذي يستقبل ربه حيث يكون ،

وحينما يكون ، فأين ولّى فَثَمَّ وجه الله ، ومتى ولّى فثمَّ وجه الله ، وثم رب العالمين ، رب كل أرض وكل سماء وكل منزل وكل حين .

وقد آمن دين القرآن بالإنسان الحي في كل زمن ، وأعطاه حقه مقترناً بحق الحياة ، غير موقوف على دساتير السلطان والمال ، ولا على أصوات الانتخاب وندوات النواب : إنسان مسئول يملك حقه وواجبه بشفاعة واحدة ، هي شفاعة الحياة ، لم يسبق دينه فيودعه ويعرض عنه ، بل سبقه دينه عهوداً طوالاً ، ويسبقه بعد اليوم أطول مما سبقه من عهود ،

ولا ضير على الدين أن يثبت ويستقر
بل على الدين أن يثبت ويستقر

وإنما الضير أن يفهمه زمن ولا يفهمه زمن ، وأن يكون فيه حائل بينه وبين ضمير الانسان في زمن من الأزمان ، وتنزه دين القرآن عن هذا الجمود ، فإنه لعلى الغاية مما يطلب لدين ينتظم الملايين من العارفين والجاهلين مئات السنين ، ويخلص بينهم إلى ضمير المؤمن بالله في كل عصر ، وليس عليه من حسيب غير هداية الضمير » .

الباب الثاني
قطعيّة النصّ القرآني وتاريخ توثيقه

الفصل الأول

الفصــل الأول
تعريف القرآن والفرق بينه وبين الحديث

١ - يرى الإمام الشافعي أن « القرآن » لغة: اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله تعالى. ويرى الفراء والزجاج واللحياني وجماعة أنه مشتق ،غير أنهم اختلفوا في مادة اشتقاقه:

فبعضهم يرى أنه مشتق من « قرنت الشيء بالشيء » إذا ضممت بعضه إلى بعض، وسمي به لقران السور والآيات فيه. وقيل: مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضاً، ويشابه بعضها بعضاً وهي قرائن »، قاله الفراء.

وقيل: لفظ « القرآن » وصف على فُعلان مشتق من القَرْء بمعنى الجمع، سمي به كلام الله تعالى، قاله الزجاج. ومنه: قرأت الماء في الحوض أي جمعته، قال ابن الأثير: تكرر في الحديث ذكر القراءة والقارىء والقرآن، والأصل في هذه اللفظة الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته. وسمي القرآن قرآناً لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد، والآيات والسور، بعضها إلى بعض.

وقال اللحياني وجماعة: هو مصدر كالغُفران، سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر. قال الله تعالى في شأن القرآن الكريم: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي: قراءته، فجاءت الكلمة - القرآن - مصدراً

مرادفاً للقراءة .

ثم صار « القرآن » عَلَماً شخصياً على الكتاب الموحى به من الله ، والمنزّل على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . وهذا هو الإستعمال الأغلب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ .

تعريف القرآن اصطلاحاً :

٢ ـ أما ما ذكره العلماء من تعريف « القرآن » ـ اصطلاحاً ـ بالأجناس والفصول ، لتمييزه عما عداه مما قد يشاركه في الأسم ـ ولو توهماً ـ ذلك أن سائر كتب الله تعالى ، والأحاديث القدسية ، وبعض الأحاديث النبوية ، تشارك القرآن في كونها وحياً إلهياً ، فربما ظن أنها تشاركه في اسم القرآن أيضاً ، فأرادوا بيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التي امتاز بها عن تلك الأنواع ، فقال أكثرهم في تعريفه :

« هو الكلام المعجز ، المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، المكتوب في المصاحف ، المنقول عنه بالتواتر ، المتعبد بتلاوته » .

وأوجزه بعضهم بقوله : « القرآن هو كلام الله تعالى ، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، المتعبد بتلاوته » .

وقد قيل في تحليل هذا التعريف الأخير : إن « الكلام » جنس شامل لكل كلام ، وإضافته إلى « الله تعالى » تميزه من كلام مَن سواه ، سواء أكان من الإنس أو غيرهم .

المنزل : مخرج للكلام الالهي الذي استأثر الله به في نفسه ، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر ، إذ ليس كل كلامه تعالى منزلاً ، بل الذي أنزل منه قليل من كثير ، قال الله تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلماتُ ربي ولو جئنا بمثله مَدداً ﴾ وقال تعالى :

﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحرُ يمدُّه من بعده سبعة أبحُر ما

نفدت كلمات الله ﴾.

وتقييد المنزل بكونه على (محمد ﷺ) لإخراج ما أنزل على الأنبياء من قبله، كالتوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والزبور المنزل على داود، والصحف المنزلة على إبراهيم، عليهم السلام.

أما قيد (المتعبّد بتلاوته) - أي المأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة - فلا خراج ما لم نؤمر بتلاوته من ذلك، كالقراءات المنقولة إلينا بطريق الآحاد، وكالأحاديث القدسية، وهي المسندة إلى الله عز وجل[1]، إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها.

أما الأحاديث النبوية فإنها بحسب ما حوته من المعاني تقسم الى قسمين:

قسم توفيقي، استنبطه النبي بفهمه في كلام الله تعالى أو بتأمله في حقائق الكون. وهذا القسم ليس كلام الله قطعاً.

وقسم توقيفي تلقى الرسول مضمونه من الوحي فبينه للناس بكلامه، وهذا القسم وإن كان ما فيه من العلوم منسوباً إلى معلمه وملهمه سبحانه، لكنه - من حيث هو كلام - حريٌّ بأن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الكلام إنما ينسب إلى واضعه وقائله الذي ألّفه على نحو خاص، ولو كان ما فيه من المعنى قد تواردت عليه الخواطر وتلقاه الآخر عن الأول.

فالحديث النبوي إذاً خارج بقسميه من القيد الأول «وهو كون الكلام كلام الله» في هذا التعريف.

وكذلك الحديث القدسي إن قلنا إنه منزل بمعناه فقط. وهذا هو اظهر القولين فيه[2]. لأنه لو كان منزلاً بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر

---

(١) الحديث القدسي هو الذي يرويه النبي ﷺ على انه من كلام الله. « .. قال رسول الله: قال الله تعالى أو قال رسول الله فيما يرويه عن ربه »، وقد نقلت إلينا الأحاديث القدسية على النحو الذي تم فيه نقل الأحاديث النبوية.

(٢) أنظر في تحديد معنى القرآن: النبأ العظيم، للأستاذ المحقق الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه =

الشرع ما للنظم القرآني ، إذ لا وجه للتفرقة بين لفظين منزلين من عند الله تعالى ، فكان من لوازم ذلك المحافظة على نصوصه ، وإجزاء قراءته في الصلاة ، وعدم جواز روايته بالمعنى إجماعاً وعدم جواز مسّه للمحدث ، ولا قائل بذلك كله .

وأيضاً فإن القرآن لما كان مقصوداً منه مع العمل بمضمونه شيء آخر وهو التحدي بأسلوبه والتعبد بتلاوته ، احتيج لإنزال لفظه ـ ولهذا فإن ترجمته لا تعتبر قرآناً ـ والحديث القدسي لم ينزل للتحدي ولا للتعبد ، بل لمجرد العمل بما فيه ، وهذه الفائدة تحصل بإنزال معناه ، فالقول بإنزال لفظه قول بشيء لا داعي في النظر إليه ، ولا دليل في الشرع عليه ، اللهم إلا ما قد يلوح من إسناد الحديث القدسي الى الله بصيغة « يقول الله تبارك وتعالى كذا » .

لكن القرائن التي ذكرناها آنفاً كافية في فسح المجال لتأويله بأن المقصود نسبة مضمونه لا نسبة ألفاظه ، وهذا تأويل شائع في العربية فإنك تقول حينما تنثر بيتاً من الشعر « يقول الشاعر كذا » وتقول حينما تفسر آية من كتاب الله بكلام من عندك : « يقول الله تعالى كذا » وعلى هذه القاعدة حكى الله تعالى عن موسى وفرعون وغيرهم مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم وأسلوب غير أسلوبهم ، ونسب ذلك اليهم .

وأخيراً يقول الدكتور دراز رحمه الله : فإن زعمت أنه لو لم يكن في الحديث القدسي شيء آخر مقدس وراء المعنى ، لصحَّ لنا أن نسمي بعض الحديث النبوي قدسياً أيضاً ، لوجود هذا المعنى فيه ، فجوابه : أننا لما قطعنا في الحديث القدسي بنزول معناه لورود النص الشرعي على نسبته الى الله تعالى بقوله ﷺ : « قال الله تعالى كذا » سميناه قدسياً لذلك ، بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لما لم يرد فيها مثل هذا النص جاز في كل واحد منها أن يكون مضمونه معلَّماً بالوحي وأن يكون مستنبطاً بالاجتهاد والرأي ، فسمي الكل

= الله ، وقد عولنا على هذا الكتاب في تعريف القرآن اصطلاحاً . وانظر أيضاً ما كتبه الزرقاني مطولاً في مناهل العرفان ، الجزء الأول (٨ ـ ١٤) .

نبوياً وقوفاً بالتسمية عند الحد المقطوع به، ولو كانت لدينا علامة تميز لنا قسم الوحي لسميناه قدسياً كذلك.

على أن هذا الامتياز لا يؤدي إلى نتيجة عملية، فسواء علينا عند العمل بالحديث أن يكون من هذا القسم أو من ذاك، إذ إن النبي ﷺ في تبليغه صادق مأمون، وفي اجتهاده فطن موفق، وروح القدس يؤيده، فلا يقره على خطأ في أمر من أمور الشريعة، فكان مرد الأمر في الحقيقة إلى الوحي في كلتا الحالتين، إما بالتعليم ابتداء وإما بالإقرار أو النسخ انتهاءً، ولذلك وجب أن نتلقى كل سنته بالقبول، قال الله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.

ملاحظة هامة حول هذه الفروق:

وتذكرنا هذه الفروق بين أنواع الحديث وبينها وبين القرآن الكريم بضرورة القول: إننا نملك الآن النص الالهي المنزل مبرءاً من التحريف والتبديل، متمثلاً في القرآن الكريم، ونملك إلى جانبه أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام. وعندنا كذلك الصورة الكاملة لأعماله وممارساته اليومية الخاصة والعامة، إلى جانب حروبه وغزواته... متمثلة في كتب السيرة النبوية التي تحكي تاريخه عليه الصلاة والسلام كما رآه من رأى وسمعه من سمع. ويوجد إلى جانب هذه المصادر الثلاثة: القرآن والسنة والسيرة، الكتب الخاصة بحياة الصحابة مع كتب التراجم الى جانب كتب التاريخ العام.

وليس هنالك أدنى خلط أو تداخل بين القرآن والسنة القولية، أو بين القرآن والسيرة وتاريخ الأصحاب عليهم الرحمة والرضوان. بل إن من الملاحظ - كما سنشير إلى ذلك عند الكلام على الوحي - أن القرآن الكريم نادراً ما يتحدث عن تاريخ «محمد» - صلى الله عليه وعلى آله - الإنسان، وعن آلامه العظمى، أو مسراته التي لم ترد فيه قط!!

ونستطيع أن نؤكد بعد ذلك أن هذا التمييز المطلق الذي نملكه الآن، والذي حرص عليه النبي ﷺ حين نهى عن كتابة القرآن والحديث في صحيفة

واحدة، تفتقر إليه الديانات والكتب السماوية السابقة التي يختلط فيها النص المنزل أو الموحى به - حتى كأنه لا يبين - بأقوال النبي ومواعظه وحركته وسيرته مع أصحابه ومع الناس. والتي وردت فيها صفحات مطولة من التاريخ!
وفي الفقرة التالية مزيد من البيان.

أسماء أخرى للقرآن الكريم:

على أن القرآن الكريم يسمى بأسماء أخرى كثيرة من أشهرها: الكتاب والفرقان. وقد ورد اسم «الكتاب» في عدد من الآيات القرآنية الكريمة، قال الله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾ وقال تعالى: ﴿طسم. تلك آيات الكتاب﴾ - سورة الشعراء -.

و«الفرقان» مصدر أطلق على القرآن فصار علماً عليه، قال تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ والراجح أن هذا المصدر استعمل بمعنى اسم الفاعل، أي أنه كلام فارق بين الحق والباطل.

وقد قيل في تعليل تسمية القرآن «قرآناً» و«كتاباً» أن التسمية الأولى روعي فيها كونه متلواً بالألسن، كما روعي في التسمية الثانية - الكتاب - كونه مدوناً بالأقلام، فكلا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه. قال الأستاذ العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز: «وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً.. فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة. ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر».

قال الدكتور دراز: «وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز، إنجازاً لوعد الله

الذي تكفّل بحفظه حيث يقول: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ سورة الحجر » ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكَّلها إلى حفظ الناس فقال تعالى: ﴿والربانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله﴾ سورة المائدة أي بما طلب اليهم حفظه. والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأييد، وأن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة، زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان ساداً مسدَّها ولم يكن شيء منها ليسد مسدَّه، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه، وهو الحكيم العليم »[1].

---

(١) النبأ العظيم ٨ ـ ٩.

الفصل الثاني

الوَحيُ أو مَصْدر القرآن الكريم

قلنا في الفقرة السابقة في تعريف القرآن، إنه كلام الله تعالى، المنزل على محمد ﷺ.. وهذا يقتضينا أن نعرض بعد ذلك، لزاماً وباختصار، لإثبات أنه من كلام الله تعالى.. غير أن الأدلة هنا واسعة ومتشعبة ومترامية الأطراف... بل إن أطرافها لا تحصى فقط بمناهج الدارسين والباحثين، على اختلاف أساليبهم ووسائلهم وتنوع ثقافاتهم ومعارفهم،.. في القديم والحديث، حتى ينضاف إليها رحابة الموضوعات القرآنية ذاتها وسعة آفاقها... وفهمها المتجدد الذي لا يبلى، والذي يحمل في كل يوم دليلاً آخر على مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزيل من رب العالمين.

ولهذا، فقد رأيت أن أعرض لهذا الموضوع من زاويتين اثنتين: الأولى ظاهرة الوحي، وهي الظاهرة التي جرت العادة بعدم إغفالها في كتب علوم القرآن. والثانية: حياة النبي ﷺ كدليل على ذلك المصدر، وأن الدور الأساسي للنبي - ﷺ - في هذا القرآن هو «الحكاية والتبليغ».

ونذكّر هنا - على أية حال - بأن هاتين النقطتين أو الزاويتين ليستا أكثر من مدخل إلى هذا البحث وإشراف على ساحته. وأن كثيراً من موضوعاتنا الأدبية القادمة، وبخاصة موضوع الإعجاز، والخصائص الأدبية والأسلوبية وطريقة القرآن في خطاب الإنسان، ستحمل لنا المزيد من الأدلة، وتصب في نهاية المطاف في هذا الخضّم المحيط.

أولاً ـ ظاهرة الوحي:

أ ـ مقدمة عن عالم الغيب:

تمثل ظاهرة الوحي مبدأ اتصال عالم الغيب بعالم الشهادة ـ بحسب المصطلح القرآني عن الطبيعة وما وراء الطبيعة ـ كما يمثل الوحي، مصدر المعرفة الإنسانية عن عالم الغيب، في حين يشكل العقل ـ والحواس ـ مصدر هذه المعرفة عن عالم الشهادة. والأمر الجوهري الذي لا غنى لنا عن الإشارة إليه هنا بين يدي الكلام على ظاهرة الوحي أن الإيمان بعالم الغيب ليس خارجاً عن نطاق القدرة العقلية، فضلاً عن أن يكون فيه مناقضة لهذا العقل أو خروج عن قوانينه الفطرية. إن في وسع العقل ـ بوصفه صاحب الدور الأول في إدراك عالم الشهادة[١] ـ أن يستدل بعالم الشهادة على عالم الغيب، أو على رأس الإيمان بعالم الغيب، وهو الإيمان بالله تعالى، ولا يكون العقل بذلك قد سلم بسر باطل أو عقيدة مستحيلة. نذكر هنا من القوانين التي تحكم عالم الشهادة، والتي جعلها الفيلسوف الشهير «كانْت» من جملة قوى العقل وقوانينه الفطرية، قانون العليَّة الذي يملي فيه العقلُ البحثَ عن المؤثر عند حدوث الأثر، وعن الصانع عند رؤية المصنوع. إن هذا القانون، كما يتناول الظواهر الجزئية في الكون فيطلب لكل معلول علة، ولكل مسبب سبباً، يتناول من باب أولى مجموع الكون ككل، فيتطلب بالبداهة نفسها علة وسبباً لوجوده. وممارسة هذا القانون ـ قانون العلية ـ وتطبيقه على الكون ككل، وطلب علة له بجملته واقع في دائرة القدرة العقلية بدون شك، لأن عالم الحس كما يشمل المحسوسات الجزئية فإنه يشمل المحسوس العام الأعظم وهو العالم.. بل إن العقل «مضطر» إلى هذا الطلب.. صُعُداً من طلبه علةً لكل شيء جزئي محسوس[٢].

---

(١) الحواس هي منافذ للمعرفة، والعقل هو الذي يقف وراءها فيجعل من إحساساتها إدراكات أو معارف حقيقية، بمعنى أنه ينقلها من الغرائز والانعكاسات التي يشترك فيها سائر الحيوانات التي تملك مثل تلك الحواس.

(٢) يمكن القول هنا باختصار: إن وجود الكون نفسه يحتاج إلى تعليل، وحركته وارتباط أجزائه =

يضاف إلى ذلك أن العقل الانساني نفسه لا يقنع بكل ما جمعته البشرية من علوم وفنون ومتع بدنية وعقلية فيستغني بها عن طلب تفسير لهذا الكون، أو عن دوره هو فيه ومصيره من بعده؟! وسوفت يبقى أمام هذا العقل في طرفي الوجود، وهما المبدأ والمصير، أو المصدر والغاية، شيء لا تفسره المعارف العلمية بوجه من الوجوه.

نعود من هذا إلى القول إن التسليم بعالم الغيب ليس خارجاً عن نطاق العقل، بل إن العقل نفسه يدل على ساحة هذا العالم، كل ما في الأمر أنه يعجز عن اقتحامها أو معرفة كنهها بوسائل عالم الشهادة ـ العقل والحواس ـ. وهنا يأتي دور الوحي الذي يعرّف الإنسان بحقيقة هذا العالم، ويقفه على طبيعة الصفات الإلهية، ويرسم له طريق الحياة الأمثل... إلى غير ذلك من موضوعات الوحي. فأعجب بعد ذلك لمن يقدم على إنكار عالم الغيب أو ما وراء الطبيعة بحجة عدم دخوله تحت « سلطان » الحس والمشاهدة!! وإذا تركنا الحديث عن الوعي بوجود الله تعالى ـ أساس الايمان بعالم الغيب ـ وأن هذا الوعي يخالط كل نفس انسانية، فإن عدم تمكن العقل من الوقوف على « كنه » عالم الغيب، أو حقيقة الذات الإلهية.. لا يضعف من شأنه أو دوره في عالم الشهادة، ولكنه يضعه في موضعه قادراً على تيسير الحياة لا تصوير الوجود ـ كما يقول برجسون ـ ويطامن من كبريائه حين يعلم أن هذه الوسيلة ـ العقل نفسه ـ لما تدرك حقيقة ذاتها هي!! ونكتفي هنا بقول « هربرت سبنسر »: « وأي غرابة فيما يصادف العقل البشري من إبهام لا يقوى على معرفته؟! إنه أُعدّ لكي يفهم ظواهر الأشياء ولا يعدوها لما خفي من أستارها ». ثم يقول « ولكنا في

= واقتران أسبابه بمسبباته وانتظام قوانينه وسننه تحتاج الى تفسير. وهل يصدق العقل أن القوة التي تدفع كل جزء في الكون في وجهتها، وكل حادثة في خط سيرها بحيث يتكون من المجموع كل متناسق متكامل في عالم الجماد وفي عالم النبات وفي عالم الأحياء... الخ، هل يصدق العقل أن هذه القوة قوة ذاتية عمياء! الا يثير موضوع « الخلق » من عدم نظر الانسان الى التفكير والاعتبار، كما قال تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟!﴾ أنظر كتاب « نظام الاسلام » للأستاذ محمد المبارك. الجزء الأول ص٤٥ فما بعدها.

الوقت نفسه لا نستطيع أن ننكر هذا الشعور الذي تضطرب به نفوسنا من أن وراء هذا الغشاء الظاهر حقيقة كامنة حسب العقل أن يدرك وجودها ، أما إذا هم نحوها بالتحليل والتعليل خر صريعاً »[1].

وأخيراً فإن صحة النبوة وصدق النبي فيما يبلغه عن ربه ـ بوصف النبوة هي وسيلة الاتصال بين عالم الغيب وعالم الشهادة عن طريق الوحي ـ يُعرف بمقدمات كثيرة راجعة إلى عالم الحس والمشاهدة ، أي بأدلة من عالم الشهادة! كما سنشير إلى ذلك ـ في أدلة سريعة ـ عند الكلام على النقطة الثانية أو الزاوية الثانية التي أشرنا إليها فيما سبق.

ولهذا ، فإننا نملك هنا ـ مرة أخرى ـ أمرين اثنين : **الأول** : الكلام على الوحي من الجانب الذي يتصل بعالم الشهادة ، مثل صوره وآثاره التي كانت تشاهد على الرسول ﷺ ، وهي الصور التي وردت في القرآن الكريم أو حدثنا بها الرسول عليه الصلاة والسلام.

الأمر الثاني : إقامة الدليل على صحة هذه الظاهرة وصدق النبي المبلِّغ ، وأن الصور السابقة ليست حالة من حالات المرض كما ظن بعض المرضى والعاجزين.

ب ـ الوحي لغة وشرعاً :

أصل الوحي : الإشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قيل : أمرٌ وحي ، وشيء وحي ، أي عجل مسرع . وقال ابن فارس : الواو والحاء والحرف المعتل : أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء إلى غيرك ، فالوحي الإشارة ، والوحي الكتاب والرسالة . وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان.

ولهذا قيل في تعريف الوحي لغة : إنه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره[2]. ويدخل تحته : ١ ـ الإلهام الغريزي ،

---

(١) انظر تفصيلات هذا الموضوع في كتابنا « مقالة في المعرفة ».

(٢) راجع كتاب « الوحي المحمدي » للشيخ محمد رشيد رضا ص٣٤ فما بعدها . وانظر كتابنا : « الحاكم =

كالوحي إلى النحل، قال الله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس. إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾.

٢ - إلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح، كالوحي إلى أم موسى، قال الله تعالى ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليّم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

٣ - وسوسة الشيطان، قال الله تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً»﴾.

وقد روعي في وحي الله تعالى إلى أنبيائه المعنيان الأصليان لهذه المادة، وهما: الخفاء والسرعة. ولهذا فإن معنى **الوحي شرعاً** لا يتضمن أكثر من تكليم الله سبحانه لأحد عباده بطريق من طرق الوحي. وقد قيل في تعريفه: «عِرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله، بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يسمعه أو بدون صوت».

ونعرض هنا **لصور الوحي**، مع الإشارة إلى الصورة التي نزل بها القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم﴾.

حددت هذه الآية الكريمة ثلاث صور للوحي:

١ - إلقاء المعنى في القلب، وهو الذي عُبِّر عنه بالوحي في الآية - وإن كان الجميع وحياً كما قدمنا - وقد يدعى بالنفث في الرُّوع - بالضم - وهو القلب والخَلَد والخاطر. وقال بعض المفسرين إن المراد بالوحي المذكور في الآية ما

= الجشمي ومنهجه من تفسير القرآن» ص٤٠٨.

كان من جنس الإلهام. والصواب ما قدمنا لأن الإلهام ربما كان من جنس الاعتقادات لا من جنس الكلام فلا يكون وحياً! وربما قيل إنه الخواطر وما كان يراه النبي في المنام، لأن النبي كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

ويمكننا القول إن هذه الصورة الأولى من صور الوحي، وهي النفث في الروع، أو إلقاء المعنى في القلب، ربما كانت عن طريق المَلَك من غير أن يراه، أو بدونه. وقد قال النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب!».

٢ ـ الكلام من وراء حجاب، أي أن يكلمه الله تعالى بكلام يسمعه ولا يرى المتكلم سبحانه، بمنزلة ما يُسمع من وراء حجاب. أو أن يحصل الكلام من وراء حجاب، أي مكانه الذي حصل فيه، فالحجاب راجع إلى مكان الكلام. ولا يقال إن المتكلم من وراء حجاب لأن الحجاب لا يجوز على الله تعالى، لأنه من صفات الأجسام[1]. وقد كلم الله موسى عليه السلام من وراء الشجرة ـ الحجاب ـ كما قال الله تعالى: «فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين».

٣ ـ تكليم النبي بواسطة جبريل. غير أن جبريل عليه السلام كان يهبط على النبي ﷺ بأسلوبين، أو على شكلين: الأول: أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس. والثاني: أن يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه فيعي عنه ما يقول، أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله: أحياناً يأتي مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عَليَّ، فيُفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً!».

---

(١) أنظر كتابنا الحاكم الجشمي ص٤٠٩.

وقد تم الوحي بالقرآن الكريم، بلفظه ومعناه جميعاً، على الكيفية الأولى التي كان يهبط فيها جبريل عليه السلام فلا يُرى، والتي كان يجد فيها النبي ﷺ جهداً ومشقة. وما كان خبر السماء يهبط به أمين الوحي جبريل فيصل عالم الغيب بعالم الشهادة إلا أمراً ذا شأن خطير.. هيأ الله تعالى له نبيه عليه الصلاة والسلام مصداقاً لقوله تعالى: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».. ولهذا لا داعي هنا للفروض التي تبحث في الحالة التي كان يكون عليها النبي ﷺ وهو يتلقى عن الوحي... هل يدخل في صورة ملائكية ليعي عن الملك أم ماذا... لأن كل هذا لا دليل عليه، وقد صور النبي ﷺ نفسه صوت الوحي في هذه الحالة بأنها مثل صلصلة الجرس، إيذاناً ببدء الوحي، أو إشارة إلى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يسمع أصواتاً من عالم الغيب فيستغرق فيها في غيبة أو إغفاءة ـ إن صح مثل هذا التعبير ـ روحانية يجد معها من شدة الوحي ووطأته ما يجعل راحلته تبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، وقد جاءه الوحي مرة وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها. وصدق الله العظيم حين خاطب نبيه في سورة المزمل ـ وهي من أوائل ما نزل عليه من القرآن ـ بقوله: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾.

وربما سمع الحاضرون صوتاً عند وجه الرسول كأنه دويّ النحل، لكنهم لا يفهمون كلاماً أو حديثاً، أما هو عليه الصلاة والسلام فلا يلبث أن تسري عنه تلك الشدة، وينجلي عنه الوحي حتى يجد ما أوحي إليه حاضراً في ذاكرته، يتلوه على الناس قرآناً جديداً وذكراً للعالمين.. «فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال»!.

هل نقف أمام من صعب عليه تصور الوحي ولم يجد بداً من التصديق بالإيحاء الذي يتم أمامه عن طريق التنويم المغناطيسي، الذي ربما كان هو موضوعه في مرة من مرات... وهل نحن بحاجة إلى ضرب الأمثلة والشواهد من عالم البشر المادي المحسوس على شرح حقيقة الوحي وبيان إمكانية وقوعه!! إن الأمر هنا ليجلّ عن هذا وذاك والقرآن الذي نتلوه الآن شاهد صدق على

مصدره، كما أن الأدلة على صدق هذه الظاهرة أكثر من أن تحصى، كما سنوجز الكلام في ذلك في الفقرة التالية.

ولكن الذي نقف أمامه هنا، بكلمة عابرة، ظنون بعض المستشرقين وتخرصاتهم الذين ظنوا أن الوحي على الصورة التي شاهدنا آثارها على النبي - ﷺ - فيما سبق... إنما هو ضرب من الحالات المرضية التي كانت تعرض لمحمد - صلى الله عليه وعلى آله - والتي دعاها بعضهم «صرعاً»!! ألا ما أعجب أن يصدر عن مثل تلك «النوبات» مثل هذا الكلام المعجز، وأن ينفصل هذا الكلام - الذي علمت بعض خبره فيما سبق - من جنس كلام النبي (وهو الحديث) بوجوه كثيرة تفضله صار بها معجزاً على مدى الدهور... وحتى يستحيل على البشر - كل البشر - أن يأتوا بسورة من مثله، ولا يصعب على بعضهم أن يحاكي أسلوب النبي نفسه - الذي كان يقوله في غير تلك الحالات المرضية!!. فيضع على لسانه حديثاً أو أحاديث ربما ظن أنها من كلامه ﷺ لولا قواعد المحدّثين في قبول الروايات التي أبانت عن هذه النسبة الكاذبة، ويبقى القرآن الكريم الذي جاء من طريق الوحي لا يقبل أي كلمة غريبة أو جملة مقحمة... كما يدرك ذلك العامّة والخاصة، بادي الرأي، وبعد التأمل والدرس والبحث.

٤ - وتأكيداً لهذه النقطة، من جهة، وإتماماً لصور الوحي، من جهة أخرى، نورد أخيراً الحديث الصحيح الذي أخرجه الشيخان البخاري ومسلم حول بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه، وهو التعبد، الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه المَلَك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهَد ثم أرسلني فقال: اقرأ! قلت ما أنا بقارىء،

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم ﴾.

« فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زمّلوني، فزملوه حتى ذهب عنه الرّوع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر، « لقد خشيت على نفسي! » فقالت خديجة: كلاّ والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.... الحديث(١) ».

وربما رأى البعض في الوحي بالرؤيا الصادقة واحدة من صور الوحي، ولعل هذه الرؤيا أن تكون تمهيداً ومقدمة للوحي بالقرآن الكريم عن طريق جبريل عليه السلام، على نحو ما تدل عليه روايات أخرى. وإن كان من الممكن القول إن الرؤيا أحد صور الوحي بالنسبة للأنبياء عموماً بدليل قوله تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام: ﴿ يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾.

ويبقى هذا الحديث، أخيراً، دليلاً على صدق النبي ﷺ مع نفسه، وعلى صدقه مع ربه، وأن أمر السماء فجأه وهو بغار حراء فرجف فؤاده وانطلق يقول لخديجة « لقد خشيت على نفسي » فلم يكن - ﷺ - في حالة من حالات الإشراق الروحي أو حديث النفس أو فيض الخاطر، ولو كان ينتظر مثل ذلك لما خشيه حين وجده أو وقع فيه!!.

---

(١) تتمة الحديث: « فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل.. ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: أسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجيَّ هم؟ قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرْك نصراً مؤزراً ».

ونكتفي هنا، في نقض ما يعنّ من شبه الجاهلين وتأويلات الضالين، بالإلماعة التالية:

ثانياً: صدق ظاهرة الوحي:

نعرض لهذه النقطة كما قلنا من خلال رحابة الموضوعات القرآنية وحياة النبي ﷺ.

آ - إن أدنى مقارنة بين شمول الموضوعات القرآنية وتنوعها وبين حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة لا تدع مجالاً للشك في أن محمداً - ﷺ - لم يكن إلا واسطة لعلم غيبي مطلق!! ولقد جاءت الآية القرآنية الكريمة تشير إلى هذا الشمول والتنوع بقوله تعالى: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء!﴾ وجاءت الآية الأخرى تخاطب النبي: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ وتأمره الآية الثالثة أن يقول: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾؟!.

بل إن جميع معارف عصر نزول القرآن - لا معارف النبي ﷺ ومعارف بيئته - ومعارف عصور لاحقة لا تمثل شيئاً من شمول المعارف القرآنية وتنوعها وعمقها... بل تصحيحها وتقويمها لتلك المعارف الإنسانية حتى ما كان منها سابقاً لعصر نزول القرآن!! فإن لم يكن هذا وحياً فأي شيء يكون؟! «إن عبقرية الانسان تحمل بالضرورة طابع الأرض، حيث يخضع كل شيء لقانون الزمان والمكان، بينما يتخطى القرآن دائماً نطاق هذا القانون ليشير من خلال رحابة موضوعاته إلى أن دور محمد - ﷺ - فيه إنما هو «الحفظ والوعي» أو الأخذ والتلقي والاستقبال!.

يضم القرآن الكريم الحديث عن الذرة المستودعة في باطن الصخر والمستقرة في أعماق البحار: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله﴾ كما يشمل الحديث عن النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقرّه المعلوم: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾.

وبين هذه وتلك ـ كما يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله ـ جولات في عالم النفس، وفي ميدان الأخلاق، وفي تاريخ الحضارة، وفي مجاهيل من عوامل بعيدة وقريبة لم يكن في مقدور إنسان ـ كائناً من كان ـ أن يتخطى عتبتها في ماضي الزمان وحاضره على حد سواء!!.

« فالقرآن الكريم يتقصّى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الانساني، فيتغلغل في نفس المؤمن وغير المؤمن بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس.

وهو يتوجه نحو ماضي الإنسانية البعيد، ونحو مستقبلها، كما يعلمها واجبات الحياة.

وهو يرسم لوحة أخّاذة لمشهد الحضارات المتتابع، ثم يدعونا إلى أن نتأمله لنفيد من عواقبه عظة واعتباراً.

وإن دروسه الأخلاقية ثمرة معرفة عميقة بالطبيعة البشرية، تصف لنا النقائص التي ينهى عنها وينفر منها، والفضائل التي يدعونا الى التأسي بها، وبخاصة من خلال حياة الأنبياء، أولئك الأبطال والشهداء في سجل ملحمة السماء!! ».

أمام هذا المشهد العظيم وقف الفيلسوف « توماس كارليل » فما تمالك أن انبعثت من أعماقه صرخة اعجاب بالقرآن فقال: « هذا صدى متفجّر من قلب الكون نفسه » يقول الأستاذ مالك بن نبي: وفي هذه الصرخة الفلسفية نجد ما يشبه الاعتراف التلقائي لضمير إنساني سام بهت أمام عظمة القرآن. وإن العقل الانساني ليقف حائراً أمام رحابة هذا الكتاب وعمقه. إنه أثر فريد ذو هندسة ونسب فنية تتحدى المقدرة المبدعة لدى الإنسان!! » وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية. ومن المقطوع به أنه لو أتيح لأحد من الناس أن يقرأ القرآن قراءة واعية خلالها رحابة موضوعه وسعة آفاقه، فلن يمكنه أن يتصورالذات المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق.! ».

ويقول الأستاذ مالك أيضاً:

« وفضلاً عن ذلك فإن هذه الذات تشغل فيه مكاناً ضئيلاً، إذ نادراً ما يتحدث القرآن عن تاريخ «محمد» الإنسان، وعن آلامه العظمى، أو مسراته التي لم ترد فيه قط. ولو تخيلنا النازلة التي أصابته في أوج دعوته بفقد عمه وزوجته خديجة لأدركنا مدى الدويّ الرهيب لحدث كهذا في حياة «رجل» كان حتى آخر لحظاته يبكي خديجة وأبا طالب عندما كان اسماهما يذكران أمامه، وبرغم هذا لا نجد أي صدى لموتهما في القرآن، بل لا نجد اسم تلك الزوجة الحانية التي تقبّلت في حجرها انبثاق الإسلام الوليد ».

ب ـ وتدلنا هذه الملاحظة الأخيرة على أن أحوال النبي مع الوحي من أوضح الدلائل على صحة هذه الظاهرة وعلى مصدر القرآن الكريم، فكم مرة أبطأ عنه الوحي وهو في انتظار له ليفتي في أمر أو يجيب عن مسألة، وكم مرة نزل عليه وهو ـ بحسب أحوال الإنسان العادية ـ على غير استعداد، حتى كان من أنواع القرآن ما ذكره علماء علوم القرآن تحت العناوين التالية: «الحضري والسفري، والنهاري والليلي، والصيفي والشتائي، والفراشي والنومي... »[1].

وأُخرى يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه، فيخطئه في الرأي يراه ويأذن له في الشيء لا يميل إليه، فإذا تلبث فيه يسيراً تلقاه القرآن بشيء من العتاب حتى في أقل الأشياء خطراً: ﴿يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضاة أزواجك﴾ ﴿وتُخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾. ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾.

---

(١) انظر النبأ العظيم ص١٦ فما بعدها. والاتقان للسيوطي ١/٣٨.

ثم ألم تكن تنزل النازلة من شأنها أن تحفز النبي الكريم إلى القول ،وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم ، فلو كان الأمر إليه لوجد له مجالاً ومقالاً ، ولكنها الأيام تمضي تتبعها الليالي ولا ينزل عليه قرآن يقرأه للناس وهو منتظر ما يأتي به الله ؛ ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجته عائشة رضي الله عنها وأبطأ الوحي وطال الأمر والناس يخوضون حتى بلغت القلوب الحناجر ، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس « إني لا اعلم عنها إلا خيراً » . ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب ، ومضى شهر بأكمله والكل يقولون : ما علمنا عليها من سوء ، لم يزد على أن قال لها آخر الامر ، « يا عائشة ، أما إنه بلغني كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله »!!

هذا كلامه بوحي ضميره ، وهو ـ كما ترى ـ كلام البشر الذي لا يعلم الغيب وكلام الصدِّيق المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم[1] .

وينزل القرآن معلناً براءة عائشة من فوق سبع سموات ، قالت عائشة « فقالت لي أمي : قومي إلى رسول الله . فقلت والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله تعالى هو الذي أنزل براءتي » ولولا أنه وحي السماء لقطع رسول الله ألسنة المتخرصين عن عرضه ولذبَّ عن عرينه بما شاء . . . ولكن الله تعالى يقول : ﴿ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ وحاشاه أن يكذب على الله وهو الذي كان لا يكذب على الناس!

إن أية دراسة نفسية تحليلية لموضوع القرآن تدلنا على مصدره ، وعلى صدق ظاهرة الوحي . والآفاق هنا ، كما أشرت ، رحبة واسعة تخرج بنا إن عرضنا لشواهدها عن الإلماعة التي قصدنا إلى إعطائها ، ولكننا نسأل هنا حول سورة المسد : ﴿تبّت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى

---

(١) راجع النبأ العظيم للأستاذ العلاّمة الدكتور محمد عبد الله دراز ص١٧ .

ناراً ذات لهب . . ﴾ الخ السورة ، السؤال التالي : من هو الذي يملك أن يقول في أبي لهب : ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ ويحكم عليه في ذلك الموقف المشهور من مواقف السيرة أن يبقى على كفره ولا يدخل في الإسلام ، وقد دخل فيه فيما بعد من كان في مثل عداوته لهذا الدين وحربه عليه!! ثم ألم يكن في وسع أبي لهب ولو بحيلة كاذبة أو نفاق مستور ، أو صنعة من دقائق الإحراج والتدبير ، أن يقول إنه دخل في الإسلام فيدل الناس بذلك ، لو كان أمر القرآن للنبي عليه السلام ، على تقوّل النبي على عالم الغيب ، وعلى خطئه ـ وحاشاه من ذلك ـ حين حكم على أبي لهب بالبقاء على الكفر ، وبورود النار يوم القيامة!! أم أنه العلم الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو الذي أخبر عن أبي لهب ، وكان كما أخبر ، كما صح جميع ما أخبر به من أمور ستقع في قادمات الأيام ، وإن كان الأمر في قضية أبي لهب هذه أبعد من عدة وجوه . . . لعل منها أن النبي ـ ﷺ ـ لم يكن حين نزلت عليه هذه السورة ، وقد بدأ بإعلان رسالته في الناس على جبل الصفا ، « مستعداً » من الوجهة النفسية أن يواجه أبا لهب بمثل هذا الإعلان القاطع المخيف ، إشفاقاً على دعوته من جهة ، وأملاً في إيمان أبي لهب وغيره ، من جهة أخرى ، على نحو ما عرف عنه من البشرية الرحيمة التي حملته على عدم الدعاء عليهم في كثير من المناسبات ، والتي دعته في مناسبة أخرى إلى أن يكفّن عبد الله بن أُبي يوم مات ، وكان رأس المنافقين ، وإلى رغبته في الاستغفار والصلاة عليه!! حتى قام عمر بن الخطاب فقال : أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟! فقال ﷺ : « أما خيَّرني ربي فقال :﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾وسأزيده على السبعين »! ثم صلى عليه ، فأنزل الله تعالى :﴿ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾إنه الرسول البشير الرحيم ، وذلك الوحي الإلهي القاطع .

وقل مثل ذلك في قوله تعالى في شأن الوليد بن المغيرة : « سأصليه سقر » ، والشواهد هنا كثيرة تكاد لا تخلو منها صفحة واحدة من صفحات الكتاب العزيز .

وأخيراً، فإن هذا الموقف يذكرنا بموقف آخر لعل دلالته من الوجهة النفسية، تأتي من وجه آخر، وتغني في نفس الوقت عن عشرات الأدلة والشواهد. جاء في حديث أبي هريرة الذي رواه الحافظ البزار أن رسول الله ﷺ «وقف على حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين استشهد، فنظر الى منظر لم ينظر الى منظرٍ أوجع لقلبه منه، فنظر إليه وقد مُثِّل به فقال: «رحمة الله عليك إن كنتُ ما علمتك إلا وَصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع ـ أو كلمة نحوها ـ أما والله على ذلك لأمثلنّ بسبعين كمثلتك، فنزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعَاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيَق مما يمكرون. إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾».

الرسول عليه الصلاة والسلام يقف على جثة عمه حمزة وقد مثّلت بها هند... إنه لم يفقده أسداً هصوراً يذود عن دين الله وعن نبي الإسلام فحسب... بل فقده في هذا اليوم على هذه الهيئة التي تنم عن غدر قاتله ووحشية مَن مَثَّلتْ به، فبقرت بطنه وقطعت كبده بأنيابها ولاكته بأضراسها!! فضاق بالنبي صدره، وملكه الحزن والألم. فقال: «لأمثلنّ بسبعين كمثلتك» ـ ورأس حمزة لا تعدله سبعون من رؤوس القوم، وهم الذين بدأوا العدوان أول مرة!! ـ.

هذا قول النبي الذي يعبر عن شعوره في ذلك الموقف الغائظ الموجع... إن هذا الشعور لم يفارقه ﷺ حين نزلت عليه الآيات السابقة ترده إلى درجة العدل، ثم تصعد به في مقام الإحسان درجات بعضها فوق بعض بما يتناسب مع مقام النبوة الرفيع:

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به.
ولئن صبرتم لهو خير للصابرين.
واصبر وما صبرك إلا بالله.

ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون .
إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

من كان يظن أن هذا الكلام يصدر عن قائل الكلام الاول في هذا الموقف فليعد على نفسيته « المريضة » هو بالمداواة والتهذيب . إن هذه الآيات الكريمة لا تعبر عن نقلة ومفارقة بعيدة في عالم الحس والشعور . . فقط ، ولكنها تتضمن فوق ذلك براعة التلطف بالنبي ، والانتقال به من درجة الى أخرى فوقها على أدق ما يكون العلم بأعماق النفس ودرجات الشعور :

فضمان حق النبي في عقاب عدوه أول ما يحفظ له ويخاطب به في هذا الموقف الذي لم ينظر النبي إلى منظر أوجع لقلبه منه!!

ثم ترشده الآيات بعد ذلك الى أن صبره خير وأفضل ، وجاء الإرشاد هنا بهذه العبارات والاشارات المأنوسة : « ولئن صبرتم . . » ولم تلتفت إليه في صيغة المخاطب إلا مرة واحدة « صبرتم » ثم ذكرت أن الصبر خير للصابرين (ولم تقل : فهو خير لكم) إشارة الى وجود الصابرين وكثرتهم كذلك . . وإلى أن من حق النبي الكريم ـ أو واجبه كذلك ـ أن يكون منهم ، بل أن يكون في مقدمتهم وعلى رأسهم ﷺ .

ثم ترتفع الآيات درجة أخرى حين « تأمره » عليه الصلاة والسلام بالصبر ، بعد ان هيأته الإشارة السابقة ليكون منهم ورشّحته إلى ذلك ، ولكنها ترشده مرة أخرى ـ في ختامها ـ إلى أن ضمان ذلك الترشيح وهذا الأمر ، إنما يكون بالله عز وجل ﴿وما صبرك إلا بالله﴾ زيادة في الاحتياط لما ذهب ، وتمهيداً للأمر التالي الذي سيأتي !

« ولا تحزنْ عليهم . . . » إن هذه الدرجة تريد أن تستل من نفسه عوامل الحزن وأسباب الألم والضيق ، بعد أن صرفته الآيات السابقة عن إرادة الانتقام حين أمرته بالصبر وأرشدته إلى أسبابه .

أما الآية الأخيرة فقد جمعت بين الطرفين في وقت واحد : التقوى والإحسان . . . أو العدل والإحسان ، ومسحت من نفس النبي ﷺ بقايا

الأحزان حين وعدته بأن الله تعالى مع الذين اتقوا والذين هم محسنون!!

هذه خواطر سريعة وموجزة إلى درجة الإخلال... لكنها كافية لبيان المقام الذي كانت تتنزل منه مثل هذه الآيات..﴿ما كان حديثاً يُفترى ﴾.

﴿ والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾. وصدق الله العظيم.

الفصل الثالث

الفصل الثالث

نزول القرآن والحكمة من تنجيمه

معنى « نزول القرآن »

تطلق « نزل » في اللغة ويراد بها الحلول في مكان والأوي به، كقولهم نزل الأمير المدينة، ومنه قوله تعالى ﴿ ربِّ أنزلني مُنزلا مباركا وأنت خير المنزلين ﴾ كما يراد بها أيضاً انحدار الشيء من علو إلى أسفل. نحو « نزل فلان من الجبل » وكقوله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ وكلا المعنيين يشعر بالمكانية والجسمية فلا مجال لتحققهما في كلام الله وتعالى ووحيه، فالتعبير بالنزول بالنسبة للقرآن الكريم، إنما هو من قبيل المجاز، لأن المراد به الإعلام في جميع إطلاقاته، وإنما اختيرت مادة النزول وما تصرف منها من أجل التنويه بشرف هذا الكتاب، نظراً لما توحيه هذه المادة من علو صاحب هذا الكتاب علواً كبيراً، مصداقاً لقوله تعالى في فاتحة سورة الزخرف: ﴿حم والكتاب المبين، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم ﴾.

وهكذا جاء التعبير بمادة نزول القرآن في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ .. وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾. وقال ﴿ ونزَّلناه تنزيلا ﴾ وقال رسول الله ﷺ: « إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف »[1].

---

(١) يرى بعض العلماء أن في قوله تعالى ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ ما يدل على أن أول =

ولقد مر معنا في تعريف القرآن أيضاً الفروق بينه وبين الحديث القدسي، والحديث النبوي، وكل ما يهمنا ذكره الآن هو أن الذي نزل به جبريل عليه السلام هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ المعجزة أو الكلام العربي المعجز من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس، وأنه كلام الله تعالى وحده، لا دخل لجبريل ولا لمحمد عليه السلام في إنشائه وترتيبه، فمهمة جبريل عليه السلام الحكاية للرسول والإيحاء إليه، وليس للنبي ﷺ في هذا القرآن سوى وعيه وحفظه، ثم حكايته وتبليغه، ثم بيانه وتفسيره والعمل بمقتضاه. قال تعالى: ﴿وإنك لتُلقّى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ وقال ﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحي إليّ من ربي﴾ وقال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقائنا ائت بقرآنٍ غير هذا أو بدّله. قل ما يكون لي ان أبدّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يُوحى إليَّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾.

وإذا كانت هذه النصوص في شأن إيحاء المعاني، فإن الآيات التالية دالة

= تنزلات القرآن كانت إلى اللوح المحفوظ، وأنه تنزل إليه جملة لا مفرقاً لأن أسرار تنجيم القرآن على النبي ﷺ لا يعقل تحققها في هذا التنزيل، ويقولون أيضاً إن هنالك تنزلاً ثانياً إلى السماء الدنيا، بدليل قوله تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ وقوله ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وقوله تعالى ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ فيستدلون بهذه الآيات مجتمعة على نزوله جملة في ليلة القدر من شهر رمضان، لأن نزوله الثالث على النبي ﷺ كان مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة كما هو معلوم. ويتعين الذهاب إلى هذا التفسير إذا ثبتت التنزلات الثلاثة بالأحاديث الصحيحة، أو يقال في مثل هذه الحال: إن هذا التفسير وارد محتمل بدليل تلك الأحاديث، لأن هذه الآيات تحتمل وجهاً آخر من وجوه التفسير.

ولعل الآية الأولى التي استدل بها على التنزل الأول الى اللوح المحفوظ لا يفهم منها أكثر من أن القرآن الكريم عند الله ثابت، قوله هو المرجع الأخير في كل ما يتناوله من الأمور، وأن كل ما قضاه الله عز وجل من قرآن وغيره هو في هذا اللوح، الذي لا يدرك البشر طبيعته، لأنه من أمر الغيب الذي تفرد الله بعلمه، كما أن الآيات الأخرى التي استدل بها على التنزل الثاني تفيد أن ليلة القدر من رمضان كانت بدء نزول القرآن على النبي ﷺ، أي أن القرآن ابتدىء تنزيله في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأزمان.

(١) راجع النبأ العظيم.

على أن الوحي كان باللفظ أيضاً ـ كما أشرنا الى طرف من ذلك في موضوع الوحي ـ قال تعالى : ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ وقال تعالى :﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾ وقال تعالى ﴿ أقرأ باسم ربك﴾ وقال عز من قائل: ﴿ورتل القرآن..﴾ والإقراء ، وتحريك اللسان ، والترتيل.. إنما هي من عوارض الألفاظ لا المعاني البحتة كما هو معلوم.

وقد قال بعض العلماء في تفسير الآيات السابقة من سورة القيامة:﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به... الآيات﴾ إن سبب نزولها أن الرسول كان إذا نزل القرآن عجل بتحريك لسانه به أي بقراءته ، حباً له أو حتى يحفظه ولا ينساه ، فنهاه الله عز وجل عن ذلك وأمره بالاستماع الى جبريل ، وطمأنه بأن عليه ـ سبحانه ـ جمعه له في صدره حتى يحفظه ، وقراءته عليه حتى يعيه «إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه » ـ أي قرأه الملك عليك بأمرنا ـ فاتبع قرآنه ، أي أتبع قراءته بقراءتك. « فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأ » /البخاري ١/٤/.

أما إضافته تعالى القرآن إلى النبي ﷺ أو إلى جبريل ، فلبيان أنه ليس بسحر كما زعم بعضهم ، ولكنه كلام «رسولٍ» مرسَل به من رب العالمين ، أو كلام مُرسِل رسول كريم ، على مجاز الحذف ؛ قال الله تعالى في سورة الحاقة :﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون تنزيلُ من رب العالمين﴾ وقال تعالى في سورة التكوير :﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾.

مدة نزول القرآن :

كانت مدة نزول القرآن الكريم ثلاثاً وعشرين سنة ، لأن مقام النبي ﷺ في مكة كان ثلاث عشرة سنة اتفاقاً ، ومقامه في المدينة عشر سنوات على أشهر الروايات.

وقد تتابع نزول القرآن خلال هذه المدة الطويلة ، فكانت تنزل السورة مرة ، وتنزل الآية أو الآيات مرة أخرى ، فيقول الرسول ﷺ : ضعوا هذه الآية في موضع كذا من سورة كذا ، كما سنرى عند الكلام على تأليف القرآن - جمعه - على عهد النبي ﷺ ، حتى تم نزول هذا الكتاب الكريم قبيل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام .

أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل

١ - وكان أول ما نزل من القرآن قول الله تعالى :﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم﴾[1] يدل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة الذي أشرنا إليه عند الكلام على الوحي وصوره في البحث السابق[2] .
غير أنه قد روى الشيخان عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال (سألت جابر بن عبد الله : أي القرآن أنزل قبل؟ فقال « يا أيها المدثر » فقلت : أو (اقرأ باسم ربك الذي خلق) . فقال أحدثكم ما حدَّثنا به رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : إني جاورت بحراء ، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي[3]

---

(١) نشير هنا إلى أن المناخ العقلي الذي تحدثنا عنه في الباب السابق بدأ يتكون منذ بداية الوحي . يقول الأستاذ مالك بن نبي : « بينما ينفتح كتاب العهد القديم ، منذ السطر الأول في سفر التكوين ، على عالم الظاهرات المادية ، وينفتح كتاب العهد الجديد في انجيل يوحنه على عملية التجسيد ، ينفتح القرآن على الجانب العقلي : اقرأ باسم ربك..

« اقرأ . . . هذه هي الكلمة الأولى التي تفتح إليها أول ضمير إسلامي ، ضمير محمد ، ويتفتح لها بعده كل ضمير مسلم .

« إن الحروف هي حقاً أداة النقل للروح ، لكل رسالة ، ولكل بلاغ ، فهي الحامل والرمز لكل معلومة من المعلومات ، فأول ما نزل به القرآن يشير إلى أهميتها ، ويخصص موضوعها بالذكر ، ويرسم في الضمير الإسلامي قيمتها منذ اللحظة الأولى في كلمة أقرأ .

« إن الحرف ينقل ويبلغ الروح ، وفي نفس الوقت يحفظه من الضياع ، وسيحفظ أولاً وقبل كل شيء القرآن نفسه ، ذلك الكتاب الذي لم يتغير فيه حرف واحد منذ أربعة عشر قرناً ، على خلاف كل الكتب الأخرى . . . » كتاب « انتاج المستشرقين » للأستاذ مالك بن نبي ص٣٢ .

(٢) راجع ص٤٧ .

(٣) زاد في رواية : فنوديت فنظرت أمامي وخلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ثم نظرت الى السماء .

فإذا هو جبريل ، فأخذتني رجفة فأتيت خديجة ، فأمرتهم فدثروني ، فأنزل الله :
« يا أيها المدثر قم فأنذر »...).

ولكن هذه الرواية تشير في الواقع إلى أول ما نزل من القرآن **بعد فترة الوحي**، بدليل ما رواه الشيخان أيضاً من حديث جابر نفسه : (فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري قبلَ السماء ، **فإذا الملك الذي جاءني بحراء** جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئثت[1] حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلي فقلت : زملوني زملوني ، فأنزل الله تعالى :

يا أيها المدَّثر قم فأنذر... الى قوله : والرجز فاهجر . قال : فحمي الوحي وتتابع.) فكأن جابر حدث بالحديث الأول قبل ما سمعه عن النبي ﷺ من نزول الملك عليه بسورة « أقرأ ».

٢ ـ أما آخر ما نزل من القرآن ، فهو قول الله تعالى :﴿ واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ﴾ كما نقل ذلك عن ابن عباس . وفي رواية للبخاري عن ابن عباس أيضاً أن آخر آية نزلت قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ وعن سعيد بن المسيب « أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدَّين » وهي قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ـ إلى قوله ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ـ وهي أطول آية في القرآن ، وقال السيوطي رحمه الله : إن هذه الآراء الثلاثة يمكن الجمع بينها ، لأن هذه الآية نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصاحف[2] لأنها في قصة واحدة ، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر ، وإن كان من الراجح أن آخر ما نزل باطلاق هو قوله تعالى :﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم تُوَفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾. لأن بعض الروايات تنص

---

(١) جئثت على وزن فرحت : ثقل جسمي عن القيام .
(٢) آية الدَّين رقمها في سورة البقرة (٢٨٢) وآية (واتقوا يوماً...) إلى قوله (لا يُظلمون) رقمها ٢٨١ .

على أن النبي ﷺ توفي بعد نزول هذه الآية بتسع ليال فقط[1].

على أن الزركشي في البرهان عدد بضع روايات في آخر ما نزل، كما بلغ بها بعضهم إلى عشرة أقوال، ليس من بينها كلها آية سورة المائدة التي اشتهرت عند بعضهم، أخذاً من موضوعها، وهي قوله تعالى: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ وذلك لأن هذه الآية نزلت في يوم عرفة من حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، وقد عاش النبي صلوات الله عليه بعدها واحداً وثمانين يوماً، في حين لم يكن بين وفاته عليه السلام وبين نزول آية ﴿واتقوا يوماً...﴾ سوى تسع ليال فقط.

وإكمال الدين في الآية المذكورة يراد منه ـ كما قال بعض المفسرين ـ إقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه، حتى حجَّه المسلمون لا يخالطهم المشركون. يؤيد هذا ما روي عن ابن عباس قال: (كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً، فلما نزلت سورة براءة نفي المشركون عن البيت، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين). فكان ذلك تمام النعمة. والله تعالى أعلم.

الحكمة من تنجيم القرآن

لتنجيم القرآن ـ أي لنزوله مفرقاً على دفعات، وفي هذه المدة الطويلة التي أشرنا إليها ـ فوائد وحكم كثيرة، بعضها يتصل بشخص النبي ﷺ، وبعضها الآخر يتصل بالمجتمع الإسلامي الوليد الذي كانت تتنزل عليه الآيات.. وبعض هذه الحكم يتصل بالنص القرآني نفسه! ونجمل هنا القول في هذه الحكم بما يلي:

١ ـ تثبيت فؤاد النبي ﷺ، وإمداده بأسباب القوة والمجابهة أمام حملات المشركين ودسائس المنافقين، فتجديد الوحي يوماً بعد يوم وحالاً بعد حال، يمثل لوناً من ألوان الرعاية الالهية التي تمده بأسباب الثبات والمضي فيما اختاره الله

---

[1] أنظر البرهان للزركشي ١/٢٠٩ ـ ٢١٠.

له ، ولهذا فإن المشركين عندما اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة ، كما هي الحال في الكتب السابقة ، رد عليهم سبحانه بما في هذا التنجيم من حكمة ، فقال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جملة واحدة! كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾.

كم هي الشدائد التي عرضت للرسول الكريم ... والتي حملتها الأيام المتلاحقة في أوضاع ومناسبات شتى .. والوحي الالهي يهوّن من تلك الشدائد والأوهاق ، ويرسم لها أجلاً وقدراً مقدوراً : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ ﴿سيهزم الجمع ويولون الدُّبُر ! ﴾ ويقول تعالى : ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً! ﴾ ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾.

الآيات التي تعزي الرسول الكريم والتي تأمره بالصبر والمصابرة كثيرة في كتاب الله ، ولكن يبقى « مبدأ » تجديد اتصال الوحي به ، ومتابعة نزوله ، يحمل معنى تثبيت فؤاده بإطلاق ، كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة السابقة .

وتحمل الآية الثانية السابقة ﴿ ولا يأتونك بمثل ... ﴾ الإشارة إلى أن من أهم صور هذا التثبيت : الرد على مزاعم المشركين وشبههم واعتراضاتهم ، قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ أي بحجة وشبهة « إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » أي : ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم . وقال ابن عباس في تفسير « المثل » ما يلتمسون به عيب القرآن والرسول « إلا جئناك بالحق » . أي : إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم . قال : « وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل بالقرآن صباحاً ومساء ، وليلاً ونهاراً ، وسفراً وحضراً »[1] .

(١) تفسير ابن كثير ٣١٧/٣ . قال الطبري : « ولا يأتيك يا محمد هؤلاء المشركون بمثل يضربونه إلا =

٢ ـ يمكن القول: إن من حكم هذا التنجيم، بصورة عامة، رسم صورة المجتمع الآخر، أو الفئات الثانية من منافقين ومشركين... وفضح أساليبهم ونواياهم، ومفاجأتهم بحقيقة ما يقولون ويبيّتون ويمكرون. قال تعالى: ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم! قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾.

وتظهر أهمية هذه الفائدة بالمقارنة بالحكمة الرابعة التالية:

٣ ـ تسهيل حفظه على الرسول والمؤمنين، كلون من ألوان «الحفظ» الذي تكفل الله تعالى به ﴿ إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ فقد اختار الله تعالى تنزيله على هذا الوجه ليسهل على الناس حفظه، ولهذا جمع بين الأمرين في هذه الآية فقال تعالى ﴿وإنا له لحافظون﴾.

وإذا كان الله تعالى قد تكفل لرسوله بحفظه: «سنقرئك فلا تنسى»... فإن أفراد المسلمين كانوا بحاجة إلى أن يُعطوا فرصة تمكنهم من حفظه في الصدور، وهو الحفظ الأول والأهم بوصفهم أمّة أميّة كما هو معلوم.

٤ ـ ومن أهم هذه الحكم: تربية الأمة الناشئة وإعدادها لبنة لبنة، وآية آية... بحيث تم بناء هذه الأمة في نهاية المطاف من خلال نصوص القرآن الكريم فإذا ذكرنا أن ولادة هذه الأمة كانت من خلال تلك النصوص، كأعجب ظاهرة في التاريخ، فلنذكر أن ذلك لم يتم في يوم وليلة، بل تم خلال ما يقرب من ربع قرن كان القرآن الكريم فيها ينزل منجماً فيربيها ويعدّها وينشئها... بل يرسم للإنسانية على الدوام الصورة المثلى للبناء في الحاضر والمستقبل على حد سواء. يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة وينشىء مجتمعاً، ويقيم نظاماً. والتربية تحتاج إلى زمن، وإلى تأثير وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع. والنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل

= جئناك من الحق بما نبطل به ما جاءوا به، وأحسن منه تفسيراً» جامع البيان ١٩/١١.

للمنهج الجديد. إنما تتأثر يوماً بعد يوم بطرف من هذا المنهج وتتدرج في مراقيه رويداً رويداً، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً، فلا تجفل كما تجفل لو قدم لها ضخماً ثقيلاً عسيراً، وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح بالتالي أكثر استعداداً للانتفاع بالوجبة التالية، وأشد قابلية لها والتذاذاً بها».

وقد تم هذا الاعداد الذي اقترن فيه عند المسلمين القول بالعمل بوسائل متعددة، وأمور كثيرة تحتاج ملاحقتها إلى دراسات خاصة. ونشير هنا إلى نقطتين اثنتين:

آ - التربية من خلال الواقع، وربط الأمور بأسبابها ومسبباتها، وهذا أدعى الى بيان مدى «الواقعية» في هذا الدين، وأن أحكامه أحكام عملية لا نظرية. وأدعى - من وجه آخر - إلى الفهم والتذكر والمسارعة في التنفيذ: قال تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل العفو!﴾ ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾. وهذه امرأة ترفع الى الرسول شكواها بأن زوجها ظاهر منها فينزل قول الله تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير...﴾ الآيات وفي مناسبة أخرى يخاطب الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق..﴾.. وقصة الإفك التي تشير إلى حدث اجتماعي - أو ظاهرة في بعض الأحيان - تعالج في الوقت المناسب. وبعد أن يتخذ كل واحد من الناس موقفاً أو يفتي برأي!! لتتعلم المجتمعات الإنسانية على مدى الدهر طريقة المعالجة، والموقف الواجب الاتباع: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم..﴾.

ولعل مما يشير إلى هذه الحكمة أو النقطة قول الله تعالى: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزلناه تنزيلاً».

ب - التدرج في التشريع، وذلك في الأمور المتمكنة من الأفراد وفي المجتمع بحيث يصعب اجتثاثها أو قلعها مرة واحدة. أي إن تخلي المجتمع عن مفاسده وشروره تم بواسطة هذا التدرج، وبعمق لم يشهد له التاريخ أو الواقع مثيلاً. وكأن العملية التربوية المشار إليها في الفقرة السابقة وهي العمل الايجابي، كانت تتم في خط مواز لهذه الناحية السلبية، أو لعلها كانت تأتي على أعقابها في بعض الأحيان، على مبدأ (التخلية ثم التحلية).

ومن أمثلة هذا التدرج المشهورة تحريم الخمر الذي تم على هذه المراحل:

نزل أولاً قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ فوصفت هذه الآية «حالة» الخمر والميسر، وأن الإثم فيهما أكبر من النفع، ولكنّها لم «تصرح» بتحريمهما أو طلب الكف عنهما. فإذا أضفنا إلى ذلك أنها افتتحت بقوله تعالى: ﴿يسألونك..﴾ أدركنا أهمية ذلك الوصف في تهيئة النفوس للتحريم، لأن الأمر صار موضع سؤال المجتمع وحديثه. ثم نزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ فحرّمت هذه الآية عليهم أن يصلوا وهم في حالة السكر، فكأنها وقتت تحريم شرب الخمر بوقت ليس بالقصير، لأن أوقات الصلاة متقاربة لا يذهب خلالها أثر السكر، فامتنعوا عن شربها سحابة النهار، حتى إذا صلوا العشاء الآخرة قارف الخمر من أراد وكأنهم في هذه المرحلة الثانية أعطوا الفرصة لتقوية العزيمة والارادة على الكف والمنع المطلق - في الوقت الذي كان فيه الجانب التربوي الإيجابي يبني باستمرار كما قلنا - ثم نزل أخيراً قول الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة. فهل أنتم منتهون﴾...﴿فهل أنتم منتهون؟﴾ قالوا: يا رب انتهينا، وتركوا الخمر، وقاموا إلى ما في دورهم منها فأهرقوه في طرقات المدينة...

من أراد أن يقف على أثر هذا التدرج في التشريع ، أو هذه الحكمة من فوائد نزول القرآن منجماً بوجه عام ، فليقارن فعل المجتمع الإسلامي هذا بفعل المجتمع الأمريكي يوم صدر عندهم « قانون المنع » المشهور ، والذي رد عليه الناس بمضاعفة الشرب ، ومن الأنواع الرديئة ، أضعافاً مضاعفة . . روى الإمام البخاري في صحيحه من حديث عائشة قالت : « إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس الى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً . ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا . لا ندع الزنا أبداً » .

٥ - وأخيراً ، فلعل من أهم حكم تنجيم القرآن : **الدلالة على إعجازه وإثبات مصدره** .

- ففي نزول القرآن خلال هذه المدة الطويلة ، وكلما نزلت آية أو آيات قال النبي ﷺ « ضعوا هذه الآيات في موضع كذا من سورة كذا » وربما نزلت الآيات التي توضع في آخر السورة قبل الآيات التي توضع في أولها أو مقدماتها ، وربما لم يكتمل بناء بعض السور - المفتوحة - إلا خلال سنوات . . . ثم يكون القرآن الكريم بعد ذلك متسقاً هذا الاتساق المعجز ، منسَّق الآيات والسور ، محكم السرد ، دقيق السبك ، قوي الأسلوب . . إن في ذلك جميعه ما يشير بوضوح إلى مصدر هذا الكتاب الكريم وانه تنزيل من حكيم حميد ، قال تعالى : ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . . . ﴾ لأن الرسول الكريم الذي كان يأمرهم بوضع الآيات عندما تنزل في موضع كذا من سورة كذا بشر لا يدري ما ستجيء به الأيام ، وكيف سيتم بناء هذه السور ومتى يتم في المستقبل؟ . والاختلاف المشار إليه في الآية الكريمة يكون من وجهين رئيسيين : الأول : من حيث النظم والاسلوب والبيان الذي لم يختلف في القرآن أو يتخلف في موطن من المواطن ، وذلك على طريقة الأدباء في الاختلاف مهما كان حظهم من التفوق ، ومع تفرغهم للعمل الادبي الواحد في زمن معين أو فترات متقاربة لا يمكن أن تصل إلى ربع قرن!! ومع التقديم

والتأخير، واختلاف المناسبات والاحوال!! التي تم فيها وعليها نزول القرآن الكريم. وهذا كما أشرنا دليل الإعجاز. أما الاختلاف الثاني: فهو اختلاف المعاني والمضامين، فإذا لم تختلف هذه المعاني عند أحد طيلة حياته، فهل يمكن أن تتلاءم أو تتكاتف على أداء طريقة واحدة أو معنى منسجم عندما يضم الكلام بعضه الى بعض في سنوات طوال؟! الحديث النبوي نفسه الذي لم ينطق فيه النبي ﷺ عن هوى أو بما يتعارض هل يمكن أن يؤلف الآن على ذلك النحو الذي تألّف - اجتمع - عليه القرآن! يقول العلامة الدكتور دراز رحمه الله:

« خذ بيدك بضعة متون كاملة من الحديث النبوي كان التحديث بها في أوقات مختلفة، وتناولت أغراضاً متباينة، أو خذ من كلام من شئت من البلغاء بضعة أحاديث كذلك، وحاول أن تجيء بها سرداً لتجعل منها حديثاً واحداً من غير أن تزيد بينها شيئاً أو تنقص شيئاً. ثم أنظر: كيف تتناكر وتتنافر مبانيها في الأسماع والافهام! وكيف يبدو عليها من الترقيع والتلفيق والمفارقة ما لا يبدو على القول الواحد المسترسل! ».

ويقول أيضاً: « اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد، وما أكثرها في القرآن فهي جمهرته، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدأت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها؟ ووطأت أولاها لأخراها؟ وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها قد نزلت نجوماً ».

الفصل الرابع

جمع القرآن وتدوينه

حديثنا هنا عن « **حفظ القرآن وكتابته** » زمن النبي ﷺ ، و « **جمعه** » أيام أبي بكر رضي الله عنه ، ثم « **نسخ** » المصاحف على عهد عثمان رضي الله عنه . وإن كانت هذه الأعمال الثلاثة يطلق عليها جميعاً ، في كثير من الأحيان ، لفظ « الجمع » ، لكنها تطلق ويراد بها مرة « الحفظ » وأخرى : « الكتابة والتدوين والجمع في مصحف واحد »!

وإذا كان حفظ القرآن ـ بمعنى جمعه في الصدور ـ و« كتابته » على الأوراق المختلفة المتفرقة قد تم في عهد النبي ﷺ ، فإن « جمعه » ـ بمعنى جمع أوراقه المكتوبة في مصحف واحد ـ قد تم في عهد الخليفة الصدّيق . ثم « نسخ » من هذا المصحف عدة نسخ بُعث إلى الأمصار زمن عثمان رضي الله عنهما .

نذكر هذا في مطلع هذا الفصل حتى تتنبه إلى الوهم ـ أو الخلط ـ الذي وقع فيه الدكتور « آرثر جيفري »[1] حين قال في مقدمته لكتاب « المصاحف » : « الرأي الشائع في أن القرآن الكريم كتب في عهد النبي عليه السلام لا يقبله المستشرقون ، لأنه يخالف ما جاء في أحاديث أخرى ، أنه قبض

(١) جيفري من أكثرهم أوهاماً ، وأضعفهم في فهم النصوص . وربما كان أسوأ من « حقق » بعض النصوص الخطية . وأخطاؤه التي وقفنا عليها في نشره لكتاب « مقدمتان في علوم القرآن » تدل على أنه لا شبهة في جهله بالعربية ، ورسوخ قدمه في الجرأة على التحريف والتصحيف!

ﷺ ولم يجمع القرآن في شيء »!

ولا وجه لأدنى خلط بين « كتابة » القرآن في عهد النبي الكريم ، وما جاء في بعض « الآثار » الأخرى أن النبي قبض ولم « يجمع » القرآن « في شيء »! أي في شيء خاص به من مصحف أو سجلّ أو كتاب!! فإن كانت هذه العبارة موهمة عنده ، أو محتملة في ذاتها! ، فإن « جيفري » قد قرأ في الكتاب الذي حققه بيده - وهو كتاب « مقدمتان في علوم القرآن » - روايات « تصرح » « بكتابة » القرآن على عهد النبي ﷺ ، وبلفظ « الجمع » كذلك ، جاء فيها : « أن القرآن كان مجموعاً على عهد رسول الله ﷺ وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له ، أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا » أنظر المصدر السابق ص٢٧ - .

لكن الحسن فيما أشار اليه « جيفري » أنه اعتمد في رأيه ، أو عدم قبوله لما نقول ، على « أحاديث أخرى » أي أنه حصر الخلاف في ميدانه الطبيعي ، وهو تحقيق الآثار والأخبار التاريخية ، أو فهم هذه الآثار والأخبار . وإلا فقومه من المستشرقين ، لا يختلفون معنا في أن القرآن الكريم أصح وثيقة تاريخية نقلت إلينا بطريق التواتر بعد أن تم حفظها في وقت مبكر منذ أن نزلت إلى أن تم توزيع المصاحف على الأمصار الإسلامية في عهد الخليفة الثالث رضي الله عنه . يؤكد هذا أن موضوع « حفظ » القرآن في صدور المئات من الحفّاظ لا ينازع فيه أحد.

وقبل ان نبدأ الكلام على حفظ القرآن الكريم وكتابته في زمن النبي ﷺ ، بوصف ذلك أولى خطوات التوثيق ومراحل الجمع ، وأول الخطوات الدالة على قطعية النص القرآني وتواتره ، نذكر بالكلمات التي ختمنا بها موضوع تعريف القرآن ، عندما قلنا إن تسمية القرآن : قرآناً وكتاباً ، تؤكد أن من حقه أن يكون مصوناً وموثقاً من طريق الحفظ والكتابة جميعاً[1].

---

(١) أنظر فيما سبق ص٤٠ .

أولاً : حفظ القرآن وكتابته في عهد النبي ﷺ

أ ـ الحفظ والجمع في الصدور:

١ ـ كان سيد الحفاظ وأولهم الرسول ﷺ ، الذي « فرق » الله عليه القرآن ليقرأه على الناس « على مُكث » ، والذي تكفل له بحفظه وجمعه في صدوره ، قال تعالى :﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إنّ علينا جمعه وقرآنه ﴾.

وقد كان سبيل حفظه ممهداً أمام النبي ﷺ ، وأمام الصحابة كذلك ، واعتمادهم في الأصل إنما هو على الذاكرة دون الكتابة ، بوصفهم أمة أمية لهم كل خصائص الفطرة النقية ، والذكاء الأصيل ، قال الله تعالى :﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ هذا إلى جانب ما عرف عنهم ـ في الصحراء ـ من صفاء الذهن وجودة القريحة.

بل إن حفظ النبي ﷺ كان يجري عليه لون من ألوان الزيادة في الاطمئنان والتثبت ، ـ ولعله الوجه الذي نراه من وجوه التكفل الإلهي له بحفظه وجمعه في صدره حتى لا يضيع منه شيء ـ وذلك بأن يقرأه النبي على جبريل في كل عام مرة[١] . حتى إذا دنا حضور أجل النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ عارضه جبريل بالقرآن مرتين. جاء في البخاري عن عائشة رضي الله عنها عن فاطمة بنت النبي ـ عليها السلام ـ « أسرّ إليَّ النبي ﷺ أن جبريل يعارضني بالقرآن كل سنة ، وإنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلا حضور أجلي ». وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة قال : « كان جبريل يعرض على النبي القرآن كل عام مرة ، فعرض عليه مرتين في العام الذي قُبض. وكان يعتكف

---

(١) أخرج البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : « كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون في شهر رمضان ، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله القرآن ، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة » البخاري ، ١٠١/٦ .

كل عام عشراً فاعتكف عشرين في العام الذي قبض ».

٢ - ثم يأتي دور الصحابة الذين كانوا يتسابقون في حفظ القرآن واستظهاره، يهجرون من أجل تلاوته في الأسحار نومهم وراحتهم، حتى ليمر الشخص ببيوت الصحابة في غسق الدجى يسمع فيه دوياً كدوي النحل بالقرآن، فكان شغفهم بالقرآن عظيماً جداً. روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن، حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار ». وأقل ما يقال في هذا الشغف الهائل أنه - فيما وراء التلقي للفهم والعمل والتطبيق - من أجل قراءة القرآن في النوافل والفرائض، والتقرب الى الله تعالى بتلاوته. إلى جانب أن النبي ﷺ كان يحثهم على العناية بالتنزيل، ويبعث إلى من كان منهم بعيداً من يقرئهم ويعلمهم، كما بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم الى أهل المدينة قبل هجرته عليه السلام، يعلمانهم الإسلام ويقرئانهم القرآن، وكما أرسل معاذ ابن جبل الى مكة بعد الهجرة للتحفيظ والاقراء.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ الى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا ». وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ: « اقرأ القرآن في كل شهر. قال عبد الله: قلت إني أجد قوة قال: فاقرأه في عشرين ليلة، قال: قلت: إني أجد قوة، قال: فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك ».

وكانت النتيجة لكل هذا أن عدد الحفاظ من الصحابة كان كبيراً، ويكفي أن نعلم أنه قتل منهم يوم بئر معونة ويوم اليمامة، أربعون ومائة، قال القرطبي: قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل في عهد رسول الله ﷺ ببئر معونة - وما أدراك ما يوم بئر معونة - مثل هذا العدد.

غير أن الذين اشتهروا من الصحابة بحفظ القرآن: الخلفاء الأربعة، وطلحة، وسعد، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن العاص، وابن الزبير، ومعاوية، وعائشة، وحفصة. كما حفظه من الأنصار في حياة النبي ﷺ: أُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأنس بن مالك، وكثيرون غيرهم.

ويمكن القول إن حفظهم للقرآن بهذه الاعداد الكبيرة يمثل لوناً من ألوان «التوثيق»، إلى جانب أن بعضهم ربما قرأ أو عرض ما يحفظه على رسول الله ﷺ، أخرج البخاري من حديث عبدالله ابن مسعود - وقد جعله النبي واحداً من أربعة أمر بأن يؤخذ عنهم القرآن[1] - قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليَّ» قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل! قال: «فإني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ قال: «أمسك» فإذا عيناه تذرفان![2].

ب - الكتابة والتدوين:

هذا في موضوع حفظ القرآن - بمعنى جمعه في الصدور - في زمن النبي ﷺ. فإذا انتقلنا إلى «الكتابة» والتدوين نجد أن النبي قد اتخذ كتاباً للوحي، أمرهم بكتابة كل ما ينزل من القرآن، منهم الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وثابت بن قيس، وغيرهم.

فكانوا يكتبونه فيما يسهل عليهم من العُسُب واللخاف والرقاع والأكتاف والاقتاب وقطع الأديم[3]، قال زيد بن ثابت: (كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع) وقال بعد أن أُمر بجمع القرآن: (فجمعته من الرقاع

---

(١) صحيح البخاري ١٠٢/٦.

(٢) المصدر السابق ١٨٠/٦.

(٣) العسب بضم العين والسين جمع عسيب: وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. واللخاف، بكسر اللام جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء، وهو الحجر الابيض الرقيق. والرقاع جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد. والأكتاف جمع كتف وهو عظم البعير أو الشاة يكتبون عليه بعد ان يجف. والأقتاب: جمع قتب - بفتحتين - وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه.

والأكتاف وصدور الرجال) . ـ البخاري ٩٨/٦ ـ

وفوق ذلك فقد نهاهم الرسول الكريم عن أن يكتبوا شيئاً غير القرآن، فقال ﷺ ـ فيما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري ـ «لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه» وذلك ـ فيما يبدو ـ حتى تتوفر جهودهم وهممهم على حفظ القرآن في المقام الاول، وإن كان كثير من العلماء يرى العلة في هذا النهي خشية اختلاط القرآن بالحديث، وربما كان من صواب الرأي أن يقال إن هذا الاختلاط ـ لو رخص لهم النبي بكتابة أحاديثه الشريفة ـ مأمون من أدنى نظر بين الأسلوبين، إلا أن يكون النهي عن جمعها في صحيفة واحدة إن أمن صاحبها اللبس ـ لمكان معرفته وتفريقه ـ في السورة الكاملة او الآيات الكثيرة، فلعله لا يأمنه في آية أو بعض آية كان ينزل بها الوحي، أو إن أمن هو كل ذلك، فقد لا يأمن على من تقع هذه الصحيفة في يده في وقت لاحق!

يؤكد ما أشرنا اليه من توافر الجهود الرئيسية أو الكبرى ـ زيادة في التوثيق ـ أن الحديث لا يخشى عليه مثل هذا الضياع والرسول بين ظهرانيهم وفرصة الإعادة وتجدد مناسبة القول مفتوحة، وفي وسع من أراد السؤال أن يسأل. ولهذا ـ وهذا استطراد لا بد منه ـ لا نجد أي فرصة لاستغراب كثرة رواية أبي هريرة مثلاً مع تأخر إسلامه. بل لعل الشطر الأكبر من الأحاديث النبوية قالها النبي الكريم بعد الهجرة؛ والوحي الالهي يلقي على عاتقه مع آيات التشريع أضعاف ما خصه من الدور مع الآيات المكية التي كانت تدور في معظمها حول قضايا العقيدة وقصص الأنبياء والأمم السابقين.

والنقاط التي يمكننا أن نفصل فيها تفسيرنا السابق لموضوع النهي كثيرة، ونكتفي هنا بالقول: ان هذا النهي على كل حال يمثل لوناً آخر من ألوان التوثيق في الكتابة يحسن التنويه به والإشارة إليه.

ثانياً: جمع القرآن على عهد أبي بكر الصديق

يحدثنا زيد بن ثابت كاتب الوحي على عهد رسول الله ﷺ - فيما رواه البخاري - فيقول: «أرسل اليَّ أبو بكر مقتلَ أهل اليمامة[1] فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ[2] يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقرّاء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ، قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه - فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن - قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني، حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. **فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال**، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسكم عزيزٌ عليه ما عنتُّم﴾ حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه».

١ - يدل هذا النص على أن الباعث على الجمع الذي تم في عهد الصديق وكان بإشارة من ابن الخطاب رضي الله عنهما - هو الخوف من أن «يذهب كثير من القرآن». ولم يفهم «جيفري» - الذي علمت خبره - من هذا الخوف أنه تحرّ في الصيانة والحفظ، ولكنه فهم أن القرآن لم يكن مكتوباً في عهد النبي ﷺ، وإلا فلماذا يخاف عمر من استشهاد الحفاظ؟! وندع ما أشرنا إليه من

---

(١) أي بعد مقتل من قتل في وقعة اليمامة، وهي الموقعة التي دارت بين المسلمين والمرتدين - من أتباع مسيلمة الكذّاب - والتي استشهد فيها من القراء سبعون رجلاً كما أشرنا إلى ذلك.

(٢) أي اشتد.

أن القرآن الكريم « كتب » على عهد النبي ﷺ لنقول : إن ذهاب الحفاظ في المواطن أمر يخاف منه في الغد القريب أو البعيد لأن طريقة أداء المكتوب لا يتأتى إلا عن طريق التلقين والرواية ، وذهاب الذين حفظوا القرآن أيام النبي ﷺ يعوق طريقة الأداء . بل إن ذهاب هؤلاء الحفاظ أمر يخشاه عقل حازم ونظر نافذ كعقل عمر بن الخطاب ونظره و« وثائقيته » المشهورة . . . يخشاه من حيث هو ، ويخشاه كذلك لأن القرآن كما قلنا لا بد فيه من الكتابة والحفظ جميعاً! يؤكد هذا : المنهج الذي رسمه أبو بكر لزيد بن ثابت في هذا الجمع :

٢ - يتلخص منهج الجمع ، كما رسم لزيد وأمر بتنفيذه ، في وجوب الاعتماد على مصدرين : **أولهما** : ما كتب بين يدي النبي ﷺ . **وثانيهما** : ما كان محفوظاً في صدور الرجال .

قال زيد : « فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال » وفي الحديث الآخر ، قال عبد الرحمن بن حاطب : « قدم عمر ، فقال : من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً فليأت به - قال : وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعُسُب - وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان » قال السخاوي : المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ .

وقد شارك عمر زيد بن ثابت في موضوع الجمع ، بإشارة من أبي بكر ، وكانا يطلبان على الحفظ كذلك شهادة شاهدين ، جاء في حديث منقطع رجاله ثقات أن أبا بكر قال لعمر وزيد : « اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه » وقد فسر بعض العلماء هذين الشاهدين : بالحفظ والكتابة . ومعنى ذلك الاكتفاء بشاهد واحد على الكتابة ومثله على الحفظ! ولو صح هذا التفسير المخالف لما ذهب إليه جمهور العلماء - سواء صح الحديث السابق أم لم يصح - لما كان هنالك من داع ليخص زيد بن ثابت - في رواية البخاري السابقة - آخر سورة « براءة » بالذكر! إن كان لا يتطلب على « الكتابة » أكثر من شاهد واحد! ومن نافلة القول أن نشير إلى أن قوله : « لم

أجدها مع أحد غيره » لا يجوز تفسيره بأنه لم يجدها « محفوظة »!! لأنه كان رضي الله عنه - يبحث عن آية « يحفظها » هو! قال الزركشي : « وقول زيد : لم أجدها إلا مع أبي خزيمة ، ليس فيه إثبات القرآن بخبر الواحد ، لأن زيداً كان سمعها وعلم موضعها في سورة التوبة بتعليم النبي ﷺ ، وكذلك غيره من الصحابة . . » قال : « **وتتبعه للرجال كان للاستظهار لا لاستحداث العلم** » .

بل إن من الواضح أن طلب مثل هؤلاء الشهود لا يراد به أكثر من مجرد الاستظهار والاستيثاق وتسهيل عمل زيد بن ثابت . . . لأن الأصل هو في الحفظ المتواتر من قبل جمهور الصحابة رضوان الله عليهم . . . وهذا معنى تخوّف الفاروق الذي لم يفهمه « جيفري » مرة أخرى! ولهذا فإن التواتر هنا في نقل القرآن الكريم لا يكمن في الشاهدين أو في الأربعة شهود ، حتى نقول مع بعض العلماء : إن الاستظهار المتواتر لآخر سورة براءة من قبل الصحابة قام مقام الشاهد الآخر على أنه كتب بين يدي رسول الله ﷺ[1] . . . لأن هذا عكس ما يجب قوله في هذا المقام ، لأن التواتر إنما يكمن حقيقة في موافقة هذا المكتوب في الصحف ، بشهادة أي عدد كان ، لما كان يحفظه الصحابة في صدورهم ، حيث تلقوا عمل أبي بكر بالقبول ، وتمت عليه موافقتهم . . فكأن جمع المتفرق - « فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال » - كان سبيلاً ليعارض بالمجتمع « ليشترك الجميع في علم ما جمع فلا يغيب عن جمع القرآن أحدٌ عنده منه شيء ، ولا يرتاب أحد فيما يودع المصحف ، ولا يشكوا في أنه جمع عن ملأٍ منهم »[2] .

هذا الجمع العلني والإعلامي ، في مجتمع فضل وعلم ودين ، هو الذي قال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله » .

---

(١) أنظر كتاب « علوم القرآن » لفضيلة الأستاذ الدكتور صبحي الصالح .
(٢) راجع البرهان للزركشي .

٣ ـ وأخيراً، فإن من أبرز ما تضمنه حديث زيد السابق[١] أن الصحف التي جمع فيها القرآن ـ بين لوحين أو أجزاء متفرقة ـ كانت عند أبي بكر الخليفة رضي الله عنه، ثم آلت إلى سيدنا عمر من بعده، ثم صارت إلى حفصة بنت عمر أمير المؤمنين، ولم توضع عند عثمان لأن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ترك الخلافة شورى من بعده في ستة فلا يحسن دفع هذه الصحف الى واحد منهم، وإلا لكان ذلك من أمارات الترجيح! يضاف إلى ذلك أن حفصة رضوان الله عليها هي زوجة النبي ﷺ وأم المؤمنين، وكانت متمكنة من القراءة والكتابة، فضلاً عن حفظها للقرآن الكريم عن ظهر قلب، فبقيت هذه الصحف عندها إلى أن طلبها منها الخليفة عثمان بن عفان، كما سنرى في الفقرة التالية:

ثالثاً ـ نسخ المصاحف على عهد عثمان رضي الله عنه

١ ـ كان الجمع الذي تم في عهد الصديق، إذن، جمعاً عاماً، أو جمعاً «رسمياً» قام به الخليفة، وشارك فيه جمهور الصحابة أو جماعة المسلمين: الحافظ بحفظه والكاتب بكتابته. إلا أن هذا الجمع لم يرد له أبو بكر رضي الله عنه أن يكون «قاضياً» على الصحف الخاصة التي جمع فيها بعض الصحابة القرآن لأنفسهم، كما فعل عبدالله بن مسعود وأبو موسى الأشعري والمقداد بن عمرو وأبي بن كعب وعلي ابن أبي طالب ـ وكان غالب هذا الجمع يتمثل في تسجيلهم لما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ ـ لأن همّ أبي بكر وعمر كان مصروفاً لمبدأ الجمع الموثق الذي يتم على ملأ من الحفاظ وعامة المسلمين، والذي كان من أركانه بعض أصحاب هذه الصحف أو المصاحف، ولهذا فإن هذه الصحف لم تختلف عن المصحف السابق إلا في ترتيب السور من ناحية، وفي بعض

---

(١) من هذه الأمور: الثقة المطلقة بزيد من قبل أبي بكر وعمر رضي الله عنهم، هذه الثقة التي لم يؤكدها أنه كاتب للوحي: فحسب، حتى دل عليها بمكانه في الورع والتقى ـ لخشيته من هذا الأمر ـ والحزم والعقل، والتحري والضبط جميعاً.

القراءات التفسيرية والقراءات ذات الطابع اللهجي من ناحية أخرى[1]، لأنهم إنما كانوا يدونون هذه الصحف لأنفسهم، وتأكيداً أو تطبيقاً لمبدأ نزول القرآن على سبعة أحرف، كما سنشير إلى ذلك في بحث قادم.

وقد علل صاحب كتاب المباني اختلافهم في ترتيب السور «بأن الواحد منهم إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله ﷺ أو كتبها ثم خرج في سرية فنزل في وقت تغيبه سور، فإنه كان إذا رجع فأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته فيتتبع ما فاته على حسب ما يستهل له، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير من هذا الوجه». قال: «وليس يقدح في الثقة بالقرآن أن كانت السور متفرقة على غير ولاء بعد أن كانت معروفة عند عامتهم، محفوظة عن أن يزاد فيها أو ينقص، كما أنه ليس يقدح في قصائد زهير والأعشى وغيرهما من الشعراء أن تكون قصائدهم متفرقة، ثم تجمع بين دفتين فتقدم قصيدة وتؤخر أخرى»[2].

أما الاختلاف بالزيادة والنقص - فيما وراء الأحرف السبعة - فلم يكن له وجود، ومن ظن ذلك فقد غفل عن النقطة التي أشرنا اليها، وهي أن هذه الصحف صحف خاصة، وربما دوّن صاحبها على واحد من اللخف دعاءً أو حديثاً وهو يأمن أنه ليس من القرآن، أو ترك تدوين سورة يعلم أنها من القرآن.. فمصحف ابن مسعود - على سبيل المثال - زعم بعضهم أنه كان يخلو من سورة الحمد! قال ابن قتيبة: «وكيف يظن به ذلك وهو - أي ابن مسعود - من أشد الصحابة عناية بالقرآن؟ ولكن ذهب فيما يظن أهل النظر إلى أن القرآن إنما جمع وكتب بين اللوحين مخافة الشك والنسيان والزيادة والنقصان، ورأى ذلك لا يجوز على سورة الحمد - فاتحة الكتاب - ... فلما أمن عليها العلة التي من أجلها كتب المصحف ترك كتابتها وهو يعلم أنها من القرآن».

---

(١) أنظر دراسة مطولة لهذه المصاحف في كتاب «تاريخ القرآن» للدكتور عبد الصبور شاهين ص١٢٥ - ١٨٩ وانظر كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» للإمام ابن حزم ٧٦/٢ - ٨٠.

(٢) «مقدمتان في علوم القرآن» ص٣٢ - ٣٣.

غير أن تعدد المصاحف بجوار مصحف أبي بكر، وانتشار القراء في الأمصار، تسبب في تعدد القراءات، واختلاف القراء. فكانت الحلقة الثالثة أو المرحلة الأخيرة من مراحل جمع القرآن الكريم، قام بها عثمان بن عفان رضي الله عنه. وفي ذلك يروي لنا البخاري الخبر التالي:

«عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى! فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريشٍ فإنما نزل بلسانهم ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة. فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نَسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق»[1].

وتوضح بعض الروايات الأخرى عند أبي داود وفي كتابي (البرهان) و(الإتقان) أن الاختلاف في القراءة الذي لاحظه حذيفة، والذي ظهر عند اجتماع الجيوش الإسلامية الوافدة من الأقاليم ـ سورية والعراق ـ يعود إلى أن أهل الشام كانوا يتبعون قراءة «أبيّ بن كعب» والعراقيين يتبعون قراءة ابن مسعود.. وبعضهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري، فقال بعضهم لبعض: «قراءتنا خير من قراءتكم..»[2] وهذا أمر يُفزع من مثله، وإن دلّ على شيء ـ فيما وراء الاختلاف في القراءة الذي يسمح به نزول القرآن على سبعة أحرف ـ فانما يدل على أن شيئاً من الطابع الفردي أو الشخصي قد أسبغ على مصحف

---

(١) صحيح البخاري ٦/٩٩.

(٢) أنظر البرهان ١/١٣٩ والاتقان ١/١٠٢ ـ ١٠٣ وأنظر كتاب مدخل الى القرآن الكريم للدكتور دراز ص٣٨.

أبي بكر على الرغم من العناية التي بذلت في جمعه[1] وإن الذي ساعد على ذلك بقاؤه محفوظاً بعناية عند الخليفتين الاولين، إلى جانب طبيعة المكانة المتكافئة أو المتقاربة التي يحتلها الصحابة عموماً، والتي لا تجعل من الخليفة رجلاً متميزاً في المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت. ولهذا فان الواجب الآن، بعد الاختلاف الذي أشار اليه حذيفة، يقتضي إعطاء مصحف أبي بكر فرصة النشر والتعميم على الأقاليم الإسلامية، وجعله وثيقة للبشر كافة من يوم النشر والتعميم. وهذا ما فعله عثمان بن عفان كما تدل على ذلك الروايات الكثيرة، وكما أقره عليه الصحابة رضوان الله عليهم عندما قالوا له: نعم ما رأيت[2].

٣ - تشير رواية البخاري السابقة الى أن اللجنة التي انتدبت للقيام بهذا العمل كانت مؤلفة من أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ، ثلاثة من قريش، وواحد من الانصار وهو زيد بن ثابت.

وجاء في بعض الروايات أن الذين انتدبوا للقيام بهذا العمل أكثر من هذا العدد[3]، ويبدو أن اللجنة التي «كلِّفت» من قبل الخليفة تتألف من أربعة، إلا أن اجتماع الصحابة على العمل واشتراكهم في الإقرار بأن النبي ﷺ قرأ على هذا النحو - الذي نجده الآن في المصاحف - وتثبت الجماعة من ذلك.. هو الذي أوهم كثرة العدد في اللجنة الرسمية التي أنيط بها العمل المذكور؛ أخرج ابن أشتة من طريق أيوب عن قلابة أن عثمان بن عفان - وقد راعه اختلافهم - قال: **يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً**، فكتبوا، فكانوا إذا اختلفوا وتدارءوا في آية قالوا: هذه أقرأها رسول الله فلاناً، فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة، فيقال له: كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا؟ فيقول: كذا وكذا، فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكاناً.

وفي رواية أخرى أن عثمان، بعد أن أحضروا الصحف التي كانت في بيت

---

(١) انظر الدكتور دراز، المصدر السابق.

(٢) «مقدمتان في علوم القرآن» ص٤٤ والاتقان ١٠٣/١.

(٣) الاتقان ١٠٣/١.

حفصة « كان يتعاهدهم، فكانوا إذا ادّرءوا في شيء أخّروه. قال: فظننت إنما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونه على قوله[1].

٤ - وقد استهدف عثمان رضي الله عنه من عمله في نشر القرآن وتعميمه أمرين أساسيين:

الأول: منع التماري في القرآن والشجار بين المسلمين بشأن القراءات المختلفة، لأن المصاحف العثمانية أضفت الصفة الشرعية على القراءات المختلفة التي كانت تدخل في إطار النص المدون ولها أصل نبوي مجمع عليه.

الثاني: حماية النص القرآني ذاته من أي تحريف، نتيجة إدخال « بعض العبارات المختلف عليها نوعاً ما، أو أي شروح يكون الأفراد قد أضافوها إلى مصاحفهم بحسن نية »[2].

٥ - ومن هنا يمكن لنا أن نتبين:

قاعدة عثمان في الجمع ومزايا المصاحف العثمانية.

آ - كتابة القرآن بلغة قريش لأنه إنما نزل بلسانهم، وهكذا احتفظت كلمة « تابوت » التي كانت تكتب « تابوه » في المدينة بشكلها المكي.

ب - جردت المصاحف العثمانية من كل ما ليس قرآناً، كالشروح والتفاسير التي كان يكتبها بعض الصحابة في مصاحفهم مثل قوله تعالى: ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ورحمة ﴾ فقد كتبها ابن مسعود:

« ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ورحمة » (في موسم الحج) وقرأ غيره « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة - صالحة - غصباً » بزيادة كلمة « صالحة » بطريق الشرح والتفسير، لأنهم - كما قدمنا - كانوا يكتبون هذه المصاحف لأنفسهم ويدونون عليها بعض التفاسير لأنهم محققون لما تلقوه عن

---

(١) راجع المصدر السابق.
(٢) « مدخل إلى القرآن الكريم » للدكتور دراز ص٣٠.

النبي ﷺ قرآناً ، فهم آمنون من الالتباس .

ج - كانت هذه المصاحف خالية من النقط والشكل ، مما فسح المجال لقراءة القرآن بأي من الحروف السبعة التي نزل عليها ، وبذلك لم يسقط عثمان رضي الله عنه شيئاً من قراءات القرآن ولم يمنع احداً من القراءة بأي حرف شاء ما دامت هذه الحروف كلها منقولة بالتواتر عن النبي ﷺ ، ورسول الله يقول « فأي ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا » كما سنوضح ذلك في بحث الأحرف السبعة .

أ - فإن كان في الكلمة الواحدة أكثر من قراءة ، وكان رسمها يُقرأ بأكثر من وجه عند تجردها من النقط والشكل ، وبجميع تلك القراءات ، رسمت في جميع المصاحف برسم واحد ، نحو (فتبينوا) من قوله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ فقد كانت تكتب « فسوا » وتصلح أن تقرأ « فتثبتوا » وهي قراءة أخرى . وكذلك كلمة « ننشرها » من قوله تعالى : ﴿وانظر الى العظام كيف ننشرها ﴾ فان تجردها من النقط والشكل يجعلها صالحة لأن تقرأ « ننشزها » وهي قراءة معروفة أيضاً .

فان قيل ان الرسم العثماني الخالي من الشكل والنقط ، يتيح المجال للكثير من الألفاظ القرآنية أن تقرأ بأكثر من وجه واحد ، فهل تجوز القراءة بهذه الوجوه؟ قلنا ان الامثلة المذكورة التي صلح الرسم فيها للقراءتين المذكورتين إنما جاز القراءة فيهما لورود الدليل القاطع على صحة القراءة بهما . . . إما لأن رسول الله ﷺ قرأ بهما ، أو لأن أحد الصحابة قرأ بأحدهما بحضوره فأقره النبي ولم ينهه عن ذلك . أما ما وراء ذلك فلا تجوز القراءة فيه بغير الوجه الواحد المروي بطريق التواتر . ولذلك اعتبرت قراءة « شاذة » كل ما وجد عليها دليل آحادي غير متواتر ولو صلح الرسم للقراءة بها ، كقراءة ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ برفع لفظ الجلالة ونصب كلمة « العلماء » فهي قراءة شاذة ، لأن القراءة المروية عن الثقات ، بنصب لفظ الجلالة ورفع العلماء .

٥ - أما إن كان اللفظ القرآني جاء فيه أكثر من رواية متواترة يتعذر رسمه (دون شكل ونقط) في الخط محتملاً لجميع الوجوه، فانهم كانوا يرسمونه في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي بعض آخر برسم يدل على قراءة ثانية كقراءة ﴿ وصّى »، بالتضعيف و« أوصى » بالهمز، الواردتين بالتواتر في قوله تعالى: ﴿ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ ولم يكونوا يكتبونه بالرسمين في مصحف واحد خشية ان يتوهم ان اللفظ نزل مكرراً بالوجهين في قراءة واحدة[1].

٦ - وأخيراً فإن عثمان رضي الله عنه كلف اللجنة بنسخ مصحف حفصة بعدد من النسخ يعادل عدد الأمصار الرئيسية في الدولة الاسلامية - والأرجح أنها كانت ست نسخ - وأرسل إلى كل مصرٍ بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق، لأن الأمر لم يعد يحتمل التأخير أو الترك بعدما نجم من خلاف، وما تم من التحري والضبط في مصحف الخليفة أو المصحف الإمام. وقد استجاب أصحاب « المصاحف » السابقة لأمر الخليفة وقاموا بحرق مصاحفهم، ومنهم عبد الله بن مسعود الذي كان لديه أكثر من سبب لكي لا يرضى عن السياسة[2]، أحرق مصحفه وأقر بصحة مصحف عثمان، بل لقد أورد صاحب كتاب المصاحف عنواناً جاء فيه: « رضا عبد الله بن مسعود لجمع عثمان رضي الله عنه في المصاحف »...

أما ما يظنه بعض الإخوة الشيعة من أن عثمان حرص على حرق الصحف والمصاحف الأخرى ليخفي التبديل الذي أحدثه في النص القرآني، وعلى وجه التحديد: ليسقط شيئاً يتعلق بسيدنا عليّ بن أبي طالب! فلا نقول في نقضه إلا أن عثمان رضي الله عنه لو فعل ذلك « لراجعه حملة القرآن، وما أكثرهم في وقت نشر مصحف عثمان عند مضاهاته على ما يحفظونه في صدورهم »! بالاضافة إلى أن تعيين « الأئمة » والخلفاء وتعداد الفضائل الشخصية للصحابة لم يعرف في

---

(١) انظر مناهل العرفان للزرقاني ١/٢٥٢.

(٢) الدكتور دراز « مدخل الى القرآن الكريم » ص٣٩.

كتاب الله ، ولم تعرض قضايا الحكم والمال وشؤون المعاملات في القرآن في غير إطار المبادىء العامة والأحكام الأساسية!! ومن سهل عليه أن يطعن في جميع الصحابة والمسلمين الأوائل من المهاجرين والأنصار لزعم قامت الأدلة على نقيضه من القرآن نفسه . . . سهل عليه أن يقول ما شاء ؛ يقول الدكتور دراز : « ونظراً لغيرة المسلمين الأوائل ، وهم بطبيعة الحال أكثر تحمساً لكلام الله من خلفائهم ، يستحيل علينا أن نعلل قبول الكافة لمصحف عثمان دون منازعة أو معارضة بأنه راجع الى انقياد غير متبصر من جانبهم . ولقد قرر « نولدكه » أن ذلك يعد أقوى دليل على أن النص القرآني « على أحسن صورة من الكمال والمطابقة »[1] .

وينقل عن « لوبلوا » قوله : « إن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر » وكان « و . موير » قد أعلن ذلك قبله إذ قال : « إن المصحف الذي جمعه ـ نسخه ـ عثمان قد تواتر إلينا بدون أي تحريف . ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر ، بل نستطيع أن نقول : إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الاسلامية الواسعة . . **فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الاسلامية المتنازعة** ، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا . . »[2] .

هذا ، وقد عبرت الشيعة الإمامية (أهم فرق الشيعة) عن هذا المعنى كما ورد في كتاب أبي جعفر الأم ، قال : « إن اعتقادنا في جملة القرآن الذي أوحى به الله تعالى الى نبيه محمد ﷺ هو كل ما تحتويه دفتا المصحف المتداول بين الناس . وعدد السور المتعارف عليه هو ١١٤ سورة ، أما عندنا فسورتا الضحى والشرح تكونان سورة واحدة ، وكذلك سورتا الفيل وقريش ، وأيضاً سورتا

---

(١) الدكتور دراز : المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

الأنفال والتوبة. أما من ينسب إلينا الاعتقاد في أن القرآن أكثر من هذا فهو كاذب »[١].

بل إن هذا الفرق في طريقة تقسيم السور وترقيمها فرق نظري عند هؤلاء العلماء لأن نسخهم في الواقع لا تختلف عن نسخ أهل السنة في شيء. ويكفي إن زعم لك زاعم أن لديه « سورة مجهولة » أو نصاً مفقوداً، أن تلاحظ ـ فقط ـ الفرق بين التراكم الركيك من العبارات، والكلمات المسروقة من القرآن نفسه، وبين أناقة الأسلوب القرآني وتناسقه!! ومن هنا فإن مثل هذه المزاعم لم توجد إلا بعد مضي بضعة قرون على عصر نزول القرآن الكريم[٢] ولعل أصحابها لم يريدوا أن يكونوا ملكيين أكثر من الملك! ـ لأن سيدنا علياً لا يرضى بهذا الاختلاق وحاشاه من ذلك ـ بل أرادوا الطعن في نهاية المطاف بعلي بن أبي طالب نفسه كرم الله وجهه ورضي الله عنه، وأرادوا مخالفته ومناقضته ومناقضة الاسلام والقرآن جميعاً... روى أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال: « سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان وقولكم حراق مصاحف! فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منّا أصحاب رسول الله ﷺ ». وعن عمر بن سعيد قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل ما فعل »[٣].

ومعنى ذلك أن الدواعي لفعل عثمان كانت قائمة، وأن ما فعله لم يتم في الخفاء، ولكن بعلم الصحابة ومشورتهم، ولو كان علي كرم الله وجهه يعلم أن في شيء من ذلك إسقاطاً أو تجاوزاً لما تجاوز هو عنه!... ولئن جاز عليه ـ وحاشاه من ذلك ـ أن يتجاوزه وهو في صف المعارضة، كما يصوره بعض الناس، لما جاز له أن يشتغل وهو خليفة لمدة تقرب من ست سنوات! بمقاتلة من خالفوه في

---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أنظر البرهان للزركشي ١/٢٤٠ ومقدمتان في علوم القرآن ص٤٦. ومناهل العرفان ١/١٥٥

السياسة عن تصحيح القرآن ومقاتلة الذين رضوا بتحريفه وتبديله! بل إنه كان يتلوه على هذا الوجه ويؤم الناس فيه بالصلاة!! وصدق الله العظيم﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وكذب الزائغون والمرجفون!.

رسم المصحف أو الرسم العثماني:

يراد بالرسم رسم الحروف الهجائية التي تدل على الكلام ويراد بالرسم العثماني: رسم القرآن بالطريقة التي تمت على عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهي الطريقة اتبعتها اللجنة الرباعية المتقدمة التي وُكل اليها أمر استنساخ مصاحف الامصار، وكانت ست مصاحف، على الأرجح.

وإذا كان الأصل في المكتوب ـ كما يقال ـ ان يوافق المنطوق تمام الموافقة من غير تعديل ولا تغيير فإن المصاحف العثمانية لم تجر على هذا الأصل تماماً فوجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها غير موافق لأداء النطق، بحسب بعض قواعد خاصة في الخط والهجاء. وتعود هذه القواعد الخاصة جميعاً الى الحذف والزيادة والبدل والوصل والفصل وما فيه قراءتان فيكتب على إحداهما[1] مما أسهم في شرحه وضرب الشواهد القرآنية عليه، كثير من العلماء منهم السيوطي في الإتقان، والزركشي في البرهان الذي أفاض في ذلك تحت عنوان «اختلاف رسم الكلمات في المصحف والحكمة فيه»[2] إلى جانب العلماء الآخرين الذين أفردوا هذا الفن بالتأليف، منهم أبو عمرو الداني في كتابه «المقنع» وأبو العباس المراكشي في كتابه «عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل» وغيرهما.

وقد بقي هذا الرسم العثماني سنة متبعة إلى يوم الناس هذا، لا يغير ولا يبدل، وإلى ذلك ذهب علماء المسلمين على مدى العصور، فكرهوا أو حرّموا تغييره تبعاً لتغير رسوم الهجاء باختلاف الزمان والمكان؛ وزيادة في الحيطة والخشية والحذر من أي تغيير يعود أو يصيب النص القرآني ولو في ناحية

---

(١) أنظر مفتاح السعادة ٢/٢٢٩.

(٢) الزركشي في البرهان: ١/٢٨٠ وأنظر مناهل العرفان: ١/٣٦٢.

شكلية محضة ؛ سئل الإمام مالك : « هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا . إلا على الكتبة الأولى » وقال الإمام أحمد بن حنبل : « يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك » .

أما صور اختلاف الرسم العثماني عن « الرسم الإملائي » فكثيرة ، ذكر ابن قتيبة أن من أشهرها حذف ألف التثنية : قال « رجلن » ـ قال رجلان ـ وكتابة : « الصلاة ، والزكاة ، والحياة » بالواو : الصلوة ، والزكوة والحيوة . وكتابة « الربو » ـ الربا ـ بالواو . كما كتبوا « فمال الذين كفروا » بلام منفردة . وكتبوا « أولاً أذ بحنه » بزيادة ألف ، وكذلك « ولا أوضعوا خلالكم » بزيادة ألف بعد لام ألف . قال ابن قتيبة : « وهذا أكثر في المصحف من أن نستقصيه » وإن كان الرسم العثماني لم يسر على قواعد مطردة تماماً على كل حال .

والذي يمكن أن نختم به هذه الفقرة ، تأكيداً لما ذهب اليه العامة من كراهية تغيير هذا الرسم ، أن الذي رفضه العلماء خلال العصور هو : **إخضاع الرسم العثماني للتغيير بحسب تطور قواعد الرسم والإملاء ، لا ترك ذلك الرسم مخالفاً لهذه القواعد** . . . لأن المصاحف العثمانية لم تكتب في الأصل بغير الرسم والإملاء الذي كان قائماً وقت تدوينها ، أو التي وضعت عند تدوين المصاحف ؛ فدعوى مخالفة الرسم العثماني لقواعد الإملاء . . هكذا بإطلاق ، أمر غير صحيح .

أما كراهية إخضاع هذا الرسم للتطوير والتعديل الذي يطرأ مع الأيام فقد علمت سببه ، وهو لذلك أمر يجب تأييده . . . ولا تخلو لغة من اللغات الحية اليوم من حروف تكتب ولا تلفظ ، أو من حروف تكتب على وجه وتلفظ ـ في بعض الكلمات ـ على وجه آخر . . إلخ ، وهي أمور يصيبها التلميذ عن طريق التعلم . . . والقرآن عماد العربية وكتابها . . والأمر في لغته التعليم ، وفي القرآن الكريم نفسه المشافهة والتلقي كما قلنا أكثر من مرة .

أما الدعوة إلى تغيير هذا الرسم تحت شعار المعاصرة والتسهيل فأعجب ما

فيها ـ وعجائبها كثيرة لا مجال هنا للإفاضة فيها وفي الرد عليها وتقويمها ـ أن تكون في عصر الوسائل التعليمية المتنوعة الكثيرة والمتقدمة!! وقد حُفظ القرآن، وتعمم رسمه، وبقي اللسان العربي وقواعد الإملاء.. وقواعد النحو طيلة هذه القرون الخمسة عشر!! وبدون تلك الوسائل التعليمية الحديثة... فهل يستقيم عند دعاة المعاصرة هذه! ـ لا مطلق المعاصرة بالطبع ـ أن يقال فيهم وفي أبناء جيلهم ما لا نرتضيه لهم من الكسل والغباوة وغير ذلك؟!

الفصل الخامس

الآيات والسُّور وترتيبهما

- ١ -

تعريف السورة :

والسور جمع سورة ، بدون همز وهو المشهور ، كغرفة وغرف ومعناها : المنزل المرتفع ، ومنه سور المدينة . أو المنزلة الرفيعة ، ومنه قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة   ترى كل ملك دونها يتذبذب

أي منزلة رفيعة على سائر الملوك .

وقد قيل في القطعة من القرآن المشتملة على آي ذوات فاتحة وخاتمة - وأقلها ثلاث آيات - سورة لأنها تحيط بالآيات التي تضمها إحاطة السُّوْر ، أو لارتفاعها وشرفها .

وقد قيل انها سميت بذلك لتمامها وكمالها ، من قول العرب للناقة التامة : سورة . ولعل هذا أقرب الآراء .

عدد السور واختلاف مقاديرها :

وسور القرآن مختلفة طولاً وقصراً ، فأقصر سورة فيه الكوثر ، وهي ثلاث آيات قصار ، وأطول سورة فيه البقرة وهي خمس وثمانون أو ست وثمانون ومائتا آية ، وأكثر آياتها من الآيات الطوال .

وتبلغ عدد سور القرآن أربعة عشر ومائة سورة يقسمها العلماء الى أربعة أقسام لكل منها اسم معين، وهي الطوال والمِئين والمثاني والمفصَّل.

فالطوال: سبع سور: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف. وأخيراً يونس أو «الأنفال وبراءة» معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة.

والمئون: هي السور التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

والمثاني: هي التي تلي المئين في عدد الآيات، وقال الفراء: هي السور التي آيها أقل من مائة آية لأنها تثنّى ـ تكرر وتعاد ـ أكثر من الطوال والمئين.

والمفصّل: هو أواخر القرآن، وصحح النووي أن أوله «الحجرات» وسمي بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة.

والمفصل ثلاثة أقسام: طوال وأواسط وقصار، فطواله من أول «الحجرات» الى سورة «البروج» وأواسطه من سورة «الطارق» إلى سورة «لم يكن» وقصاره من سورة «إذا زلزلت» إلى آخر القرآن[1].

أسماء السور:

وأخيراً فان لكل سورة من سور القرآن اسماً واحداً، وهو الأعم الأغلب، وقد يكون لها اسمان، كسورة «البقرة» يقال لها: فسطاس القرآن، لعظمها وبهائها، و«النحل» تسمى سورة النعم، لما عدد الله فيها من النعم على عباده.. وسورة «حم عسق» وتسمى الشورى، وسورة «محمد» ﷺ وتسمى: القتال.. وقد يكون لها ثلاثة أسماء أو أكثر كسورة «غافر» والطَّول والمؤمن لقوله تعالى فيها ﴿وقال رجل مؤمن﴾ وكسورة «الفاتحة» التي تسمى أيضاً بأم الكتاب، والسبع المثاني وأم القرآن.

وقد كره بعضهم هذه التسميات بطريق الاضافة، وذهب الى أن يقال في

---

(١) انظر البرهان ١/٢٦٩.

ذلك السورة التي يذكر فيها البقرة أو آل عمران . . . الخ والدليل على صحة التسميات السابقة هو الصحيح من المأثور .

معنى الآية :

أما « الآية » فتطلق في اللغة على عدة معان ، منها : المعجزة ، والجماعة ، والعلامة الظاهرة ، والعبرة . وتجمع على آي وآيات - وآياء - . أما الآية في الاصطلاح أو في القرآن الكريم ، فهي عبارة عن طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وعما بعدها ، لها مبدأ ومقطع وهي مندرجة في سورة . وتعرف توقيفاً على الارجح .

وقد سميت الآية من القرآن آية لأنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله ، أي هي بائنة من اختها ومنفردة . وقد سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه .

وفي الآيات الطويل والقصير ، وأقصرها كلمة واحدة ، كقوله تعالى : « والفجر » « والضحى » « مدهامتان » . وأطول آية في كتاب الله آية المداينة ﴿يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . . ﴾ الآية - ٢٨٢ من سورة البقرة - وتقع في حوالي صفحة كاملة .

وعدد آيات القرآن ستة آلاف ومائتا آية ونيف .

- ٢ -

ترتيب الآيات والسور

١ - **ترتيب الآيات** « الاجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك » كما يقول السيوطي[1] . وقد قال زيد بن ثابت ، في

(١) الاتقان ١٠٤/١ وقال الزركشي : « وأما ما يتعلق بترتيبه - القرآن - فأما الآيات في كل سورة ، ووضع البسملة في أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ، ولا خلاف فيه ، ولهذا لا يجوز تعكيسها » البرهان ٢٥٦/١ .

الحديث الذي أخرجه البخاري ، « كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع » . وعن ابن عباس ، في الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم ، قال : « قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى « الأنفال » وهي من المثاني وإلى « براءة » وهي من المئين ، فقرنتم بينها ولم تكتبوا بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتموهما في السبع الطوال؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت « الأنفال » من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت « براءة » من آخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم اكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتها في السبع الطوال » .

وأخرج الامام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوّبه ، ثم قال : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى » .

ولقد كان النبي ﷺ يقرأ في الصلاة سوراً عديدة على مسمع من الصحابة مرتبة على نحو وجودها في الرقاع ، وفي المصاحف بعد ذلك ، كقراءته لسورة « الروم » في صلاة الفجر ، وسورة « هل أتى على الانسان » في صبح يوم الجمعة ، وقراءته سورة « الجمعة » وسورة « المنافقين » أو سورتا « الأعلى » و « الغاشية » في صلاة الجمعة . وروى الإمام مسلم من حديث حذيفة قال : « صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح « البقرة » فقلت : يركع عند المائة ثم مضى فقلت : يصلي بها ركعة ، فمضى ثم افتتح « النساء » فقرأها ... الحديث » .

وهنالك أحاديث في فضائل السور ، وأحاديث أخرى في تحديد بعض الآيات من بعض السور ، كخواتيم سورة البقرة ، أو العشر الأوائل من سورة

الكهف ، أو العشر الأواخر منها . . . مما يدل على تأليفها على هذا النحو[1] .

والذي يبدو لنا أن موضوع التوقيف في ترتيب الآيات مما لا يتصور فيه خلاف ، بعد هذا ، ولأن مسألة « النظم » القرآني التي تشكل أبرز دلائل الاعجاز في القرآن تعود في أبرز وجوهها إلى ذلك الترتيب ، مما يدل على أنه من عمل الوحي يقيناً ، والله أعلم.

ترتيب السور :

أما ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه فقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه توقيفي كترتيب الآيات سواء بسواء ، قال أبو جعفر النحاس : « المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ لحديث واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الزبور المئين ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفضلت بالمفصَّل قال أبو جعفر : وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ﷺ ، وأنه من ذلك الوقت ، وانما جمع في المصحف على شيء واحد »[2] وروى ابن أبي شيبة في مصنفه ان رسول الله ﷺ كان يجمع المفصل في ركعة ، وأنه قرأ بالسبع الطوال في ركعة. وروى البخاري عن ابن مسعود أنه ﷺ قال في سور « الإسراء ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء » « إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادي » فذكرها نسقاً كما استقر ترتيبها.

ويؤكد أصحاب هذا الرأي ما ذهبوا إليه بأن المناسبات بين السور لا تقل عن النظم ووجه ارتباط الآيات بعضها ببعض في السورة الواحدة . وقد درج على بيان تلك المناسبات بعض المفسرين ، وكانوا يطلبونها بين آخر السورة وأول السورة التي تليها ، أو بين أول هذه السورة وجملة السورة السابقة في بعض الأحيان[3] . قال الزركشي : « لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع

---

(١) راجع الإتقان ١/١٠٣ ـ ١٠٥ .
(٢) الاتقان ١/١٠٨ .
(٣) انظر كتابنا الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن ص٣٧٣ ـ ٣٨٠ .

على أنه توقيفي صادر عن حكيم: أحدها بحسب الحروف، كما في الحواميم. وثانيها لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها، كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة. وثالثها للوزن في اللفظ، كآخر «تبت» وأول «الإخلاص». ورابعها لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى مثل «والضحى» و«ألم نشرح»[1]». وقال ابن الأنباري: «.. اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن!»

ويورد السيوطي القول بأن جمهور العلماء، منهم الإمام مالك، على أن ترتيب السور اجتهادي من فعل الصحابة، بدليل اختلاف مصاحف الصحابة في هذا الترتيب فمصحف علي بن أبي طالب على النزول: «إقرأ، المدثر، نون، المزمل، تبت، التكوير...» وكان أول مصحف ابن مسعود البقرة ثم النساء ثم آل عمران...

ولكن هذا الاطلاق في هذا الرأي يتعارض مع الروايات الصحيحة الدالة على ترتيب سور كثيرة عرضت لها هذه الروايات. يضاف الى ذلك أن ترتيب الصحابة لمصاحفهم الخاصة إنما هو اختيار وقتي لم يلتزموا الدفاع عنه.. بل إننا نجدهم قد التزموا بالترتيب الذي تم في اللجنة العثمانية.

والذي يبدو من مجموع الروايات والآراء حول هذا الموضوع أن أكثر سورا القرآن الكريم كانت مرتبة على هذا النحو في زمن النبي ﷺ، وأن العدد الأقل أو عدداً قليلاً لعله لا يتعدى سورتين أو ثلاث ـ أو بضع سور على الأكثر ـ قد رتب على يد الصحابة رضوان الله عليهم. قال البيهقي: «كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتباً سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة، لحديث عثمان السابق». وذهب ابن عطية الى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها في حياته ﷺ كالسبع الطوال، والحواميم، والمفصّل. وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوّض الأمر فيه إلى الأمة بعده. قال أبو جعفر: «الآثار

---

(١) البرهان ٢٦٠/١.

تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية، ويبقى منها قليل يمكن ان يجري فيه الخلاف ».

ومهما يكن من أمر فإن هذا الترتيب الذي نجده الآن في المصاحف تمّ في الصدر الأول من الإسلام، ومضت الأمة على قبوله والعمل به أربعة عشر قرناً من الزمان، حتى كان العمل به والوقوف عنده لازماً لا يجوز التحول عنه أو المصير الى غيره، مهما قيل في مستنده أتوقيف هو أم اجتهاد، وإن كنا قد أوضحنا لك أن أكثره ـ على الأقل! ـ كان بتوقيف.

بل إن من غير المستساغ والممكن معاً ترتيبه بحسب النزول ولو لغرض التفسير ـ لا للتلاوة والتدوين في المصاحف ـ لأن في ذلك خدشاً لـ « صوره » الإجماع السابق، ولأن السورة الواحدة من القرآن لم تكن تنزل دائماً مرة واحدة، أو لم تكن تنزل آية أو آيات من سورة ثانية إلا بعد أن يتم بناء السورة السابقة!! فالترتيب هنا بحسب النزول فيه كثير من التجاوز، إلى جانب ما فيه من « تضخيم » مرحلية البناء وتضييق ساحة النص القرآني، الذي أراد الله تعالى له أن يكون عاماً شاملاً، يعين سبب النزول[1] فيه على مزيد من الفهم، لا على الانغلاق في حدود البيئة أو الزمان. ولعل هذا أن يكون أحد الأسباب التي تؤيد ما ذهبنا إليه من ترتيب السور، وأن كثرتها الكاثرة كان توقيفياً، حيث تعاقبت السور المدنية والمكية في المصحف، بل بدىء فيه بأربع سور

مدنية طوال تتألف من قرابة ثمانمائة آية... لم يتقدمها من الآيات المكية سوى سورة الفاتحة التي تمثل خلاصة العهد المكي وتتألف من سبع آيات قصار.

---

(١) انظر بحث سبب النزول في صفحات قادمة.

الفصل السادس

الفصل السادس

الأحرف السبعة

أولا: بعض الآثار الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف

١ - روى البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلّم، فلما سلّم لبّبته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ! فقلت: كذبت فوالله إن رسول الله لهو أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها! فانطلقت أقوده الى رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان! فقال رسول الله ﷺ: أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأها، فقال رسول الله ﷺ. هكذا أنزلت. ثم قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه».

٢ - وروى البخاري ومسلم أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «قال رسول الله ﷺ أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة أحرف».

٣ - وروى الترمذي عن أبي بن كعب قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل

عند احجار المروة قال: فقال رسول الله لجبريل: إني بعثت إلى أمة أميين، فيهم الشيخ الفاني، والعجوز الكبيرة، والغلام. قال: فمرهم يقرأوا القرآن على سبعة أحرف. قال الترمذي: حسن صحيح. وفي لفظ: «فمن قرأ بحرف منها فهو كما قرأ».

٤ - وروى الطبري والطبراني عن زيد بن أرقم قال: جاء الى رسول الله ﷺ فقال: أقرأني ابن مسعود سورة أقرأنيها زيد بن ثابت، وأقرأنيها أبَيّ ابن كعب، فاختلفت قراءتهم، فبقراءة أيهم آخذ؟ فسكت رسول الله وعلي رضي الله عنه إلى جانبه! فقال علي: «ليقرأ كل إنسان منكم كما علم، فانه حسن جميل».

ثانياً: حول دلالة هذه الآثار:

١ - وأول ما يطالعنا في هذه الآثار أن المراد بالأحرف السبعة - عموماً وقبل استعراض المذاهب الرئيسية في ذلك - إنما هو وجوه في الألفاظ وحدها، أي القراءة أو القراءات، لأن الخلاف الذي أشير إليه في الحديثين الأول والأخير - وفي أحاديث أخرى كثيرة - كان يدور حول قراءة الألفاظ لا تفسير المعاني! قال عمر رضي الله عنه: «إني سمعت هذا يقرأ القرآن على حروف لم تقرئنيها!». ولهذا فقد أبعد عن الصواب من ظن ان المراد بالأحرف السبعة معاني الأحكام! «كالحلال والحرام والمحكم والمتشابه والأمثال والإنشاء والأخبار». أو «كالناسخ والمنسوخ والخاص والعام والمجمل والمبين والمفسر». أو غير ذلك من تقسيماتهم. وذلك لأن الصحابة رضي الله عنهم لم يختلفوا في تفسير القرآن ولا أحكامه، ولكن اختلفوا في قراءة حروفه!

وقد تكفل الطبري ببيان هذه النقطة.. لا أقول بما لا مزيد عليه بل بما يزيد في ذلك عن الحاجة!

٢ - كما تدل هذه الآثار على أن تلك الحروف على اختلافها معروفة بطريق السماع عن النبي ﷺ ومأثورة عنه، وانها كلام الله تعالى لا دخل لبشر

فيها، لقول هشام في الحديث الأول: «أقرأنيها رسول الله ﷺ» ولقول النبي - عليه صلوات الله - «هكذا أنزلت» فاذا نقل عن رسول الله ﷺ في بعض هذه الحروف إبدال كلمة بأخرى فينبغي الاقتصار في ذلك على موضع النقل ومحل السماع ليس غير، وأما ما روي عنه - - - من حديث الملك الذي استزاده النبي «حتى بلغ سبعة أحرف كلها كاف شاف - أو ليس فيها إلا كاف شاف - قلتَ: غفوراً رحيماً، أو قلت سميعاً حكيماً، أو قلت عليماً حكيماً... أيَّ ذلك قلت فانه كذلك» فان معناه التأكيد على اتفاق هذه الحروف في المعنى والمفهوم وإن اختلفت في المبنى واللفظ، وليس معناه جواز التبديل والتغيير، قال الحافظ بن عبد البر في شرح الحديث: «إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها أنها معان متفق مفهومها، مختلف مسموعها، لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى خلافاً ينفيه ويضادُّه، كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده!».

قال ابن عطية: «ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام: فاقرءوا ما تيسر منه، بأن يكون واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب اعجاز القرآن وكان معرضاً ان يبدل... حتى يكون غير الذي نزل من عند الله!! وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي عليه السلام ليوسع بها على أمته، فقرأ مرة لأُبي بما عارضه به جبريل، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً».

قال: «وعلى هذا يحمل قول أنس بن مالك حين قرأ ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأصوب قيلا﴾ فقيل له: إنما تقرأ «وأقوم» فقال أنس: أقوم وأصوب وأهيأ واحد، فإنما معنى هذا انها مروية عن النبي عليه السلام، وإلا فلو كان لأحد من الناس ان يصنعه لبطل قول الله تعالى: ﴿إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

قال الحافظ الدمشقي المشهور بابن الجزري: «وأما من يقول إن بعض الصحابة كابن مسعود كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه! إنما قال نظرت

القراءات فوجدتهم متقاربين فاقرءوا كما علمتم ».

ثم إن التغيير والتبديل، بمرادف أو بغير مرادف، مرفوض بقوله تعالى في سورة يونس: ﴿ قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله! قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يومٍ عظيم﴾. فاذا كان هذا ليس من حق النبي نفسه ـ صلوات الله عليه ـ فكيف يسوغ ذلك في حق أحد من الناس! ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث السابق: « هكذا أنزلت ».

٣ ـ وتدل الاحاديث السابقة ـ وبخاصة الحديث الثالث ـ على أن الحكمة في نزول القرآن على سبعة أحرف هو التيسير على الأمة الاسلامية جميعاً وبخاصة العرب الذين شرفوا بهذا الكتاب الكريم فقد كان فيهم من الاختلاف في اللهجات ونبرات الاصوات وطريقة الأداء وفي مدلولات بعض الالفاظ... ما يشق معه الاداء الواحد في جميع هذه الامور... فكان نزول القرآن على سبعة أحرف لوناً من ألوان التيسير والتسهيل ورفع الحرج. فاذا ذكرنا بلاغة القرآن التي بلغت حد الاعجاز، وذكرنا من ألوان هذا الإعجاز وصوره: النظم القرآني الذي شمل أدق الاحتمالات التركيبية للالفاظ العربية وما يتصل بذلك من نظام القرآن الصوتي ـ بحيث يستقيم لقارىء القرآن ومتلقيه ان يقرأ سائر نصوص العربية ولا عكس ـ ذكرنا معنى كلام النبي ﷺ عن « الشيخ الفاني، والعجوز الكبيرة، والغلام »... وأدركنا من ثم طرفاً من حكمة التيسير والتسهيل.

وقد روى الامام مسلم بسنده عن أبي بن كعب ان النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار[1] « فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين: فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم جاءه الثالثة فقال: إن

(١) الأضاة ـ بفتح الهمزة ـ مستنقع الماء كالغدير، ونسب إلى بني غفار لأنهم نزلوا بالمدينة عنده.

الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك! ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فأيا حرف قرأوا عليه فقد أصابوا » .

٤ - ويدل هذا الحديث والحديث الثاني السابق ، على أن المراد بالسبعة العدد الحقيقي بحيث لا يزيد ولا ينقص ، لأن النبي ﷺ كان يستزيد الملك حرفاً وراء حرف حتى بلغ سبعة أحرف . وفي حديث أبي بكرة : « فنظرت اليه فسكت ، فعلمت أنه قد انتهت العدة » . وبهذا يتبين خطأ من قال إن المراد بالسبعة ليس حقيقة العدد بل السعة والتيسير ، بدليل أن العرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعمائة ولا يريدون حقيقة العدد ، بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر . قال تعالى : ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ وقال تعالى: ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ قال ابن الجزري « وهذا جيد لولا ان الحديث يأباه » .

٥ - وأخيراً ، فان كلمة « على » في قوله ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » تشير إلى ان الأمر على هذا الشرط من التوسعة بحيث لا تتجاوز وجوه الاختلاف سبعة أوجه مهما كثر ذلك التعدد والتنوع في أداء اللفظ الواحد ، ومهما تعددت القراءات وطرقها في الكلمة الواحدة » كما يقول الزرقاني . فكلمة ﴿مالك يوم الدين﴾ التي ورد أنها تقرأ بطرق تبلغ السبعة عشر ، وكلمة : ﴿وعبد الطاغوت﴾ التي ورد أنها تقرأ باثنين وعشرين قراءة ، وكلمة ﴿أف﴾ التي أوصل الرماني لغاتها الى سبع وثلاثين لغة[1] كل أولئك وأشباهه لا يخرج التغاير فيه على وجوه سبعة .

ثالثاً - ما هي هذه الأحرف السبعة؟

من الواضح ، بعد ما قدمناه ، أنه لا يراد بهذه الاحرف : « سبع لغات أو

---

(١) الحديث عن القراءات والقراء موضعه في الباب التالي ، والأحرف السبعة بالطبع غير القراءات السبع أو العشر ، إلا أن الأحرف السبعة التي نتحدث عنها هنا هي الاوجه التي يرجع اليها كل اختلاف في القراءات الصحيح منها والشاذ والضعيف والمنكر .

لهجات من لغات العرب أو لهجاتهم ـ أو من لغات غيرهم[1] ـ أحصاها بعضهم او اختلفوا في عدها واحصائها . . . لأن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم اللذين اختلفا ـ في الحديث الأول ـ كلاهما من قريش ولغتهما واحدة!!

قال الحافظ أبو عمرو الداني : « معنى الأحرف التي أشار اليها النبي ﷺ ها هنا يتوجه الى وجهين: أحدهما ان يعني ان القرآن أنزل على سبعة أوجه من اللغات ، لأن الأحرف جمع حرف في القليل ـ كفلس وأفلس ـ والحرف قد يراد به الوجه بدليل قوله تعالى :﴿ومنهم من يعبد الله على حرف﴾ . . . فالمراد هنا الوجه ، أي على النعمة والخير وإجابة السؤال والعافية ، فإذا استقامت له هذه الأحوال اطمأن وعبدالله ، وإذا تغيرت عليه وامتحنه بالشدة والضر ترك العبادة وكفر ، فهذا عَبَدَ الله على وجه واحد! قال الداني : « فلهذا سمى النبي ﷺ هذه الأوجه المختلفة من القراءات والمتغايرة من اللغات أحرفاً على معنى ان كل شيء منها وجه » .

ويبدو أن جماع القول في تفسير هذه الأحرف ، أو تلك الأوجه من الاختلاف التي لا تخرج عنها القراءات مهما كثرت وتنوعت ، هو ما ذهب اليه الامام أبو الفضل الرازي ـ وهو نحو ما سبق الى تقريره ابن قتيبة ، وما وصل اليه ، بعد ، الحافظ الدمشقي ، ـ رحمهم الله جميعاً ـ .

قال الرازي : الكلام لا يخرج اختلافه عن سبعة أوجه:

الأول : اختلاف الأسماء من الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث والمبالغة وغيرها . ومثاله قوله تعالى :﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ قرىء هكذا بالجمع «لأماناتهم » وقرىء بالافراد «لأمانتهم » .

الثاني : اختلاف تصريف الأفعال وما يسند اليه من نحو الماضي والمضارع والأمر . . . نحو قوله تعالى : ﴿ربَّنا باعِدْ﴾ قرئت « ربُّنا باعَدَ » فالقراءة الأولى بنصب لفظ « ربنا » على أنه منادى ، و« باعد » فعل دعاء . والثانية «ربنا »

---

(١) انظر مقدمة كتاب المباني ص٢١٨ .

مبتدأ ، و« باعد » فعل ماض خبر.

الثالث : وجوه الإعراب ، كقول تعالى :﴿ فتلقى آدمُ من ربه كلمات ﴾ على أن الفعل لآدم ، وقرىء بنصب « آدم » ورفع « كلمات » على أن الكلمات هي التي تلقته.

ولا فرق في هذا الوجه بين أن يكون اختلاف وجوه الإعراب في اسم ، كما رأيت ، أو فعل ، كقوله تعالى :﴿ ولا يضارَّ كاتب ولا شهيد ﴾ قرىء بفتح الراء وضمها ، فالفتح على أن « لا » ناهية ، والفعل مجزوم ، والفتحة في الراء هي فتحة ادغام المثلين. أما الضم فعلى أن « لا » نافية ـ والمعنى على الإخبار ـ والفعل بعدها مرفوع.

وقد اجتمعا في قوله تعالى :﴿ وهل نُجازي إلا الكفورَ ﴾ قرىء : « وهل يُجازي إلا الكفورَ ».

الرابع : الزيادة والنقص ، نحو قوله تعالى :﴿ وما عملته أيديهم ﴾ قرىء : « وما عملت أيديهم » وقوله تعالى :﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ قرىء هكذا ، أيضاً بنقص كلمة « ما خلق » أي « والذكر والانثى ».

الخامس : التقديم والتأخير ، نحو قوله تعالى :﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ قرىء أيضاً : « وجاءت سكرة الحق بالموت » ، ونحو قوله تعالى : ﴿ فيَقتلون ويُقتلون ﴾.

السادس : القلب والإبدال في كلمة بأخرى ، وفي حرف بآخر ، كقوله تعالى :﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ... ﴾ قرئت « فتثبتوا » وقوله تعالى ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ قرئت « إن كانت إلا ذِقية » وقوله تعالى : ﴿ وطلح منضود ﴾ قرىء : « وطلع » بالعين ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ . و« بظنين » فلا فرق هنا أيضاً بين الاسم والفعل.

السابع : اختلاف اللغات ـ يريد اللهجات ـ من فتح وإمالة وتفخيم وترقيق وتحقيق وتسهيل وإدغام وإظهار ونحو ذلك ؛ لا فرق في هذا الوجه بين الفعل

والاسم والحرف، قرىء قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ بالفتح والإمالة في «أتى» و«موسى»، وقرىء بهما أيضاً في لفظ «بلى» في قوله تعالى: ﴿بلى قادرين على أن نسوّي بنانه﴾.

رابعاً: الأحرف السبعة بين الرخصة والعزيمة:

والسؤال الذي لا غنى لنا عن ذكر أجوبة العلماء عنه، هو هل كانت هذه الأحرف رخصة موقوتة بأجلها انتهت يوم جمع عثمان المصاحف المشهورة، أو يوم نسخها وبعث بها الى الامصار!! أم هي عزيمة وأمر مقرر ليس في وسع أحد منعه أو إلغاؤه... أو - بعبارة أخرى - إن في وسع من شاء أن يقرأ بها قرأ في أي زمان ومكان وبشروطها المقررة والمعروفة بالطبع؟!

قال ابن الجزري: وأما كون المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة، فان هذه مسألة كبيرة اختلف العلماء فيها، فذهب جماعات من الفقهاء والقراء والمتكلمين الى أن المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة. وبنوا ذلك على أنه لا يجوز على الأمة ان تهمل نقل شيء من الحروف السبعة، ولا أن يجمعوا على ترك شيء من القرآن.

يضاف الى ذلك ان الصحابة قد أجمعوا على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر وعمر وإرسال كل مصحف منها الى مصر من أمصار المسلمين، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك. قالوا: ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض الأحرف السبعة، ولا أن يجمعوا على ترك شيء من القرآن.

وذهب جمهور العلماء والأئمة الى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام متضمنة لها لم تترك حرفاً منها.

وذهب الطبري، ومن شايعه وتابعه، الى أن المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا على حرف واحد من الحروف السبعة، وقالوا: إن هذه الحروف السبعة كانت في صدر الاسلام أيام رسول الله ﷺ وخلافة أبي بكر وعمر وصدر من

خلافة عثمان، ثم رأى عثمان ان تقتصر على حرف واحد من السبعة جمعاً لكلمة المسلمين، فنسخ المصاحف بهذا الحرف - قالوا: وهو حرف قريش! - وأهملت سائر الحروف.

وقد أطال الطبري - مرة أخرى - في الدفاع عن هذا الرأي، وبيان ان الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة فتعصي بتركها أو إهمالها، وإنما كان ذلك جائزاً أو مرخصاً لهم فيه، حتى إذا اختاروا حرفاً واحداً وأجمعوا على ذلك، تعين المصير إليه والوقوف عنده.

قال صاحب «مناهل العرفان»: «والتحقيق ان القول باشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة كلها أو بعضها، يتوقف على أمرين: أحدهما تحديد المراد من الأحرف السبعة. وثانيهما: الرجوع الى ما هو مكتوب وماثل بتلك المصاحف في الواقع ونفس الأمر».

وإذا ما رجعنا - أولاً - الى ما اخترناه في تحديد المراد من الأحرف السبعة - في ضوء الأحاديث المتقدمة - وأنها «الأوجه التي رجع اليها كل اختلاف في القراءات، سواء منها ما كان صحيحاً وشاذاً ومنكراً، وانها تنحصر في سبعة على ما ذكره الرازي.

ثم إذا رجعنا - ثانياً - بهذه الأوجه السبعة الى المصاحف العثمانية وما هو مخطوط بها في الواقع ونفس الأمر لتأكد لنا أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها، ولكن على معنى أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلاً أو بعضاً، بحيث لم تخل المصاحف في مجموعها من الأحرف السبعة».

إذا ما عارضنا هذا الرأي - الذي ينطوي على القول بأن الأحرف السبعة نزلت عزيمة وليست برخصة - برأي الجمهور القائل بأن المصاحف العثمانية اشتملت على ما يحتمله رسمها من الاحرف السبعة فقط، لوجدنا أن هناك تسليماً من قبل الجميع بفكرة بقاء الأحرف السبعة في المصاحف، وأنها لم تكن رخصة، ولكن الخلاف ينحصر في «تقييد» الجمهور لهذه الاحرف بما يحتمله الرسم، ولا بدّ هنا، لمن أراد تأكيد الرأي الأول - الذي قد يبدو راجحاً على

رأي الجمهور - من الرجوع الى القراءات لمعرفة ما إذا كانت جميعها يحتملها الرسم . . . ولا بد كذلك من الإشارة الى أن المبدأ الأساسي في نقل القرآن كان الحفظ والمشافهة والتلقي . . . وليس في وسعنا الاعتقاد بأن المصاحف العثمانية - حتى ولو كانت مقتصرة على حرف واحد - قضت أو تستطيع أن تقضي على وجوه في القراءة ، تلقاها الصحابة عن النبي ﷺ وتفرقوا يقرئونها في الامصار! وإن كان اشتراطهم لقبول القراءة ان تكون موافقة لأحد المصاحف العثمانية - كما سنحدثك فيما بعد - يعزّز رأي الجمهور ، وقد يعتبر نسخاً عملياً للرأي المخالف ، والله أعلم .

خامساً : دلالة هذه الأحرف :

وأخيراً ، فان لهذه الأحرف ، وما نجم عنها من اختلاف القراءات دلالتها بما أضافته من المعاني ، وأغنت أو أحيت من لغة أو لهجة[1] .

ولكن دلالتها الرئيسية فيما نقدّر - وهذا ما يؤكد مبدأ بقائها في المصاحف واستمرار العمل بها - أنها واحد من أدلة الإعجاز في النظم القرآني . . . هذا النظم الذي يجري عليه كل هذه الأوجه السابقة من الاختلاف ، ويبقى حيث هو في الموضع الذي لا يعتلّ بأفواه قارئيه ، ولا يختل بآذان سامعيه!! ويظهر ذلك من أدنى مقارنة سريعة بين قراءة نقلت عن النبي ﷺ بطريق التواتر - هكذا أُنزلت - وبين أي كلمة أو عبارة يقحمها إنسان على النص القرآني!!

ثم هل تجد فيما تعلم كاتباً يمكن أن يجري على كلامه مثل هذا الذي عرفت خبره في الأحرف السبعة ، ثم يبقى الأسلوب بحيث تركه صاحبه ، أو أراد له أن يكون . . . ناهيك عن المعجز! . . . سبحان ربي الذي أنزل في محكم تنزيله قوله تعالى :﴿ أفلا يتدبرون القرآن! ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾. . . وقوله :﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا أئت بقرآن غير هذا

---

(١) راجع مقدمة كتاب المباني ص٢٣٠ فما بعدها . وانظر كتاب القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث للدكتور عبدالصبور شاهين .

أو بدّ له! قل : ما يكون لي ان أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ، إني أخاف ان عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم ﴾.

الباب الثالث
علوم القرآن

تمهيد حول مصطلح «علوم القرآن»

١ ـ سبقت الإشارة الى مكانة القرآن الكريم في الفكر والحضارة الإسلامية، ودوره في الثقافة والعلم التجريبي على حد سواء. ولكن ذلك لا يعني أن نعدّ فروع هذا العلم وتلك الثقافة في قائمة ما يطلق عليه، أو ما أطلق عليه العلماء مصطلح «علوم القرآن».

وإنما أطلق هذا الاصطلاح، وبلفظ الجمع ـ علوم ـ ليشمل فقط «كل علم يخدم القرآن أو يستند إليه» كما يقول صاحب «مناهل العرفان» قال: وينتظم ذلك علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الرسم العثماني، وعلم اعجاز القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم إعراب القرآن، وعلم غريب القرآن، وعلوم الدين واللغة، وغير ذلك».

وإذا أردنا الدقّة فان أكثر هذه العلوم، التي شملها العنوان السابق، أو التي جرت العادة بدراستها والتعرض لها في الكتب التي تبحث في «علوم القرآن»... يدور أكثرها حول تفسير بعض جوانب القرآن الكريم أو يمهد لشرحها وتفسيرها، فهي «علوم التفسير» أو علوم تفسير القرآن، إن صح هذا الإطلاق أو التعبير، ولهذا فإن «عَدّ» التفسير من هذه العلوم أو من علوم القرآن، وجعله قسماً أو نوعاً كسائر الأنواع مسألة فيها نظر، لأن أغلب تلك العلوم، كما قدمنا، أريد بها تيسير سبيل شرحه وتفسيره وفهمه.

ولهذا فقد جرت العادة بأن تُصدَّر المصنفات الكبيرة في تفسير القرآن بمقدمة أو مقدمات تشتمل على أهم تلك العلوم، على نحو ما فعل الطبري والأصفهاني وابن عطية وصاحب كتاب المباني وغيرهم.

بل إننا نود تأكيد هذه الملاحظة بالمقارنة بين الغاية الاساسية أو الدور الرئيسي لعلوم القرآن وبين الغاية الأساسية أو الغرض الرئيسي من المصطلح وعلوم الحديث.. فإن هذه الاخيرة تدور حول التحقق من صحة «الحديث» ومدى التأكد من نسبته الى النبي ﷺ، أما علوم القرآن فتدور حول تفسير القرآن وتسهيل سبيل فهمه وشرح معانيه.

ولهذا فإننا لم نجد مانعاً من تخصيص الباب السادس للكلام عن نشأة التفسير وتطوره، في حين أن ما أدرجناه تحت البابين الرابع والخامس يشارك هذا الباب في كونه من علوم القرآن ومن مقدمات التفسير، لكني رأيت إفراده بفصول خاصة من أجل إبراز الصورة الأدبية للقرآن التي ستكون محل عناية خاصة، ولما لهذه الصورة من أثر في مناهج التفسير البياني الذي يجري التركيز عليه لطلاب اللغة العربية كما هو معلوم، ومن أجل وضع مسألة الإعجاز - الهامة والخطيرة - في موضعها الصحيح بعد أن أدخلها البعض - في كليات الشريعة وأقسام الثقافة الاسلامية - في متاهات واسعة، وخرجوا بها عن ميدانها الحقيقي وإطارها الصحيح.

٢ - وأياً ما كان الأمر فإن بدء الكتابة والتأليف في كل علم من علوم القرآن كان سابقاً لجمع أطراف هذه العلوم في كتب خاصة جامعة، على نحو ما نراه في كتاب «البرهان في علوم القرآن» للزركشي، المتوفى في عام (٧٩٤) والذي بحث في سبع وأربعين نوعاً أو علما من هذه العلوم، في أربع مجلدات. وكتاب «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي (ت٩١١) والذي بحث في ثمانين علماً من هذه العلوم، مقتفياً في منهجه بصورة عامة أثر الزركشي وناظراً في كتابه. ويوجد قبل هذين الكتابين الجامعين - المطبوعين - كتب أخرى سابقة لم يكن من همنا استقصاؤها والوقوف عندها لتحقيق من هو السابق من العلماء

لاستعمال مصطلح « علوم القرآن » بالمعنى المشار إليه . ولكننا نشير الى أن استعراض فهارس الكتب المخطوطة للوقوف على اسم المؤلف الأول أو الثاني الذي وضع على كتابه ذلك العنوان ـ علوم القرآن ـ لا يكفي ، بل هو الى الخطأ ومجانبة الصواب أقرب!!! لأن كثيرين من القدماء استعملوا اللفظ السابق بمعنى « علوم التفسير » على نحو ما أشرنا أو قريباً منه ، إلا أن كتبهم هي في تفسير القرآن ولكنهم عرضوا من فقرات تفسير الآية ، أو رتبوا القول في شرح الآيـة أو الآيـات عـلى فقرات تشتمـل عـلى « القراءة ، واللغـة والاعراب ، والمعنى ، والنظم ، والأحكام ، ونحو ذلك » كما فعل الحوفي (ت ٤٣٠) في كتابه الموسوم بـ« البرهان في علوم القرآن » ، والذي عرَّفنا به مع تفاسير القرن الخامس الهجري في كتابنا « الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن[1]!

كما أننا نبعد أن يكون هذا الاصطلاح قد حاك في الصدور ونطقت به الألسنة! ـ على النحو المشار إليه ـ في القرن الثاني للهجرة ، وذلك أن بعضهم يجعل الإمام الشافعي أول من فعل ذلك حين سيق مرة الى الخليفة هارون الرشيد بتهمة تزعم طائفة الشيعة في اليمن ، فبادره الرشيد بهذا السؤال : كيف علمك يا شافعي بكتاب الله عز وجل فإنه أولى الأشياء أن يبتدأ به؟ قالوا : فقال الشافعي : عن أي كتاب من كتب الله تسألني يا أمير المؤمنين ، فإن الله تعالى قد أنزل كتباً كثيرة! قال الرشيد : قد أحسنت ، لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمي محمد ﷺ ، قال الشافعي : إن علوم القرآن كثيرة ، فهل تسألـني عن محكمـه ومتشابهـه ، أو عن تقـديمـه وتـأخـيره ، أو عن نـاسخـه ومنسوخه . . . إلخ .

وسياق القصة والعلوم الـتي عـددهـا الإمـام الشافعي ، تومـىء إلى طـابـع التلفيق المتأخر على هذه الحادثة ، فالسؤال عن العلم بكتاب الله عز وجل لايجاب عنه بمثل هذه الحذلقة الباردة التي لا يفعلها الإمام ـ حتى في مثل هذا الموقف ـ والسؤال في كل عرف وقياس إنما هو عن القرآن الكريم!! كما أن

---

(١) أنظر ص ٥٢ ـ ٥٣ .

سائر « عناصر » هذه القصة من استحسان الرشيد لجواب الشافعي ، والإشارة الى النبي الكريم ـ عليه صلوات الله ـ بابن عم هارون!! . . . الخ ، . . كل ذلك يشير إلى أن هذه التركيبات لا تليق بالرشيد والإمام الشافعي جميعاً . . .

ونكتفي هنا بالإشارة الى أن من البعيد حقاً أن تكون « علوم القرآن مجموعة في صدور المبرّزين من العلماء » في القرن الثاني ، ثم لا يتنبه أحد الى « الكتابة » فيها مجموعة قبل أواخر المائة الرابعة من الهجرة ، على مذهب من يظن أن كتاب الحوفي السابق في هذه العلوم وليس في تفسير القرآن[1]!!.

٣ ـ وأخيراً ، فإن هذه العلوم قد أفردت بالتصنيف ، كلٌّ في مؤلفات خاصة ، ونال بعضها من العناية وتتابع القول في جميع العصور ما يجعل التأريخ له ـ وحده ـ ألزم وأكثر ضرورة ، وأجدى للقارىء من السير وراء هذه العلوم مجتمعة . وحسبنا في هذا المجال ما أشرنا إليه من كتابي « البرهان » و« الإتقان »[2] اللذين نشرا بعناية الأستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم . على أننا سنحاول عند الكلام في هذا الباب ، والباب الذي يليه ، على كل علم من هذه العلوم ، الإشارة الى أهم المصنفات الموضوعة فيه ، مع شيء من مراعاة الأهمية الموضوعية والترتيب الزماني إن شاء الله تعالى .

---

(١) راجع مناهل العرفان للزرقاني ١/٢٦ ـ ٢٨ .

(٢) بالاضافة الى بعض مقدمات كتب التفسير ، كمقدمة كتاب المباني وكتاب ابن عطية ، اللتين نشرهما « آرثر جيفري » تحت عنوان مقدمتان في علوم القرآن ، ومقدمة تفسير الراغب الأصفهاني المطبوعة مع كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار . ومقدمة تفسير القرطبي : الجامع لاحكام القرآن . الى جانب مقدمة تفسير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن .

الفصل الأول

الفصل الأول
أسباب النزول

إذا عدنا إلى موضوع الحكم من تنجيم القرآن الذي عرضنا له في الباب السابق لعرفنا أن هناك آيات كثيرة من كتاب الله عز وجل نزلت بسبب خاص، أو حادثة معينة. وتوجد الى جانب هذه الآيات آيات قرآنية نزلت ابتداءً من أجل الهدية أو الأحكام أو الاعتبار بالأمم السابقة، الى غير ذلك من موضوعات القرآن الكثيرة. وإن كانت الحكم التي ألمحنا اليها في نزول القرآن منجما تشمل هذين القسمين أو هاتين الطائفتين من الآيات بطبيعة الحال.

ويمكن إرجاء البحث في أسباب النزول الى موضعه من أصول التفسير، حيث يدخل العلم بأسباب النزول بوصفه أصلا من تلك الاصول، كما يمكن تصنيفه مع علوم القرآن «وثيقة الصلة بدراسة النص القرآني» إلا أن هذا التصنيف الذي اعتمدناه في بعض المحاضرات ضربنا عنه صفحاً لدى هذه المراجعة، ورأينا تلخيص الكلام عن أسباب النزول، هنا، استكمالاً لأبحاث نزول القرآن في مواضع متقاربة، على أن نكتفي بالإشارة له في حينه.

١ ـ تعريف سبب النزول:

يراد بسبب النزول «**ما نزلت الآية أو الآيات مبينة لحكمه أيام وقوعه**» كأن تقع حادثة أو يوجه إلى النبي ﷺ سؤال فتنزل الآيات فيما يتصل بتلك

الحادثة أو بجواب ذلك السؤال، فيقال بعد ذلك في هذه الآيات: «سبب نزولها كذا» مثاله ما أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك قال: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم! فنزل قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام...﴾ الآية - البخاري ٥/ ٢٠٠.

أ - والقيد المذكور «أيام وقوعه» للاحتراز عن الآيات التي تنزل ابتداء من غير سبب بينما تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلة.

قال السيوطي: «والذي يتحرر في سبب النزول أنه «ما نزلت الآية أيام وقوعه» ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة به، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك».

ب - ولا نقصد بهذا القيد ان يكون نزول الآية عقب الحادثة أو السؤال مباشرة، بل تكفينا الظروف التي ينزل القرآن فيها متحدثاً عن ذلك السبب، سواء وقع النزول على الفور أو على التراخي؛ فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة ابن أبي مُعيط الى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصِفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فانهم أهل الكتاب وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاثة فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسَل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه كان لهم أمر عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟ فأقبلا حتى قدما على قريش فقالا: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، فجاؤوا رسول الله ﷺ فسألوه: فقال أخبركم غداً بما

سألتم عنه، ولم يستثن «أي لم يقل: إن شاء الله» فانصرفوا، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك إليه وحياً ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف، وفيها معاتبته إيّاه على جوابه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وهو قول الله: ﴿ويسألونك عن الروح[1]﴾ وفيها يرشده الله تعالى الى أدب الاستثناء بقوله: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعلٌ ذلك غداً إلا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا﴾.

جـ - ويستوي في ذلك أن يكون السؤال - الذي نزلت الآيات بسببه - متصلا بأمر مضى كقوله تعالى: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾ - في الحادثة السابقة - أو بأمر حاضر كقوله تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء... الآية﴾ نزلت في اليهود قالوا للنبي ﷺ: إن كنت نبياً فائتنا بكتاب جملة من السماء كما أتى به موسى. أو بأمر مستقبل نحو قوله تعالى «يسألونك عن الساعة أيان مرساها...».

٢ - دوره وفوائده

وغني عن البيان أن سبب النزول يعين على فهم الآية أو النص القرآني، لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، كما يقول ابن تيمية[1]. وربما كان الوقوف على سبب النزول، ونحن أمام كلام معجز، أولى من معرفة المناسبة التي قيلت فيها القصيدة من الشعر، أو النص البليغ من كلام العرب.. ومعلوم أن الجهل بهذه المناسبة يفوت علينا الكثير من أغراض النص ومراميه. بل إن النقاط التالية التي نلخص فيها فائدة العلم بسبب النزول تؤكد لنا أن الوقوف

---

(١) لباب النقول للسيوطي ص ١٥٥.

(٢) أنظر مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، بتحقيق المؤلف ص ٤٧. وقال ابو الفتح القشيري: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني كتاب الله العزيز. راجع البرهان للزركشي ١/٢٢.

على هذا السبب ألزم وآكد من من مناسبة القصيدة من الشعر، أو النص من النثر...

أ- معرفة سبب النزول يعين على فهم أدق وأحكم وأعمق للنص القرآني، كما قلنا لأنه يقوم، في دراسة النصوص الأخرى، مقام معرفة المناسبة وحال المتكلم والمخاطب... والخطاب جميعاً. بل لعله يغني كذلك عن دراسة البيئة ونحو ذلك من العوامل المساعدة في شرح النصوص الأخرى وتحليلها. وهذا هو الدور الاول أو الرئيسي. وسوف نرى بعض تطبيقاته عند تفسيرنا لسورتي المزمل والمدّثر، وسورة عبس، وبعض السور والآيات الأخرى.

ب- يضاف الى ذلك أنه يعضم المفسر من الوقوع في الخطأ أو اللبس في فهم الآية أو الآيات، فقد جاء في صحيح البخاري أن مروان بن الحكم بعث الى ابن عباس يسأله عن قوله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم﴾- سورة آل عمران الآية ١٨٨ - «لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون!» فقال ابن عباس: هذه الآية نزلت في أهل الكتاب[1]... سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أن قد اخبروه بما سألهم عنه، فاستحمدوا بذلك اليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه.

وقد أشكل على عروة بن الزبير رضي الله عنه أن يفهم فرضية السعي بين الصفا والمروة من قوله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يَطوَّف بهما﴾ فالآية تنفي الجُناح - الإثم - ونفي الجناح لا يتفق مع الفرضية فضلا عن أن يستلزمها، حتى سأل خالته عائشة أم المؤمنين، كما جاء في البخاري، فقال لها: أرأيت قول الله تعالى ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله... الآية﴾ فوالله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفا

(١) ثم تلا ابن عباس قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيِّننَّه للناس ولا تكتمونه﴾ الآية ١٨٧ - إلى قوله «لا تحسبن.. الآية».

والمروة! فقالت: بئسما قلت يا ابن أختي، إن هذه لو كانت كما أوَّلتها عليه لكانت «لا جناح عليه ألا يطوف بهما» ولكنها نزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلَّل - اسم موضع - فكان من أهل المدينة من يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة. فلما أسلموا سألوا النبي ﷺ عن ذلك، فقالوا يا رسول الله: إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله... الآية﴾ قالت عائشة: «وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما».

فنزول الآية إذاً كان ينفي ما وقر في أذهانهم من الحرج من الطواف بينهما، بينما قررت السنة فرضية السعي بين الصفا والمروة كما فهمت السيدة عائشة رضي الله عنها.

وقد يُفهم من قوله تعالى ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفراً ولا حضراً، وهو خلاف الاجماع. قال الزركشي: فلا يفهم مراد الآية حتى يعلم سببها، وذلك أنها نزلت لما صلى النبي ﷺ على راحلته وهو مستقبل من مكة الى المدينة حيث توجهت به، فعلم أن هذا هو المراد[1].

جـ - ومن فوائده «تحديد» المدلول الحقيقي أو الساحة التي يشملها النص القرآني، فمرة يدفع عن النص «توهم الحصر» وأخرى يبين أن المراد باللفظ - العام - حالة من الحالات الخاصة. مثال الأول قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرَّماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقاً أُهلَّ لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فان ربك غفور رحيم﴾ قال الشافعي ما معناه: إن الكفار لما حرَّموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه..

---

(١) البرهان ٢٩/١.

والغرض المضادّة لا النفي[1] والاثبات على الحقيقة ، فكأنه قال : لا حرام إلا ما حللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، ولم يقصد حلَّ ما وراءه ؛ إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل.

ومثال الثاني : قول الله تعالى :﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾ فقد حكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب أنهما توهما عدم تحريم الخمر ، واحتجا بهذه الآية .. وكان سبب نزولها قد خفي عنهما ، وهو أنه لما نزل تحريم الخمر ، قالوا : « كيف بإخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم ، وقد أخبر الله أنها رجس! » فأنزل الله تعالى : ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناحٌ ..﴾.

٣ ـ طريق معرفة سبب النزول

سبب النزول واقعة تاريخية أو أمر وقع في عصر التنزيل ، ولهذا فإن سبيل معرفته والوقوف عليه لا يكون بغير الرواية والنقل الصحيح ، فلا مجال فيه للاجتهاد وإعمال الرأي!! قال الواحدي : « ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها وجدّوا في الطِّلاب » وقال الرسول ﷺ : « اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم ، فانه من كذب عليَّ متعمداً فليَتبوَّأ مقعده من النار ، ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه أحمد والترمذي ـ .

ولهذا فإن السلف الماضين رحمهم الله كانوا ـ كما يقول الواحدي ـ « في أبعد الغاية احترازاً عن القول في نزول الآية » ، عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة بن عمر السلماني عن آية من القرآن فقال : « اتق الله وقل سداداً ، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن! »

(١) المصدر السابق ص ٢٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٨ .

وعلى ذلك، فلا خلاف في قبول الخبر المرفوع لأنه الأصل، وكذا ما وقف على الصحابة وإن لم يعتضد برواية أخرى لأن سبب النزول، كما قدمنا، مما لا مجال فيه للرأي، بل سبيله المشاهدة والرؤية، أو السماع والنقل[1]. قال الحاكم النيسابوري: «إن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل إذا أخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا وكذا فانه حديث مسند[2]».

إلا أن هذا القول، أو تلك الرواية، قد يكون نصاً صريحاً في سبب النزول، وقد يحتمل معه أنه من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، أي أن الآية تدل على هذا الحكم. فالأول كقول الراوي «سبب نزول الآية كذا» أو قوله: سئل رسول الله عن كذا فنزل قوله تعالى، أو حدث على عهده كذا فنزلت الآية... وأما النص المحتمل فكقولهم الذي يتردد في مناسبات شتى: «نزلت هذه الآية في كذا..» فهذا القول يحتمل سبب النزول كما يحتمل أن يكون المراد به: في حكم كذا فيكون من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع، كما يقول صاحب البرهان[3].

٤ ـ مصادره

أول من أفرد «أسباب النزول» بالتصنيف: علي بن المديني المتوفى سنة ٢٣٤ هـ. ثم تبعه جماعة منهم أبو المطرف عبدالرحمن بن محمد القرطبي المتوفى ٤٠٢ في كتاب أسماه «القصص والأساليب التي نزل من أجلها القرآن» والواحدي (أبو الحسن علي بن أحمد) المتوفى ٤٦٨ في كتاب «أسباب النزول». ثم ألف أبو الفرج بن الجوزي المتوفي ٥٩٧ كتابه «أسباب نزول القرآن» وابن حجر العسقلاني المتوفي ٨٥٢ كتابه الذي سماه «العجاب في بيان الأسباب»

---

(١) راجع مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٤٨.
(٢) انظر تعليقنا في المصدر السابق.
(٣) الزركشي ١/٣٢.

وجـلال الـدين السيوطي المتوفي ٩١١ هـ كتاب «لبـاب النقول في أسبـاب النزول »[١].

ولدينا الآن من هذه الكتب كتابان مطبوعان متداولان هما: «أسباب نزول القرآن» للواحدي و«لباب النقول» للسيوطي. والأول أجلّ وأوفى، وإن كان السيوطي يزعم ذلك لكتابه هو!![٢]. وقد نشر كتاب الواحدي أخيراً في طبعة محققة عني فيها الأستاذ المحقق السيد أحمد صقر بتخريج الأحاديث والدلالة على مواطن أقوال من ذكرهم الواحدي، وتعيين أسماء من أبهم، وذكر مواضع أسماء المفسرين في أمهات كتب التفسير.. الخ، وقد قال الاستاذ المحقق في كتاب الواحدي هذا «إنه ظل عمدة الباحثين والدارسين منذ تأليفه الى يوم الناس هذا »[٣].

وأخيراً تمكن الإشارة إلى أن أبواب التفسير التي تورد عادة في كتب الحديث النبوي ومصنّفاته، بالإضافة الى كتب المغازي والسير، هي المصدر الاول لأسباب النزول.

(١) انظر مقدمة التحقيق التي صدر بها الاستاذ السيد أحمد صقر كتاب أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢٣ الطبعة الاولى ١٣٨٩.

(٢) انظر المقدمة السابقة ص ٢٨ - ٣١.

(٣) نفس المصدر ص ٢٣.

الفصل الثاني

المكي والمدني

لقد عاشت الدعوة الإسلامية التي تعهدها القرآن الكريم طورين متميزين واضحين، ومرحلتين متعاقبتين.. ولا بد من وضع عنوان واضح لكل مرحلة، والتماس سماتها الخاصة وميزاتها الرئيسية بما يعين دارس القرآن الكريم على فهم المواقف والأحوال، ويمهد للوقوف على الخصائص البيانية والأسلوبية ومزايا الأداء القرآني بوجه عام...

«لقد عاشت الدعوة الإسلامية - أولاً - المرحلة المكية حيث القلة والضعف، والشدة والإيذاء والكيد.. مع الأمر بالهجر الجميل والصفح، وكف الأيدي... والصدع بالحق»

«ثم عاشت الدعوة المرحلة المدنية.. فكان الأمر بالقتال، وكان النصر وكانت الهزيمة، وكان الكيد الداخلي الخفي المتمثل في النفاق، وكان الكيد الخارجي الجلي المتمثل في تأليب اليهود ومحاولات المشركين في القضاء على المسلمين. وكانت صور من البناء النفسي الرائع في نفوس الصحابة، الى جانب نفوس يغلب عليها الضعف مرة، والهوى مرة، وتقعد بها رغائب الأرض وتشدها إليها مرة أخرى.

والقرآن الكريم ينزل في مكة ينافح عن تلك الجماعة الناشئة، فيزيح من طريقها العقبات والأشواك والشكوك... ويمدها بأسباب الإيمان والاعتقاد،

حتى دارت الآيات المكية ـ عموماً حول إنشاء العقيدة .. في الله وفي الوحي وفي اليوم الآخر، وحول إنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه..

وينزل القرآن الكريم في المدينة يعالج «تطبيق تلك العقيدة وذاك التصور في الحياة الواقعية، وحمل النفوس على الاضطلاع بأمانة العقيدة والشريعة في معترك الحياة[1]» فدارت معظم الآيات المدنية حول مسائل التشريع والأحكام وعلاقة الفرد بالمجتمع، والمجتمع الاسلامي بسائر المجتمعات الإنسانية والأمم الأخرى.

.. ومع هذا الاختلاف الرئيسي في الموضوع بين المكي والمدني.. مراحل وتدرج هنا وهناك، واختلاف ـ في ذلك كله ـ في الأسلوب والحلية والشكل بما يناسب كل موضوع من المواضيع، وكل مرحلة من المراحل. فكيف يمكن لمن يريد تفسير القرآن أن يجهل هذا كله!! ولهذا فقد منع العلماء من أن يتصدى للتفسير من لم يكن ملماً بهذا النوع من علوم القرآن، قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري: «من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما أنزل بمكة ابتداء ووسطاً وانتهاء، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل في أهل مكة، ثم ما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكّي، ثم ما نزل بالجُحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، ثم ما نزل ليلاً، وما نزل نهاراً، وما نزل مشيّعاً وما نزل مفرداً، ثم الآيات المدنيّات في السور المكية، والآيات المكية في السور المدينة، ثم ما حُمل من مكة الى المدينة، وما حمل من المدينة الى أرض الحبشة، ثم ما أنزل مجملاً، وما نزل مفسّراً، وما نزل مرموزاً، ثم ما اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مدني. هذه خمسة وعشرون وجهاً، من لم يعرفها

---

(١) في ظلال القرآن ٧/٢٩.

ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى[1] ».

ولعل هذا النص أن يحملنا على تقديم القول في أساس التفريق بين المكي والمدني، موضوع البحث، ولكننا نرى لزاماً علينا، قبل، أن نشير الى هذه العناية الفائقة وهذا التحري العجيب في شأن مكان نزول القرآن وزمانه[2].. بالإضافة الى ما أشرنا اليه في بحث سبب النزول من معرفة أحوال النزول وملابساته وأحداثه. فلم تعقد الفصول للنهاري والليلي، والسفري والحضري، والأرضي والسمائي، والصيفي والشتائي... فحسب، بل أضيف إليها ـ تطبيقاً لما أشار اليه ابن حبيب النيسابوري ـ فصول أخرى عن المكي في السور المدنية، والمدني في السور المكية.. مع تحقيق القول في بعض الآيات والسور التي ورد فيها قولان أو روايتان[3]...

ويطول بنا الوقوف ان حاولنا ذكر طرف من شواهد هذه الأنواع جميعا، وقد تكفلت ببيانها كتب علوم القرآن، ولكن من الملاحظ أولاً أن أكثر القرآن الكريم نزل نهاراً وفي الحضر كذلك، وأن ما نزل منه بالمدينة سبع وعشرون سورة، وسائرها بمكة، كما نقل ذلك ابن عباس عن أُبي بن كعب[4] كما تمكن ملاحظة أن ما نزل من القرآن في السفر ـ في الحج أو الغزو أو غيرهما ـ قد وقع من الناحية « المكانية » خارج مكة والمدينة، بحيث يمكن لبعض الآيات القرآنية أن تكون شواهد لأكثر من وجه من الوجوه التي أشار إليها ابن حبيب. ونكتفي هنا بذكر بعض الشواهد الدالة على مبدأ العناية والتحري المطلق في هذا الموضوع.

---

(١) البرهان للزركشي ١/١٩٢.

(٢) قال أيوب: سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال: نزلت في سفح ذلك الجبل، أشار الى سَلْع. أخرجه أبو نعيم في الحلية. الاتقان ١/٢٤.

(٣) انظر الاتقان للسيوطي ١/٢٠ ـ ٦٧ بتحقيق الاستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم.

(٤) في روايات اخرى ان ما نزل بمكة خمس وثمانون سورة، وما نزل بالمدينة تسع وعشرون سورة. انظر البرهان ١/١٩٤.

- أخرج الواحدي عن ابن أبي مليكة أن قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ - ١٣ الحجرات - نزلت بمكة يوم الفتح لما رَقِيَ بلال على ظهر الكعبة وأذّن، فقال بعض الناس: «أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة!!»

- وأخرج الشيخان عن ابن مسعود قال: «بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه: ﴿ والمرسلات عرفاً.. ﴾ السورة».

ونزل قوله تعالى: ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ وبعض الصحابة يقومون على حراسة خيمة النبي ليلاً - في بعض الغزوات - قالت عائشة، في الحديث الذي أخرجه الترمذي والحاكم، «فأخرج النبي رأسه من القبّة فقال: أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله» فترك الحرس...

وروى الطبراني وأبو عبيد عن ابن عباس قال: «أتيت رسول الله ﷺ فقلت: وُلدت لي الليلة جارية، فقال: والليلة أُنزلت عليّ سورة مريم، سمّها مريم».

وفي الصحيح أن قوله تعالى: ﴿ ليس لك من الأمر شيء! ﴾ نزلت والنبي ﷺ في الركعة الأخيرة من صلاة الصبح حين أراد أن يقنت ويدعو على أبي سفيان ومن ذكر معه.

وآية الثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة تبوك، وهي قوله تعالى: ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ - الآية ١١٨ من سورة التوبة - نزلت، كما جاء في الصحيح، وقد بقي من الليل ثلثه، والرسول الكريم صلوات الله عليه عند زوجه أم سلمة.

الأساس المعتمد في التفريق بين المكي والمدني:

الأشهر - والذي عليه الأكثر - أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أو بالمدينة، عام الفتح أو عام حجة الوداع، أم

بسفر من الأسفار..

وقد لوحظ في هذا التقسيم «زمن النزول» كما هو واضح. ويوجد إلى جانب هذا الأساس في التفريق بين المكي والمدني اصطلاحان آخران قال بهما بعض العلماء، ويقوم الأول منهما على «مكان النزول» ويعتمد الثاني على «أشخاص المخاطبين».

فالمكي، في الاصطلاح الأول، ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة. ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية، ويدخل في المدينة أيضاً ضواحيها - ضرورة! - كالمنزل ببدر وأحد وسَلْع.

أما الاصطلاح الأخير - الشخصي - فيقوم على أن المكي: ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني: ما وقع خطاباً لأهل المدينة. وحملوا عليه قول من قال: إن ما صُدر في القرآن بلفظ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فهو مدني، وما صدر بلفظ ﴿ يا أيها الناس ﴾ فهو مكي لأن الغالب على أهل مكة الكفر، وان كان غيرهم داخلاً فيهم! وكان الغالب على أهل المدينة الإيمان - فخوطبوا بـ «يا أيها الذين آمنوا» - وإن كان غيرهم داخلا فيهم!

واذا كان من الواضح أن الرأس الأسبق هو الرأي الأشهر والأرجح لأنه ضابط حاصر مطرد لا يفتقر إلى تقييد أو استثناء، بخلاف هذين الرأيين.. فإن الحق أن هذه الأسس الثلاثة جميعاً «الزمان والمكان والأشخاص» تكاد تلتقي في معظم آيات القرآن الكريم... والقليل الذي يجري عليه الخلاف بعد ذلك هو ما أشار إليه العلماء وخصّوه بالحديث تحت العناوين الكثيرة التي ذكرها ابن حبيب النيسابوري في النص المتقدم.

ضوابط وفروق بين المكي والمدني:

ومما يؤكد التعريف أو التفريق الزماني المشار إليه، ما تحدث عنه العلماء من الضوابط المطردة التي تكاد لا تتخلف في الآيات التي نزلت قبل الهجرة والآيات التي نزلت بعدها، حتى قال بعضهم: إن لمعرفة المكي والمدني طريقين:

سماعي وقياسي[1] ، فالسماعي يُرجع فيه لحفظ الصحابة وتابعيهم ، وأما القياسي فقد جعلوا من ضوابط المكي :

١ ـ كل سورة فيها لفظ « كلا » .

٢ ـ كل سورة فيها سجدة .

٣ ـ كل سورة فيها « يا أيها الناس » وليس فيها « يا أيها الذين آمنوا » لأن هذه من ضوابط المدني ، ولعل هذا الضابط غير مطرد ، بل هو من الأعم الأغلب فإن سورة البقرة مدنية وفيها « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » و« يا أيها الناس كلوا مما في الأرض » وسورة النساء مدنية وأولها : « يا أيها الناس » .

٤ ـ كل سورة في أولها حروف التهجي ، أي التي استهلت ببعض الحروف المقطّعة : « الم » « ص » « ق » « آلر » .. سوى الزهراوين ، أي البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان .

٥ ـ كل سورة فيها قصة آدم وإبليس سوى البقرة .

٦ ـ وأخيراً فإن كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية ، وكل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية .

والواقع أن الضوابط والفروق التي يذكرها أكثر العلماء في هذا المقام تحتاج الى أن تُصنّف إلى فروق من الناحية الموضوعية ، وأخرى من الناحية الأسلوبية والبيانية :

ونلمح هنا قبل استعراض هذه الفروق وتصنيفها على هذا النحو إلى أنها ليست فروقاً قاطعة أو حادة ، ولكنها تمثل الطابع الرئيسي والملامح العامة والخواص الغالبة لكل من الآيات المكية والمدنية :

---

(١) الأصل في معرفة المكي والمدني : الرواية أو المأثور عن الصحابة الذين شاهدوا التنزيل وعلموا مكان الوحي وزمانه ، وقد علل الباقلاني حرص الصحابة على هذه المعرفة ونقلها لمن بعدهم ـ مع العلم بأن النبي ﷺ لم يرد عنه أنه قال اعلموا ان قدر ما نزل بمكة كذا ، وبالمدينة كذا ـ بأنه « كما لا بد في العادة من معظمي العالم والخطيب ، وأهل الحرص على كلامه ومعرفة كتبه ومصنفاته من ان يعرفوا ما صنفه أولا وآخراً ... فإن حال القرآن في ذلك أمثل ، والحرص عليه أشد » البرهان ١٩١/١ .

أولاً ـ من ناحية الموضوع:

إذا أمكن تلخيص الموضوعات التي دارت حولها كل من الآيات المكية والمدنية، بكلمة واحدة، لقلنا: إن الأولى كان موضوعها العقيدة، والثانية كان موضوعها الشريعة. والإسلام والقرآن عقيدة ونظام، دين وتشريع وأحكام. ولما كانت العقيدة التي تعاقب عليها الأنبياء جميعاً واحدة وكان الإنسان الذي خوطب بهذه العقيدة، على اختلاف الأمم والأقوام، واحداً.. في أصله ونشأته، وفي عواطفه وغرائزه، وفي ضروراته وأشواقه، فقد أسهبت الآيات المكية في الحديث عن موضوعات ثلاث:

١ ـ الإيمان بالله واليوم الآخر، وسائر عناصر الإيمان ومستلزماته من الدعوة الى الوحدانية والحملة على الشرك والوثنية وعبادة الأصنام، والرد على الدهريين وأصناف الملاحدة... وتصوير الجنة والنار، ومشاهد النعيم وصور العذاب، كما صورت آيات كثيرة ـ وبألوان متنوعة ومواقف شتى ـ يوم القيامة وأدلته واحداثه، ودعت الى أخذ الأهبة والاستعداد ليوم العرض على الله عز وجل﴿يوم تجد كل نفس ما عملت مُحضرا..﴾ و﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

ويتبع هذا الموضوع ويتصل به: ما عرضت له الآيات المكية كذلك، وبإسهاب، من الحديث عن الكون المخلوق، وبنائه وقوانينه وسننه المطردة، ودعت الإنسان الى الانتفاع به وتسخيره من وجه، والى الاستدلال به على الخالق من وجه آخر.

٢ ـ النشأة الأولى للإنسان وعن آدم وحواء، وعن مراحل خلق الإنسان، وعن غرائزه وصفاته النفسية، كما تحدثت عن الأحياء الأخرى من نبات وحيوان.

٣ ـ قصص الأنبياء والأمم السابقة، وصورت مصير الضالين المكذبين، ومصارع الأقوام الجبابرة والمتألهين!

وإذا حاولنا قراءة نفوس المسلمين في مكة من خلال موضوعات العقيدة هذه، لعلمنا مبلغ الدور الميداني أو العملي الذي أدته الآيات المكية حين ربطت الفرد بربه وعقيدته حتى لا يتسرب الى قلبه الوهن وهو يرى صدود الناس واستكبار الخلق! وحين شدته الى ركب كريم موغل في التاريخ فربطته بقافلة الأنبياء والشهداء والصالحين... وحتى كان شعار المرحلة المكية: «الحق والصبر» قال الله تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[1].

أما الآيات المدنية التي دارت، في الغالب، حول الشريعة، أي حول الأحكام العملية التفصيلية التي كانت تختلف باختلاف الأنبياء، فقد عالجت الى جانب ذلك بعض الاوضاع الخاصة عن قيام الدولة. ويمكن إجمال الموضوعات المدنية فيما يلي:

١ ـ التحدث عن دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام، وأنواع القوانين المدنية والجنائية ـ الحدود ـ والدولية «الجهاد والسلم والحرب» وقضايا الميراث والحقوق الشخصية.. وسائر ضروب المعاملات، وكذا العبادات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي كالزكاة والحج.

٢ ـ ذكر المنافقين، وبيان أخلاقهم وفضائحهم وسائر شؤونهم.. ومعلوم أن النفاق قد نجم في المدينة، لحاجة من في نفسه مرض لمصانعة الإسلام والمسلمين بعد أن قويت شوكة المسلمين وأقاموا دولتهم... ولم يسلك هذا السبيل أحد في مكة لعدم حاجته الى ذلك، والمسلمون قلّة لا سلطان لهم، بل كانوا يحاربون جهاراً نهاراً على رؤوس الأشهاد[2].

٣ ـ مجادلة أهل الكتاب ومناقشتهم في عقائدهم، ودعوتهم إلى عدم الغلوّ في دينهم.

---

(١) راجع كتاب «البيان النبوي» للمؤلف ص ٦١.
(٢) راجع نوعاً من الحرب الخفي والمكر الخبيث في المدينة في السورة المسماة باسم المنافقين (السورة رقم ٦٣).

وإذا أردنا أن نضع الآيات المدنية في إطارها التربوي أو النفسي لقلنا مع بعض الباحثين: جاءت هذه الآيات لتؤكد إخلاص العبودية لله بعد أن نجم النفاق وأسلم من أسلم متابعة لقومه ومسايرة لخط ظهر له التفوق... وجاءت لتعطي الصورة الصحيحة للتعامل بين المؤمنين بشكل لا يدع ثغرة ينفذ منها مغرض أو منافق ليدمر وحدة الأمة وليمزق الصفوف.. وجاءت أخيراً لتأخذ بيد العصبة المؤمنة وهي تعاني مشكلات النصر.. بكل ما يحمله النصر من مشكلات خطيرة على الفرد والدولة والمجتمع...

ثانياً - من الناحية الاسلوبية والبيانية:

يغلب على القسم المكي:

١ - قصَر الآيات والسور وإيجازها، وحرارة تعبيرها، وتجانسها الصوتي البارز، أو الذي يظهر للسامع من الوهلة الأولى[1].

٢ - كثرة السجع والفواصل القرآنية، وكذلك قصرها وتجددها بما يتناسب مع الصور والمواقف المعروضة في كل سورة من السور.

٣ - كثرة القسم والتشبيه والأمثال، اذا ما عورضت بالآيات المدنية.

---

(١) الخطاب بالآيات المكية لجميع الناس، كما قدمنا، لانها تتضمن دعوتهم الى الإيمان.. ولهذا جاءت فيها عناصر الإعجاز التي تتصل بالجانب الصوتي، او النظم الموسيقي، شديدة الوضوح، سريعة النفاذ والتأثير. واذا كانت هذه العناصر، أو الجوانب من جوانب الإعجاز لم تنقطع في الآيات المدنية على التحقيق، إلا أنها كانت ذات طبيعة وملامح اخرى، وقد يحتاج ادراكها هنا الى شيء - قليل أو كثير - من التأمل يقوم به «المؤمن» الذي خوطب بهذه الآيات.. وهو يملك مثل هذه الفسحة الزمانية للتأمل والنظر. ومعلوم أن آيات سورة العنكبوت أشارت الى ان الحجة قائمة على الكافرين والمبطلين والظالمين بمجرد تلاوة القرآن عليهم - انظر الآيات ٤٧ - ٥٢ من السورة ٢٩ - قال تعالى: ﴿.. أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة لقوم يؤمنون﴾ وقال تعالى ايضا: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله..﴾ حيث نصت الآية أو اكتفت بمجرد سماعهم لكلام الله. ومن هنا جاء قولهم - والله اعلم -: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون!» راجع ص ١٤٥ - ١٤٦ من هذا الكتاب، وانظر فيه كذلك بحثنا القادم عن إعجاز القرآن.

وكذلك تكرار بعض الجُمل والكلمات ، وأسلوب التأكيد بصفة عامة.

٤ ـ الآيات المكية غنية بالتخييل الحسّي والتجسيم ، وخلع الحركة والحياة والحوار على الاشياء ، وبخاصة حين تتحدث عن يوم القيامة وأحداثه وما يتبعه من حوار بين أصحاب الجنة وأصحاب السعير.

أما الآيات المدنية فيغلب عليها طول أكثر السور وبعض الآيات وإطنابها ، وأسلوبها في التشريع الهادىء . أما فواصلها فرخيّة مسترسلة.

وربما زيّنت هذه الفروق الأسلوبية للبعض ، أو دفعته الى الظن بأن القرآن الكريم قد « خضع » في « تأليفه » لظروف البيئة التي اختلفت بين مكة والمدينة ، والتي انعكس أثرها على النبي ﷺ فاختلف « أسلوبه » تبعاً لذلك!! وهذه هي النتيجة التي يريد أن يصل إليها هذا الملبّس على الناس...

وعلى الرغم من حديثنا السابق عن « مصدر » القرآن الكريم ، إلا أننا نشير هنا ، لنقض هذا الزعم الاستشراقي ، الى النقاط التالية :

١ ـ إن اختلاف الخصائص الفنية لكل من الآيات المكية والمدنية نابع في الحقيقة من اختلاف الموضوعات التي تضمنتها كل واحدة من هذه الآيات ، ومعلوم أن لكل موضوع حليته اللفظية التي تناسبه والتي قد لا تناسب موضوعاً آخر ، ولم يقل أحد إن الحماسة والوصف والغزل والرثاء تؤدي كلها في قالب واحد ، وأن ما يصلح من الألفاظ والتراكيب للأول يصلح للثاني أو الثالث...

وقد دارت الآيات المكية ، كما أشرنا ، حول العقيدة والإيمان ، والجنة والنار ، وواجهت قوماً طغاة عتاة سادرين في جهلهم وعبادتهم للأصنام.. إن تنبهوا لمن يدعوهم الى الحق مرة قالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم!! ».. هذا الإصرار والتحدي لا يقابل بغير الآيات التي تطرق أسماعهم وحسّهم طرقات عنيفة قوية عالية توقظهم من أوهامهم وترد البصر الى عيونهم ، والعقول الى رؤوسهم!!

وإلا فمن هو الذي يقول هذا القول.. ولا يقول: فاهدنا إليه، أو دلّنا عليه؟!

هذه آيات من سورة القمر أسوقها هنا كمثال أو شاهد حول هذه النقطة، وحول مضامين الآيات المكية وحليتها المناسبة بصورة عامة. يقول الله تعالى:

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يُعرضوا ويقولوا سحر مستمر. وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكلُّ أمرٍ مستقر. ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجَر. حكمة بالغة فما تُغن النُّذُر. فتولَّ عنهم يوم يدعُ الداع الى شيء نُكر. خشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر. مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عَسِر.

كذّبت قبلهم قوم نوح فكذَّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجِر. فدعا ربَّه أني مغلوب فانتصِر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجَّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدر. وحملناه على ذات ألواح ودُسُر. تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفِر. ولقد تركناها آية فهل من مدّكّر فكيف كان عذابي ونُذُر. ولقد يَسَّرنا القرآن للذِّكْر فهل من مدّكر.

« كذبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُر. إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحسٍ مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر. فكيف كان عذابي ونذر. ولقد يسّرنا القرآن للذِّكْر فهل من مدّكر.

« كذبت ثمود بالنّذر. فقالوا أبَشراً مِنّا واحداً نتبعه إنّا إذاً لفي ضلال وسُعُر. أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذّاب أشِر. سيعلمون غداً من الكذاب الأشر. إنا مرسلو الناقة فتنةً لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كُلُّ شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعَقَر. فكيف كان عذابي ونُذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدةً فكانوا كهشيم المحتَظِر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر... ﴾ إلخ السورة.

وإذا وقفنا هنا وقفة عارضة أمام ظاهرة « السجع » في الآيات المكية..، والتي سنتولى الحديث عنها في « الصورة الأدبية للقرآن » لوجدنا أن بعضهم

أنكر وقوعه ـ السجع ـ في القرآن بناء على قواعد وحدود وضعها للسجع لا تعرف، بينما أقر بوقوعه بعضهم منهم ابن سنان الذي رد على من قال: « إذا كان السجع عندكم محموداً، فهلا ورد القرآن كله مسجوعاً » ... رد بقوله: « إن القرآن أنزل بلغة العرب، وعلى عرفهم وعادتهم، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعاً لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع، ولا سيما فيما يطول من الكلام. فلم يرد مسجوعاً جرياً به على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم، ولم يخل من السجع لأنه يحسن في بعض الكلام على الصفة التي قدمناها »[1].

ويعنينا، في هذه العجالة، قول ابن سنان « ولا سيما فيما يطول من الكلام » الذي أشار فيه الى أن السجع ليس زينة لفظية يؤتى بها في كل موضع، لأن الطويل من الكلام إذا كان يصلح لأداء الأحكام التشريعية الدقيقة المتضمنة للأعداد والأرقام، والشروط والأحوال... فإن السجع هنا ليس هو الحلية المناسبة والبيان الملائم، بمقدار ما يؤدي هذا الدور في الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وذكر الجنة والنار، والزراية بالأصنام والأوثان، وسرد القصص التاريخية المتعلقة بالأنبياء السابقين، وتصوير مواقف أقوامهم وتكذيبهم وعنادهم، وما أصابهم بعد ذلك من قارعة، أو حلت قريباً من دارهم!!..

ارجع مرة أخرى الى تلاوة الآيات السابقة من سورة القمر، واقرأ إن شئت سورة الطور أو النجم أو الواقعة أو الحاقة، وفكر في المعاني التي تضمنتها أو الموضوعات والصور التي عرضت لها، وانظر في مدى المواءمة الدقيقة المتناهية والكمال المطلق بين المبنى والمعنى، وبين الحلية والفحوى.. ثم قارن ذلك بآية المداينة في سورة البقرة، أو بآيات المواريث، أو بسورة المائدة وما تضمنته من أحكام الصيد والعقود والطعام وأخبار أهل الكتاب وغير ذلك...

---

(١) انظر سر الفصاحة ص ١٦٧.

ودونك هنا طرفاً من آيات المواريث في سورة النساء، تَمَلَّ ما فيها من حساب وأرقام لتعلم أن ما تضمنته من تقسيم وتفصيل لا تتسع له الفاصلة السريعة، أو الجمل القصيرة... فضلاً عن أن يكون في مثلها مجال لقسم أو تشبيه، على نحو ما رأيت في سورة القمر أو الطور أو النجم!! قال تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأُنثيين، فإن كُنَّ نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث، فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصيّة يوصي بها أو دين، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً، فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً.

«ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهنَّ ولد، فإن كان لهن ولد فلكم الرُّبع مما تركن من بعد وصيَّة يوصين بها أو دين، ولهن الرُّبع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصيَّة توصون بها أو دين، وإن كان رجلٌ يورَث كلالةً أو امرأةٌ وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصيَّة يوصَى بها أو دين مُضار وصيَّة من الله والله عليم حكيم﴾ ـ الآيتان ١١ ـ ١٢ النساء.

وعندنا أن طرح هذه القضية من خلال ذلك الظن أمهارة جهل.. ودليل على ما ينطوي عليه صاحبه من ضغينة تنتفي معها أبسط درجات الموضوعية والبحث النزيه.. لأن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل انقطع خيط الإعجاز بين المكي والمدني؟! وهل في وسع أحد أن يؤدي أو يفكر في أداء المضامين المدنية بأحكم من هذا الأسلوب وأوجزه وأفعله في النفس الانسانية وأثره في المجتمع والناس؟! إن من أوضح دلائل الاعجاز أن يبقى القرآن الكريم معجزاً في إطنابه وفي إيجازه، وحال مناقشته للمشركين، ولدى تشريعه للمؤمنين، وحين يشتد، وحين يلين... وحين يصور الماضي، وحين يتحدث عن الحاضر، وحين يرسم صورة المستقبل القريب والبعيد.

٢ـ وبما يؤكد ذلك، وينضاف إليه، **تقارب الأسلوبين أو تطابقهما حين**

يعرض القرآن المدني لبعض الموضوعات المكية، أو حين عرضت الآيات المكية لبعض الموضوعات المدنية، ولهذا استعملنا فيما سبق عند الكلام على الفوارق بين الأسلوبين تعبير (ويغلب) فقلنا: ويغلب على الآيات المكية كذا، وعلى المدنية كذا... فهي إذن فوارق ليست قاطعة أو حادة كما أشرنا كذلك، لأنها فوارق نابعة من طبيعة الموضوعات لا من أي شيء آخر... اقرأ سورة الحج، وهي من أواسط او أواخر ما نزل بالمدينة (السورة ١٨ من السور الثمانية والعشرين التي نزلت في المدينة) نجدها قد استُهلت بقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كلُّ مرضعة عما أرضعت وتضع كلُّ ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. ومن الناس من يجادل في الله بغير علم يتَّبع كلَّ شيطان مرَّيد. كُتب عليه أنه من تولاه فأنه يُضله ويهديه الى عذاب السعير﴾ ثم اقرأ فيها أدلة البعث يوم القيامة، وقف عند هذه الصورة من صور العذاب:

﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثيابٌ من نار يُصب من فوق رؤوسهم الحميم. يُصهر به ما في بطونهم والجلود. ولهم مقامع من حديد. كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أُعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق...﴾.

وعارض هذه الآيات من مطلع سورة الأنعام، وهي من أواسط ما نزل قبل الهجرة، قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون. هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجلٌ مُسَمّى عنده ثم أنتم تمترون. وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرَّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون وما تأتيهم من آيةٍ من آياتِ ربهم إلا كانوا عنها معرضين...﴾.

بل إن الطابع العام للآيات المكية يقترب أو يتوافق مع القرآن المدني، كلما عددت هذه الآيات نعم الله تعالى على الإنسان أو حضته على مكارم الأخلاق حيث يعرض ذلك بأسلوب هادىء مطمئن رزين ثابت القرار، عميق التأثير... عُد إن شئت إلى آيات الوصايا في سورة الإسراء - وهي كذلك من

أواسط ما نزل في مكة - وتأكد مما نقول، قال الله تعالى: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما. وقل لهما قولا كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا. ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوّابين غفوراً. وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تُبذر تبذيرا. إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا. وإما تُعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً... ﴾ الخ الآيات. واقرأ إن شئت سورة إبراهيم...

وإن الاسترسال في هذا الجانب سوف يخرجنا الى الكلام في طابع الجزالة والرقة في أسلوب القرآن الكريم، وفي كلام العرب، وهذا إنما ندع الكلام فيه إلى موضعه من الصورة الأدبية للقرآن إن شاء الله تعالى.

٣- وأخيراً، فإن القرآن الكريم لو كان شأنه للنبي عليه السلام لما كان من المعقول ألا يختلف أسلوبه عن الحديث النبوي، فحسب، كما أشرنا الى ذلك، بل كان من اللازم والمعقول ألا يتنوع هو نفسه هذا التنوع بين المكي والمدني... لأن اختلاف أسلوب الكاتب بين الحماسة والاسترسال، أو بين الثورة والركون - كما زعم الزاعم في القرآن والنبي - لا يكون بين سن الأربعين والخمسين، أو الاربعين والثالثة والخمسين، وهما سن النبي حين نزل الوحي عليه ويوم هاجر الى المدينة، لأنهما سنّ الكهولة والتجربة فيه ناضجة، والثورة هادئة، والحماسة تميل نحو الغروب.. وإنما يكون ذلك بين الشباب والكهولة، أو بين العشرين والأربعين.

ولو صح مثل ذلك أيضاً لكان من الواجب أن نلحظ التطور الزمني في المكي نفسه حتى يسلم الى المدني بحيث يشبه أو يتساوى آخر المكي مع أوائل المدني، لأن الفروق لا تعرف يقيناً بين الثلاثة والخمسين إلا بضعة أشهر وبينها كاملة أو مضافاً إليها عدداً من الأيام والشهور!! بل إن الذي نجده في القرآن الكريم ينقض هذا تماماً ويعارضه وينفيه، كما لحظنا ذلك في الشواهد القليلة السابقة، وكما نشاهده في سورة الصف وهي من أواخر ما نزل من القرآن

بالمدينة (السورة رقم ٦١ نزولا من القرآن!) والتي يقول الله تعالى فيها: ﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم. يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون. إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بُنيان مرصوص. وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين. وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مُصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين. ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يُدعى الى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين. يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون...﴾ إلخ السورة.

هذا كلام نزل على رسول الله - ﷺ - وقد جاوز الستين من العمر!! وهو يحمل معالم الآيات المكية على وجه العموم.. أين هذا من السن والتجربة واختلاف البيئة، أو اختلاف الزمان والمكان!! كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبا.

وصدق الله العظيم الذي أنزل في محكم التنزيل: ﴿والنجم إذا هوى. ما ضلَّ صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾ وتنزه رسول الله الذي لم يكن ليكذب على الناس فضلاً عن أن يكذب على الله، وصلىَّ الله عليه وآله وسلم.

الفصل الثالث

الفصل الثالث
فواتح السُّوَر

افتتح الله عزّ وجلّ كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام ، لا يخرج شيء من سور القرآن ـ وعدتها مائة وأربع عشرة سورة كما مرّ بك ـ عنها[1] ونشير هنا إلى أنواع الاستفتاح هذه قبل أن نقف عند موضوعنا ، وهو « الاستفتاح بحروف التهجي » .

أنوع استفتاح السُوَر القرآنية

١ ـ الاستفتاح بالثناء على الله تعالى . والثناء قسمان : إثبات لصفات المدح ، ونفي وتنزيه عن صفات النقص . والإثبات نحو ﴿ الحمد لله ﴾ و﴿ تبارك ﴾ . والتنزيه نحو ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ و﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ .

وقد ورد الاستفتاح بالثناء في أربع عشرة سورة ، نصفها لثبوت صفات الكمال ، ونصفها لسلب النقص .

٢ ـ الاستفتاح بالنداء ، وذلك في عشر سور . خمس في نداء النبي ﷺ ، وخمس في خطاب الناس . ثلاث من الأولى بـ« يا أيها النبي » والنداءان

---

(١) انظر البرهان ١٦٤/١ فما بعدها .

الآخران: ﴿يا أيها المزمل﴾ و﴿يا أيها المدثر﴾ وفي خطاب المكلفين ثلاث بـ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وإثنان: ﴿يا أيها الناس﴾.

٣ ـ ٩: الاستفتاح بالجملة الخبرية في ثلاث وعشرين سورة، وبالقسم في خمس عشرة سورة، وبالشرط في سبع سور، وبالأمر في ست سور، وبالاستفهام في ست سور، وبالدعاء في ثلاث سور، وبالتعليل في موضع واحد.

١٠: الاستفتاح بالحروف المقطّعة، أو بحروف التهجي في تسع وعشرين سورة. وهي التي قصدنا إليها من فصل «فواتح السور» هذا.

صيغ هذه الفواتح

جاءت هذه الفواتح على صيغ مختلفة، فمنها ما هو مؤلف من حرف واحد وذلك في ثلاث سُوَر: صاد وقاف والقلم، فالأولى مفتتحة بحرف «ص» وثانية بحرف «ق» والثالثة بحرف «ن» ومنها ما هو مؤلف من حرفين، وذلك في عشر سُوَر: سبع منها مفتتحة بهذين الحرفين «حم» وتسمى الحواميم، وهي: غافر أو (المؤمن) وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف ـ بهذا الترتيب في المصحف كما مرّ بك ـ أما الثلاث الباقية في سورة «طه» المفتتحة بهذين الحرفين، والنمل المفتتحة بـ«طس»، وسورة «يس» المسماة بهذين الحرفين.

أما الفواتح المؤلفة من ثلاثة أحرف فتتوزعها ثلاث عشرة سورة: ست منها بلفظ «آلم» وهي في سورة البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة، وخمس منها بلفظ «آلر» في سورة يونس وهود ويوسف وابراهيم والحجر، واثنتان بلفظ «طسم» في سورتي الشعراء والقصص. وهنالك فوق هذا سورتان مفتتحتان بأربعة أحرف هما سورة الأعراف وفي مستهلها «المص» وسورة الرعد وفي مستهلها «المر».

بقيت صيغة واحدة مؤلفة من خمسة أحرف هي « كهيعص » في أول سورة مريم[1].

يتبين من هذا أن مجموع الفواتح تسع وعشرون، وعدد الحروف الواردة فيها من غير تكرار أربعة عشر حرفاً.

ومما تجدر ملاحظته هنا أن هذه الفواتح التي كتبت في المصاحف على صورة الحروف أنفسها لا على صورة أساميها، على طريقة العرب إذا قالت للكاتب اكتب: سيناً، فإنه يرسم الحرف « س » ولا يكتب الاسم، إنما تقرأ حروفاً مقطعة، وهذا لا يتأتى غيره - كما هو واضح - فيما افتتح بحرف واحد مثل « ق » و« ن » ولكن ما استهل بأكثر من حرف مثله كذلك نحو: « عسق » فإنها تقرأ هكذا: عَيْن، سِينْ، قافْ، وهكذا: كافْ، ها، يا، عينْ، صاد... الخ[2].

أشهر ما قيل في تفسيرها

وللعلماء والدارسين آراء كثيرة في تفسير هذه الحروف المقطعة أو تأويلها، وليس من همنا هنا استعراض كل ما قيل بغثّه وسمينه، ثم عدم الخروج بشيء، أو الخروج بلا شيء في نهاية المطاف، كما فعل بعضهم[3]. ولكننا نعرض هنا لأشهر الآراء التي قال بها طائفة من العلماء والمفسرين محاولين التماس أدلة الترجيح لبعض هذه الآراء على البعض الآخر.

والذي نقوله ابتداءً ان هنالك اتجاهين، يرى أضعفهما دليلاً عدم الخوض في تفسير هذه الحروف أصلاً لأنها - فيما قيل - مما استأثر الله تعالى بعلمه، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه لحكمة يعلمها الله! وذهب إلى هذا الاتجاه سفيان

---

(١) سورة الشورى السابقة - إحدى الحواميم - افتتحت كذلك بعد « حم » بآية أخرى مؤلفة من ثلاثة حروف هي: « عسق ».

(٢) أنظر حول هذه النقطة: الكشاف للزمخشري ١/١٢

(٣) الدكتور رمضان عبد التواب في حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس: القاهرة.

الثوري والشعبي وجماعة من المحدّثين، وعزاه بعضهم إلى علي ابن أبي طالب وأبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما. ويتعارض هذا الاتجاه مع الأمر بتدبر القرآن ومعرفة ما فيه ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ - الآية ٢٤ من سورة محمد - وقال تعالى: ﴿ولو ردّوه إلى الله وإلى الرسول لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ - ٨٣ من سورة النساء - وقد وصف الله تعالى كتابه بأنه أنزله ﴿تبياناً لكل شيء﴾ ومَنَّ علينا بأن جعله ﴿بلسان عربي مبين﴾ وكل ذلك يدل على ضرورة تدبره والاستنباط منه، وذلك لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه. ولا خلاف على أن الغرض من الخطاب الإفهام! وعلى أن الصحابة والتابعين والعلماء تكلموا في معنى هذه الحروف.

أما أصحاب الاتجاه الآخر، فقد اختلفوا في تفسير هذه الحروف كما قدمنا. ويمكن إجمال أشهر آرائهم فيما يلي:

أولاً: إن هذه الحروف دلالة على اسم من أسمائه تعالى أو صفة من صفاته، روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الم﴾: أنا الله أعلم. - وروى أن اللام من «الله» واللام من «لطيف» والميم من «مجيد». وفي قوله تعالى: ﴿المص﴾ أنا الله أفضل. أو هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذف بقيتها كقوله في ﴿الم﴾ إن الألف من «الله» واللام من «جبريل» والميم من «محمد» ﷺ.

وقريب من هذا من يرى بأن هذه الحروف لو وصلت صارت إسماً من أسماء الله تعالى، كقولك «الرحمن» فهو: «الر» «حم» «ن». ولكن هذا إنما يتأتى في بعض الحروف دون جميعها[1]. وقد اختار الزجاج الرأي الأول المشار إليه وقال: «إن العرب تكلمت بالحروف المقطعة للدلالة على بعض الكلمات المتضمنة لهذه الحروف، كقوله:

«فقلت لها قفي فقالت (ق)»

فعبر عن قولها «وقفت» بحرف «ق».

ولكن الذي يؤخذ على هذا التفسير التحكم والافتقار إلى قاعدة مطردة أو

---

(١) راجع كتاب الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن للمؤلف ص٢٤٢.

منضبطة فقوله تعالى ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ ـ مثلا ـ ليس هنالك ما يؤكد حمله على تفسير ابن عباس السابق، دون أن تقول مثلاً: «أنا الله أفصل أو أصور... والميم من «الم» ربما كانت من المجيد أو الماجد...» الخ.

ثانياً: ويرى بعض العلماء أن هذه الحروف إنما هي أسماء للسور التي استهلت بها، بدليل قوله ﷺ: «يس قلب القرآن» وقوله: «من قرأ حم السجدة حُفظ إلى أن يصبح» قالوا: وهذا جائز لأن أسماء الأعلام منقولة للتفرقة بين المسميات، فمتى لم يرد بها معنى الأصل فهي على جهة النقل ـ وقد جاء في أسمائهم: أوس بن لام ـ ولا خلاف بين النحويين أن كل كلمة لم تكن على معنى الأصل منقولة كقولك «زيد» إذ لم ترد به الزيادة كان منقولاً إلى العَلَم.

فإن قيل: لقد وجدنا «الم» افتتح بها عدة سور، فلو أراد بهذه الحروف التسمية لم يسم بها سوراً كثيرة! فالجواب أن هذا موجود كذلك في أسماء الألقاب، فيسمى خلق «زيداً» ثم يتميز بشيء آخر يتصل به، فيقال زيد الفقيه، وزيد النحوي، كذلك هنا إذا قرأ القارىء «الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه» فقد ميزها عن: الم . الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم[1]؟.

قال الحسن البصري: سمعت السلف يقولون: إنها أسماء السُوَر ومفاتيحها.

ولا يخلو هذا الرأي من بعض الاعتبار، كما سنشير إلى ذلك في آخر هذا الفصل، لأنه لا يوجد ما يمنع من اعتباره، ولكن يمكن أن ينضاف إلى وجه آخر من وجوه البيان والتفسير.

ثالثاً: وأشهر ما قيل في تفسيرها: أنها للتحدي والإعجاز، وبيان أن القرآن الكريم الذي أعياهم أمره حتى وصفه كبيرهم الوليد بن المغيرة بأنه سحر!! ـ وكان بالطبع سبيل أصحاب الرشد منهم إلى الإيمان والإسلام ـ هذا القرآن إنما هو مؤلف من هذه الحروف! وأنه مع ذلك مباين لمعهودهم في

---

(١) انظر المصدر السابق وكتاب البرهان ١/١٧٤.

الفصاحة والبيان، خارج عن هذا القدر الذي يستطيعه أو يقدر عليه المقدَّمون منهم في هذا الباب... فمن زعم أو ظن أن في وسعه أن يأتي بسورة من مثله - في أي باب من الأبواب شاء - فليفعل، أو فليحاول ودونه «مادة» هذا الكتاب المعجزة وهي هذه الحروف: الألف، واللام، والميم، والنون... وهي حروفهم ومادة كلامهم، لا حروف أو مادة جديدة لم تطرق سمعهم من قبل، أو لا عهد لهم بها في سابق العهد والأوان!

ولعل هذا التحدي يظهر واضحاً جلياً، إذا ذكرنا النقاط التالية التي يمكن إيرادها هنا لدعم هذا الرأي أو هذا الشرح والتفسير:

١ - إن هذه الأحرف قد استهلت بها السور المكية، حتى كانت من ضوابطها أو من علاماتها كما ذكرنا، لا يستثنى من ذلك سوى سورتي «البقرة» و«آل عمران» وهما على كل حال من أول ما نزل بالمدينة بعد الهجرة: (البقرة - الأنفال - آل عمران...).

٢ - إن مجموع هذه الفواتح يبلغ تسعاً وعشرين، وهو عدد الحروف الهجائية - اذا عدت فيها اللام ألف - وأن حروفها مؤلفة من أربعة عشر حرفاً نصف حروف التهجي، وأن هذه الحروف جاءت فوق ذلك مشتملة على أصناف أجناس الحروف جميعاً، بمقدار النصف لكل جنس، ففيها مثلاً من الحروف المهموسة التي يجمعها قولك: (فحثه شخص سكت) السين والحاء والكاف والصاد والهاء. ومن حروف الحلق الستة وهي: (الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء) الحاء والعين والهاء. ومن حروف القلقلة (قطب جد) القاف والطاء، ومن الحرفين الشفويين (الميم والباء) حرف الميم... وقل مثل ذلك في الحروف الشديدة والمطبقة والمستعلية وحروف الصفير... الخ[1].

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: «انما جاءت على نصف حروف المعجم،

---

(١) راجع البرهان ١٦٦/١ والزمخشري في الكشاف ٢٤/١: قال الزمخشري: «ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته».

كأنه قيل: مَن زعم أن القرآن ليس بآية فليأخذ الشطر الباقي، ويركب عليه لفظاً معارضة للقرآن».

ويؤكد الزركشي هذه النقطة، أو هذه الظاهرة اللغوية في فواتح السُوَر، بأن أكثر هذه الفواتح تكراراً هي «الم» الألف واللام والميم، ويعلل ذلك بأنها «معالم» المدرج الصوتي أو رموزه على أقل تقدير، «فالهمزة من الرئة فهي أعمق الحروف، واللام مخرجها من طرف اللسان ملصقة بصدر الغار الأعلى من الفم، والميم مُطْبَقة لأن مخرجها من الشفتين إذا أطبقا» قال: «ويُرمز بهن إلى باقي الحروف، كما رمز ﷺ بقوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» إلى الإتيان بالشهادتين وغيرهما مما هو من لوازمهما[1]».

وبعبارة أخرى: إن هذه الحروف تعتمد المخارج الرئيسية الثلاثة «الحلق واللسان والشفتين»، التي يتفرع عنها ستة عشر مخرجاً - ليصير منها تسعة وعشرون حرفاً هي حروف الهجاء - أو تمثل المدرج الصوتي في أقصاه ووسطه وطرفه، فرمز بهذه الثلاثة إلى جميع الحروف.

٣ - ويمكن أن يُستدل لأصحاب هذا الرأي، بما نلاحظه من أن هذه الحروف، أو السُوَر التي افتتحت بها، أعقبها مباشرة وفي أغلب الأحيان حديث عن القرآن الكريم وانه تنزيل من حكيم حميد، أو جاء هذا الحديث في ثنايا السورة في أحيان قليلة:

في سورة البقرة﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾وفي آل عمران﴿ ألم الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم، نزّل عليك الكتاب بالحق مُصدقاً لما بين يديه... ﴾ وفي سُورَة طه: ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى، تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلى ﴾ وفي سورة النمل﴿ طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ وفي سورة القصص﴿ طس، تلك آيات الكتاب المبين ﴾ وكذلك الحواميم ابتداء من سورة غافر إلى سورة الأحقاق، ففي السورة الأربعين

---

(١) البزهان ١٦٧/١.

« غافر » : ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ ، وفي السورة التي تليها « فصلت » : ﴿حم تنزيلٌ من الرحمن الرحيم ، كتاب فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾ . وفي سورة الشورى - ٤٢ - ﴿حم عسق ، كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ - الآية ٣ - وبعدها في الآية ٧ قوله تعالى : ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أمَّ القُرى ومَن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ .

وهكذا في باقي « الحواميم » تأتي الآيات عقب هذه الفواتح مباشرة متحدثة عن هذا « الكتاب المبين » وعن جعله « قرآناً عربياً » وأن الله تعالى أنزله « في ليلة مباركة » وأنه « تنزيل من الله العزيز الحكيم » .

وفي سورة العنكبوت التي صدرت بـ« الم » تأتي من خلال السورة عدة آيات حول هذا الكتاب المعجز يقول الله تعالى في هذه السورة : « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء مَن يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ، وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك إذاً لارتابَ المبطلون ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ، وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » وكذلك في أواخر سورة الروم[1] .

رابعاً : أما الرأي الرابع فقد أشار إليه الزركشي بقوله : « إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لَغوا فيه ، وقال بعضهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلكم تغلبون » فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا به ، ويكون تعجبهم سبباً لاستماعهم ، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده ، فترق القلوب وتلين الأفئدة » .

ومعنى ذلك أن هذه الحروف أسقطت من أيديهم آخر سلاح حاولوا أن

---

(١) قال الزركشي : « واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله : ﴿الم ذلك الكتاب﴾ وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم ، فيسأل عن حكمة ذلك » ، البرهان ١ / ١٧٠ .

يقاوموا به انقياد الناس بالقرآن، وتأثرهم لسماعه، والدخول به في دين الله... وذلك السلاح هو سلاح الشغب تعبيراً عن سقوط كل حجة بأيديهم: لا تسمعوا لهذا القرآن!!... آخر ما يطلقه منهزم في مناظرة أو نقاش... لا تسمعوا لمحدِّثي ولا تلتفتوا إليه... ثم ماذا؟ «والغوا فيه لعلكم تغلبون»... طريقة في الغلب والسبق طريفة وسابقة!! إذن فليُحدث لهم القرآن مالا عهد لهم بسماعه... الم - ن - كهيعص... فأثار بذلك دهشتهم واستغرابهم فقالوا كالمتعجبين: اسمعوا إلى ما يجيء به محمد!! فإذا انطلق النبي صلوات الله عليه يقرأ سكن اللغو، وسكت الشغب... وسلك القرآن سبيله إلى النفوس والعقول، فكان ذلك - كما يقول قطرب والرازي - سبباً لاستماعهم وطريقاً الى انتفاعهم[1].

ولهذا فإن بعض المفسرين الذين اعتمدوا هذا الرأي قالوا إنه لا غرابة في أن يحدث القرآن الكريم هذا الأسلوب من أساليب التنبيه، ليدل المخاطب على مهمات كلامه ويحيطه علماً بما يريده منها، ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضل منازلها... على نحو ما تواضع عليه العرب من هاء التنبيه وأداة الاستفتاح!

والذي يبدو لنا أن مثل هذا الفهم أو التفسير قد يسيء إلى هذا الرأي، ويبعده عن وضعه في ساحته القريبة وإطاره الصحيح[2]، لأن سكون اللغو وسكوت الشغب، أو - بعبارة أخرى إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة ايجابية - إن إقبالهم على سماع القرآن بعد هذه الحروف يكمن في الإيحاء الذي أحدثته، والأجواء التي اطلقتها، - حتى كان نظماً بديعاً كما عبر الزركشي - والذي يمكن التعبير عنه من خلال النقاط التالية:

١ - العلاقة الموسيقية بين هذه الحروف وبين فواصل الآيات التي تليها:

---

(١) تفسير الرازي ٢/٦ وكتاب الحاكم الجشمي للمؤلف ص٢٤٢... وارجع إلى تعليقنا السابق في الصفحة ١٣١ في بحث المكي والمدني.

(٢) ينطوي هذا التفسير على الزعم بأن القرآن الكريم اضاف إلى ادوات التنبيه... أو اساليبه، وهذا شيء لا يعرف عن القرآن الكريم في هذا الباب، ولا في سائر ابواب النحو، والله اعلم.

فإننا إذا نظرنا في هذه العلاقة لرأينا كيف تقوم هذه الفواتح مقام الافتتاحيات التمهيدية في المقطوعات الموسيقية:

آ - فهناك تمهيد بتماثل الروي، نحو قوله تعالى في سورة آل عمران:[1].

﴿ألف، لام، ميم.

الله لا إله إلا هو الحي القيوم.﴾

ب - وهناك تمهيد بالتقارب، نحو قوله تعالى من سورة البقرة:[2].

﴿ألف، لام، ميم.

ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾.

جـ - وهناء ايضاً التمهيد الموسيقي الناشيء عن التناغم في المدود المردفة، يقول الله تعالى في سورة «ص»:

﴿صاد.

والقرآن ذي الذكر.

بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾[3].

٢ - دلالة هذه الحروف على معانيها اللغوية من جهة. وكثرة دورانهافي السور التي صدِّرت بها من جهة أخرى، بالإضافة إلى ملاحظة الفواصل بوجه عام.

يقول الزركشي «وتأمل السورة التي اجتمعت على الحروف المفردة: كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك:﴿ق والقرآن المجيد﴾ فإن السورة مبنية على الكلمات القافية: من ذكر القرآن، ومن ذكر الخلق، وتكرار القول ومراجعته مراراً، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد، وذكر الرقيب، وذكر السابق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين وذكر القلب، والقرن، والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين، وتشقيق الأرض والقاء الرواسي فيها وبُسوق النخل، والرزق، وذكر

---

(١) وفي سورة النمل والروم ولقمان، والمؤمن، وفصلت، والجاثية، الأحقاف، والقلم، وطه.

(٢) وفي سورة العنكبوت والشعراء والقصص والسجدة ويس والزخرف والدخان.

(٣) الاستاذ محمد الحسناوي في الفاصلة القرآنية (مجلة الشهاب).

القول، وخوف الوعيد، وغير ذلك.

بالإضافة إلى أن كل معاني السورة مناسب لما في حرف «القاف» من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح.

«وإذا أردت زيادة ايضاح فتأمل ما اشتملت عليه سورة «ص» من الخصومات المتعددة: فأولها خصومة الكفار مع النبي ﷺ. وقولهم ﴿أجَعَل الآلهة إلهاً واحداً؟﴾ إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم ثم تخاصم ابليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود، ثم اختصامه ثانياً في شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الاخلاص منهم»...

وقد عدَّ بعضهم «القافات» التي وردت في سورة «ق» فوجدها سبعاً وخمسين، مع أن آيات السورة خمس وأربعون، وفي سورة «ن» تكرر هذا الحرف أربع عشرة ومائة مرة، وآياتها إثنان وخمسون[1]، وجميع فواصل هذه السورة تنتهي بهذا الحرف - ن - إلا عشر آيات تنتهي بالحرف «ميم» وهذان الحرفان متقاربان موسيقياً، إذ هما يخرجان من الغنة التي تخرج من الخيشوم.

٣ - ولعل هذه الدلالة وذلك التمهيد الموسيقي هما مصدر الإيحاء الفني أو الشعوري الذي يحسّه القارىء لهذه الحروف في السور القرآنية، وربما كان هذا الإيحاء لا يستند إلى تلك الدلالة الموسيقية فحسب، ولكننا نخشى إن أضفنا إليها عامل الرمز أن نخرج بالنص القرآني إلى ساحة الأسرار والألغاز، وهي ساحة غير مأمونة العواقب، حتى ولو قلنا إنها لا تحمل أكثر من الإيحاء الموسيقي الذي يُحسّ أكثر مما يعبر به - على طريقة الأدب الرمزي - لأن بعض الناس قد خاض في هذه الفواتح أصلاً على مبدأ حساب «الجُمَّل»، وهو لون من ألوان الرجم بالغيب استنبط منه بعضهم زمان وقوع بعض الحوادث، أو الدلالة على كرامة رجل بعينه وطائفة بعينها... مما لا تدل عليه هذه الحروف

(١) انظر دراستنا القادمة لما اسماه بعض الباحثين: «الاعجاز العددي» في القرآن الكريم، في الباب الرابع.

بأصل الوضع اللغوي . . . وربما كان ما استنبط منها أو حُمل عليها يتعارض مع أبسط القواعد القرآنية نفسها!.

خامساً: واخيراً، ولسنا نقدم هنا رأياً آخر، فإنه ليس هناك ما يمنع من أن يراد بهذه الفواتح أكثر من معنى، وأنها جاءت لتؤدي أكثر من غرض في الكتاب الكريم، وقد نقل الزركشي أن ابن فارس جعل هذه التأويلات التي ذكرناها، وتأويلات أخرى غيرها، تأويلاً واحداً، وذهب إلى عدم إحالة الجمع بينها[١]، والذي يترجح عندنا أنه أريد بها - والله أعلم - المعنيان الرئيسيان السابقان: التحدي والإعجاز، من ناحية، والدلالة الموسيقية والتمهيد النفسي والشعوري من جهة أخرى. وهذا لا يتعارض مطلقاً مع ما ذهب إليه بعض السلف من اعتبارها أسماء للسور القرآنية، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

بل إن فيما ذهب إليه السلف ما يشير إلى هذا الرأي الأخير، لأنهم قالوا في هذه الفواتح إنها أسماء السُوَر ومفاتيحها.

---

(١) البرهان ١/١٧٥.

الفصل الرابع

الفصل الرابع

المحكم والمتشابه

تمهيد: الإحكام والتشابه

يطلق الإحكام والتشابه باعتبارين: الأول، وصفٌ عام لجميع آيات القرآن الكريم، قال الله تعالى في مطلع سورة هود: ﴿الر. كتاب أُحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير﴾ وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانيَ تقشعرُ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ - الآية ٢٣ -.

ومعنى «الإحكام» هنا: أن القرآن الكريم لا يلحقه دَخَل أو خلل أو باطل، فلا تفاوت فيه في النسق والإعجاز، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما وصفه الله تعالى في آية أخرى، والعرب تقول في البناء الوثيق والعهد الوثيق الذي لا يمكن نقضه إنه محكم. قال الطبري في تفسير آية سورة هود المشار إليها: «أحكم الله آياته من الدَخَل والخلل والباطل، ثم فصَّلها بالأمر والنهي، وذلك أن إحكام الشيء: إصلاحه وإتقانه، وإحكام آيات القرآن: احكامها من خلل يكون فيها، أو باطل يقدر ذو زيغ أن يطعن فيها من قبله» قال: «وأما تفصيل آياته فإنه تمييز بعضها من بعض، بالبيان عما فيها من حلال وحرام، وأمر ونهي»[1].

---

(١) جامع البيان ١١/١٨٠.

أما «التشابه» فهو في الأصل بمعنى التماثل، قال في اللسان: «والشبه والشَبَه: المثل... وأشبه الشيءُ الشيءَ: ماثله» وقد يراد بآية سورة الزمر أن القرآن الكريم يماثل بعضها بعضاً في البلاغة والهداية، ويصدّق بعضها بعضاً فلا خلاف ولا تناقض....- وهذا يعطينا على معنى الإحكام السابق- ولكننا إذا لاحظنا أن كلمة «مثاني» في الآية الكريمة يجوز أن تكون بياناً لكونه متشابهاً، فإننا نفهم من معنى التشابه في هذه الآية: التماثل الذي ينشأ عن الإعادة والتكرار، لأن «مثاني» جمع مثنى بمعنى: مردد ومكرر، وقد ثنى الله عز وجلّ من قصصه وأنبائه وأحكامه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده ومواعظه..[1] هذه التثنية وهذا التكرار- الذي جاء كأسلوب من أساليب التربية والإعداد- جعل التماثل والتشابه سمة من سمات القرآن الكريم بوجه عام، وبخاصة إذا أضفنا إليها التماثل والتشابه المطلق في الخصائص الأسلوبية والبيانية ومزايا الأداء القرآني ونظام القرآن الصوتي مما سنفصل فيه القول في الباب القادم.

وهذا- فيما يبدو- هو السبب في خروج بعض القرّاء الحفظة من موضع إلى موضع، ومن سورة الى سورة لأقل سهو أو أدنى خطأ. ولعل هذا هو السبب الذي أمر النبي- ﷺ - ومن أجله بتجديد العهد وملازمة التلاوة يوماً بعد يوم حتى لا يتطرق إلى الحافظ النسيان السريع، قال رسول الله ﷺ: «تعاهدوا هذا القرآن، فوالذي نفس محمدٍ بيده لهو أشد تفلّتاً من الإبل في عُقُلها» وفي رواية أخرى: «... استذكروا القرآن، فلهو أشد تفصيّاً من صدور الرجال من النَّعم بعُقُلها»[2] وزاد في رواية- لمسلم أيضاً- «وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نَسِيَه».

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤/٩٥.

(٢) صحيح مسلم ١/٥٤٤، والتفصي: الانفصال، ويراد بالنعم هنا الإبل كما جاء في رواية مسلم الأولى. والعُقُل جمع عقال، وهو للإبل معروف. والمراد بـ«في» و«الباء» في الروايتين: من.

هذا هو الإحكام والتشابه بالاعتبار الأول، أما الاعتبار الثاني في هذا الكتاب فقد أشارت إليه الآية السابعة في سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنَّ أمُّ الكتاب وأُخَرُ متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كُلٌّ من عند ربنا وما يذَّكَّرُ إلا أولو الألباب﴾.

فالإحكام والتشابه هنا قوبل أحدهما بالآخر، وجُعلا وصفاً لبعض الآيات دون بعض[1] ويراد بالمتشابه هنا: ما التبس فهم المراد منه، أو ما غمض ودق وأشكل تفسيره، وكان بحاجة إلى وجه من وجوه التأويل ليحمل - في بابه الخاص - على الآيات المحكمة التي تدل على معناها بوجه قاطع لا يحتمل خلافاً أو مجازاً، كقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ وقوله تعالى: إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ ومثال المتشابه قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وقوله: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها!﴾.

وسوف نعطي في هذا الفصل إلماعة سريعة عن المحكم والمتشابه بهذين الاعتبارين، ونشير هنا الى ان المصنِّفين في «علوم القرآن» أشاروا إلى هذا التفريق وتنبّهوا إليه، وجعلوا من هذين البابين «موضوعاً» لعلم خاص مفرد من علوم القرآن. وإن كانت اصطلاحاتهم في التسمية - في سبيل التمييز والتفريق - غير متفقة. وقد سمى الزركشي النوع الأول: «علم المتشابه» وبحث في النوع الثاني تحت عنوان «معرفة المحكم من المتشابه». ويبدو لنا أن اصطلاح «متشابه القرآن» إذا أطلق يراد به - على الأرجح - النوع الثاني[2]، وفي هذه الحالة فإن من الممكن إطلاق تسمية «الآيات المتشابهات» على النوع الأول. ولكننا رأينا، زيادة في الإيضاح، أن نبحث في النوع الأول تحت

---

(١) انظر كتاب «متشابه القرآن» للمؤلف، ص٦ فما بعدها.

(٢) هذا النوع أفردناه بالتصنيف في حوالي مائتي صفحة في كتابنا: «متشابه القرآن: دراسة موضوعية» طبع دمشق ١٩٦٩.

عنوان «علم المتشابه أو المتشابه اللفظي» وفي النوع الثاني تحت عنوان: «المتشابه والمشكل».

أولاً: المتشابه اللفظي

موضوع هذا العلم من علوم القرآن - كما اتضح لنا بعد هذا التمهيد - هو الآيات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، لكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف،... أو غير ذلك مما يورث اختلافاً بين الآيتين أو الآيات. كما يدخل في موضوعه بالطبع: الآيات التي تكررت بعينها من غير زيادة أو نقصان أو نحو ذلك[1].

وأكثر ما يرد هذا النوع في قصص القرآن، نظراً لتكرر معظمها في أكثر من موضع - تبعاً لأغراض مختلفة - حتى كاد السيوطي، متقفياً أثر الزركشي، وهو بسبيل أن يضع له تعريفاً أو ما يشبه التعريف، أن يقصره على القصة وحدها، حيث قال: «والقصد به إيراد القصة الواحدة في صور شتّى وفواصل مختلفة، فتأتي في موضع مقدماً وفي آخر مؤخراً كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حِطّة﴾ وفي الأعراف: ﴿وقولوا حِطّة وادخلوا البابَ سجُدّاً﴾ وفي البقرة: ﴿وما أُهلَّ به لغير الله﴾ وسائر القرآن: ﴿وما أُهل لغير الله به﴾ أو في موضع بزيادة وفي آخر بدونها... أو في موضع معرّفاً وفي آخر منكّراً»[2].

ولكن من الواضح أنه لا يقتصر على القصص وحدها، وان كان يكثر فيها كما يلاحظ ذلك الزركشي، قال: «وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك، مبتدأ به ومتكرراً»[3].

---

(١) انظر البرهان في متشابه القرآن - مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٣٥٨ مجاميع.

(٢) الاتقان ٢/٩٤.

(٣) البرهان ١/١١٢، وأظهر ما يكون معنى التحدي والإعجاز هنا من خلال التفسير الذي قدمه الرافعي لإعجاز القرآن. قارن كلام الزركشي هنا بما نقلناه لك في الفصل الثاني من الباب الرابع من رأي الرافعي ونحوه في هذا الموضوع.

أما الآيات التي تكررت بعينها أو تكرر بعض أطرافها دون زيادة او نقصان أو تقديم أو تأخير فتظهر فيها مثل هذه الحكمة التي أشار إليها الزركشي بالقياس إلى موضعها من سياق الآيات ومكانها من نظم القرآن، في حين أن الآيات التي جرى عليها التصرف السابق يتسع فيها ـ فوق ذلك ـ مجال المقارنة بعضها مع بعض. وقد قدم بعض العلماء في هذين المجالين وفي هذا المجال الأخير بصفة خاصة دراسات غنية وعميقة إلى حدٍ ما، وتنوعت في ذلك ملاحظاتهم، وتعددت تعليلاتهم وتعقيباتهم، ويطول بنا الوقوف إن حاولنا الوقوف على طرف من هذه الملاحظات في كل نوع من أنواع التشابه على حده! ونكتفي هنا بذكر بعض الشواهد المقتضبة على هذه الأنواع مجردة من الدراسة والتعليل. ثم نقدم بعد ذلك بعض الأمثلة الجامعة التي تضم بعض الأغراض المختلفة والتي تظهر رحابة الموضوع واتساع المجال فيه، ودلالته الواضحة على طرف من أسرار الإعجاز البياني في القرآن الكريم:

فالأول، الذي عبر عنه السيوطي بالتقديم والتأخير، ومثّل له، عبر عنه الزركشي بقوله: أن يكون في موضع على نظم، وفي آخر على عكسه، وهو يشبه رد العجزُ على الصدر. قال: ووقع في القرآن منه كثير[1]. ومنه: قوله تعالى في سورة النساء: ﴿كونوا قوّامين بالقسط شهداء الله﴾ وفي المائدة: ﴿كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾.

وفي الأنعام: ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ وفي الإسراء: ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾.

ومثال ما يشتبه بالزيادة والنقصان ـ بحسب تعبير الزركشي ـ قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم﴾. وفي آل عمران: ﴿ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم﴾.

وفي الأنعام: ﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ وفي

---

(١) أنظر البرهان ١١٣/١ فما بعدها. وقد جعل الزركشي «التقديم والتأخير» وجهاً آخر مستقلاً من وجوه التشابه، وأورده بعد الوجه الثاني القادم، وقال فيه هناك: إنه قريب من الأول، وقدم في تعليل بعض الشواهد كلاماً لطيفاً (ص١٢١).

القلم: ﴿بمن ضلّ عن سبيله﴾ بزيادة الباء ولفظ الماضي.

ومثال التعريف والتنكير قوله تعالى في البقرة: ﴿ويقتلون النبيّن بغير الحق﴾ وفي آل عمران ﴿بغير حق﴾.

ومثال الجمع والإفراد قوله تعالى في البقرة: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ وفي آل عمران ﴿معدودات﴾.

ومثال إبدال حرف بغيره وكلمة بأخرى قوله تعالى في سورة الكهف ﴿ومن أظلم ممن ذُكر بآيات ربه فأعرض عنها﴾ وفي السجدة: ﴿ثم أعرض عنها﴾.

وفي البقرة: ﴿فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ وفي غيرها: ﴿ولا هم ينظرون﴾.

وفي طه: ﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ وفي الزخرف: ﴿وجعل لكم فيها سبلا﴾.

وفي الكهف: ﴿ولئن رددت إلى ربي﴾ وفي فصلت: ﴿ولئن رجعت﴾[1].

شواهد وتطبيقات

ونورد فيما يلي ثلاثة شواهد تطبيقية مقتضبة، يقتصر محل الشاهد فيها على لون واحد من ألوان التشابه السابقة، مع الإشارة إلى أن مراجعة الكتب الخاصة بهذا الموضوع تشير الى ألوان أخرى كثيرة من التشابه، وربما اختلف في تعليلها والتماس وجه الحكمة فيها العلماء والمفسّرون، كما نشير إلى أن هؤلاء العلماء عُنوا بالاختلاف والتشابه الحاصل بين الفواصل القرآنية، مما سنقف عليه عند الكلام على الفاصلة القرآنية في الباب القادم.

١ ـ قال تعالى في سورة يس: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون﴾ وقال تعالى في سورة القصص: ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ

(١) راجع الزركشي الذي أورد في كتابه ١/١١٢ ـ ١٣٢ شواهد كثيرة، وإن لم يعلل منها إلاّ القليل النادر.

يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾.

والمسألة هنا: تقديم قوله (من أقصى المدينة) على الفاعل - رجل - في سورة يس، وتأخيره في السورة التي قبلها، وهي سورة القصص. أما موضوع الآيتين: فهو في السورة الأولى - القصص - رجل يسرع إلى موسى يبلغه تآمر القوم عليه بعد أن ظهر أمر الرجل الذي قُتل على يده بالأمس، والذي كان عدواً للذي من شيعته[1]. أما موضوع سورة يس فرجل مؤمن مجهول يسعى لدى قومه في ناديهم يحثهم على قبول دعوة الرسل الذين دعوهم إلى الهداية والإيمان[2].

وقد قيل في تعليل هذا التقديم والتأخير إن موضع الاعتبار في سورة يس سعي هذا الرجل المجهول من مكان بعيدٍ إلى مجتمع الناس في القرية، حيث مسرح القصة الذي لم يشهده ولا صلة له به... « فقدم ما تبكيت القوم به أعظم، والتعجب منه أكثر، فقال: وجاء من أقصى المدينة رجل ينصح لهم ما لا ينحصون مثله لأنفسهم، ولا ينصح لهم أقربوهم، مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه ولم يشهد من كلام الأنبياء ما يشهدونه، فبعثهم على اتباع الرسل المبعوثين إليهم، وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم »[3] فكأن « من أقصى المدينة » هنا هو الأمر الجدير بالنظر والاعتبار، فقدمه على ذكر « الفاعل ».

وأما الآية من سورة القصص فالمراد بها أن رجلاً لا يعرفه موسى جاء من مكان غير مجاور لمكانه... « فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم به، فاستوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه، فقدم ما أصله التقديم وهو الفاعل، إذ لم يكن هنا تبكيت للقوم بكونه من أقصى المدينة »[4].

ولا مانع من أن يقال كذلك: إن هذا التركيز على الرجل - الفاعل - يشير إلى لون من ألوان الثناء على عمله، والحضّ على مثله... لأنه كان سبباً في

---

(١) انظر الآيات من ١٤ الى ٢١ من السورة المذكورة.
(٢) أنظر الآيات من ١٣ - ٢٥ من سورة يس.
(٣) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص٣٠٧.
(٤) المصدر السابق.

نجاة موسى من المتآمرين عليه.

٢ - وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿ويل لكل أفّاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرّ مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم﴾وفي سورة لقمان ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم﴾.

وفي الآيتين أكثر من نقطة يمكن الوقوف عندها، ولكننا نكتفي بتعليل الزيادة التي جاءت في آية لقمان، وهي قوله تعالى (كأن في أذنيه وقراً) والتي تطوي في تعليلها نقطة هامة أخرى: في سورة لقمان أخبر الله تعالى عن الكافر بأنه إذا سمع القرآن أعرض عنه غير منتفع به حتى كأنه لم يسمعه!! ويستمر به هذه الحال كما يستمر بمن به صمم!! في حين ان قوله تعالى في سورة الجاثية (ثم يصرُّ مستكبراً) يدل على ما دل عليه قوله (كأن في أذنيه وقراً) لأن «الإصرار» عزم لا يتهم معه بإقلاع!! فإذا أصر على التصام فهو كمن في أذنيه وقر «فصار أحد اللفظين يغني عن الآخر ويقوم مقامه، فلذلك لم يجمع بينهما» ﴿وكان الموضع الذي ذكر فيه (ولّى مستكبراً) أحق بقوله (كأن في أذنيه وقرا) والموضع الذي ذكر فيه «الإصرار» على ترك الاستماع أغنى عن ذكر الجملة السابقة[1].

٣ - وأخيراً فإن النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر - بأي وسيلة كانت من وسائل القتل! - ورد في سورة الأنعام، وفي سورة الإسراء، جاء في الأولى قوله تعالى: ﴿... ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾.

قال الخطيب: «للسائل أن يسأل فيقول: قوله عز وجل: (نحن نرزقكم وإياهم) هو ما عليه الاختيار في كلام العرب من تقديم ضمير المخاطب على ضمير الغائب، بناء على قولك: أعطيتكه، والآية في سورة بني إسرائيل

---

(١) درة التنزيل ص٣٣٩

ـ الإسراء ـ وهذا ليس بمختار ، فما الذي أوجب اختصاص الأول بتقديم ضمير المخاطب ، وأوجب اختصاص الثاني بتقديم ضمير الغائب »[1] ؟

والجواب أولاً أن المختار الذي أشار إليه الخطيب الإسكافي ، إنما هو في حال اتصال الضميرين بالفعل لا في حال انفصال أحدهما وعطفه على الآخر ، لأن قولهم أكرمته وإياك ، مثل قولهم : أكرمتك وإياه ، « في أن كل واحد منهما مختار في مكانه الذي يوجب تقديم ما قدم وتأخير ما أخر ، بخلاف ما يختار إذا اتصلا بالفعل في مثل : « أعطيتكه » كما يقول الخطيب نفسه .

ثانياً : ولهذا وجب التماس الوجه في هذا التقديم والتأخير في الآيتين السابقتين ، ويتلخص في أن آية الأنعام تنهى عن قتل الأولاد بدافع التخلص من الفقر الواقع بالآباء (من إملاق) أي من فقر قائم تعانون منه وتعيشون تحت وطأته ، فيحملكم ذلك على التخلص من الأولاد لأنهم عبء زائد وهمّ ثقيل!! فقدّمت الآية هنا ذكر الآباء ـ الذيم هم محلّ الفقر ـ « نحن نرزقكم » ونرزقهم هم كذلك . وأما آية الإسراء فتتحدث عن قتل الأولاد « خشية » الفقر ، وخوفاً من وقوعه إذا جاؤوا . . . فإذا كان الخوف من أن يقع الفقر في المستقبل ـ وهو غير واقع الآن ـ بسبب مجيء الأولاد فليضمن الله سبحانه وتعالى رزقهم هم قبل رزقكم!! (نحن نرزقهم وإياكم) أي لا تقتلوهم لما تخشون عليهم من الفقر ، أو لما تخشون على أنفسكم بسببهم فإن الله يرزقهم . . . وإياكم سبحانه وتعالى .

مصادر البحث في المتشابه اللفظي

وأشهر الكتب التي خصّها مؤلفوها لهذا الفن أو العلم من علوم القرآن :

١ ـ كتاب « درة التنزيل وغرة التأويل ، في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز » لأبي عبد الله محمد المعروف بالخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٣١[2] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) طبع الكتاب بمصر سنة ١٩٠٩ ، ويقع في نحو اربعمائة صفحة .

٢ - كتاب البرهان في متشابه القرآن، لأبي القاسم محمود بن حمزة بن نصر الكرماني. الذي أفاد فيه من كتاب الخطيب إلى حد كبير. ومنه نسخ خطية كثيرة بدار الكتب المصرية(١).

٣ - كتاب «ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل، في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل» لابن الزبير الغرناطي، أبي جعفر أحمد بن إبراهيم. وهو أجمع الكتب في هذا الباب(٢).

ثانياً: المتشابه والمشكل

١ - المتشابه لغة

قال ابن قتيبة: «واصل التشابه: أن يشبه اللفظُ اللفظَ في الظاهر، والمعنيان مختلفان. قال الله جلّ وعز في وصف ثمر الجنة:﴿وأتوا به متشابهاً﴾ أي متفق الظاهر، مختلف الطعوم. وقال - في شأن الكافرين -﴿تشابهت قلوبهم﴾ أي يشبه بعضها بعضاً في الكفر والقسوة.

قال: «ومنه يقال: اشتبه عليَّ الأمر، إذا أشبه غيرَه فلم تكد تَفْرُق بينهما، وشبَّهت عليَّ: إذا لبَّست الحق بالباطل».

قال في اللسان: «والمشتبهات من الأمور: المشكلات، والمتشابهات:

وقال في أساس البلاغة: «وتشابه الشيئان واشتبها... واشتبهت الأمور وتشابهت التبست لإشباه بعضها بعضاً».

---

(١) انظر كتابنا «متشابه القرآن» ص٨ حيث أشرنا لبعض هذه النسخ، وقد طبع الكتاب أخيراً تحت عنوان آخر رآه الناشر أكثر رواجاً! وهو «اسرار التكرار في القرآن الكريم».

(٢) قمنا بتحقيق هذا الكتاب عن عدة نسخ خطية بتكليف من لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر. وقد ذكر ابن الزبير في مقدمة كتابه انه قد وصلهم من المشرق كتاب الخطيب فأعجبوا به، وانه ألّف كتابه على طريقته، وعني فيه بالتنبيه على ما أغفله صاحبه. وقد عرضنا في مقدمة التحقيق لمكانة كتاب الخطيب، ولنقاطٍ أخرى تتعلق به، ولأهمية الإضافات التي زادها ابن الزبير رحمه الله.

يتضح من هذا أن « المتشابه » يطلق في اللغة على ماله أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضاً ، وعلى ما يشتبه من الأمور ، أي يلتبس.

ويبدو أن التشابه في الأصل بمعنى التماثل - وأنه يكون بين الأشياء - ثم توسعوا في هذا المعنى ، فربطوا المتشابه بالالتباس والشك وإن لم يكن هذا حاصلاً في الأمر أو الشيء لشبهه بغيره ، فقالوا في « كل ما غمض ودَقَّ : متشابه ، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره ».

قال ابن قتيبة : « ومثل المتشابه : المشكل ، وسمى مشكلاً لأنه أشكل ، أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله ». قال : « ثم يقال لكل ما غمض ، وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة ، : مشكل ».

٢ ـ المتشابه في الاصطلاح

وبناء على ذلك فقد قالوا في تفسير الآيات المتشابهات التي أشارت إليها الآية السابعة من سورة آل عمران ، وهي قوله تعالى :﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أمّ الكتاب وأخر متشابهات﴾ قالوا في تفسير هذه المتشابهات : إنها ما التبس فهم المراد منها ، أو اشتبهت دلالتها على كثير من الناس ، أو بعضهم. وقالوا في المحكمات : إنها البينات واضحات الدلالة ، التي لا التباس فيها على أحد.

إلا أن منشأ هذا الالتباس في فهم المراد يعود أولاً إلى اللغة ، وترددها بين الحقيقة والمجاز ، والوضوح والإبهام . . . ونحو ذلك ، كما يعود إلى العقل والسمع وكل ما من شأنه أن يقطع بأن المراد من هذا المتشابه أمرٌ غير ظاهرة[1] . ولهذا

---

(١) قال القاضي عبد الجبار : « المحكم : ما أحكم المراد بظاهره ، والمتشابه . ما لم يحكم المراد بظاهره بل يحتاج في ذلك الى قرينة » ثم فصل القول في هذه القرينة التي نعرف بها المراد بالمتشابه ونحمله على المحكم ، فقال انها إما أن تكون عقلية أو سمعية ، وقال في القرينة السمعية إنها تكون في الآية إما في أولها أو آخرها ، أو في آية أخرى من السورة ، أو من سورة أخرى . . . الخ انظر كتابنا : « متشابه القرآن » ص٢٨ .

فإن المراد من المتشابهات يجب أن يرجع فيه إلى المحكمات التي جعلها الله بمنزلة « الأم » أي الأصل الواحد الجامع الذي ترد إليه المتشابهات ، فقوله تعالى : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ يرجع في فهمه وتفسيره إلى قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء﴾ وقوله تعالى : ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمَّرناها تدميرا﴾ يرجع فيه إلى قوله تعالى : ﴿إن الله لا يأمر بالسوء والفحشاء﴾ . . .

وسبيل الرجوع هذه ، أو سبيل فهم المتشابه بوجه عام ، يكون بالتأويل أو بالفهم المجازي الذي تتسع له لغة العرب ، لأن التأويل هو عبارة عن « إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية ، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز ، من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه . . . أو غير ذلك من الأشياء التي تعورفت في أصناف الكلام المجازي » كما يقول ابن رشد[1] .

فقوله تعالى : ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ تأويله : التحذير من التهاون بأمر الله ، والغفلة عن الأهبة ، والاستعداد للعرض عليه . وقوله تعالى : ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ يفهم منه أن الله تعالى قصد إليهما بعد طول الترك والإمهال ، لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن .

قال قتادة في هذه الآية : قد دنا من الله فراغ لخلقه ، يريد أن الساعة قد أزفت وجاء أشراطها .

وهذا المعنى المجازي هو ما يسبق إلى فهم العرب الذين خوطبوا بهذا الكتاب الكريم ، وهو الذي ينبغي ألا يتجاوزه الناس وهم يتلون الكتاب .

ولهذا جاء في القرآن الكريم المجاز والحقيقة ، على نحو معهود العرب في الكلام ؛ حتى إن إبن قتيبة سخر من الذين زعموا أن المجاز كذب ، وطعنوا من أجل ذلك على القرآن . . . سخر منهم واستجهلهم ، ورماهم بسوء النظر وقلة

---

(١) « فصل المقال فيا بين الشريعة والحقيقة من الاتصال » .

الفهم. قال: «ولو كان المجاز كذباً، وكل فعل يُنسب إلى غير الحيوان باطلاً، كان أكثر كلامنا فاسداً، لأنا نقول: نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل. وتقول: كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا، والفعل لم يكن وإنما كُوِّن!

والله تعالى يقول: ﴿فإذا عزم الأمر﴾ وإنما يعزم عليه.

ويقول تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ وإنما يربح فيها.

ويقول: ﴿وجاؤوا على قميصه بدم كذب﴾ وإنما كُذِّب به!

تفسير آخر للمتشابه والتأويل

على أن بعض العلماء يرون ضرورة الوقوف على قوله تعالى: (إلا الله) في آية آل عمران السابقة، فيجعلون معرفة تأويل المتشابه لله عز وجل وحده. أما (الراسخون في العلم) الذين ورد ذكرهم في الآية فينحصر دورهم في القول ﴿آمنا به كلٌّ من عند ربنا﴾ أي المحكم الذي علمنا معناه، والمتشابه الذي لا سبيل لنا إلى معرفة معناه. وقد جعل هؤلاء من المتشابه فواتح السور التي مرت بك في فصل سابق.

والواقع أن القائلين بهذا الرأي ذهبوا في تحديد المتشابه وجهة أخرى غير التي تحدثنا عنها فقالوا: إن الكلام نوعان: خبر وإنشاء. وتأويل الخبر وقوع المخبر عنه، وتأويل الإنشاء أو الطلب فعل المأمور به، مثاله: قول السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن، تعني قوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾.

أما تأويل الأخبار فقد أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصَّلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون. هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ فإذا وقع ما أخبر به القرآن الكريم من أمور تقع في المستقبل، وبخاصة ما يتعلق منها بالساعة

وأشراطها، كالدّابة ويأجوج ومأجوج[1]، وطلوع الشمس من مغربها...، فذلك تأويله.

وعلى ذلك، فقد ذهب العلماء إلى القول بأن المتشابه هو هذا الذي أشار القرآن الكريم إلى وقوعه في المستقبل. وتأويله وقوعه فعلاً، وليس تأويله فهم معناه بطريق المجاز والحمل على المحكم كما قدّمنا!

وإذا كان زمن وقوع ما أخبر القرآن بوقوعه لا يعلمه إلا الله، فإن الوقف إذن في آية آل عمران على قوله تعالى: (إلا الله).

ولا ينازع أحد في أن هذه الأخبار لا يعلم زمن وقوعها أحد، وإن كانت الآيات التي تحدثت عنها مفهومة المعنى، واضحة العبارة، ولكن الذي ننازع فيه أن تكون هذه هي «المتشابهات» التي ورد الحديث عنها في الآية الكريمة، لأن هذا التفسير للمتشابه، فيما نقدّر، مقطوع الصلة بالمعنى اللغوي للتشابه الذي تحدثنا عنه، ويبعد أيضاً أن يقابَل بالمحكم ويُجعل قسيماً له. ولهذا فإننا لا نرى تفسير المتشابه بهذه الأمور، كما لا نرى إقحامها في المتشابه وإدخالها معه، ومن ثَم فإن الوقف على قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ فيه نظر، بل إن العطف بالراسخين في العلم على لفظ الجلالة هو الأَولى؛ لأنه لو لم يكن للراسخين في العلم حظ في المتشابه إلا أن يقولوا ﴿آمنا به كلٌّ من عند ربنا﴾ لم يكن لهم فضل على المتعلمين، بل على عوامِّ المسلمين! لأنهم جميعاً يقولون: آمنا به كلٌّ من عند ربنا[2]!

قال ابن قتيبة: «ولسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون

---

(١) قال تعالى: ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلّمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ سورة النمل/ الآية ٨٢.
وقال تعالى: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب ينسلون. واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة ابصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) الآيتان ٩٦ - ٩٧/سورة الأنبياء.

(٢) انظر متشابه القرآن للمؤلف ص١٤١.

في العلم، وهذا غلط من متأوليه على اللغة والمعنى، ولم ينزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده، ويدلّ به على معنى أراده ».

ثم قال: « وهل يجوز لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه! وإذا جاز أن يعرفه مع قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ جاز أن يعرفه الربّانيّون من صحابته، فقد علَّم علياً التفسير، ودعا لابن عباس فقال: « اللهم علّمه التأويل وفقّهه في الدين ».

وذكر بعد ذلك أنه لم ير المفسرين توقّفوا عن شيء من القرآن وقالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمرّوه على التفسير حتى فسّروا الحروف المقطعة في أوائل السور[1].

فالراسخون في العلم، إذن، معطوفون على اسم الله عز وجل، وداخلون في علم المتشابه - على نحو ما ذهبنا في حدّه وتعريفه - وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به، وقوله تعالى بعد ذلك « يقولون » في موضع نصب على الحال من « الراسخين ». وقد مدحتهم الآية بالرسوخ في العلم، فلا يمدحون وهم جهّال! قال ابن عباس: أنا ممن يعلم تأويله[2].

حكمة ورود المتشابه

وربما قيل: هلاّ جعل القرآن كله على نمط المحكم حتى يكفي الإنسان مؤونة النظر والبحث والترجيح والاحتمال! يقول الراغب الأصفهاني: إن هذه المسألة يذكرونها أيضاً في الأحكام، فربما قالوا: هلا بيِّنت كلها حتى يستغني عن جهد الرأي الذي لا يؤمن خطؤه! بل ربما أوردوها كذلك في أصل التكليف! فيقولون: هلاّ خوّلنا الله إنعامه بلا مشقة ولا مؤونة حتى يكون عطاؤه أهنأ منالاً!

---

(١) « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ص٧٢ وانظر متشابه القرآن للمؤلف.

(٢) متشابه القرآن ص١٤٥.

والجواب عن جميع ذلك: أن هذا ضرب من التعطيل للفكر والروية والتمييز التي اختص بها الانسان، وصار لأجلها موصوفاً بالعلم والحكمة... ويكفي المتشابه أنه طريق لإعمال الفكر والروية والاستزادة من طلب العلم، طمعاً في معرفة المزيد من غوامض التنزيل. قال ابن قتيبة: «ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً، حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضل بين الناس وسقطت المحنة وماتت الخواطر.. ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة»!

وأهم من هذا ما أشار إليه ابن قتيبة نفسه عندما قال: إن القرآن الكريم نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد، والحقيقة والمجاز، وإغماض بعض المعاني وإظهار بعضها... إلى ما هنالك مما عرف من مذهب العرب في الكلام[1].

ومعنى ذلك أنه لا مجال للسؤال عن الحكمة من إنزال المتشابه، وقد نزل القرآن على أسلوب العرب في الخطاب، فكان الأصل أن يرد على هذا النحو حاوياً لمذاهب العرب تلك. ومهما قيل في المتشابه فلا يعدو أن يكون مما يغمض على العامة فلا يظهر عليه إلا الراسخون في العلم، أو من مجاز القول الذي تتسع له لغة القوم ولسان العرب!.

ولا يفوتنا أخيراً أن نذكر أن الأنبياء جميعاً ـ عليهم السلام ـ وقد بُعثوا إلى جميع الأصناف من عامة الناس وخاصتهم، جاهلهم وصاحب الثقافة فيهم، وكان في رسالاتهم من المعاني العالية الدقيقة ما يجيء التعبير عنه بالمجاز، أو الكناية، أو باللفتة البارعة، والإشارة الموحية... أو بأية صورة أو عبارة ليست في متناول فهم كل مخاطب، عامياً كان أو راسخاً.. فلا غرابة أن يوجد المتشابه الذي يعلمه الراسخون في العلم... في حين يؤمر غيرهم بالوقوف عند حد المحكم، والله أعلم.

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص٦٤ وانظر الشواهد الكثيرة التي أوردها من كلام العرب على دقيق المعاني وخفيِّها مما لا يظهر عليه إلاّ اللقن السريع الفهم، ص٦٣ فما بعدها.

ونضيف هنا، بعد كل هذا، ما أرشدني إليه عالم فاضل معاصر من أن نسبة المتشابه إلى المحكم كنسبة أعالي الشجرة إلى أصولها؛ فإن المحكمات اللاتي هن أم الكتاب بمثابة الأصل؛ فإن أم الشيء أصله؛ قال: فتكون المحكمات مرجع الأحكام في الحلال والحرام ـ قال عليه الصلاة والسلام: «الحلال بيّن، والحرام بيّن» ـ وفيما يقوم عليه التكليف، وتتوقف عليه سعادة البشر ومصالحهم في الدنيا والآخرة، بصورة عامة. أما الآيات المتشابهات فتشتمل على دقائق المعاني، ونفائس المعارف التي يتفاوت فيها العلماء، وكل ذي باع طويل في الذكاء والصفاء، ودقة النظر، وكلّ يقطف من ثمارها على قدر طول باعه، وقدرته على الترقي؛ وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾ و«أولو الألباب» هؤلاء، هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربنا وما يذّكّر إلا أولوا الألباب﴾ قال: ففي مثل هذا المثال الحسّي تزول شبهة المعترض ـ التي تصدر عن غباوة وقصر نظر ـ حينما يقول: «لِمَ لمْ يكن القرآن كله من نوع الآيات المحكمات؟» والله تعالى أعلم.

الفصل الخامس

الفصل الخامس
القراءات القرآنية

أولا : نشأة علم القراءات

سبقت الإشارة ، في أكثر من موضع ، إلى أن المبدأ الأساسي في نقل القرآن هو المشافهة والتلقي ، والأخذ ثقة عن ثقة . . . خلف عن سلف ، حتى ينتهي إلى النبي ﷺ ، وأن « المصاحف » ليست هي العمدة في هذا الباب إلاّ في حدود ما تتسع له وتدل عليه من وجوه الاختلاف في أداء النص القرآني ، كما مرّ بك في مبحث الأحرف السبعة ، لأن دورها الأساسي أنها ضُمّت على القرآن وانطوت عليه ، ولكنها لم تنطو ـ ويستحيل ذلك ـ على وجوه في أدائه لا تعلم إلاّ من طريق التلقي والمشافهة ، ولعل هذا هو ما عناه الزركشي حين قال : « القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان ، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز ، والقراءات : اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما » .

ومعلوم ، على أية حال ، أن المصاحف لم تكن منقوطة ولا مشكولة ، وأن صور الكلمة فيها كانت محتملة لكل ما يمكن من وجوه القراءة المختلفة ، وأنها إذا لم تحتملها كتبت بأحد الوجوه في مصحف ، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر . . . كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الأحرف السبعة ، وهذا يؤكد مرة أخرى ضرورة التعويل في هذا الباب على الرواية والتلقي ، خصوصاً إذا

ذكرنا، أو تذكرنا، أن الكلمة القرآنية التي كتبت مجرّدة من النقط والشكل لا تجوز قراءتها بجميع احتمالاتها ـ الرياضية ـ ولكن فقط بالوجوه المسموعة من النبي ﷺ، والتي تلقاها عنه الصحابة رضوان الله عليهم.

ولكن الصحابة ـ وهذا ما يتمم الصورة هنا ـ اختلف أخذهم عن رسول الله ﷺ كما رأينا، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال، فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم، وأخذ تابع التابعين... وهكذا حتى وصل الأمر إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصّصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ويعنون بها وينشرها كما سنرى. هذا هو منشأ علم القراءات واختلافها[1]، وهو منشأ يعود في الأصل إلى مبدأ نزول القرآن على سبعة أحرف، ثم إلى ما وقع عليه اختيار وقراءة كل واحد من أئمة القرّاء.

وقد حاول المستشرق «جولد تسيهر» عكس الموضوع، فصوّر أن نشأة الكثير من القراءات المختلفة يعود إلى رسم المصحف! قال: «وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات ـ أي في القراءات ـ إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعاً لاختلاف النقط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط. بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية، يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يحدده، إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة، وبهذا إلى اختلاف دلالتها. وإذاً فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات في المحصول الموحّد القالب من الحروف لم يكن منقوطاً أصلاً، أو لم تتحر الدقة في نقطة أو تحريكه[2]».

ونحن لا نشك في أن هذه الدقة في الصياغة، التي عرف بها «جولد تسيهر» وفي كتاب «مذاهب التفسير الاسلامي» على وجه الخصوص... تخفي وراءها محاولة باطلة ويائسة، لأن هذا الكلام ينطوي على مخالفة صريحة للتاريخ

---

(١) مناهل العرفان للزرقاني.
(٢) مذاهب التفسير الإسلامي ص٨.

والواقع في نفس الأمر . . . ولعل هذه المخالفة للواقع تومىء كذلك إلى استخفاف بالقارىء ، لأن المعروف المدوّن من القراءات التي ضبطها العلماء ، وتثبتوا من سندها لا تقاس إلى ما يمكن أن ينشأ من قراءات كثيرة يحتملها الرسم!! بل لو وجد مثل هذه القراءات لراعتنا في كثرتها الهائلة!! وقد أشار « جولد تسيهر » نفسه إلى قراءات يسمح بها الخط ، لكنها اعتبرت عند العلماء منكرة ، مثل قراءة من قرأ « تستكثرون » بدل « تستكبرون » في قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ونادى اصحاب الأعراف رجالاً يعرفون كلاً بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾. ومثل قراءة حماد الرّاوية « أباه » بدل « إيّاه » في قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إيّاه﴾ « ولو كان مجرد الخط كافياً لاعتمدت . . . وحسبك هذا دليلاً على أن الخط لم يكن هو العمدة في صحة القراءة[1] » .

ثم إن الروايات التاريخية الكثيرة ، لم تختلف على أن تجرد المصاحف العثمانية من الشكل والنقط ، فسح المجال لاستيعاب القراءات المروية عن رسول الله ﷺ إلا أن ذلك التجريد هو الذي « أنشأ » هذه القراءات . . . والأخبار الصحيحة التي مرت في السابق كافية في هذا المجال ، وفي الفقرات التالية من هذا البحث مزيد من البيان .

ثانياً : تعريف القراءات واعدادها

القراءات جمع قراءة ، وهي في اللغة مصدر سماعي لقرأ . وفي الاصطلاح : « مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً غيره في النطق بالقرآن الكريم ، مع اتفاق الروايات والطرق عنه ، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها » وأوجز ابن الجزري التعريف بقوله : « القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بِعَزْوِ الناقلة »[2] قال : « والمقرىء :

---

(١) من تعليق الاستاذ الدكتور عبد الحليم النجار رحمه الله على كلام المستشرق جولد تسهير ص٩ .

(٢) منجد القرئين ص٣ .

العالم بها رواها مشافهة فلو حفظ « التيسير » ـ من أشهر كتب القراءات ـ ليس له أن يقرىء بما فيه إن لم يشافهه من شوفه به مسلسلاً ، لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة[1] » .

وقد بدأت المشافهة والتلقي ـ كما ذكرنا ـ عن الصحابة الذين تلقوا القرآن من في الرسول ﷺ ، ثم قرأ كل أهل مصر بما في مصحفهم وتلقوا ما فيه عن الصحابة ، ثم قاموا بذلك هم مقام الصحابة ، فممن كان **بالمدينة** : ابن المسيب ، وعروة ، وسالم . وعمر بن عبدالعزيز . . . **وبمكة** : عبيد بن عمير ، وعطاء ، وطاووس ، ومجاهد . **وبالكوفة** : علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعمرو بن شرحبيل ، وابراهيم النخعي . . . **وبالبصرة** : عامر بن عبد قيس ، وأبو العالية ، ونصر بن عاصم ، وقتادة . **وبالشام** : المغيرة بن أبي شهاب المخزومي ، وخليد ابن سعد[2] .

قال ابن الجزري : « ثم تجرد قوم للقراءة والأخذ ، واعتنوا بضبط القراءة أتمّ عناية حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدي بهم ويرحل إليهم ويؤخذ عنهم ، أجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم بالقبول ، ولم يختلف فيها اثنان . **ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم** » .

فكان بالمدينة : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم شيبة بن نصاح ، ثم **نافع** ابن عبدالرحمن بن أبي نعيم » .

« وكان بمكة **عبد الله بن كثير** ، وحميد بن قيس الاعرج ، ومحمد بن مُحَيْصِن . »

« وكان بالكوفة : يحي بن وثاب ، **وعاصم** بن أبي النَّجود الأسدي ، وسليمان الأعمش ، ثم **حمزة** بن حبيب ، ثم **الكسائي** أبو علي بن حمزة » .

« وكان بالبصرة : عبد الله بن أبي اسحق ، وعيسى بن عمر ، **وابو عمرو** بن

(١) المصدر السابق : قال : « والقارىء المبتدىء : من شرع في الإفراد إلى أن يفرد ثلاثاً من القراءات ، والمنتهي : من نقل من القراءات أكثرها وأشهرها » .

(٢) أنظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ص٨ وانظر فيه اعلاماً آخرين كثيرين من التابعين اشتهروا بالأخذ عنهم .

العلاء ثم عاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي».

«وكام بالشام: **عبد الله بن عامر**، وعطية بن قيس الكلابي، وإسماعيل بن عبدالله بن المهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذماري، ثم شريح بن زيد الحضرمي»[1].

وعلى الرغم من اشتهار قراءة سبع من هؤلاء على رأس المائتين من الهجرة في الأمصار الإسلامية، كما ينقل بعض الرواة[2]، فإن هذه القراءات لم تأخذ مكانها من التدوين ولم تتميز عن غيرها إلا في مستهل القرن الرابع حين نهض لجمعها الإمام ابن مجاهد (أحمد بن موسى بن العباس) المتوفى سنة ٣٢٤ هـ، غير أنه أثبت اسم الكسائي وحذف يعقوب.

واشتهرت هذه القراءات من ثم باسم القراءات السبع. وهي قراءة نافع (ت١٦٩)، وابن كثير (ت١٢٠)، وعاصم (ت١٢٧)، وحمزة (ت١٥٨) وأبي عمرو بن العلاء (ت١٥٤) وابن عامر (ت١١٨) والكسائي (ت١٨٩)[3].

ولكن ذلك لا يعني ـ بداهة ـ أن عدد الرواة الموثوق بهم محصور في سبعة، فأئمة القراءة لا يحصون كثرة، وربما كان فيهم من هو أجلّ قدراً وأعظم شأناً[4]. ولكن ابن مجاهد رأى ألاّ يروي إلاّ عمن اشتهر بالضبط والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة، مع اتفاق الآراء على الأخذ منه والتلقي عنه، فتم له ذلك في هذه السبع، فحظيت بالشهرة ونباهة الشأن.

وقد لخّص الاستاذ المحقق سعيد الافغاني تاريخ هذه القضية، أعني مسألة اعداد القراءات حتى انتهت الى ما انتهت اليه، فقال:

تناقل التابعون قراءات الصحابة بالتواتر، وذهبت قراءات كثيرة

---

(١) المصدر السابق، ص٨ ـ ٩.

(٢) كان الناس بالبصرة على قراءة يعقوب وأبي عمرو بن العلاء، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع.

(٣) انظر البرهان للزركشي ١/٣٢٧ ـ ٣٣٠.

(٤) انظر ما نقله ابن الجزري عن مكي بن أبي طالب: النشر ١/٣٧.

صحيحة بسبب أخذ الناس باتباع المصاحف العثمانية .وأخذ عن أعلام التابعين خلق كثير لا يحصون ، فذهبت بذلك أيضاً قراءات صحيحة لسبب يسير هو عدم بلوغها بالتواتر إلى التابعي مع صحتها في نفسها ، وهكذا دواليك . . . حتى ساغ لابن الجزري وهو يؤرخ لحركة التدوين في هذا الفن أن يقول :

« القراءات المشهورة اليوم (يعني في الثلث الأول من المئة التاسعة للهجرة) عن السبعة والعشرة والثلاثة عشر ، قياساً إلى ما كان مشهوراً في الأعصر الأُوَل : قُلٌّ من كُثُر ، ونزر من بحر ؛ فإن من له اطلاع على ذلك يعرف علمه العلم اليقين ، وذلك أن القراء الذين أخذوا عن أولئك الأئمة المتقدمين من السبعة وغيرهم كانوا أمماً لا تحصى وطوائف لا تستقصى . والذين أخذوا عنهم أكثر . . . وهلم جراً .

فلما كانت المئة الثالثة واتّسع الخَرق وقلّ الضبط ، وكان علم الكتاب والسنة أوفر ما كان في ذلك العصر ، تصدى بعض الأئمة لضبط ما رواه من القراءات فكان أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب : أبو عبيد القاسم بن سلام ، وجعلهم فيما أحسب خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة وتوفى سنة ٢٢٤ هـ . . . » .

ثم بعد ان يشير الأستاذ الأفغاني إلى أن عدداً من العلماء ألّف في القراءات قبل أبي عبيد ـ منهم ابن جبير المكي ـ يقول : « يعنينا من كل أولئك المؤلفين أبعدهم أثراً وأوسعهم شهرة : أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ بعد أبي عبيد بمئة عام ؛ إذ كان أول من اختار سبعة من أئمة القراء الكثيرين ، فألّف في قراءاتهم ، واختار لكل منهم اثنين ممن روى عنه . . . واشتهر اختياره هذا حتى صارت (القراءات السبع) التي اختارها علماً في فن القراءة ، وعناوين لكتب عدة ومنظومات شتى مشهورة هي إلى الآن المراجع التي تستظهر وتشرح وتدرس في حلقات الإقراء »[1] .

---

(١) مقدمة التحقيق التي صدّر بها الاستاذ سعيد الافغاني كتاب « حجة القراءات » لأبي زرعة الدمشقي ، ص١٤ ـ ١٥ .

القراءات السّبع والأحرف السبعة:

ولكن الاقتصار على هذا العدد أوهم بعض الناس أن هذه القراءات هي المرادة بقول النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» ولو كان ذلك كذلك لكان التفسير الحديث «وتنفيذه» متوقفاً على مجيء ابن مجاهد ليحدده للناس!!

قال ابن الجزري: «وينبغي ألا يتوهم متوهم أن الحديث منصرف إلى قراءة سبعة من القراء الذين ولدوا بعد التابعين، لأنه يؤدي إلى أن يكون الخبر متعرياً عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء الأئمة السبعة فيؤخذ عنهم القراءة. ويؤدي أيضاً إلى أن لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا ولدوا وتعلموا اختاروا القراءة به!!».

ولهذا فقد قال الإمام أبو العباس بن عمار: «لقد فعل مسبِّع هذه السبعة ما لا ينبغي له أن يفعله، وأشكل على العامة حتى جهلوا ما لم يسعهم جهله، وأوهم كل من قلّ نظره أنها هي المذكورة في الخبر النبوي لا غير... وليته إذا اقتصر نقص أو زاد ليزيل هذه الشبهة[1]».

قال ابن تيمية: «لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن الأحرف السبعة... ليست قراءات القراء السبعة المشهورة، بل أول من جمع ذلك ابن مجاهد، ليكون ذلك موافقاً لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن، لا لاعتقاده واعتقاد غيره من العلماء ان القراءات السبع هي الحروف السبعة، أو أن هؤلاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم، ولهذا قال بعض العلماء: لولا أن ابن مجاهد سبقني الى «حمزة» لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي إمام جامع البصرة وإمام قُرّاء البصرة في زمانه في رأس المائتين[2]».

وقد ترك جماعة من العلماء في كتبهم في القراءات ذكر بعض هؤلاء

---

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ص٣٦.

(٢) المصدر السابق ص٣٩.

السبعة، وزاد نحو عشرين من الأئمة ممن هم فوق السبعة[1].

وقد اشتهر ايضاً زيادة ثلاث قراءات أخرى إلى السبع المتقدمة، وهي قراءة يعقوب بن اسحاق الحضرمي (ت١٨٥) وابي جعفر المدني (ت١٣٢) وخلف بن هشام (ت٢٢٩) وصارت تعرف جميعاً بالقراءات العشر.

وأخيراً فإن الذي يقرر قبول القراءة أو رفضها، ويحل المشكلات التي نجمت في هذا الباب، الضابط العلمي التالي الذي اتفق عليه علماء القراءات.

ثالثاً: ضابط قبول القراءات القرآنية

قال الحافظ ابن الجزري: «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين».

قال: «ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها: ضعيفة، أو شاذة، أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم».

ثم ذكر أن هذا موضوع إجماع فقال: «هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف»[2].

١ ـ والمراد بقوله: «**ولو بوجه**» وجهاً من وجوه النحو، سواء كان أفصح أم فصيحاً، مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله ـ إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح ـ قال: «وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية»[3] ولهذا لا معتبر بإنكار من أنكر من أهل النحو لبعض القراءات.

---

(١) المصدر السابق ص٣٧.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/٩.

(٣) المصدر السابق ص١٠.

حكى الإمام أبو نصر الشيرازي في تفسيره عند قوله تعالى في سورة النساء: « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامَ » كلام الزجاجي في تضعيف قراءة الخفض ـ والارحامِ ـ ثم قال: ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين، لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القرّاء ثبتت عن النبي ﷺ، فمن ردّ ذلك فقد رد على النبي ﷺ واستقبح ما قرأ به!! قال « وهذا مقام محظور لا يقلّد فيه أئمة اللغة والنحو! »[1].

فإن أرادوا أنه صحيح فصيح، ولكن غيره أفصح منه، قال الشيرازي: فإننا لا ندعي أن كل ما في القراءات على أرفع الدرجات من الفصاحة.

وقال الإمام الحافظ أبو عمرو الداني، عند ذكره إسكان « بارئْكُم ويامرْكم)[2] ـ لأبي عمرو بن العلاء ـ « وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية، إذا ثبت عندهم لم يردها قياس عربية ولا فشوّ لغة، لأن القراءة سنة متبعة، فلزم قبولها والمصير إليها »[3].

يؤيد هذا ويدل عليه أن علماء النحو إنما استمدوا قواعد علمهم من كتاب الله تعالى وكلام رسوله وكلام العرب، فإذا ثبتت القراءة بالرواية المقبولة كان القرآن هو الحكم على علماء النحو لا العكس. وسوف تتضح أهمية هذه النقطة في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل.

٢ ـ ويعنون بقولهم: « ما وافق أحد المصاحف العثمانية »، ما كان ثابتاً ولو في بعضها دون بعض، كقراءة ابن عامر: (قالوا اتخذ الله ولداً) من سورة البقرة، بغير واو ـ وقالوا ـ وكقراءته (وبالزُّبر وبالكتاب المنير) بزيادة في الاسمين، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي، وكقراءة ابن كثير: (جنات تجري من تحتها الأنهار) في الموضع الأخير من سورة التوبة، بزيادة كلمة « من »

---

(١) منجد المقرئين ص٦٥.
(٢) أنظر الآيتين ٥٤ و٦٧ من سورة البقرة.
(٣) منجد المقرئين ص٦٥.

فإن ذلك ثابت في المصحف المكي.

والمراد بقولهم «ولو احتمالاً» - أو تقديراً - أنه يكفي في الرواية أن توافق رسم المصحف، ولو موافقة غير صريحة، نحو: ﴿مالك يوم الدين﴾ فإنه رسم في جميع المصاحف بحذف الألف من كلمة «مالك». فقراءة الحذف تحتمله تحقيقاً كما كتب ﴿ملك الناس﴾ وقراءة الألف تحتمله تقديراً كما كتب: ﴿مالك الملك﴾، فتكون الألف حذفت اختصاراً كما حذفت من حالات كثيرة ألمعنا إليها سابقاً في قواعد رسم المصحف.

أما الموافقة الصريحة فكثيرة نحو قوله سبحانه: ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشرها﴾ فإنها كتبت في المصحف بدون نقط. فوافقت قراءة «ننشزها» بالزاي، وقراءة «ننشرها» بالراء.

٣ - وأما قولهم «وصح سندها» فمعناه: أن يروي تلك القراءة العدلُ الضابط عن مثله، وهكذا حتى تنتهي إلى النبي ﷺ. ولم يكتفوا من صحة السند أو تصحيحه بهذا، بل أضافوا كذلك: أن تكون هذه القراءة مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له، غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذّ بها بعضهم[١].

ولكنْ هل معنى ذلك: اشتراط التواتر حتى تكون القراءة مقبولة؟ لقد سبقت الإشارة - والتحقيق - إلى أن القرآن الكريم نقل بطريق التواتر، فهل يشترط ذلك لقبول وجوه الاختلاف في قراءة اللفظ الواحد؟ ابن الجزري وغيره من المحققين يشترطون ذلك، ويذهبون إلى أن القراءات السبع كلها متواترة، فإن لم يكن التواتر فلا أقل من الاستفاضة والشهرة، ويعتبرون أن ما اشتهر واستفاض - موافقاً بالطبع للعربية ورسم المصحف - في قوة المتواتر وإن لم يتفق التواتر في بعضها[٢] كالقراءات الثلاث الأخرى، وإن كان بعضهم يصرح بتواترها كذلك، قال الإمام السبكي: «القراءات السبع التي اقتصر

---

(١) النشر لابن الجزري ١٣/١

(٢) المصدر السابق.

عليها الشاطبي، والثلاث التي هى قراءة أبي جعفر ويعقوب وخلَف متواترة معلومة من الدين بالضرورة، وكل حرف انفرد به واحد من العشرة معلوم من الدين بالضرورة أنه منزّل على رسول الله ﷺ، لا يكابر في شيء من ذلك إلاّ جاهل»[1].

قال السفاقسي: «ولا يقدح في ثبوت التواتر اختلاف القراء، فقد تتواتر القراءة عند قوم دون قوم، فكل من القراء إنما لم يقرأ بقراءة غيره لأنها لم تبلغه على وجه التواتر، ولذا لم يعب أحد على غيره قراءته لثبوت شرط صحتها عنده وان كان هو لم يقرأ بها لفقد الشرط عنده»[2].

ونذكّر هنا بمقالة «جولد تسيهر» السابقة في تعليل نشأة قسم كبير من القراءات برسم المصحف!! ويكفينا هذا الشرط من الشروط العلمية التي ينبغي توافرها في القراءة المقبولة... في نقض ذلك الزعم الباطل.

رابعاً: القراءات الشاذة

ومما يؤكد ذلك، مرة أخرى، إطلاقهم وصف الشاذ على رواية الآحاد. وقد تم ذلك في عصر مبكر على يد نافع نفسه، وظل هذا المقياس ـ مقياس الإسناد ـ هو المقياس الوحيد لصحة القراءة أو شذوذها مدة طويلة[3].

وانتهى علماء القراءات بعد ذلك إلى الحكم على القراءة بالشذوذ متى فقد شرط واحد من الشروط الثلاثة في الضابط السابق[4]، فقد ذكر ابن الجزري أن هذه الشروط إذا اجتمعت كانت القراءة متواترة، أو صحيحة، للسبعة أو غيرهم، وحين يجتمع منها الأول والثالث ـ دون موافقة الرسم ـ تصبح القراءة شاذة. أما ما اجتمع فيه الشرطان الأولان فحسب يعد ضعيف الرواية،

---

(١) الاتقان للسيوطي ٢٢٦/١ وانظر تفصيلات هذه النقطة في النشر لابن الجزري ٤٤/١ - ٤٦.

(٢) «غيث النفع في القراءات السبع» ص٧ وانظر ص١٣ من مقدمة التحقيق التي صدّر بها الاستاذ سعيد الافغاني كتاب حجة القراءات لأبي زرعة الدمشقي.

(٣) تاريخ القرآن للاستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين ص٢٠١.

(٤) الاتقان ٢٢٥/١.

ويطلق عليه « شاذاً » أيضاً من باب التوسع. فإن عُدم النقل لم تعد الرواية شاذة، بل هي حينئذ مكذوبة، يكفر معتمدها، سواء وافقت المعنى والرسم، أو أحدهما[1].

وإذا عدنا إلى وصف القراءة التي اختل فيها الشرط الأخير بالشذوذ، فإن من العلماء من استشكل وصف رواية الآحاد بالشذوذ! يقول ابن دقيق العيد: هذه الشواذ نقلت نقلَ آحاد عن رسول الله ﷺ، فيعلم ضرورة أن رسول الله ﷺ قرأ بشيء منها وإن لم يُعيَّن! كما أن حاتماً نقلت عنه أخبار في الجود كلها آحاد، ولكن حصل من مجموعها الحكم بسخائه وإن لم يتعين ما تَسخَّى به، وإذا كان ذلك كذلك فقد تواترت قراءة رسول الله ﷺ بالشاذ وإن لم يتعين بالشخص، فكيف يسمى شاذاً والشاذ لا يكون متواتراً؟!، وقد أجاب المحقق ابن الجزري عن ذلك بأن القول في القراءات الشاذة كالقول في الأحاديث الضعيفة، نعلم في الجملة أن النبي ﷺ قال شيئاً منها وإن لم نعلم عينه! وأيضاً « فنحن نقطع بأن كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يقرأون بما خالف رسم المصحف العثماني قبل الإجماع عليه[2] من زيادة أو

---

(١) منجد المقرئين ص١٧ وانظر كذلك تاريخ القرآن.

(٢) اشتراط موافقة القراءة لأحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً - الشرط الثاني المتقدم - يثير هنا مرة أخرى قضية اشتمال هذه المصاحف على جميع الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، لأننا إذا قلنا باشتمالها لهذه الحروف فلا خوف على ضرورة موافقة القراءة لأحد المصاحف العثمانية، حتى يعتد بها وتكون ناشئة عن تلك الأحرف، لأننا نقطع حينئذ بأن ما خالف هذا الرسم ليس من الأحرف السبعة، ومن ثَمّ لا يكون معتبراً!

ولكن الإشكال الذي يعترضنا هنا هو ما اشار اليه ابن الجزري من أن كثيراً مما خالف الرسم قد صح عن الصحابة رضي الله عنهم، وعن النبي ﷺ (منجد المقرئين ص٢١) فكيف يصح هذا إن كان خارجاً عن الأحرف السبعة؟!

يريد ابن الجزري ان نسلم برأي الجمهور، الذي تبناه الطبري، وهو أن المصاحف العثمانية جمعت الناس على حرف واحد، أو على ما يحتمله الرسم من الأحرف السبعة، وإلاّ فمن اين جاءت تلك الاخبار والروايات الصحيحة. ويبدو ان هذه القراءات إذا لم تكن من قبيل القراءات التفسيرية الخارجة أصلاً عن نطاق الأحرف السبعة، فإن هذا الشرط هنا يعتبر =

ابدال أو نقص ـ في كلمة من الكلمات ـ « ونحن اليوم نمنع من يقرأ بها في الصلاة وغيرها منعَ تحريمٍ لا منع كراهة. ولا إشكال في ذلك »[1].

وبعبارة أخرى: إن ابن الجزري لم ينف ملاحظة ابن دقيق العيد، ولكنه أراد أن يقول إن الدقة والاحتياط في قبول القراءات يقتضي ذلك ولهذا مثّل لاختلال الشرطين الثاني والثالث. واعجب بعد ذلك لأضاليل « جولد تسيهر » وما بنى عليها بعد ذلك من التخمينات والتلفيقات... مما ضربنا عنه صفحاً لأنه دون مستوى المناقشة والردّ والتعليق!!.

وأخيراً فإن القراءة الشاذة قد تفسر القراءة المشهورة وتبين معانيها، ولكن لا تجوز الصلاة بها ـ لأنها ليست قرآناً ـ وقد نزّلها بعض الفقهاء في الدلالة على الأحكام منزلة خبر الآحاد[2].

خامسا: مكانة علم القراءات

احتل علم القراءات مكاناً بارزاً عند أسلافنا القدماء، وعرفوا له من الأهمية ما حملهم على جمع هذه القراءات وتلقيها خلال العصور، إلى جانب مصنفاتهم الرئيسية الغزيرة في هذا الموضوع، وما تزال العناية بهذا العلم قائمة في البلاد الإسلامية حتى اليوم.

أما دلالة هذه القراءات، وبخاصة الشاذة منها، على المزايا والمشكلات الصوتية واللغوية، وعلى تاريخ الفصحى، فقد بدأت محاولة دراستها أخيراً في ضوء علم اللغة الحديث. وقد أشار الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين في دراسته للقراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث إلى أهمية هذه القراءات بوصفها « ديوان خصائص هذه العربية »[3] وقال في مقدمة كتابه « تاريخ القرآن »:

= نسخاً عملياً للرأي المخالف، هذا مع الإشارة بالطبع إلى أن ما بأيدينا من روايات ـ بصورة عامة ـ ينتمي إلى أكثر من حرف.

(١) منجد المقرئين ص٢١.

(٢) أنظر حول هذا الموضوع النشر لابن الجزري ١/٤٤ والاتقان للسيوطي ـ ١/٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٣) تاريخ القرآن ص١٧.

« والقراءات صنو النحو ، وهي أداء إلى جانب أنها رواية ، لكن توالي القرون عليها قد أحالها شيئاً جامداً ، فعزل جانباً كبيراً منها بتهمة الشذوذ ، ثم قصرها على جانب التلقي دون النظر النقدي ، والتحليلي ، لما تحتوي من قضايا صوتية ولغوية ونحوية . وقد كان أجدر أن تتوالى عليها البحوث في القديم لإنضاجها ، علماً ذا أساس من الرواية والنقل متين ، وفناً يتصل بكيفية النطق على مر العصور ، فهو سجل للظواهر النطقية الحية ، كما أنه محافظ على المأثور من طبائع اللسان العربي ، في الفصحى وفي لهجاتها[1] .

بل إن علم القراءات القرآنية ، مشهورها وشاذها ، هو من أولى العلوم التي ينبغي الاعتماد عليها في دراسة العربية الفصحى «لأن رواياتها هي أوثق الشواهد على ما كانت ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية ، واللغوية بعامة ، في مختلف الألسنة واللهجات ، بل إن من الممكن القول بأن القراءات الشاذة هي أغنى مأثورات التراث بالمادة اللغوية التي تصلح اساساً للدراسة الحديثة ، والتي يلمح فيها المرء صورة تاريخ هذه اللغة الخالدة[2] »والله أعلم .

---

(١) المصدر السابق ص٨ .

(٢) القراءات القرآنية ص٧ .

الفصل السادس
الناسخ والمنسوخ

١ ـ تعريف النسخ:

لغة:

يطلق «النسخ» في اللغة على معنيين: الازالة والنقل، سواء أكانت الإزالة بعوض كقولك: نسخت الشمس الظل، اي: أزالته وحلت محله، أم بغير عوض ـ كما يقولون ـ كقولك: نسخت الريح الأثر، أي: أزالته ولم تحل مكانه، بل ذهبت هي أيضاً فلم يبق ريح ولا أثر. ومن هذا المعنى ـ أي النسخ بمعنى الإزالة ـ قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ (البقرة: ١٠٦). اما «النقل» فكقولك: نسخت الكتاب، أي: نقلت ما فيه، ومنه قوله تعالى في سورة الجاثية: ٢٩: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ أي تكتبه الملائكة في الصحف.

شرعاً:

والنسخ في الشريعة، أو عند الأصوليين، مأخوذ من الإزالة بالمعنى الأول، فقد عرفوه بقولهم: «هو رفع الشارع حكماً شرعياً بدليل شرعي متراخ عنه» أي: إن الحكم الشرعي الأول يذهب وينسخ، ويحل محله الحكم الجديد الناسخ، ويمكن ان يقال في تحليل هذا التعريف والتعليق السريع عليه ما يلي:

أ - بإضافة الرفع - رفع الحكم السابق - إلى الشارع ينتفي النسخ بأي دليل شرعي غير الكتاب والسنة، كالقياس والاستحسان والإجماع وغير ذلك، فان هذه الأدلة جميعاً لا تنسخ كتاباً ولا سنة.

ب - وقولنا: رفع الشارع «حكماً شرعياً» يدخل في النسخ ،نسخ شريعة سابقة بشريعة لاحقة، ونسخ بعض أحكام الشريعة الواحدة ببعض آخر، كما أنه يخرج من ساحة النسخ: إبطال الأحكام والعادات غير الشرعية مما كانت عليه العرب في الجاهلية، ويخرج منه أيضاً: رفع الاباحة الأصلية الثابتة بحكم العقل، باعتبار أن الأصل في الأشياء الاباحة، فكل ذلك لا يعد نسخاً عند جمهور الأصوليين.

ج - وقيد التراخي بين الدليلين - بدليل شرعي متراخٍ عنه - يخرج تخصيص العام، لأن المخصص يقترن بالعام ليدل على أن المراد به من أول الأمر بعض أفراده أو أنواعه، كقوله تعالى: ﴿إن الانسان خلق هلوعاً. إذا مسه الشر جزوعاً. وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين...﴾ المعارج: ١٩ - ٢٢، وكقوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ آل عمران: ٩٧، وقد قيل في تعريف التخصيص: إنه إخراج بعض أفراد العام من حكمه لسبب أو عذر أما النسخ فلا يكون إلا بعد استقرار الحكم الأول، ولهذا لا يمكن أن يدخل في الناسخ والمنسوخ الآيتان ٦٥، ٦٦ من سورة الأنفال عند من يقول: إنهما نزلتا دفعة واحدة! وهما قوله تعالى: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون. الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين.﴾.

٢ ـ النسخ بين منكريه ومثبتيه

وبين من أنكر وقوع النسخ في القرآن، وهم واحد أو اثنان من العلماء، سموا النسخ تخصيصاً! وبين من توسع في مفهومه توسعاً كبيراً حتى عدوا كلا من التخصيص والتقييد والاستثناء نسخاً... وحتى دخل النسخ عندهم إلى ميدان الأخبار والقصص... لا مجال عندنا للارتياب في أن النسخ واقع فعلاً في القرآن الكريم، وإن كانت مواضعه قد لا تتعدى عشر الرقم الذي عده بعض العلماء، وهو مائتا موضع واثنا عشر موضعاً!! ومن هذه المواضع: تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، وإبطال وجوب الوصية للوالدين والأقربين بآيات المواريث، وإباحة الأكل والشرب والنساء للصائم ليلاً حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، بعد أن كان كل ذلك حراماً بعد النوم، وكذلك تحريم الخمر بعد الاباحة المشروطة بعدم منع الشارب من أداء الصلاة... ونشير هنا، بكلمة عابرة، الى أن كثيراً من العلماء ذكر إلى جانب هذا النسخ، أو إلى جانب هذا القسم من أقسامه ـ وهو الذي نسخ حكمه وبقي في القرآن لفظه ـ قسمين آخرين هما:

ما نسخ لفظه وحكمه معاً، وما نسخ لفظه وبقي معناه، ومثلوا للأول بقول السيدة عائشة رضي الله عنها: كان فيما أنزل من القرآن «عشر رضعات يحرمن» وللثاني بما ينسب إلى سيدنا عمر رضي الله عنه قال: كان فيما قرأنا من القرآن: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا من الله والله عزيز حكيم» ولولا أن يقول الناس: زاد عمر في القرآن لكتبتها بجانب المصحف... وعندنا أن هذين القسمين لا يلتفت إليهما، لأن الذي نخشاه أن يكون ولعهم بالتقسيم والتبويب هو الذي شجعهم على اعتماد مثل هذه الأقوال وذكرها في بطون الكتب، على ما فيها من مخالفة واضحة ونبو صريح عن نظم القرآن وأناقة أسلوبه المعجز... ومخالفات أخرى لا مجال هنا للاشارة إليها،

وإن صح بعضها من طريق الآحاد ـ في أحسن الأحوال ـ فان القرآن الكريم لا يثبت بمثلها! لأن الحال فيما نسخ لفظه ـ وكان قد علم واشتهر بطبيعة الحال ـ لو وجد فلن يكون بأقل شأناً من القراءات التي هي معلومة من جهة التواتر، حتى «استجهل» العلماء من يرويها من طريق الآحاد، بل إن كل ما لم يكن في هذا الباب متواتراً فهو شاذ لا يلتفت إليه!! وليصدق من شاء أن القرآن الذي نسخ لفظه وبقي معناه ـ فيما انطوت عليه بعض كتب الأصول ـ قول النبي صلّى الله عليه وآله وسلم: «لو كان لابن آدم واديان من مال لتمنى لهما ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»!! ولا ندري على أي حال في أي موضع من كتاب الله كانت توجد وتتلى تلك الآيات!! والعجيب في الرواية المنسوبة إلى سيدنا عمر أنه أراد أن يكتب تلك الآية «بجانب المصحف»!!!

٣ ـ بين النسخ والبداء

هذا النسخ المصطلح عليه، والواقع في تاريخ القرآن الكريم، قد يشتبه فيه على بعض الناس أمران: **الأول**: الظن بأنه قريب من البَداء ـ بفتح الباء ـ ومعناه أن الله سبحانه قد يأمر وينهى أولا، ثم «يبدو» له في ذلك «رأي» آخر، فيبطل الأمر الأول وينسخه!! فينسب الله تعالى ـ بذلك ـ الى عدم العلم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ويقرأ المرء ملامح هذا البداء في السطور الأولى من التوراة ـ العهد القديم ـ في سفر التكوين: «... ثم خلق الله النور، ورأى الله أن النور أحسن...» ولهذا صح لعلمائنا ما قالوه من أن البداء من دين اليهود، وحكموا كذلك بإكفار من ينسب ربه إليه، هذا على الرغم من أن اليهود ينكرون النسخ ـ فيما ذكر لأنه يستلزم البداء!! ولا بداء أبشع مما في كتبهم المحرفة، ولا بداء أشنع وأقبح مما جاء في تلمودهم ـ وهو شروح علمائهم الشفهية للتوراة ـ من أن الله سبحانه لما سلط بختنصر على إسرائيل، فقتل منهم

من قتل، وشرد من شرد إلى بابل، ندم على ذلك، وشد شعره من الندم!...
وقاتلهم الله على هذا التجسيم والتشبيه ـ الذي قال علماؤنا كذلك إنه من دين يهود؛ وحكموا باكفار من يظن ربه جسماً كالأجسام ـ والله تعالى يقول: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾. الشورى: ١١.

ولعلمائنا في التمييز بين النسخ والبداء فروق كثيرة لا نعرض لها الآن، لأن موضعها الكتب المتخصصة، ولكننا ندفع هذه الشبهة في العلاقة بين الأمرين بالقول: إن معنى النسخ بالنسبة إلى الله عزَّ وجلّ أن الله سبحانه كان يعلم أن هذا الحكم يكون باقياً على المكلفين إلى الوقت الفلاني ثم ينسخ. فلما جاء الوقت أرسل حكماً آخر ظهر منه الزيادة والنقصان، أو الرفع مطلقاً. قال الأصوليون: ففي الحقيقة هذا بيان انتهاء الحكم الأول، لكن لما لم يكن الوقت مذكوراً في الحكم الأول فعند ورود الثاني يتخيل لقصور علمنا في الظاهر أنه تغيير[١] ولهذا عرف بعضهم النسخ شرعاً بأنه بيان لمدة الحكم المطلق الذي كان معلوماً عند الله، إلا أنه أطلقه فصار ظاهره البقاء في حق البشر فكان تبديلاً في حقنا، بياناً محضاً في حق صاحب الشرع[٢].

النسخ مفهوم انساني:

ومعنى ذلك أن مفهوم «النسخ» والحالة هذه مفهوم انساني، أي إنه «نسخ» بالنسبة إلينا لا بالنسبة الى الله تعالى، لأن ذلك تابع لموضوع «الزمان» ففي المدة الأولى كان حكماً، ثم رفع بعد ذلك، ووضع محله حكم آخر ومعلوم أن «الزمان» مسألة انسانية لا تنطبق على الله سبحانه وتعالى، بل جميع الأزمنة بالنسبة إليه سواء، ولهذا كان من العجيب أن ينسب إلى الله

---

(١) إظهار الحق.
(٢) المنار في الأصول.

سبحانه «رأي» وإنما ينسب الله تعالى أو ينسب إليه سبحانه «العلم»، وهو هو ذلك العلم الذي لا يخضع لفكرة الزمان، لأنه علم قديم كان قبل خلق الأشياء والأجسام، ومعلوم أن الزمان إنما هو مقياس لحركة الأشياء، فإذا كان الله تعالى ليس بجسم فكيف يجوز إخضاع علمه ـ سبحانه ـ لحركة الأجسام التي هي من خلقه، وتدبير من قضائه وعلمه، ولهذا فإن من المسلم به أن الأشياء تقع في الكون لأنها في علم الله، ولا يعلمها الله تعالى لأنها وقعت! فعلمه سبحانه سبب في وقوع الأشياء، وليس متسبباً عنها! لا نطيل الوقوف عند هذه النقطة الكلامية ـ وقد عرضنا لها بالشرح في موضوع آخر ـ ولكن نكتفي بالقول: **إن حديث الأصوليين عن النسخ بأنه «تبديل» في حقنا، «بيان» محض في حق صاحب الشرع**، كلام في غاية الدقة والوضوح... ولا بداء ينسب الى الله سبحانه، ولا «رأي»... ولا شيء من هذا الذي يسقط فيه الانسان في «مناخه» الانساني الخاضع لظروف الزمان والمكان.

٤ ـ شبهة وردها:

نصل هنا إلى الأمر الثاني الذي قد يشتبه على بعض الناس في موضوع النسخ، وهو ظنهم أن النسخ ـ سواء أكان «بياناً» أم «تبديلاً» ـ وقد وقع في عصر نزول القرآن الذي امتد نحواً من ثلاث وعشرين سنة، فكيف لا يمكن له أن يقع مرة أخرى، وقد مضى الآن على نزول القرآن الكريم أربعة عشر قرناً؟!! بل ربما ذكر بعضهم في هذا الاطار حادثة إيقاف سيدنا عمر رضي الله عنه لسهم المؤلفة قلوبهم وتعطيله لحد السرقة عام الرمادة... وربما بلغ الجهل ببعضهم إلى الحد الذي نادى فيه بتحكيم المصالح في النصوص!!! ونصوص القرآن لا يأتيها الباطل... والمصالح قد تكون موهومة او طارئة أو موقوتة... الخ.

لا أعرض الآن لهذا الموضوع، أو لموضوع النسخ من هذه الزاوية كما لا أعرض لموضوع المقايسة تلك - بين السنوات الثلاث والعشرين والقرون المتطاولة وراءها - من كل الزوايا التي تنقض هذه الشبهة التافهة وترد على أصحابها، فذلك واضح بحمد الله في مواضعه من كتب الأصول الكثيرة، وبخاصة تلك التي أوضحت أن عمل سيدنا عمر رضي الله عنه كان إعمالاً لنصوص القرآن لا إهمالاً لها... مسألة مسألة، وقضية قضية، ولكني أكتفي الآن بنقض موضوع تلك المقايسة الزمانية من الزاوية التي انتهينا إليها في النقطة السابقة:

فإذا كان « النسخ » علاقته بنا، أو هو بالنسبة إلينا نحن المكلفين الذين خوطبوا بالقرآن في كل زمان ومكان - وهو الأمر العملي الذي لا خلاف عليه على كل حال - فعلينا إذن أن نبحث عن الدور الذي أداه النسخ بالنسبة للقوم الذين نزل القرآن الكريم بين أظهرهم، وبالنسبة إلينا فيما وراءهم، ولنتساءل: أكان من الخير ألا يكون!! كما يتوهم الفريق الأول من الجهال؟ أكان من الخير أن يستمر بعد عصر التنزيل، كما يتوهم الفريق الآخر من هؤلاء؟!! ونبادر هنا إلى القول: لم يكن الخير إلا فيما حدث، وفيما أمضاه الله سبحانه في عصر النزول وسائر العصور إلى يوم الدين.

ونتجاوز هنا الحديث عن نسخ شريعة من قبلنا بشريعة نبينا محمد ﷺ لأن ذلك مفهوم باعتبار اختصاص شرائع من قبلنا بأقوام معينين، وما انطوت عليه تلك الشرائع وقامت على أساسه - لذلك - من اعتبارات « قومية » وبيئية زمانية ومكانية حتى كان شعار جميع الأنبياء السابقين « يا قوم » في الوقت الذي قامت فيه الرسالة الاسلامية على اعتبارات وأسس انسانية تقرر معها عموم هذه الرسالة وخلودها حتى كان شعار نبينا محمد ﷺ: « يا أيها الناس » ولهذا قال الله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾ آل عمران: ١٩. وقال

تعالى : ﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ آل عمران : ٨٥ .

هذا وقد تكفلت الآيات القرآنية الكريمة ببيان حكمة نسخ الشرائع السابقة ، وذلك في ردها على الكفار من المشركين وأهل الكتاب الذين حملهم التعصب والجهالة والحقد على اعتبار هذا النسخ دليل افتراء من النبي ﷺ!! حتى إن جميع الآيات التي وردت في موضوع تبديل آية بآية أو نسخ آية بأخرى . . . جاءت في سياق الرد على المشركين وأهل الكتاب ، واستنكارهم أن يوحي الله تعالى بكتاب ينسخ ما تقدم من الكتب السماوية السابقة!!

ونشير هنا ـ بهذه المناسبة ـ في استطراد سريع إلى أن حربهم وافتراءهم على الاسلام وأهله قائم ومستمر ، طالما كان الاسلام هو الناسخ الوحيد «لأدياتهم » والبديل الوحيد « لحضارتهم » . . . ولتعلمن نبأه بعد حين . . .

٤ ـ التربية بالنسخ :

أما الذي يحتاج منا إلى وقفة هادئة متأملة فهو موضوع نسخ بعض الأحكام في شريعة رسولنا خاتم النبيين محمد ﷺ في فترة نزول القرآن السابقة ، خصوصاً ونحن ما نزال نتلو هذه الآيات المنسوخة . . . إلى جانب أننا مطالبون بعد عصر التنزيل بالأحكام النهائية التي آلت إليها الشريعة وثبتت عليها بانتهاء الوحي ووفاة النبي ﷺ . فوق ما هو مقرر ومعلوم بالبداهة عند جميع المسلمين من امتناع وقوع النسخ بعد انقطاع الوحي :

لقد تم النسخ ، كما هو معلوم ، في ظل مبدأ تنجيم القرآن الكريم ، أي : نزوله مفرقاً على نجوم ودفعات ومراحل مختلفة ، بلغت في مجموعها نحواً من ثلاث وعشرين سنة كما أشرنا إلى ذلك . وكان لهذا التنجيم فوائده الكثيرة

المعروفة والتي أشرنا اليها في هذا الكتاب[1]، ولكن الفائدة الرئيسية أو الغرض الأساسي من هذا التنجيم تكمن في أنه كان هو الوسيلة الربانية لاعداد الفرد المسلم والأمة المسلمة... بوصف هذه الأمة إنما أخرجت للناس لأول مرة في التاريخ من خلال نصوص كتاب!! فاذا كان القرآن الكريم هو الذي صنعها وأخرجها للناس خير أمة فقد تنزلت آياته الكريمة على مراحل وأوقات وفي مناسبات لاحكام بناء هذه الأمة الخير أو الأمة الوسط لبنة لبنة، وآية آية، وموقفاً في إثر موقف على اختلاف الظروف والأحوال. ويختص الجيل القرآني الأول - أو جيل التنزيل إن صح التعبير - فوق ذلك بأنه الجيل الوحيد أو الجيل الأول في تاريخ هذه الأمة الأخيرة الذي عبر به القرآن الكريم من أوضاع الجاهلية إلى أحكام الاسلام، وانتقل به من جميع ملابسات الشرك إلى آفاق التوحيد... حتى حقق به القرآن الكريم ذلك «الجيل النموذج» أو «الجيل المثال» الذي يحتذى إلى يوم الدين.

هذا الجيل القرآني الفريد الذي ليس له نظير في تاريخ الاسلام وفي تاريخ بني الانسان كان النسخ بالنسبة إليه واحداً من أعمق وأهم وسائل التربية والاعداد... في بناء شخصياته على الصعيد **الفردي**... وفي مواجهته على الصعيد **الجماعي** - كأمة ومجتمع - **مع الجاهلية العربية وسائر الجاهليات الأخرى** في الأمم والشعوب، بل قد يمكننا القول: إن النسخ كان ضرورة لا بد منها لنقل أبناء عصر التنزيل من الجاهلية إلى الاسلام بدليل أنه جاء مرة نسخاً مباشراً، وجاء مرة أخرى على مراحل... كما سنشرح بعد قليل. ولكن الذي يهمنا تأكيده هنا هو أن النسخ الذي عمل عمله في إعداد ذلك الجيل الفريد... لا معنى لاستمراره، بل لا يمكن له من أي وجه أن يوجد بعد ذلك

---

(١) راجع فصل: نزول القرآن (الفصل الثالث من الباب الثاني).

العصر ونحن نتربى الآن بالاقتداء والتأسي بذلك الجيل... لا بالنسخ الذي ساهم في صنعه هو!! فالتربية بالنسخ - إن صح الشعار أو التعبير - بالنسبة لجيل التنزيل، يقابله بالنسبة لسائر الأجيال الأخرى بعده: التربية بالقدوة أو بالاحتذاء بذلك الجيل الذي تمثلت فيه حجة الله على عباده الى يوم الدين! وقد نجح جيل الصحابة رضي الله عنهم في تقديم أرفع النماذج الانسانية في كل مجال، أما رسول الله ﷺ الذي قدمت لنا سيرته الشريفة أهم وسائل ذلك الاعداد التاريخي، وألقت ضوءاً بارزاً على فهم مراحله، فقد تجمع في شخصه الكريم كل تلك الصفات والمجالات الرفيعة، وبلغ في كل واحد، منها شأواً لم يبلغه أحد ممن فرغ له نفسه، سواء أكان من الصحابة أم من غيرهم، فكان بذلك رسول الإنسانية الكامل، وملاذها الأخير ﷺ.

كان تشريع النسخ إذن جزءاً من ذلك «الإعداد التاريخي» المرحلي أو وسيلة من وسائله البارزة. وبعد أن تم هذا الاعداد الذي قدم لنا النموذج أو المثال الأخير كما قلنا أصبحت الأمة الاسلامية مطالبة بالأحكام الاخيرة في البناء والاعداد، وأصبح النسخ «واقعة تاريخية» لا يمكن - ولا يعقل - تكرارها مرة أخرى بعد قيام الجيل الأول، وبعد ان تمت عملية الانتقال من الجاهلية إلى الاسلام بصورة تطبيقية عملية أعطت أروع الأمثلة وأعمقها على أن أحكام الاسلام ليست رؤيا مثالية في عالم الخيال، ولكنها حقيقة حية في دنيا الواقع... وبذلك البعد الهائل الذي ليس له نظير... حتى كان مثلاً يحتذى. نقول: أصبح النسخ واقعة تاريخية لا يعقل تكراره، كما لم تعد هناك ضرورة لتكرار الجزئيات المرحلية في تربية الشخصية المسلمة والأمة المسلمة.

أي جهل ذلك الذي يريد صاحبه أن يعرض أحكام الاسلام للنسخ لأنه مضت عليه القرون، وقد وقع النسخ خلال بضع وعشرين سنة؟!! ما هذه المقايسات السطحية والتخليط الشديد؟!

٥ ـ الحكمة من بقاء الآيات التي نسخ حكمها :

ولهذا كان من تمام الحكمة الربانية أن تبقى الآيات القرآنية التي نسخ حكمها . . . تقرأ بألفاظها إلى يوم الدين لترى فيها سائر أجيال هذه الأمة كيف تم إعداد جيلها المثالي الأول ، وما هي الأحكام المرحلية التي احتاجت إليها الجماعة الاسلامية النموذج في أطوار نشأتها وتدرجها ، وكيف تم قطع علائقها بالجاهلية،وربطت بأسباب الحياة الاسلامية والدين الجديد الأخير الخالد ، وربما أمكننا هنا إيراد كلمة سيدنا عمر رضي الله عنه عندما قال : « إنه يخشى أن ينتقض عرى الإسلام عروة عروة من لم يعرف الجاهلية وأحكامها!! » وليس من شك في أن استعراض هذه الآيات الكريمة التي نسخ حكمها تقفنا على طريقة القرآن الكريم في تربية هذه الأمة ـ بوجه عام ـ تربية عملية واقعية متحركة لا تقف عند بعض الوسائل لا تتخطاها . . . أو بعبارة أخرى : نحن نأخذ الآن فلسفة هذا الموقف من خلال الحكمة العملية التربوية ، فيما وراء الحكم المنسوخ ، لنفيد منه في مخاطبة الناس وفي محاولة التغيير . . . وفي الوقوف على الكثير الكثير من سنن الله عزّ وجل في النفس والمجتمع ، وفي وسائل الدعوة وطرق الاصلاح ، وتقف الآيات المنسوخة في هذا الباب هدى ومعالم بارزة . . . كأعمق ما يكون الهدى ، وأوضح ما تكون المعالم!

ولا يتسع المقام هنا لاستعراض هذه المعالم والدلالات في كل باب أو في كل حكم لحقه نسخ في القرآن الكريم ، فذلك حديث طويل من وجه ، وربما تجدد القول فيه ، من وجه آخر ، باختلاف العصور والأحوال . ولكن ربما أمكننا هنا ملاحظة أن ما كان من أوضاع الجاهلية العامة أو الاجتماعية التي أقرها الاسلام باديء ذي بدء . . . قد تم نسخه بشكل مباشر ، أما ما كان له عند القوم تعلق نفسي عميق فقد تم نسخه على مراحل ، كما هو معلوم من مسألة الخمر . بل يمكننا ـ فوق ذلك ـ أن نلحظ في هذه المسألة ، على سبيل المثال ، طرفاً مما أشرنا

إليه قبل قليل من القضايا التربوية العامة إذا علمنا بأن بعض العلماء فهم موضوع التحريم من الآية الأولى، وهي قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما...﴾ لأن كل ما زاد إثمه على نفعه كان جديراً في هذه الشريعة بالتحريم، ولكن إذا لم يكن ذلك «نصاً» في التحريم، فلا اقل من أن نلاحظ ان المجتمع الاسلامي لن يخلو ممن يمتثل الأوامر الالهية وهي في طريق الترشيح، أو أن الاسلام يحرص على الدوام على أن يبادر الناس إلى أحكامه، قناعة وطواعية واختياراً لا بقوة الأمر الحازم فضلاً عن قوة القسر والاكراه... وإن كانت هذه درجات لا غنى عنها وفي الناس مراتب واحوال...

ويمكن ان نلحظ هنا، تحت عنوان: النسخ أحد وسائل التربية، او تربية النموذج، أن الأمر بكف اليد في مكة: «كفوا أيديكم» كان لقطع علاقة الثأر والحمية الجاهلية، والانتصار للقوم والعشيرة، وإخلاص موضوع القتال غضباً لله ولدينه، وجهاداً في سبيله وقد ظهر أثر ذلك في النماذج العملية التي خوطبت فيما بعد بقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً..﴾ فهذه مرحلة أو درجة استطاعها من فطم نفسه وكف يده في مكة... حتى ولو كان يوم ذاك قادراً على أن ينال من عدوه وهو في منجى من القتل أو تعريض المسلمين للخطر!...

الدور التربوي في حادثة تحويل القبلة:

ونشير في جانب أوضاع الجاهلية، ودور النسخ المباشر فيها، أو الدور التربوي الهائل الذي أداه النسخ في هذا الجانب إلى حادثة تحويل القبلة عن الكعبة إلى المسجد الأقصى بضعة عشر شهراً بعد الهجرة، ثم إعادتها بالأمر القرآني الأخير إلى الكعبة: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾.

وقد كان التوجه إلى بيت المقدس، وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى «سبباً في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول بأن اتجاه محمد ﷺ ومَن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة، وأنهم هم الأصل، فأولى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الاسلام» كما يقول صاحب الظلال رحمه الله، وقال رحمه الله: «لقد كان تحويل القبلة أولاً عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها آية في هذا الدرس: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه...﴾.

فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي... ولما كان الاسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الاسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم... فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه - فترة - إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ، أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو بعيد.».

٦ - اعتبار خاص

وقد يقال: ما معنى هذا الاعتبار الخاص للجيل الأول، علماً بأن انحدار الناس في أسباب الحياة الجاهلية ممكن أو واقع في كل عصر، فلم لا يعبرون

هذه الجاهلية ـ مرة أخرى ـ بمثل تلك المراحل؟! وعلى الرغم من إشارتنا السابقة في الرد على هذا الوهم، فاننا نزيد هنا بأن امتياز الجيل الأول من سائر الأجيال نابع من أنه الجيل الوحيد في التاريخ الذي لم يعرف الفرق بين ما نسميه اليوم في مصطلحاتنا السياسية: «النظرية والتطبيق»... فاذا كان القرآن الكريم المتلو هو الذي يقابل في فلسفات الأمم وعقائدها ـ بل في كتبها السماوية السابقة ـ ما نسميه النظرية أو الكتاب، وكان أبناء جيل التنزيل كما نعلم قد تعلموا العلم والعمل جميعاً... كان من السهل علينا أن نفهم ما لهم من «امتياز» أو اعتبار خاص في ذلك الكتاب الكريم... ولم يكن النسخ إلا باباً واحداً من أبواب ذلك الاعتبار الذي ليس عليه غبار!

ولا أتحدث هنا عن الآيات التي نزلت في ذلك الجيل أو الرعيل، أو في بعض أفراده ـ كنحو قوله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة...﴾ وقوله: ﴿وسيجنبها الأتقى...﴾ وقوله: ﴿ويطعمون الطعام على حبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً...﴾ الخ. الآيات كثيرة جداً في هذا الباب ـ ولكن أكتفي بربط ذلك الاعتبار الخاص (والمؤكد) جداً بمسألة الاقتلاع والانتقال بذلك الجيل المثالي من الجاهلية، أو من تلك الجاهلية إلى الإسلام لنؤكد على الاعتبار الخاص أو الأخير لبعض أوضاع تلك الجاهلية المتمثل في مثل قوله تعالى: ﴿إلا ما قد سلف﴾ وقوله سبحانه: ﴿من قبلكم﴾ قال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿... والمحصنات من الذين أوتو الكتاب من قبلكم﴾ أي من الكتابيات اللاتي كنَّ قبل البعثة، فلم يبح الزواج من الكتابيات في جميع العصور. ولا أدخل هنا في مناقشة أو دفاع عن هذا التفسير الذي أراد صاحبه أن يميز بين إيمان الكتابية الذي كان له اعتبار ما قبل بعثة النبي ﷺ، وبين ذلك الإيمان الذي لم يعد له ذلك الاعتبار بعد نزول القرآن، ولكن أقول باختصار: إذا كان جيل التنزيل قد تعلموا العلم والعمل جميعاً، أو تعلموا

القرآن الكريم: علمه وعمله في آنٍ معاً، وكان عملهم وتعاملهم في وسط له اعتباراته الخاصة التي لن تتكرر، وهو وسط «أهل الفترة» - كما يدعون - فكيف لا نتصور إمكانية انفراد ذلك الجيل ببعض الأحكام... فضلاً عن اختصاصهم بمسألة النسخ الذي هو مجرد انتقال في نهاية المطاف. وكيف يمكن أن نتصور من طرف آخر بعد أن تم هذا الانتقال، أن يعاد اعتبار الحكم المنسوخ مرة أخرى، أو أن يعاد هذا الحكم في عملية انتقال أخرى ذهبت كل ظروفها وملابساتها من الاعتبار، ومن حكم الشريعة والتاريخ؟!

هل نتجاوز هنا حدود المصطلحات الشرعية لنقرب المسألة من بعض الأفهام فنقول: إن مسألة النسخ هي من قبيل ما نسميه اليوم بالأحكام الانتقالية... وأن هذه الأحكام جاءت في مرحلة إنتقال المجتمع الانساني ورحلته الراسخة المكينة من الجاهلية إلى الاسلام. وغني عن البيان أن الأحكام الانتقالية استثناء موقوت، وليست حالة أصلية ثابتة مستمرة! قال الله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير.﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[1].

---

(1) من أوضح الدلائل في هذا الباب قول النبي ﷺ في شأن مكة: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يخضد بها شجرة، فان أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ - أي: أراد أحد أن يستن برسول الله في ذلك فيقاتل بها كما قاتل عليه الصلاة والسلام - فقولوا: إن الله أذن لرسوله ﷺ ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب» أخرجه البخاري. =

٧ ـ تعقيب وتأكيد:

وقبل أن نصل إلى النقطة الأخيرة في هذه المقالة نود أن نعقب على هذا الاعتبار الخاص لجيل التنزيل، ونؤكده، لأن مبنى هذه المقالة في التمييز بين التربية بالنسخ والتربية بالقدوة مبني عليه وقائم على أساسه، ونذكر أولاً ان هذا الاعتبار لذلك الجيل المثالي لا حيف فيه قيد أنملة على مسألة البعد التاريخي للقرآن الكريم ـ وقد أفردناها ببحث خاص ـ وأنه كتاب الله الخالد الى يوم الدين، وأنه لذلك خارج من ملابسات الزمان والمكان. والفرق بين الموضوعين أو المسألتين فيما نقدر شديد الوضوح لأن من المعلوم أن «سبب النزول يراد به أن يعين على فهم أدق وأحكم للنص القرآني، وذلك من خلال معرفة الملابسات التي نزل فيها القرآن. ولا يقصد منه الانغلاق في إطار الزمان والبيئة المكانية التي نزل فيها القرآن الكريم ومن هنا جاءت القاعدة الأصولية المعروفة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[1].

لا حاجة بنا إذن إلى التأكيد على أن هذا الاعتبار لجيل التنزيل لا يمكن أن يفهم منه أن القرآن الكريم خاص بهم أو انه نزل لهم! ولكن الذي يمكن ذكره هنا هو أن باب النسخ من حقه أن يذكرنا ويثير في أذهاننا ذلك الاعتبار الهائل الذي تمتع به جيل التنزيل ـ حتى وجدنا أنفسنا نتربى بالاقتداء بهم كما أشرنا ـ كما أنه من حقه كذلك أن يذكرنا بدور ذلك الجيل مقروناً ـ في النطاق الذي أشرنا إليه أيضاً ـ بأهمية بيئتهم الزمانية والمكانية جميعاً! وذلك حتى يبقى دور ذلك الجيل النموذج حياً وماثلاً في

= ومكة هي مهد الدعوة، وفيها تربت الجماعة الاسلامية الأولى، وفيها الكعبة البيت العتيق الذي يتوجه اليه جميع المسلمين بالصلاة إلى يوم الدين.

(١) راجع فيما سبق بحث «ترتيب السور» وفصل «أسباب النزول».

عقول المسلمين وفي نفوسهم الى يوم الدين! أليس في الأركان التي بُني عليها الاسلام ما يشير - من بعض وجوهه على الأقل - إلى تلك العلاقة بالجيل الأول، وخصوصاً إذا ذكرنا مع حياة صحابته الكرام سيرة نبينا العظيم التي توجت تلك الحقبة النادرة، وكانت أهم وسائل ذلك الاعداد التاريخي كما قدمنا. فهذه الصحراء ترحل إلينا - بملابسات الصبر والشظف - مرة كل عام في شهر رمضان، وعلى اختلاف الأمكنة والأزمان. فاذا لم يكن في وسع أمة الجهاد وأمة تحقيق كلمة الله تعالى في الأرض أن تنشأ جميعاً في الصحراء كما نشأ الجيل الأول... فهذه الصحراء تحمل إليها في كل عام! علنا ندرك معنى الذهاب إلى حراء، ومعنى الخروج إلى الطائف، ومعنى يوم بدر، ومعنى غزوة تبوك، ومعنى مؤتة وذات الرقاع!!... الخ. وهذا ركن الحج يحملنا إلى تلك البيئة المكانية التي شهدت مهد الدعوة وحياة الدعاة الأوائل رضي الله عنهم ورضوا عنه... مرة واحدة في العمر على الأقل حتى يستعيد كل مسلم ومسلمة - إلى يوم الدين - فترة التنزيل تلك بكل ملابساتها المكانية، وذكرياتها التاريخية حتى ترتد في نفسه كأنها واقع يحياه لا تاريخ يقرؤه!! حتى كان الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وحتى يرجع الحاج الذي لم يرفث ولم يفسق كيوم ولدته أمه أي كأنه صار على عتبة أولئك الرجال النين رضي الله عنهم، أو الذين قال النبي في شأن من شهد منهم بدراً ما قال... إلخ...

فماذا في تشريع النسخ بعد ذلك، وهو لا يعدو - فوق كل ما أوضحناه - ان يكون رعاية زمانية خاصة لذلك الجيل النموذجي المثالي الأول!.

٨ - متى لا يكون المتأخر ناسخاً للمتقدم

وأخيراً، ومن خلال هذه النظرة إلى فلسفة النسخ ودوره التربوي، نستطيع القول بأن ما كان متصلاً بأحكام المواجهة والمرحلية في الجهاد، أو

ما كان متصلاً بأحكام العلاقة بين المجتمع الاسلامي والمجتمعات الانسانية الأخرى، التي هي المجال الطبيعي للدعوة والدخول في دين الله عزّ وجل: لا يعتبر النص القرآني المتأخر ناسخاً للمتقدم، لأن هذا لا علاقة له بتكوين النموذج الذي يحتذى عبر القرون، ولكن علاقته الواضحة بقدرته او قدرة الامة الاسلامية على مواجهة الاعداء او مواجهة الآخرين، وذلك يتعلق بقدرتها وأوضاعها.. وأوضاع أعدائها وخصومها على حد سواء.

ولهذا لم يكن من صواب الرأي - فيما يظهر - أن يقال: إن آية السيف، وهي قوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ (التوبة: ٥) وقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ (التوبة: ٢٩) قد نسختا جميع آيات المصابرة المكية، قال ابن حزم: آيات الاعراض عن المشركين التي نسختها هاتان الآيتان أربع عشرة ومائة آية.

ونحن لا ندفع هذا القول بما فيه من غلو وتجاوز، بل بما أشرنا إليه قبل قليل من خروج هذه المسألة من نطاق النسخ من الأصل. وإذا كان هذا قد فهم على أنه نسخ في الماضي على وجه العموم، أو في عصر التنزيل على وجه الخصوص - بمعنى أنهم لا يجوز لهم الرجوع فيه الى الحكم السابق - فما ذاك إلا لأن جيل التنزيل، كما قدمنا، كان ينتقل عملياً مع نزول الآيات من مرحلة إلى أخرى، وكما هو معلوم من تاريخ الأمة الاسلامية في المدينة المنورة، أو تاريخ دولة المدينة الاسلامية وعلاقاتها مع الجاهلية العربية في ذلك الحين.

فان قيل: هذا ينطبق على ما قدمناه في السابق كذلك، فلماذا هذا التفريق؟ قلنا: النموذج الفرد، او ما نسميه بأمة الدعوة لا تنقطع إلى يوم

الدين، «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق...» أما أمة الدولة فربما انقطعت في بعض مراحل التاريخ... فلو لقي على ظهر الأرض مسلم واحد فهو مخاطب بالأحكام الفردية النهائية من وجه كما أنه يمثل أمة الدعوة من وجه آخر، كما وصف الله تعالى ابراهيم عليه الصلاة والسلام ولم يكن على وجه الأرض رجل مسلم غيره كما جاء في الحديث[1]. أما أحكام المواجهة والجهاد فلها شأن آخر قال الامام الزركشي: «ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف من أنها منسوخة بآية السيف قول ضعيف، فهو من المنسأ ـ بضم الميم ـ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما، لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، ليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبداً» قال: (ومن هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «عليكم أنفسكم» كان ذلك في بدء الأمر، كما قال الرسول: «وسيعود غريباً كما بدأ» فإن الحكم يعود، فليس حكم المسايفة ناسخاً لحكم المسألة، بل كل منهما يجب امتثاله في وقته) ولنعم ما قال، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

---

(١) قال الله تعالى: ﴿إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ النحل: ١٢٠، وروى الشيخان أن النبي ﷺ قال: إن ابراهيم قال لامرأته سارة ـ وقد قدم أرض جبار ـ: «إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك. فان سألك أخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الاسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك...» علماً بأن وجود واستمرار الحياة في «مجتمع اسلامي» مهما كانت سعته، أو التزام أبنائه بكل أحكام الشريعة لم ينقطع. ولن ينقطع كذلك. ولعل في إشارة النبي ﷺ الى بقاء مكة داراً للاسلام في الحديث السابق ما يشير الى ذلك.

الجزء الثاني
الصّورَة الأُدبيّـة لِلقرآن

الباب الرابع
ملامح الإعجاز العامّة

الفصل الأول

الفصل الأول
الإعجاز «حقيقة تاريخية»

١ ـ مدخل وتمهيد

للحديث عن «إعجاز القرآن» جانبان بارزان: الجانب التاريخي، والجانب الموضوعي. ونعني بالجانب التاريخي: تلك المقدمات والوقائع الدالة على وقوع التحدي بالقرآن في التاريخ ـ وبخاصة في زمن النزول ـ ومعنى هذا التحدي، ومعنى لزومه في أعناق العالمين الى يوم الدين. كل ذلك من خلال الوقائع التاريخية الثابتة ذاتها. أما الجانب الثاني، وهو الجانب الموضوعي، فنريد به الوجه ـ أو الوجوه ـ التي صار بها القرآن معجزاً حتى انفصل من جنس كلام العرب أجمعين، وحتى لزمهم هم وسائر العالمين ذلك العجز المشار إليه. ونعرض في هذا الجانب لأهم النظريات التي قيلت في تفسير هذا الإعجاز.

والحديث عن الجانب التاريخي واسع ومتشعب، وبخاصة إذا لزمنا طريقة المتكلمين في التذكير بجملة أخرى من المقدمات التي تعلم ضرورة ـ أي تعلم من طريق العلم الضروري الذي لا يمكن ان يتطرق اليه الشك ـ مثل الكلام على ظهور محمد بن عبدالله ﷺ في الجزيرة العربية، وما كان من أمر دعوته العالمين الى الإيمان بنبوّته، وأن دينه خاتمة الرسالات، وما كان من شأنه مع قومه في الدعوة والسلم والحرب.. الخ. ثم الانتقال التفصيلي بعد ذلك الى وقائع

التحدي، ووقائع الإيمان الكثيرة من خلال سماع هذا القرآن.. ثم الحديث عن معجزة القرآن، ومحلها من سائر معجزات النبي (ﷺ).. الخ.. ولكننا آثرنا هنا أن نعرض لطرف واحد من هذه الجوانب ـ وأكثرها مسلَّم أو معروف ـ وهو الجانب التاريخي المباشر، وبالقدر الذي يصلح مدخلا وتمهيداً كاشفاً للحديث عن الجانب الموضوعي الذي سنتولى الحديث عنه في الفصل القادم.

ونقدم هنا للحديث عن هذين الجانبين بملاحظتين هامتين:

الأولى: أن القرآن الكريم هو معجزة النبي ﷺ الكبرى أو الرئيسية، ودليله على النبوة، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى. وإن هذه المعجزة يقابلها في معجزات الأنبياء السابقين ـ أي في دليلهم على نبوتهم ـ تلك الأمور الناقضة للعادة، والمخالفة للمألوف في سنن الكون والطبيعة. وعلى الرغم من أن المعجزة على هذا النحو ليست أمراً مناقضاً للعقل ـ كما قد يتوهم البعض ـ لأن التلازم الموجود في الطبيعة بين الأسباب والنتائج، أو بين الأسباب والمسببات، ليس تلازماً عقلياً، كتلازم المقدمة والنتيجة في القضايا المنطقية أو العقلية أو الرياضية، وإنما هو تلازم المشاهدة والإحصاء، أي تلازم التجربة ليس غير... على الرغم من ذلك فإن النبي ﷺ هيأ الله له معجزة عقلية علمية بيانية يدركها المرء بمقدار إمعانه في العقل والفهم، وبمقدار ما يقف عليه من قوانين الكون وسنن الطبيعة... لا بمقدار ما يتم أمامه من تجاوز لهذه القوانين، أو تعطيل لتلك السنن لأن الايمان والتسليم عن طريق هذه الخوارق قد يحمل في طياته لوناً من ألوان القهر المعنوي، أي اضطرار المرء الى التسليم أمام هذه الخوارق! ولو كان في النفس أو العقل منها شيء. على أن الأمر المهم هنا هو أن تنوع معجزات الأنبياء واختلافها، وثيق الصلة بالرسالة التي جاء بها النبي، والقوم الذين بُعث بين ظهرانيهم، فقد كان النبي ـ أيُّ نبي عليهم جميعاً الصلاة والسلام ـ يتحدى قومه بأفضل ما أحسنوه وبرعوا فيه ليعلموا أن «المعجزة» هذه ليست من جنس ما يحسنون ـ وإن كان الأمر قد يفهم على أنه زيادة في التحدي من حيث الظاهر ـ فتسرع بذلك الى الإيمان

قلوب المصدقين منهم.

فكانت عصا موسى - عليه السلام - في قوم قد برعوا في السحر، وكان إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على يد عيسى عليه السلام في قوم برعوا في الطب.. فهؤلاء وأولئك - كما قلنا - أولى من يعلم انفصال ما هم عليه من المعجزة التي أتى بها النبي.. يضاف الى ذلك أن هنالك علاقة بين طبيعة الرسالة وماهية المعجزة؛ فحيثما كانت الرسالة خاصة بقوم بأعيانهم، في زمن بعينه، جاءت المعجزة «محدودة» في الإطار الذي بعث فيه النبي، أو جاءت محدودة في الزمان والمكان... كما هي الحال في الرسالات السابقة على رسالة محمد ﷺ، حيث شاهدت تلك الأقوام معجزات أنبيائهم التي وقعت بين ظهرانيهم،أما معجزة النبي ﷺ، وهي القرآن فقد جاءت خالدة يمكن أن يقف عليها كل إنسان الى يوم القيامة، لأن رسالة الإسلام جاءت عامة خالدة الى يوم الدين. ومن هنا جاء ذلك التكفل الإلٓهي بحفظ القرآن الكريم من التبديل والتغيير: ﴿إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون﴾.

الملاحظة الثانية: أما الملاحظة الثانية فهي مبنية على هذه الملاحظة الأولى، ومنطلقة منها، وهي أن اختلاف الكلاميين والبلاغيين وسائر العلماء والدارسين على وجه العموم في تفسير الإعجاز، أو في تعيين الوجه الذي صار به القرآن معجزاً حتى استحال على الثَّقَلين جميعاً أن يأتوا بسورة من مثله... لا ينفي وقوع الإعجاز وثبوته، أو يقلل من شأن القضية فضلا عن أنه لا يلغيها.. بل على العكس من ذلك تماماً لأنه يضعنا أمام الملاحظة السابقة، أو أمام ما نسميه عادة «البُعد التاريخي للقرآن» فإذا كان القرآن يخاطب الناسَ أو يخاطب به الناس في جميع العصور؛ فمن الراجح أن جيلا من الأجيال، أو عصرا من العصور قد لا يستقل بتقديم نظرية أو رأي يفسر به إعجاز القرآن من كل وجه.. نقدم هذه الملاحظة الآن مع تسليمنا بأن الإعجاز الذي وقع به التحدي إنما كان وجهاً بيانياً أو بلاغياً صرفاً، كما سنوضح ذلك في الفصل التالي. ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن هذه الملاحظة هي التي ستفسر لنا أن

شعورنا ـ مع بعدنا النسبي عن السليقة العربية ـ بحقيقة الإعجاز ونحن نقرأ القرآن أو نستمع إليه أكبر من أن تفسره، أو تتسع لتفسيره جميع النظريات والآراء التي قيلت في هذا الباب على أهمية بعضها البالغ في الأخذ بيدنا نحو تفهم المزيد من أسباب ذلك الإعجاز الضارب في التاريخ.. والخالد كذلك في المستقبل.

ونذكر بهذه المناسبة بأن أبا بكر الباقلاني صاحب الكتاب القيم في «إعجاز القرآن» ـ على ما في كتابه من جوانب سنعرض لنقد بعضها فيما بعد ـ كان يخامره ذلك الشعور فيما يبدو، حين قدم في كتابه طائفة من أبلغ ما وصل الينا من كلام العرب، بما في ذلك بعض خطب النبي نفسه ﷺ، وخطب سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وخطب أخرى لسائر أرباب الفصاحة والبيان في الجاهلية والإسلام.. ليضع بين يديك فيما يبدو ـ أي الباقلاني ـ الموقف العملي، أو الدرس التطبيقي الذي تحسه أنت وتعيشه ـ كما يقال ـ والذي يثبت لك انفصال كلام الله عن سائر أنواع الكلام بوجوه من البيان صار بها معجزاً... وإن قصَّر بالكاتب علمه وقلمه عن إدراك هذه الوجوه، أو عن نقلها والتعبير عنها... هذا في كتاب الباقلاني جانب إيجابي فيما نقدر، نحب بهذه المناسبة أن ننوه به ونلفت النظر إليه.

٢ ـ هذه الحقيقة التاريخية

قال الجاحظ: «بعث الله محمداً ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها الى توحيد الله وتصديق رسالته فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الاقرار: الهوى والحمية دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب ونصبوا له، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساء إلى أن يعارضوه ـ إن كان كاذباً ـ بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها، وتقريعاً لعجزهم عنها، تكشف عن نقصهم ما كان مستوراً،

وظهر منه ما كان خفياً! »

« فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوا مفتريات!! فلم يَرُم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر... ولو تكلّفه (أي لو استطاعه) لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقص. »

« فدل ذلك العاقلَ على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستقامة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه، من بذل النفوس، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال. وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات: »

« ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع، والمزدوج، واللفظ المنثور. ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم، فمحال - أكرمك الله - أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البين، مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة، واكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض. فكيف بالظاهر الجليل المنفعة!! وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه، وهم يبذلون أكثر منه ».

نقلنا لك هذا النص بطوله من كلام إمام البيان لأنه يلخص جميع المقدمات التاريخية التي كنا نود الحديث عنها، ويغني فيها ما تغنيه المطوّلات. الى جانب ما أشار إليه من نقاط كثيرة أخرى يصعب بسط الكلام فيها في مثل هذه الفصول الموجزة. وبحسبنا هنا أن نشير إلى أن تأثير القرآن الكريم في العرب

كأنه السحر ، ولكنه ليس بالسحر « فشتان بين السحر في تخييله ، وبين القرآن في اشتماله على الحق الذي لا خداع فيه ولا تخييل؟ كما يقول الشيخ الزفزاف رحمه الله ، وكان ذلك فيهم منذ اللحظة الاولى لنزول القرآن ، سواء منهم من شرح الله صدره للإسلام ، ومن جعل على بصره غشاوة.. قال صاحب التصوير الفني في القرآن : « وإذا تجاوزنا عن النفر القليل الذين كانت شخصية محمد ﷺ وحدها هي داعيتهم الى الإيمان في أول الأمر ، كزوجه خديجه ، وصديقه أبي بكر ، وابن عمه علي ، ومولاه زيد ، وأمثالهم ، فإنا نجد القرآن كان العامل الحاسم ، أو أحد العوامل الحاسمة في إيمان من آمنوا أوائل الدعوة ، يوم لم يكن لمحمد ﷺ حول ولا طول ، ويوم لم يكن للاسلام قوة ولا منعة. وقصة إيمان عمر بن الخطاب ، وتولي الوليد بن المغيرة نموذجان من قصص كثيرة للايمان والتولِّي ، وكلتاهما تكشف عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى ، وتبيّنان في اتجاهين مختلفين عن مدى هذا السحر القاهر الذي يستوي في الإقرار به المؤمنون والكافرون »[1].

بل بلغ من تأثير القرآن فيهم أنهم خافوا على من يعرف بليغ القول من قومهم أن يسلموا لسماع القرآن ، فقالوا لهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » إنها طريقة في النصر والغلب طريفة وسابقة : . . . والغوا فيه!! . . أي لا تمكنوا الناس من سماع القرآن ، وذلك بما تُحدثونه ، عند قراءة النبي له ، من صخبٍ وتشويشٍ وضوضاء!!

روى البيهقي في دلائل النبوة أن أبا جهل بن هشام ، وأبا سفيان بن حرب ، والأخنس بن شريـــق كـــانوا يتواصون ألا يستمعوا لهـــذا القرآن ، ويحذرون الناس أن يميلوا الى سحره! ولكنهم تحت تأثير لا يستطيعون مقاومته كانوا يتسللون تحت جنح الظلام الى حيث يستمعون الى النبي وهو يقرأه في الكعبة.. فإذا انصرفوا بعد القراءة تلاقوا في الطريق فأخذوا يتلاومون ويتعاهدون ألا يعودوا . . وذلك خوفاً من أن يقتدي بهم الملأ من قريش. . وفي

(١) « التصوير الفني في القرآن » لسيد قطب رحمه الله ، ص١١ .

الليلة الثالثة اجتمعوا وتلاقوا مستنكرين ، فلما كان الصباح ذهب الأخنس بن شريق الى أبي سفيان فقال له : أخبرني أبا حنظلة عما سمعت من بيان محمد! فقال : لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد منها! فقال الأخنس : وأنا كذلك . ثم انصرف إلى أبي جهل ليسأله عما سأل عنه أبا سفيان ، فقال أبو جهل في غيظ : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف! أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا! حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفَرَسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه؟! والله لا نسمع إليه ولا نصدقه!

لو كان هؤلاء لا يستشعرون روعة القرآن ، أو لا يدركون سحره وتأثيره لما تعاهدوا على اجتنابه ثم اندفعوا الى الاستماع إليه ، ثم بم نعلل ـ كما يقول بعض النقاد ـ « حرص الأخنس على سؤال أبي سفيان وأبي جهل عن أثر القرآن في نفسيهما ، وقد حرصا على الاستماع إليه حرص الكاره الغضوب لا المعجب الودود؟ أما أبو سفيان فقد أجمل وأبهم! وأما أبو جهل فقد انفجر حنقاً يكشف عن نفسه الستار الخادع إذ يعلن أن المسألة ليست مسألة الوحي ، ولكنها مسألة المنافسة بين بني عبد مناف وبني مخزوم ».

ولهــــذا لم يكن قولهم : « لا تسمعوا لهــــذا القرآن والغَوا فيــــه » وقولهم : « أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » أو قولهم : « قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين » .. لم يكن هذا إلا تعبيرا عن الجحود ، والعناد والمكابرة ، واللجاج في الباطل « كالذي ينكر ضوء الشمس وقد بهرت عينيه لعلة تدفعه الى البهتان » لأننا لا ندري لماذا لم يقولوا مثله؟! ولهذا لم يعارضوه حين فاجأهم التحدي في سورة الإسراء ـ المكية ـ حيث يقول سبحانه : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ أو حين نزل عليهم بعد ذلك ـ في سورة يونس ـ ﴿ أم يقولون افتراه! قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾! والمعنى هنا كما قال الجاحظ : هاتوا مفتريات!

أما تولي الوليد بن المغيرة الذي أشرنا إليه آنفاً، فقد أخرج الحاكم عن ابن عباس ان النبي ﷺ قام يصلي في المسجد، وأخذ يقرأ القرآن، والوليد بن المغيرة قريب منه يستمع لقراءته، فلما فطن النبي لاستماعه أعاد القراءة. قال: فكأنه رقّ له، فانطلق الى مجلس قومه بني مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لَمُغدق وانه ليعلو وما يُعلى، وانه ليحطم ما تحته. فقالت قريش: صبأ والله الوليد، والله لتصبأنّ قريش كلهم! فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه! وقعد اليه حزيناً وكلمه بما أحماه، وما زال به حتى أتى مجلس قومه، فقال: تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون إنه كاهن، فهل رأيتموه قط يتكهّن؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً - وفي رواية: والله ما في قريش رجل أعلم بالشعر أو رجزه أو قصيده، ولا والله ما يشبه الذي يقول محمد شيئاً من هذا الشعر أو ذلك الرجز - وتزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في ذلك كله: اللهم لا، ثم قالوا: فما هو؟!... ففكر، وقدر، ثم قال: ما هو إلا سحرٌ يؤثر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فارتج النادي فرحاً، وتفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه[1].

وهذا هو ما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿ إنه فكّر وقدّر. فَقُتِلَ كيفَ قَدَّر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبَس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾.

يقول بعض الأدباء النقاد في التعقيب على قصة الوليد هذه: «هذا هو الوليد بن المغيرة، فكر فقدر ثم ذهب الى أن القرآن سحر يؤثر، وظن أن نسبة السحر الى محمد كافية أن تصد الناس عنه، ولكن غيره من ذوي الرصانة النقدية ينظرون في القرآن كما نظر الوليد، وهم على عدائهم للدعوة المحمدية، يتفقون مع الوليد على أن القرآن ليس شعراً أو رجزا أو قصيداً، ويزيدون

---

(١) الاتقان للسيوطي ١١٧/٢ وسيرة ابن هشام ٢٨٣/١.

فيخالفونه فيما زعم من السحر ، لأنهم في بيئة تعرف السحر والكهانة حق المعرفة ولا ترى فيما يصدع به محمد من الآيات مشابهاً لما يأتي به السحرة من الرقى والعزائم ، فقرآنه بمنزلة معجزة من البيان لا يجوز لعاقل يحترم تفكيره أن ينسبه الى رقى السحرة وعزائم الكهنة ، وإذا أراح الوليد نفسه بنسبة السحر الى محمد فإن عتبة بن ربيعة الخثعمي يحاول أن يهتدي الى أي ضرب من التوفيق بعد أن اخذته سطوة القرآن أبلغ مأخذ ، فيقول لقومه (ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً عَلّه يقبل بعضها فنعطيه إياها) فقالوا لك ذلك ، فذهب الى رسول الله وهو يصلي بالمسجد وقال : « يا ابن أخي إنك من خيارنا حيث علمت حسباً ونسباً ، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفّهت أحلامهم وعِبْت آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت مَن مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها ، فقال عليه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد ، فقال : يا ابن أخي ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وان كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً من دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وان كان الذي يأتيك رِئْياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . » فقال ﷺ : « لقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال : نعم ، قال فاسمع مني ، فقرأ عليه رسول الله صدر سورة فصّلت :﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيلٌ من الرحمن الرحيم ، كتابٌ فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا في أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ، قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحدٌ فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غير ممنون. قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء وهي دخان ، فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا

طائعين ، فقضاهنَّ سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ، فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود ، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله ، قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون﴾ .

عند ذلك أمسك عُتبة بفيه وناشده الرحم أن يكفَّ عن ذلك . . . ثم رجع الى قومه يقول : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر ، يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكوننَّ لكلامه الذي سمعت نبأ ، فان تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم ، فقالوا : لقد سحرك محمد ، فقال هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم » . .

تمثل هذه الحادثة الشعور الذي كان يخامر العربي البليغ وهو يستمع الى القرآن يُتلى ، فيرى نفسه أمام نمط من الكلام لا عهد له بمثله في أسلوبه المتميز ، وطابعه المتفرد ، حتى انه أخذ عليه أقطار نفسه ، وظن - في هذه الواقعة - لروعة ما سمع ، ان الكلمات شخوص حسية تصور ما يراد من المعاني . . . وان الصاعقة لذلك ستنقض عليه . . فأسرع بيده الى فم النبي ﷺ صائحاً : أَمْسِك عليك يا ابنَ أخي!

الفصل الثاني

الفصل الثاني

الإعجاز «معناه ووجهه»

معناه ووجهه

هذا الإعجاز ما هو وجهه، وما هي حقيقته؟ وبم صار القرآن مبايناً لكلام العرب؟ هل صار مبايناً لهذا الكلام من وجهٍ بياني صرف؟ أم بخصائص موضوعية تتصل بالأمور الغيبية والتشريعية الأخرى التي جاء بها القرآن الكريم، والتي لم يكن في وسع أحد - كائناً من كان - أن يأتي بها في بلد كمكة، وظرف كالظرف الذي وجد فيه محمد عليه الصلاة والسلام.

إن الدراسات النفسية التحليلية والاجتماعية اتفقتا على مصدر القرآن وعلى صحة النبوة، وأن نسبة القرآن إلى الله تعالى ليس ادعاء أو محض افتراء، ولكن هل في ذلك دليلٌ على إعجاز القرآن الذي نحن بصدده.؟

هذه النقطة الهامة - قبل الحديث عن أوجه الإعجاز البيانية، والإعجاز الموضوعي - كما يسمى تجوزاً - قد جلاّها تجلية رائعة الأستاذ الكبير محمود شاكر، فذكر هنا حقيقتين هامتين يحسن نقلهما هنا بقلمه قبل الخوض في هذا الموضوع وبيان آراء العلماء فيه:

حقيقتان أساسيتان:

قال الأستاذ محمود شاكر: «ولا مناص لمتكلم في إعجاز القرآن من أن يتبين حقيقتين عظيمتين قبل النظر في هذه المسألة، وأن يفصل بينهما فصلاً ظاهراً لا يلتبس وأن يميز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما:

أولاهما : أن (إعجاز القرآن) كما يدل عليه لفظه وتاريخه هو دليل النبي ﷺ على صدق نبوته ، وعلى أنه رسول من الله يوحي اليه هذا القرآن. وان النبي ﷺ كان يعرف «إعجاز القرآن» من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب ، وأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي من نحو قوله تعالى :

﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلاّ هو فهل أنتم مسلمون﴾ وقوله : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

إنما هو تحد بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك ، فما هو بتحد بالإخبار بالغيب المكنون ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزيله ، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب ، ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان.

ثانيتهما : ان إثبات دليل النبوة ، وتصديق دليل الوحي ، وأن القرآن تنزيل من عند الله كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب الله سبحانه ، لا يكون منها شيء يدل على ان القرآن معجز ، ولا أظن أن قائلاً يستطيع أن يقول : إن التوراة والإنجيل والزبور كتب معجزة ، بالمعنى المعروف في شأن إعجاز القرآن من أجل أنها كتب منزلة من عند الله . ومن البيّن أن العرب قد طولبوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله ، ودليل صدق الوحي الذي يأتيه ، بمجرد سماع القرآن نفسه ، لا بما يُجادِلُهم به حتى يلزمهم الحجة في توحيد الله ، أو تصديق نبوته ، ولا بمعجزة كمعجزات إخوانه من الانبياء مما آمن على مثله البشر . وقد بين الله في غير آية من كتابه أن سماع القرآن يقتضيهم إدراك مباينته لكلامهم وأنه ليس من كلام البشر ، بل هو كلام رب العالمين ، وبهذا جاء الأمر في قوله تعالى : ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجرهُ حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾.

فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة، أما صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن، والخلط بين هاتين الحقيقتين، وإهمال الفصل بينهما في التطبيق والنظر، وفي دراسة «إعجاز القرآن» قد أفضى إلى تخليط شديد في الدراسة قديماً وحديثاً، بل أدى هذا الخلط إلى تأخر «علم إعجاز القرآن» «وعلم البلاغة» عن الغاية التي كان ينبغي أن ينتهيا إليها[1].

معنى إعجاز القرآن:

يتبين من خلال هاتين الملاحظتين، ومن خلال الموقف الذي عرضناه في السابق - موقف العرب من القرآن - ومن خلال مطالبة النبي ﷺ لعشيرته وقومه أن يؤمنوا بدعوته ورسالته ويقروا له بصدق نبوته بدليل واحد هو هذا الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرؤوه، يتبين من كل هذا: المعنى المراد بإعجاز القرآن.

وهو أن القرآن يحمل في بيانه الدليل الكافي على أنه ليس من كلام البشر إذ لا معنى للمطالبة بالإقرار لمجرد التلاوة، إلا أن هذا المقروء عليهم كان هو في نفسه آية فيها أوضح الدليل على انه ليس من كلامه هو ﷺ، ولا من كلام بشر مثله.

ثم لا معنى لهذه المطالبة البتة إلاّ أن يكون في طاقة هؤلاء السامعين أن يميزوا تمييزاً واضحاً بين الكلام الذي هو من نحو كلام البشر، والكلام الذي ليس من نحو كلامهم، كما يقول الأستاذ شاكر.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن القرآن نزل منجّماً، أي مفرقاً، وكان الذي نزل على النبي ﷺ يومئذ قليلاً، وأن هذا القليل من التنزيل هو برهانه الفرد على نبوته، وأن التحدي الأخير لهم بأن يأتوا بسورة من مثله، قد انتهى بهذه الآية

---

(١) انظر المقدمة القيمة التي صدّر بها الأستاذ محمود شاكر كتاب «الظاهرة القرآنية» للأستاذ مالك بن نبي رحمه الله.

التي قذف بها في وجوههم: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ وكذلك كان.

إذا أضفنا كل هذا تبينت لنا الأمور التالية:

الأول: أن قليل القرآن وكثيرة في شأن الإعجاز سواء ».

« الثاني: أن الاعجاز كائن في رصف القرآن وبيانه ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب، ثم في سائر لغات البشر، ثم في بيان الثقلين جميعاً إنسهم وجنّهم متظاهرين ».

« الثالث: أن الذين تحداهم بهذا القرآن قد أوتوا القدرة على الفصل بين الذي هو من كلام البشر والذي هو ليس من كلامهم ».

« الرابع: أن الذين تحداهم به كانوا يدركون أن ما طولبوا به من الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله مفتريات، هو هذا الضرب من البيان الذي يجدون في أنفسهم أنه خارجٌ من جنس بيان البشر ».

« الخامس: أن هذا التحدي لم يقصد به الإتيان بمثله مطابقاً لمعانيه، بل أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه من كل معنى أو غرض، مما يعتلج في نفوس البشر ».

« السادس: أن هذا التحدي للثقلين جميعاً إنسهم وجنهم متظاهرين تحدٍ مستمرٌ قائمٌ إلى يوم الدين ».

« السابع: أن ما في القرآن من مكنونات الغيب ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وان كان ما فيه من ذلك كله يعدّ دليلاً على أنه من عند الله تعالى. ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباينٌ لنظم كلام البشر وبيانهم، وانه بهذه المباينة كلام رب العالمين لا كلام بشر مثلهم »[1].

---

(١) انظر المقدمة السابقة.

آراء ونظريّات حَول الإعجاز

قامت حول إعجاز القرآن دراسات كثيرة قديمة وحديثة ، وذهب المفسرون وعلماء البلاغة في تفسير هذا الإعجاز مذاهب شتى . واذا كان من البين عندنا أن الإعجاز الذي وقع به التحدي ـ وهو المراد من الإعجاز عند الاطلاق بالطبع ـ كان وجهه بيانياً صرفاً ، على نحو ما هَدَتْنا إليه الملاحظات السابقة . وعلى الرغم من تسليم الكثيرين بهذا الرأي إلاّ أن بعضهم لا يمتنع من الحديث عن « الإعجاز الغيبي » ـ بمعنى ما أشار إليه القرآن من أمور على أنها ستقع في المستقبل ، وكان كما أخبر ـ وعن « الإعجاز العلمي » أي ما أشار إليه القرآن من علوم ومعارف كونية ، وعن « الإعجاز التشريعي » . . . الخ ، مورداً كلمة « الإعجاز » في غير إطارها التاريخي السابق ، وهذا ما دعانا إلى التقييد المشار إليه ، بوصفه لوناً من ألوان الاحتياط ، وبيان « المجال » الحقيقي للإعجاز ، فقلنا : الإعجاز الذي وقع به التحدي .

ونكتفي هنا بالكلام على أهم النظريات التي قيلت في تفسير هذا الإعجاز البياني أو الإعجاز الذي وقع به التحدي ، أو على أهم الخطوط البارزة في تلك النظريات ، إن لم نكتف بالتعريف السريع بفكرتها العامة في سطور معدودات . ولكن لا بد أولاً من الإشارة إلى فكرة أو شبهة ظاهرة الفساد خرجت من كل معايير التحدي السابق ، وهي : نظرية الصرفة .

أولا ـ فكرة الصرفة :

ذهب أبو إسحق النظام ـ وكان من رؤوس المتكلمين على مذهب المعتزلة أو على منهجهم وطرائقهم في التفكير ـ إلى القول بأن إعجاز القرآن كان بالصرفة ، أي إن الله سبحانه قد صرف بلغاء العرب عن معارضة القرآن ، مع

قدرتهم على تلك المعارضة، أو: إنه صَرفهم وكان ذلك مقدوراً لهم!! كما عبّر عن ذلك بعضهم: قال النظّام: «إن الله تعالى ما انزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك، وسلب علومهم به».

وينطوي هذا القول ـ الذي تكفل المعتزلة انفسهم بنقضه على صاحبه، كما رأينا ذلك القاضي عبد الجبار وغيره[1] ـ على أمرين: الأول: التخليط بين النقطتين السابقتين اللتين سبقت تجليتهما، فالمعجزة هنا تكمن في إثبات الله تعالى أن هذا القرآن من كلامه. بدليل أنه صرفهم عن معارضته في وقت كان ذلك مقدوراً لهم! اي إن المعجز هو المنع أو المانع!!

الأمر الثاني: أن هذا الرأي ليس من باب الطعن على الكتاب الكريم، أو من باب الإلحاد فيه والزيغ عنه، لأن هذا الرأي قد يكون آكدَ في باب الايمان والتسليم[2] بأن القرآن كلام الله... ولكنه من باب العجمة وشبهها في ميدان تذوق البلاغة والبيان، أو من باب التفلسف الذي يريد صاحبه إراحة نفسه من عناء البحث، وإجالة الفكر. ولهذا فإن أحداً من علماء البلاغة لم يتابع النظام، وكان أول من خالفه في ذلك تلميذه الجاحظ، وإنما تابعه بعض من أخذ من الفلسفة وعلم الكلام بسبب!

قال الإمام الباقلاني: «على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع، لكان مهما حُط من رتبة البلاغة فيه، ووضع من مقدار الفصاحة في نظمه، كان ابلغ في الأعجوبة إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، ومُنعوا عن معارضته، وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغني عن إنزاله على نظمه البديع، وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب.

«على انه لو كان صرفوا لم يكن مَن قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما

---

(١) انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار ٣٢٣/١٦.

(٢) أي: لولا ما ينطوي عليه من الفساد في ذاته.

كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف، لأنهم لم يتحدوا، ولم تلزمهم حجته،، فلما لم يوجد في كلام مَن قبله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان... »[1]

وقد لخص السيوطي ردودهم على هذه الفِرية، أو الزعم، بقوله:

« وهذا قول فاسد بدليل قوله تعالى: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن... ﴾ الآية، فإنها تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره.

والإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزاً وليس في صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله.

وأيضاً فيلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي، وخلو القرآن من الإعجاز، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة أن معجزة الرسول العظمى باقية، ولا معجزة له باقية سوى القرآن.

... ولو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون بالمنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه »[2].

ثانياً: النظم القرآني

لعل نظرية النظم القرآني، أو هذه الفكرة العميقة، والتي تتابع على تجليتها واعطائها هذا البعد أو المعنى الناصع غير واحد من العلماء حتى استوت على سوقها عند الإمام عبد القاهر الجرجاني.. لعل هذه الفكرة أو النظرية أبرز ما قدمه القدماء من دراسات حول إعجاز القرآن، ولعل أحداً لم

---

(١) إعجاز القرآن تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ص ٤١ - ٤٢ الطبعة الأولى - دار المعارف.

(٢) الإتقان للسيوطي ١١٨/٢.

يقع قبل الجاحظ رحمه الله على هذه اللفظة ذاتها - نظم القرآن - سواء تردد مفهومها في أذهان هؤلاء الذين سبقوه أو فيما أثر عنهم أم لا .

وقد ألفت كتب متعددة تحمل هذا العنوان ، بعد كتاب الجاحظ الذي وصفه هو في بعض كتبه ، بما يشوق ، ويحمل على الأسى أنه لم يصل إلينا[1] ، مثل كتب أبي بكر السجستاني المتوفى سنة ٣١٦ ، وأبي زيد البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ ، وأبي بكر أحمد بن علي (المعروف بابن الإخشيد) المتوفى سنة ٣٢٦ . ولم يصل إلينا من جميع هذه الكتب ، أو الرسائل شيء مع الأسف . .

ثم نجد أبا سليمان الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨ يتحدث عن هذا الموضوع فيقول : « وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور : منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني والحوامل ، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها الى أن يأتوا بكلام مثله » ثم يقول : « وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم . وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه . ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤما وتشاكلاً من نظمه . وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل في نعوتها وصفاتها »[2] .

ثم يقول بعد كلام طويل : « وأما رسوم النظم فالحاجة الى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان » .

---

(١) راجع المقدمة القيمة التي صدَّر بها الأستاذ المحقق السيد أحمد صقر كتاب « إعجاز القرآن » لأبي بكر الباقلاني ص ٩ فما بعدها .

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٤ .

وقد ذكر القاضي عبد الجبار المعتزلي المتوفى سنة ٤١٥ هـ في كتابه (المغني في أبواب التوحيد والعدل) ما يدعم هذه المسألة حين نص على أن أفراد الكلام لا تظهر فيها الفصاحة، وإنما تظهر الفصاحة في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة، قال: «وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالإعراب... وقد تكون بالموقع.. ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض»[1] ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون اذا استعملت في معنى أفصح منها إذا استعملت في غيره، والنظم لذلك مظهر الإعجاز.

الجرجاني وفكرة النظم:

ثم جاء عبد القاهر فكتب كتابه القيم «دلائل الإعجاز» قطع به شوطاً بعيداً في ادراك الإعجاز، وأعطى فكرة النظم صورتها الواضحة وميزها تماماً مما عساه أن يعلق بها، أو تتصل هي به.. حتى ظنَّ بعضهم أن المراد منها ذلك السبق الذي وجد في القرآن الكريم الى «أسلوب» أو «فن» جديد من فنون القول، لأن الأمر لو كان قاصراً على هذا السبق، لصح الإعجاز في أول شاعر وأول خطيب، كما يقول القاضي عبد الجبار. ولكن الجرجاني وضع النظم في موضعه الأساسي مع إشارته الى أن هذا الاسلوب لم يستطع أحد أن يجاريه على كل حال.

بدأ الجرجاني بذكر كل وجه يحتمل في مجال الإعجاز ليعقب عليه ناقداً وموضحاً حتى انتهى بنا إلى ما يريد:

١ ـ تساءل أولاً عن الكلمات المفردة في القرآن هل تكون سر الإعجاز؟ ثم نفى ذلك واستبعده وأحاله: لأن الكلمات التي هي أوضاع اللغة ملكٌ مشاع لجميع الناس، وقد ينطق بها المفحمون فلا يبينون، كما أن معاني تلك الكلمات لا تزيد ولا تتجدد فلو كان هناك شيء ابعد من المحال لكانت هذه الكلمات

---

(١) المغني ١٦/١٩٩.

بمعانيها موضع السر لهذا الاعجاز!

٢ ـ ثم انتقل إلى تركيب الحركات والسكنات في الجمل القرآنية، ونفى أن يكون لذلك أثره القوي لأن مسيلمة وغيره قد تعاطوه في بعض ما عارضوا به القرآن فما انتهوا الى شيء.

٣ ـ أما المقاطع والفواصل فليست أكثر من التعويل على مراعاة الوزن وإ الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر، وقد قدر العرب على روائع القصيد دون أن يستطيعوا الإتيان بسورة من مثل القرآن.

٤ ـ فاذا لم تكن المقاطع والفواصل سر الاعجاز، فلن تكون أيضا الاستعارة والمجاز، لأن الاستعارة لا تشمل جميع الآيات، فإذا اعتبرناها موضع الإعجاز وجب علينا أن نقصره على آيات معدودة، والقرآن معجز جميعه.

وإذن فهذه الأوجه لا تستطيع في شيء أن توضح سر الاعجاز لدى عبد القاهر، وإنما السر الذي اهتدى إليه هو «النظم القرآني» وقد قال في تعريف وبيان هذا النظم بأنه: (ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم) وهو ما اتسع له كتاب دلائل الإعجاز من الشرح والتمثيل.

استمع هنا الى عبد القاهر، يحدثك عن رأيه هذا شارحا، وموضحاً، وموازناً، وناقداً:

«إعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكَلِم ولا ترتيب، حتى يُعلَّق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا مالا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحد من الناس» ثم قال: «وإذا كان كذلك فحسبنا أن ننظر الى التعليق فيها والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها: ما معناه وما محصوله؟ واذا نظرنا في ذلك علمنا ألا محصول لها غير أن تعمد الى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعولا، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أو تتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة تأكيداً له، أو بدلا منه، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تمييزا. أو تتوخى في كلام

هو لإثبات معنى أن يصير نفياً أو استفهاماً أو تمنياً فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك، أو تزيد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف، وعلى هذا القياس» (١).

هذه هي خلاصة ما يعنيه عبد القاهر بمسألة النظم، أما أن تكون «الألفاظ» أو الكلمات هي سر الإعجاز فذلك ما ينكره عبد القاهر لأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وان الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا لفظة متمكنة وفي غيرها قلقة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكين عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنبوّ عن سوء التلاؤم؟!!

ثم ساق الدليل على هذا وذاك من قول الله عزوجل: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقُضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ فشرح الآية شرحاً بيانياً، جلّى ما يعنيه بالنظم تجلية زاهية فقال:

«إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدّت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية، قل «ابلعي» واعتبرها وحدها من غير أن تنظر الى ما قبلها والى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أُمرت، ثم في أن كان النداء بـ«يا» دون «أي» نحو يا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف، دون أن يقال ابلعي الماء، ثم أن اتبع نداء الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف، دون أن يقال ابلعي الماء، ثم أن اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل «وغيض الماء» فجاء الفعل على صيغة «فُعِل» الدالة على أنه لم

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٤ ـ ٤٥.

يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: «وقُضي الأمر»، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو «واستوت على الجودي» ثم اضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة «قيل» في الخاتمة بـ«قيل» في الفاتحة، أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالاعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق، أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب»[1].

وقد شفع عبد القاهر نظريته هذه بدراسة تطبيقية واسعة في أبواب بلاغية كثيرة حاول فيها ببراعة أن يؤكد مسألة النظم النحوي هذه، التي تقوم على وجه الاجمال على ما يمكن تسميته بالروح التركيبية للآيات القرآنية الكريمة.

ولكن المسألة هنا أن عبد القاهر كما رفض أن يكون الاعجاز في الكلم المفردة بعيداً عن مسألة النظم هذه، رفض كذلك أن يكون في الفواصل والمقاطع، أو في الاستعارة والمجاز. أو بعبارة أخرى: ان عبد القاهر يحاول أن يجعل هذه الأبواب جزءاً من مقتضيات النظم ذاته، قال رحمه الله:

«فإن قيل: إن النظم يقتضي إخراج ما في القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجز، وذلك لا مساغ له».

قلت: «ليس الأمر كما ظننت، بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز، وذلك لأن هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم، وعنها يحدث، وبها يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو، فلا يتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألّف مع غيره! أفلا ترى أنه إن قدر في «اشتعل» من قوله تعالى: «واشتعل الرأس شيباً» ألا يكون «الرأس»

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٧.

فاعلا ، ويكون « شيباً » منصوبا على التمييز لم يتصور أن يكون مستعاراً؟! وهكذا السبيل في نظائر الاستعارة فاعرف ذلك »[1].

يقول الأستاذ الناقد الدكتور بيومي :

« فأنت تراه قد قدَّر مكان الاستعارة القرآنية وما هو بسبيلها من الصور الأدبية من دلائل الاعجاز ، وإن رجع بها في ذلك قادر الى قضية النظم النحوي ، ولكنه أغفل إغفالا تاماً مكانة اللفظ ومكان المقطع والفاصلة ، مدعياً أن شيئا من ذلك لا قيمة له ما لم يراع النظام النحوي في تركيبه ، وفي ذلك بعض الغلو الذي تدفعه بما نملك من رأي ، وشاهدنا على ذلك أن عبد القاهر حين تحدث عن الآية الكريمة ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين ﴾. جعل مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض وكان النداء بـ« يا » ، ثم بإضافة الكاف الى الماء ، ثم بنداء السماء وأمرها بما يخصها ، ثم بمجيء الفعل « غيض » على صيغة « فُعِل » الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر ، ثم تأكيد ذلك بقوله « وقضي الأمر » ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو (واستوت على الجودي) ثم مقابلة « قيل » في الخاتمة بـ« قيل » في الفاتحة : أجل ، جعل الجرجاني ما سماه بمبدأ العظمة فيما أسلف من القول . وعلى قياسه نستطيع أن نقول : وقيل يا أرض اشربي ماءك ويا سماء امنعي ، وأزيل الماء ونفذ الأمر واستقرت على الجودي وقيل هلاكا للقوم الظالمين فيتحقق بذلك كل ما جعله الجرجاني مبدأ العظمة وحده ، ويوازي القول دون نقص » . ولكن مهلا ، فإن اختيار لفظ البلع دون الشرب ، وكلمة اقلعي دون امنعي ، وفعل قضي المبني للمجهول دون « نُفذ » المبني للمجهول أيضاً ، واستوت على الجودي ، دون استقرت . كل ذلك مما يرتفع بالآية إلى الاعجاز ، **وهو في صميمه راجع فيما** يرجع إليه الى **اللفظ دون الإسناد .**

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ .

وما نقوله في ذلك في المقاطع والفواصل، وإن شئت فانظر مثلا قول الله عز وجل: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد﴾ وحاول أن تقرأه على هذه الصورة: ذرني ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا مبسوطا، وبنين حاضرين، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع أن أكثر» فإنك إذا فعلت ذلك لم تخرج عن قضية النظم النحوي كما عناه عبد القاهر، ولكنك تغفل أثر المقطع والفاصلة، فتهبط بالكلام من مستوى إلى مستوى، وذلك ما كان ينبغي أن يلتفت إليه هذا الدارس الحصيف، وما أحراه أن **يدخل اختيار اللفظ وجمال المقطع في ترتيب النظم بحيلة فكرية كما أدخل الاستعارة من قبل!!**

ولعل هذا هو أهم نقد يمكن أن يوجه لنظرية عبد القاهر. وفي حديثنا القادم على بعض الملامح الأخرى في البلاغة القرآنية، كالفاصلة والسجع، والتشبيهات مزيد من البيان.

ثالثاً: التصوير الفني

ولكن في وسعنا من الآن: وعلى الرغم من أن قاعدة التصوير في القرآن سنعرض لها عقب الكلام على تشبيهات القرآن، أن نشير الى لونين آخرين من الألوان التي تكمل هذا النقص في نظرية عبد القاهر، وهما: التصوير الفني أولاً والجانب الصوتي والنغم القرآني - أو ما دعاه الرافعي بـ« النظم الموسيقي » - ثانياً. ولعل هذين اللونين أن يرفدا نظرية عبد القاهر، ويكملا ما فيها من نقص.

أما التصوير الفني فإن أول من جلّاها الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابه القيم الذي خصّه بهذا الموضوع « التصوير الفني في القرآن ». وفي ذلك يقول: الأستاذ الدكتور صبحي الصالح:

« وقد نحا سيد قطب في دراسته للقرآن منحى آخر، فلم تكن مفردات القرآن وحدها شاغلة له بموسيقاها، ولا تراكيب القرآن مستأثرة باهتمامه بتناسقها وترابطها، وإنما كان نظره مركزاً في الأداة المفضلة للتعبير في كتاب

الله ، ولقد وجدها في التصوير ، وراح يتحدث عنها بأسلوب شعري يستهوي النفوس ، ويهديها بحق إلى جمال القرآن » :

قال سيد قطب : « التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيّلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية .

« ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة مجسمة مرئية .

« فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل ؛ فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلا الى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلى ، ومَثَل يُضرب ، ويتخيل أنه منظر يُعرض ، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات ، المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة فتنم عن الأحاسيس المضمرة .

« إنها الحياة هنا ، وليست حكاية الحياة! » .

ثم يقول : ـ وهذا هو الأمر الذي ربط به سيد فكرته بقضية الإعجاز ـ « فإذا ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية ، وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المرئي ، إنما هي ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصور ، ولا شخوص تعبر أدركنا موضع الإعجاز في تعبير القرآن[1] » .

وقد عقد سيد بعد ذلك فصولا دقيقة في كتاب ـ التصوير الفني في القرآن ـ أوضح فيها فكرته تلك ؛ وضرب عليها الشواهد الكثيرة في القرآن ؛ فتحدث في

(١) التصوير الفني في القرآن ـ دار المعارف ـ ص ٣٣ .

أبرز فصول كتابه عن « التخييل الحسي والتجسيم » وعن « التناسق الفني » وعن « القصة القرآنية » نظراً لغناها الواسع في مسألة النماذج الإنسانية والطبيعة البشرية التي أخرجت في القرآن الكريم على تلك الحالة من التصوير الدقيق.

وسوف نعرض لطرفٍ من شرح هذه النقاط في الفصل الثاني من الباب القادم.

يقول الأستاذ الدكتور صبحي الصالح : « ولعلّ الغاية التي انتهى اليها سيد قطب من فهم الأسلوب القرآني أن تكون أصدق ترجمة لمفهومنا الحديث لإعجاز القرآن لأنها تساعد جيلنا الجديد على استرواح الجمال الفني الخالص في كتاب الله ، وتمكن الدارسين من استخلاص ذلك بأنفسهم ، والاستمتاع به بوجدانهم وشعورهم[1] ».

ولعل الأمر الذي انتهى إليه سيد في شأن **الإعجاز بالتصوير** - إن صح هذا التعبير - يوضح بعض جوانب نظرية عبد القاهر الجرجاني ، ويضعها في موضعها ؛ لا أنه يلغيها ويعفّي عليها . . كما أن هذه الملاحظات الدقيقة بشأن دور الألفاظ في مسألة التصوير لعلها أن تكون قد انتهت الى سيد ، حيث أوضحها ووضعها في موضعها ، من الدراسة العميقة - والمبهمة في بعض الأحيان - التي قدمها الرافعي في كتابه الذي خصه بالحديث عن القرآن والبلاغة النبوية.

وهي الدراسة التي سنعرض لفكرتها الرئيسية من خلال هذا المظهر الأخير ، أو النظرية التي نعرض لها الآن في مسألة إعجاز القرآن ، وهي : النظم الموسيقي ، أو : إعجاز النظم الموسيقي ، كما دعاه الرافعي نفسه.

---

(١) مباحث في علوم القرآن - الطبعة الثانية : مطبعة جامعة دمشق ، ص ٣٦٨ .

رابعاً: النظم الموسيقي:

انطلق الرافعي في حديثه عن الإعجاز من الحروف وأصواتها، ثم من الحركة الصرفية واللغوية للألفاظ القرآنية المشتملة على تلك الحروف.. حتى ليمكن القول: إن عماد حديثه عن إعجاز النظم الموسيقي يعتمد بالدرجة الأولى على الألفاظ، وعلى الجانب الصوتي منها على وجه الخصوص.. يقول الرافعي - بعد تمهيد كاشف - «وحسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد، ولا يتفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه؛ لترتيب حروفه باعتبارٍ من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرار[1].. ».

ويقول بعد ذلك: «ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيء بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضاً، ولن تجدها إلا مؤلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعذُب ولا تُساغ، وربما كانت أوكَسَ النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استُعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكْتَنفَتْها بضروب من النغم الموسيقي، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذبَ شيءٍ وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة[2] ».

ثم يضرب لذلك أمثلة يوضح بها ما ذهب إليه، فيقول: «من ذلك لفظة «النُّذُر» جمع نذير؛ فإن الضمّة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً؛ فضلا عن جَسْأة هذا الحرف ونُبُوِّه عن اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلةً للكلام؛

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢/٢٢٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٩.

فكل ذلك مما يكشف عنه ويُفصح عن موضع الثقل فيه؛ ولكنه جاء في القرآن على العكس، وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: ﴿ولقد أنذرهم بطشتنا فتمارَوا بالنُّذر﴾ فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمّله، وتذوّقْ مواقع الحروف، وأجْرِ حركاتها في حِس السمع، وتأمل مواضع القلقلة في دال «لقد»، وفي الطاء من «بطشتنا»، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو «تمارَوا»، مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتَحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستَخَفاً بعدُ، ولتكون هذه الضمّة قد أصابت موضعها؛ كما تكون الأحماض في الأطعمة. ثم ردّد نظرك في الراء من «تمارَوا» فإنها ما جاءت إلا مساندةً لراء «النذر» حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجفّ عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم اعجب لهذه الغُنَّة التي سبقت الطاء في نون «أنْذَرَهم» وفي ميمها، وللغنَّة الأخرى التي سبقت الذال في «النذر».

ثم يعقّب على هذه الآية بقوله: «وما من حرف أو حركة في الآية إلا وأنت مصيبٌ من كل ذلك عجباً في موقعه والقصد به، حتى ما تشك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة، ليس منها إلا ما يشبه في الرأي أن يكون قد تقدم في النظر وأحكمته الرويّة وراضه اللسان، وليس منها إلا مُتخَيَّر مقصودٌ إليه من بين الكلم ومن بين الحروف ومن بين الحركات[1]».

وقد يكون في حديثنا القادم عن الفاصلة القرآنية، والسجع القرآني، ما يوضح بعض الجوانب التي قصد إليها الرافعي في حديثه، أو في كتابه الذي يأخذ بعضه برقاب بعض، وإن كان ـ هو ـ لم يفته أن يشير بالطبع إلى هذه الفواصل، ويجعلها من جملة الأمور التي أعطت للنظم الموسيقي أبعاده الأخيرة؛ قال: «وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صورٌ تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً،

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٤٠.

يلائم نوع الصوت، والوجهَ الذي يُساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب »!.

ولهذا كان النص القرآني قابلا للتلاوة، على طريقة الترتيل، وعلى طريقة الألحان والأوزان، ولم تكن قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم قابلة لذلك[١].

وقد رد الأستاذ سيد قطب هذه الظاهرة إلى أن القرآن الكريم جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً، « فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة، والتفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة. وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقي الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، والتقفية التي تغني عن القوافي، وضم ذلك الى الخصائص التي ذكرنا، فشأى النثر والنظم جميعاً »[٢].

وقد تحدث الأستاذ الدكتور صبحي الصالح عن هذه الموسيقى الداخلية، ورأى فيها - في ضوء ما قدّمه الرافعي كذلك فيما يبدو - لوناً من ألوان الإعجاز سمّاه: « **الإعجاز في نغم القرآن** »، وقال فيه:

« إن هذا القرآن - في كل سورة منه وآية، وفي كل مقطع منه وفقرة، وفي كل مشهد منه وقصة، وفي كل مطلع منه وختام - يمتاز بأسلوب إيقاعي غني بالموسيقى مملوء نغماً، حتى ليكون من الخطأ الشديد في هذا الباب أن نفاضل فيه بين سورة وأخرى، أو نوازن بين مقطع ومقطع، لكننا حين نومىء إلى تفرد سورة منه بنسق خاص إنما نقرر ظاهرة أسلوبية بارزة نؤيدها بالدليل، وندعمها بالشاهد؛ مؤكدين أن القرآن نسيج واحد في بلاغته وسحر بيانه، إلا أنه متنوع تنوع موسيقى الوجود في أنغامه وألحانه »[٣]!

---

(١) انظر تفصيل هذه النقطة في المصدر السابق ٢/٢٢٥.

(٢) التصوير الفني في القرآن ص ٨٦.

(٣) مباحث في علوم القرآن ص ٣٨٥.

وقد لاحظ الدكتور الصالح أن هذه الموسيقى الداخلية تنبعث في القرآن حتى من اللفظة الواحدة، فضلاً عن الآية التي تتناسق في جوها الكلمات، أو في السورة التي تنسجم حول فكرتها جميع الآيات.

فاللفظة المفردة «تكاد تستقل ـ بجرسها ونغمها ـ بتصوير لوحة كاملة فيها اللون زاهياً أو شاحباً، وفيها الظل شفيفاً أو كثيفاً.. فحين تتسمع همس السين المكررة تكاد تستشف نعومة ظلها، مثلما تستريح إلى خفة وقعها في قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بالخُنَّس. الجواري الكنَّس. والليل إذا عَسْعس. والصبح إذا تنفس﴾. بينما تقع الرهبة في صدرك وأنت تسمع لاهثاً مكروباً صوت الدال المنذرة المتوعدة، مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة «تَحيدْ» بدلا من تنحرف أو تبتعد ـ في قوله: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق: ذلك ما كنت منه تحيد﴾.

«وتقرأ قولهُ تعالى: ﴿فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ فلا ترى في المعجم كلمة غير «زُحزح» تصور مشهد الإبعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات، وما يصاحبه من ذعر الذي يمر بحسيس النار ويسمعه ويكاد يصلاه!

ولا أحسبك إلا مستشعراً عنف لفظ الكبكبة في قوله تعالى: «فَكُبْكِبُوا فيها هم والغاوون. وجنودُ إبليس أجمعون» حتى لتكاد تتصور أولئك المجرمين يكبون على وجوههم أو على مناخرهم، ويلقون إلقاء المهملين، فلا يقيم أحد لهم وزناً[1]»!

أما الحديث عن هذا الإعجاز في النغم والموسيقى الداخلية في الآية الواحدة أو السورة الكاملة فسوف نعرض له عند الحديث عن الفاصلة والسجع وبعض الملامح الفنية الخاصة عند شرح الآيات وتفسير النصوص.

وأخيراً فقد لخص بعض الباحثين ما قيل حول هذا الإعجاز، أو النظم

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨٧.

الموسيقي ، بوصفه واحدة من مزايا أسلوب القرآن بوجه عام ، وبغض النظر عن القدر الذي يفسره من قضية الإعجاز الكبرى أو الأساسية؛ لخصه بأنه يتجلى في : نظام القرآن الصوتي ، وجماله اللغوي .

أ ـ أما نظام القرآن الصوتي ، فيعنون به : اتساق القرآن الكريم ، وائتلافه في حركاته وسكناته ، ومدَّاته وغنَّاته ، واتصالاته وسكناته ، اتساقاً عجيباً وائتلافاً رائعاً يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس ، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور . وبيان ذلك أن من أُلقي الى سمعه مجموعة القرآن الصوتية الساذجة المؤلفة من تلك الحركات والسكنَات والمدَّات . . الخ يشعر من نفسه حتى لو كان أعجمياً لا يعرف العربية ـ بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب ، يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر ، لأن الموسيقى قد تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملها ، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالبا ، وإذا طالت على نمط يورث سامعه السأم والملل ، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل ، لأنه ينتقل فيه دائما بين ألحان متنوعة ، وأنغام متجددة!

ب ـ جمال القرآن اللغوي : قال الزرقاني : « ونريد بجمال القرآن اللغوي : تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته ، ترتيباً دونه كل ترتيب ونظام تعاطاه الناس في كلامهم » فإذا علمنا أن حروف الهجاء في لغة العرب موزعة بين حروف الإخفاء وحروف الإظهار والحروف المهموسة والحروف الجهرية ، وحروف المد ، وحروف الاستعلاء ، وحروف القلقلة ، وحروف التفخيم والترقيق ، إلى آخر هذه التقسيمات المعروفة في فقه اللغة وفي علم التجويد . . أدركنا طرفاً من جمال القرآن اللغوي حين رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات ، وحين خرج الى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة ، الجامعة بين اللين والشدة ، والخشونة والرقة ، والجهر والخفية على وجه دقيق محكم ، امتزجت فيه جزالة البداوة

برقة الحضارة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة!

خامساً: الإعجاز البياني ولغة الأرقام

وأخيراً، فقد قدم بعض الدارسين المعاصرين دراسة إحصائية ـ رقمية ـ هدي إليها من خلال قوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ وهي الآية التي جاءت في سياق الرد على الوليد بن المغيرة الذي فكر في القرآن وقدر.. ثم قال: إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر» فتوعده الله بالنار، فقال تعالى: ﴿سأصليه سقر.. وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر. عليها تسعة عشر﴾.. الآيات. وقد استعان الدكتور الباحث بالآلات الحاسبة حتى وقف على أن جميع فواتح السور ـ التي مرت بك ـ قد تكررت في القرآن الكريم بعدد ثابت لا يخرج عن العدد السابق ـ ١٩ ـ أو عن مضاعفاته العددية. ولا مجال هنا للتنويه بالكثير من النتائج الإيجابية والدقيقة ـ ولدينا في هذا المجال ما نعقب به على بحث الدكتور الفاضل ـ التي وصل اليها هذا البحث. ولكن كل الذي يهمنا هنا هو وضع هذه الدراسة في موضعها من الإعجاز البياني الذي هو مناط التحدي كما قلنا، والذي ظنَّ الاستاذ الباحث أن عملياته الحسابية الدقيقة في منأىً عنه؛ وذلك حين وصف هذا «الإعجاز العددي» بأنه من قبيل المعجزات المادية القرآنية! فقال:

«وهذه المعجزات المادية القرآنية تكون في الآية الكرية الأولى (بسم الله الرحمن الرحيم). فأنت إذا عددت حروف هذه الآية تجدها تسعة عشر حرفاً... هذه الحقيقة مادية وملموسة لا يستطيع أحد أن يجادلك فيها، فهذه ليست تفسيراً وليست تخميناً أو استنتاجا..

«ولقد اكتشفت أن كل كلمة في هذه الآية تتكرر في القرآن الكريم كله عدداً من المرات هو دائماً من مكررات الرقم (تسعة عشر) فمثلا كلمة «اسم» تتكرر في القرآن كله تسع عشرة مرة بالضبط ولفظ الجلالة «الله» يتكرر في القرآن ألفين وستمائة وثمان وتسعين مرة (٢٦٩٨) مرة. وهذا العدد يساوي

حاصل: ١٩ × ١٤٢ .

« وكلمة (الرحمن) تتكرر في المصحف كله (٥٧) سبعاً وخمسين مرة . وهذا العدد يساوي حاصل ضرب تسعة عشر في ثلاث ١٩ × ٣ أيضاً .

« وكلمة (الرحيم) تتكرر في القرآن كله مائة وأربعة عشر مرة (١١٤) وهذا الرقم يساوي حاصل ضرب تسعة عشر في ست ١٩ × ٠٦ »[1].

نقول: هذه أرقام حسابية ـ فاتحة بحث الدكتور الباحث[2] ـ وهي أرقام مادية لا معجزات مادية ، لأن دلالتها المادية على مصدر القرآن أشار إليه الدكتور الفاضل ، أما موضعها أو دلالتها على الإعجاز الذي كان مناط التحدي ، وهو الإعجاز البياني ، فهو ما نود الإشارة إليه في هذه العجالة السريعة :

أشرنا في الفصل الأول من هذا الباب إلى كلمة الجاحظ رحمه الله ، والى قوله : « فهاتوا مفتريات » إشارة الى قوله تعالى في سورة هود :﴿ أم يقولون افتراه! قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . . . ﴾

ومعنى ذلك أن التحدي القائم بالقرآن ، كان فيه التسهيلات ـ أو التنزلات التالية :

أ ـ عدم الإلزام بأي موضوع أو مضمون معين ، أي كأن المعنى : جيئوا بكلام من أي موضوع شئتم ، ولو كان تخيلا أو تخرصاً ، ولكن بشرط أن يكون له مثل هذا الرواء والأناقة والنظم القرآني . وهذا من أوضح الدلائل على أن العالمين لم يتحدوا بشيء من مضامين القرآن ـ كما ذهبنا إلى ترجيحه مقتفين في ذلك أثر الأستاذ محمود شاكر ـ لكن دلالته الأخرى الواضحة ، كذلك ، أنه من ألوان التسهيل العريض . . على مذهب : الخيال أقوى من الحقيقة! أو على

(١) دلالات جديدة في اعجاز القرآن ، ص ٧ ـ ٨ .

(٢) هو الأستاذ الدكتور محمد رشاد خليفة المتخصص في الكيمياء الحيوية من جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الامريكية .

المذهب الواضح في الوصف الواقعي والوصف الخيالي. ومعلوم أن الأدب والبيان مع إطلاق العنان للخيال والفكر يفترض ما شاء أظهر منه وأقوى وأقدر مع التقييد أو التقيد بواقع معين، أو موضوع مفروض أو مفترض.

فإذا ذكرنا مع هذه الإشارة أن « مضامين » القرآن التي كان « الالتزام » بها، كانت من ذلك النوع من العلوم والمعارف التي تجاوزت بيئة النبي الكريم ومعارفه، بل تجاوزت كذلك العالم القديم كله في عصره.. والعالم كله كذلك بعد ذلك العصر وإلى يوم الدين، ثم جاء التعبير عن كل هذه العلوم والمعارف بهذا الاسلوب المعجز، أدركت طرفاً من أطراف الإعجاز.

يضاف إلى ذلك أيضاً ـ في هذه النقطة ـ أن إدراك هذه العلوم والمعارف يتم كذلك خلال العصور، في الوقت الذي لم يصعب على الأسلوب القرآني أن يخاطب الانسان في عصر التنزيل، وسائر العصور اللاحقة حتى العصر الذي نكتب فيه هذه الكلمات.. (راجع الباب الاول من هذا الكتاب).

أي إن ذلك الاعفاء من هذا « الإطار الموضوعي » يتضمن كذلك إعفاءً من نحو آخر، وهو أن يكون الكلام الذي يأتي به أبناء جيل معين ـ من أي موضوع خيالي أو تخيلي شاؤوا ـ أن يكون له مثل ما للقرآن من بيان لدى أبناء جيلهم... وليس يشترط فيه أن يكون صالحاً لخطاب جميع الأجيال!...

وخلاصة القول في هذه النقطة أن القرآن الكريم حدد لنفسه ـ إن صح هذا التعبير ـ إطاراً موضوعياً واقعاً ـ لا خيالا ـ تناول الماضي والمستقبل، بأسلوب لا يعجز عن خطاب الإنسان في أي عصر، ولا يحمله كذلك أكثر مما يطيق. أو بعبارة اخرى: بأسلوب يتم فهمه خلال العصور، بحيث يسبق الإنسان على الدوام، ولا يسبقه الإنسان مرة واحدة! وفي الخصائص الأسلوبية التي سنعرضها لك في الفصل القادم مزيد من البيان. فارجع إليها، واقرأها ـ إن شئت ـ في ضوء هذه الملاحظة لتعلم أهمية ما نشير هنا إليه.

ب ـ التزام القرآن الكريم ـ إن صح هذا التعبير ـ بمنظومة عددية معينة، في حروفه وكلماته... ومن الطبيعي أن العالمين قد أعفوا من هذا الشرط أو

القيد، ومع تلك المضامين، وهذا الأسلوب... وهذا، ان صح التعبير كذلك، التزام شكلي، إلى جانب ذلك الالتزام الموضوعي... وإذا كان ذلك الالتزام الموضوعي أوضحت لغة العلوم والمعارف التجريبية بعضه... فإن هذا الالتزام الشكلي - أو الحروفي والعددي - أوضحت لغة الأرقام والعقول الالكترونية بعضه كذلك... وهذا هو الأمر الإيجابي الذي قدمته دراسات الدكتور خليفة... والذي يجب وضعه، أو فهمه في إطار الإعجاز البياني الذي وقع به التحدي...

ونذكرك هنا - مرة أخرى - بأن فهم هذا الالتزام الثاني حق الفهم، ووضعه في موضعه حق الوضع، مرهون إلى حد كبير باطلاعك على الفصول التفصيلية القادمة حول الفاصلة والسجع القرآني... وبعض الدراسات والفصول البلاغية بوجه عام، والبديعية - المقارنة - بوجه خاص! أي إن هذا الالتزام العددي للحروف الذي قد يستحيل معه على الناس الكلام السوي، فضلا عن المعجز، كان فيه التزام آخر بفاصلة قرآنية معينة، وبسجع معين.. وبأمور أخرى كثيرة كما أشرت.. وقد أعفى جمع العالمين الذين تحداهم القرآن.. أعفوا من هذا وذاك..!

ولعل هذه الملاحظة أن تؤكد لك صحة النقد الذي وجه إلى نظرية عبد القاهر، وتذكرك من بعض الوجوه بحديث الرافعي. والحديث في هذه النقطة واسع ومتشعب وسوف نعرض لبعض آفاقها لدى تفسير بعض السور القصار إن شاء الله.

سادساً: تعقيب عام: البيان.. والانسان.

وقد يقال في خاتمة المطاف: ان قضية الإعجاز البياني تضعنا أمام مشكلتين رئيسيتين، واجهت عصوراً قبلنا، كما تواجهنا نحن اليوم. وهما: كيف يتم فهم هذه القضية أمام انحدار السليقة العربية، أو أمام اختلافنا عن جيل التنزيل بوجه عام في باب اللغة والبيان. والمشكلة الثانية: كيف يؤمن غير العرب، والإسلام عام لجميع الناس؟!

والذين يتحدثون عن هاتين المشكلتين اليوم يريدون إلجاءنا إلى الكلام عما يسمونه « الإعجاز العلمي » أو « الإعجاز التشريعي » أو الغيبي .. الخ ، وهي الأنواع التي تحل اليوم - في قضية الدعوة الى القرآن بالقرآن - مشكلة العرب والعجم جميعاً!

ونحن لم ننكر أن تكون مضامين القرآن من أهم وسائل تعميمه والدعوة إليه. ولكن أنكرنا أن تكون مناط الإعجاز الذي وقع به التحدي ، ومن شاء أن يسميها « إعجازاً » من باب التجوز فليفعل ، على ما يعود من عمله هذا على القضية الأساسية من بُعد وإساءة ، ولو عن غير قصد . وليس معنى انحدار الناس الى « المادة » ومقاييسها أن نغيِّر من طبيعة التحدي القائم ، لكن أن نفهم دلالته الحقيقية ، وما عسى أن يكون من ورائه من درس وعبرة في واقع الإنسان القائم ، أو الأفق الذي يريد القرآن الكريم أن يرفع الناس إليه :

أ - أما **المشكلة الأولى** فقد أجاب عنها بعض العلماء السابقين بأن هذا الإعجاز إذا كان لزم الأوائل - وهم من هم في باب البلاغة والفصاحة والبيان - فلأن يلزم سائر الأجيال من بعدهم من باب أولى!

ونحن نخشى أن يكون في هذا الرأي لون من ألوان الخدش لمسألة البعد التاريخي للقرآن التي أشرنا إليها في موضع سابق من هذا البحث . ولكن نذكر بأن « حقيقة » الإعجاز واقعة على كل حال ، وإن عجزت بعض الأجيال عن إدراك سببه أو وجهه . ونحن نقول من وجه آخر - ونرجو ألا يكون في ذلك حيف أو تجاوز - : إن جيلنا اليوم قد يكون أقدر من أجيال سابقة كثيرة على إدراك بعض مناحي الإعجاز - أي البلاغي - وما بين يدينا اليوم من تراث نقدي وأدبي ، في لغة العرب وسائر لغات العالم ، ينهض بنا إلى هذا المقام ، أو يقوم على الأقل مقام تلك السليقة المطبوعة والبيان الموروث .. فنظرية النظم - التي ألمحنا الى فحواها ، أو إلى فكرتها الأساسية - لم تكن إلا في عصر التصنيف ، أو في العصر الذي استوت فيه العلوم والمعارف الأدبية على سوقها . كما أن الحديث اليوم عن التصوير والنظم اللغوي أو الموسيقي كان من بعض

وجوهه صدى لتيارات أدبية ونقدية مترجمة أو منقولة.. ولعلنا نملك أن نقول إن التراث النقدي والأدبي الذي نملكه الآن، ونملك من خلاله أن نقوم النصوص الأدبية... يفوق ما كان عليه الوليد بن المغيرة وغيره ممن بهرهم القرآن.. فآمن بعضهم.. ولج في العداوة والمكابرة والبغضاء بعضهم الآخر... ولن ينقطع هذا الخيط على كل حال، والتحدي بالقرآن قائم إلى يوم الدين.

ولكن يبقى علينا أن نضع المسألة في إطارها الصحيح.. كما أريد لها أن تكون، ولهذا فلسفته التي سنعرض لها بعد قليل.. وقد رأينا على كل حال كيف وضعت قضية الأرقام - على سبيل المثال - في هذا الإطار مرة أخرى.

ب - **أما مشكلة غير العرب**.. فلا ادري هل ينتظر بعض الناس أن ينزل القرآن بكل لغات الأرض؟!! ما كان منها، وما سيكون إلى يوم الدين؟!! وهل يتساوق هذا مع طبيعة الاشياء؟! ومع طبيعة الإيمان الذي أراده الله تعالى من الإنسان؟!

أليس في لغات العالم لغة هي مثال اللغات ينزل بها كتاب الله تعالى إلى الإنسان. وشعب هو - من حيث الفطرة والموهبة والاستعداد - هو مثال الشعوب ينهض بحمل أعباء هذه الرسالة - ولو للمرة الأولى على أقل تقدير! - ويذيعها في العالمين؟! البحث هنا أوسع من أن تحيط به مئات الصفحات.. ولكن لنقل: يسع العجم ما وسع العرب، كما قال علماؤنا الأوائل. ولنقل: إن بعض وجوه الإعجاز - أي البياني - تلزم حتى غير العرب. ولنقل إن من حق - أو واجب - جميع الناس أن تعمهم «اللغة المثال» ما دام القرآن الكريم نازلاً بلغة واحدة من لغات الأرض... الخ، ولقد قلنا أكثر من مرة: إن في وسعنا أن نقيم الدليل لهؤلاء على أن هذا الكتاب الخالد هو كلام الله... من وجوه أخرى كثيرة على كل حال..

ولكن علينا أن نبقي الإعجاز الذي وقع به التحدي في إطاره الصحيح لا نخرج به عنه، ولنذكر في نهاية المطاف ما سبق لنا أن قلناه:

«إن الكلام والبيان هو ما امتاز به الإنسان... فجاءت معجزة محمد -

ﷺ - « بيانية » للإشارة إلى أن هذه الرسالة هي رسالة الإنسان... حيث كان الإنسان، وفي أي زمان وجد!..

« بل جعل دليل هذه المعجزة « الناطقة » شيئاً زائداً في هذا البيان، بلغ حد التحدي أن يأتي أحد بسورة منه، فلم يستطع ذلك أحد، ولن يستطيع ذلك أحد، إشارة أيضاً الى فضيلة « البيان » التي قد يتفاضل بها « الناطقون » على قدر تفاوتهم في رقة المشاعر، ورهافة الحس، وحساسية الوجدان.. ما دامت هذه الرسالة الإنسانية ستخاطب في الإنسان جميع ملكاته وإحساساته ومشاعره.. وسوف تنفذ إليه في كثير من الاحيان بالإشارة المعبرة، أو اللمحة الموحية، التي تترك أثرها على الضمير، وفي مسارب النفس والروح.

« ولعل في ابتداء نزول القرآن الكريم بقوله تعالى « اقرأ » ما يشير الى هذه « الطبيعة الإنسانية » لآخر رسالات الله تعالى إلى الإنسان: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم﴾.

بل لعل تخصيص الإنسان بالبيان في قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿الرحمن. علَّم القرآن. خلقَ الإنسان. عَلَّمه البيان﴾ ما يؤكد جميع هذه المعاني، ويوحي بها كذلك فبالبيان يمتاز الانسان من سائر المخلوقات.. وبميزة البيان تمتاز رسالة الإسلام، وإن شئت قلت: رسالة الإنسان من سائر الرسالات.

« ولم يكن البيان - بمعناه الأدق من « المنطق » كما توحي بذلك بعض الآيات القرآنية الأخرى - وقفاً على لغة من اللغات، أو أمة من الأمم.. ولكن اختيار لغة العرب لينزل بها القرآن.. وليحمل بها الى العالم رسالة الإنسان، يشير الى فضيلة بيانية جامعة امتاز بها اللسان العربي على كل لسان.

ولأمرٍ ما أسلم من أسلم من العرب بهذا البيان المعجز، وقال فيه من فصحاء العرب المشركين ما قال... ولأمر ما يخشع أمام تلاوته من غير المسلمين والعرب من لم يسمع حرفاً واحداً من لغة العرب في غابر الأزمان »[1].

---

(١) البيان النبوي للمؤلف. ص ٢٠ - ٢١.

الفصل الثالث

الفصل الثالث
الخصائص الأسلوبية ومزايا الأداء القرآني

عرضنا في الفصل السابق لأبرز الآراء، أو النظريات التي قيلت في مسألة إعجاز القرآن... ولم يكن من همنا ـ وقد لا يكون في وسعنا في هذه العجالة ـ أن تتتبع هذه المسألة في مسارها التاريخي، أو في إطارها الموضوعي الشامل... والصعوبة التي تنشأ في طريق الباحث ـ هنا ـ لا تخفى وهو يرى جميع الدراسات البيانية للقرآن الكريم، سواء أكانت في الخطوط العامة والسمات الأساسية... أم كانت في الملامح الخاصة أو التفصيلية ـ كالحديث عن تشبيهات القرآن أو أمثاله أو أقسامه أو قصصه... ـ تصب جميعها في خضم الإعجاز مرة أخرى.. حتى يمكن عده بحق البحر المترامي الأطراف الذي تصب فيه جميع هذه الجداول في نهاية المطاف!

ولكن لم يكن أمامنا بدٌّ من هذا التقسيم الذي تجده في هذين البابين ـ الرابع والخامس ـ من أجل التمييز بين الملامح العامة والملامح الخاصة... وإذا كان التمييز بين الملامح الخاصة ـ التي ستقف عليها في الباب التالي ـ سهلا من حيث الأصل، إلا أن هذا في الملامح العامة ليس كذلك. ولولا الغرض التعليمي لصعب علينا قطع هذا الفصل والفصل الذي يليه عن فصول الإعجاز السابقة.. وقد وجدنا كثيراً من الباحثين يعرض لمثل هذه الخصائص الأسلوبية ـ التي تتحدث عنها في هذا الفصل ـ وسائر مزايا فن الأداء القرآني في موضوع الإعجاز نفسه.

ولا ضير علينا في هذا وذاك إلا أن هذه الخصائص يمكن عدها خطوة لاحقة للبحث السابق، لأنها أوضح قسمات وأكثر تفصيلا.. يليها في الدرجة بعد ذلك حديثنا القادم عن الفاصلة والسجع القرآني.. وبين هذه الدرجة وتلك درجات كثيرة طوينا الكلام عنها لأنها خارجة عن الحدود التي يتسع لها وقت هذه المحاضرات..

أبرز هذه الخصائص الأسلوبية التي تحدث عنها الأدباء والنقاد المعاصرون ـ فيما وراء الحديث عن الجزالة والرقة، أو الإيجاز والإطناب، التي تحدث عنها القدماء، والتي يمكن الوقوف على شواهدها التطبيقية في دروس البلاغة على وجه الخصوص ـ تتمثل فيما كتبه كل من الأستاذ الأديب الناقد سيد قطب والأستاذ العلامة الباحث الدكتور محمد عبد الله دراز رحمهما الله تعالى.

أولاً: مزايا الأداء القرآني

يمكن تلخيص هذه المزايا التي أشار اليها الاستاذ بالمزايا الثلاث التالية:

١ ـ للأداء القرآني طابع بارز في القدرة على استحضار المشاهد، والتعبير المواجه كما لو كان المشهد حاضراً، بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر، ولا يملك الأداء البشري تقليدها. لأن يبدو في هذه الحالة مضطرباً غير مستقيم مع أسلوب الكتابة:

وإلا فكيف يمكن للأداء البشري أن يعبر على طريقة الأداء القرآني مثلاً في مثل هذه المواضع: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده، بغياً وعدواً، حتى إذا أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. وأنا من المسلمين...﴾والى هنا هي قصة تحكى).. ثم يعقبها مباشرة خطاب موجه في مشهد حاضر..﴿ آلآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين؟ فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾... ثم يعود الأداء للتعقيب على المشهد الحاضر: ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾.

الآيات ٩١ ـ ٩٣ من سورة يونس.

وقال تعالى في سورة الأنعام - الآية ١٩ -:

﴿ قل: أيّ شيءٍ أكبر شهادة؟ قل الله شهيدٌ بيني وبينكم، وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهةً أخرى؟ ﴾.. وإذا به يعود للتلقي في شأن هذا الذي سأل عنه قومه - وأجابوه! -: ﴿ قل لا أشهد قل: إنما هو إله واحد، وإنني بريء مما تشركون ﴾.

وكذلك هذه الالتفاتات المتكررة في مثل هذه الآيات: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً. يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض، وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا. قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله، إن ربك حكيم عليم. وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون. يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي، وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟.. قالوا: شهدنا على أنفسنا، وغرتهم الحياة الدنيا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾. الآيات ١٢٨ - ١٣١ سورة الأنعام.

وأمثالها كثير في القرآن كله. وهو أسلوب متميز تماماً عن الأسلوب البشري وإلا فمن شاء أن يماري فليحاول أن يعبر على هذا النحو، ثم ليأت بكلام مفهوم مستقيم، فضلاً عن هذا الجمال الرائع، وهذا الإيقاع المؤثر، وهذا التناسق الكامل».

٣ - «إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حين يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض. وذلك بأوسع مدلول، وأدق تعبير، وأجمله وأحياه أيضاً. مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والظلال والجو، ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آنٍ واحد، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه، وبحيث لا يجور الجمال على الدقة، ولا الدقة على الجمال. ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً، لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال».

٣ ـ وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى في الأداء القرآني . . . هي أن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص ، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات ، وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها ، بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى ، ويبدو في كل مرة أصيلاً في الموضع الذي استشهد به فيه ، وكأنما هو مصوغ ابتداءً لهذا المجال ولهذا الموضع . وهي ظاهرة قرآنية بارزة لا تحتاج منا إلى أكثر من الإشارة إليها .

ومعنى ذلك أن هاتين الظاهرتين تردّان الدارس أو القارىء مرة أخرى إلى قضية لزوم الإعجاز أو وقوعه ، وتحاولان تفسيره من خلال الممارسة أو التطبيق العملي . . ولهذا ترك أمر إدراكهما على وجه الخصوص لمن يزاولون الكتابة والتعبير ، كما أن هاتين الظاهرتين تردان الدارس ـ كذلك ـ إلى مسألة المبنى والمعنى ، أو الشكل والمضمون . . ؛ وإلى أبعاد التحدي بالآيات أو السور المفتريات . . . وهذه المسألة سوف نخصص لها الفصل الأخير من هذا الباب . مكتفين هنا باعتبار هاتين السمتين مجرد مدخل وتمهيد عام إلى الإيضاح التام الذي كتبه الدكتور دراز رحمة الله فيما يلي :

ثانياً : الخصائص الأسلوبية العامة :

رجع الدكتور دراز هذه الخصائص الأسلوبية العالية إلى الخصائص التالية :

١ ـ القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى .

٢ ـ البيان والإجمال .

٣ ـ إقناع العقل وإمتاع العاطفة .

٤ ـ خطاب العامة والخاصة .

وقال في شرح الميزة الأولى : إن كل من يجمع في أسلوبه بين هاتين النهايتين لا يقوى على العدل بينهما ، فالذي يعمد إلى إدخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا

على حدّ الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً[1].

والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره، وإبراز كل دقائقه « بقدر ما يحيط به علمه وما يؤديه إليه الهامه » لا يجد له بداً من أن يمد في نفسه مداً، لأنه لا يجد في القليل من اللّفظ ما يشفي صدره، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة. فإذا أعطى نفسه حظّها من ذلك لا يلبث أن يباعد ما بين أطراف كلامه، ويبطىء بك في الوصول إلى غايته، فتحس بقوة نشاطك وباعثة إقبالك آخذتين في التضاؤل والاضمحلال! ».

ثم بعد أن أوضح الدكتور دراز أن عامة الفصحاء قدامى ومحدثين يؤتون من هذا الجانب غالباً، أعني جانب الإملال والإسراف، لا جانب الإخلال والإجحاف، أوضح أن كمال البلغاء في عملهم هذا كمال نسبي « بقدر ما يحيط به علمه، وما يؤديه إليه إلهامه في الحال ». أما الوفاء بالمعنى حق وفائه بحيث لا يخطئه عنصر منه ولا حلية من خلاه ولا ينضاف إليه عَرض غريب عنه يعد رقعة ثوبه، ولا ينقلب فيه وضع من أوضاعه يغض من حسن تقويمه، بحيث لا سبيل فيه إلى نقض أو اقتراح جديد، فذلك أمر لا يستطيع أن ينتحله رجل اكتوى بنار البيان، قال: « وآية ذلك أنك تراه حين يتعقب كلام نفسه في الفينة بعد الفينة يجد فيه زائداً يمحوه، وناقصاً يثبته، ويجد فيه ما يهذب ويبدل، وما يقدم أو يؤخر حتى يسلك سبيله الى النفس سوياً ».

ثم يقول: « ولئن ظفرت بأحد وفّق لتقريب تينك الغايتين إلى حد ما في جملة أو جملتين، فتربص به كيف يكون أمره بعد ذلك. وانظر كيف يدركه الكلال والإعياء وفترة الطبع الإنساني فينحل من عقدة كلامه ما كان وثيقاً، ويذبل من زهرته ما كان غضاً طرياً، ثم لا يعود إلى قوته إلا في الشيء بعد الشيء كما تصادف في التراب قطعة من هاهنا وقطعة هنالك. فنقول: هذا نفيس جيد، وهذا أنفس وأجود، وهذا واسطة العقد وبيت القصيد....

(١) انظر تفصيل هذه النقطة وسائر ما طويناه من الشرح والبيان في كتاب النبأ العظيم للأستاذ العلاّمة المحقق الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله رحمة واسعة.

وأخيراً يقول الدكتور دراز: «فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم، تجد بياناً قد قدّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحسّ فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية: «نقية» لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، «وافية» لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية. كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه».

ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعدّ ما أحصته كفك من الكلمات عداً، ثم أحصِ عدّتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن الدّفتين وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك، ثم انظر: كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من هذا الكلام دون إخلال بغرض قائلة؟ وأي كلمة تستطيع أن تُسقطها أو تبدلها هناك؟ فكتاب الله تعالى كما يقول ابن عطية ـ: «**لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد**، بل هو كما وصفه الله ﴿كتابٌ أحكمت آياته ثم فصِّلت من لدُن حكيم خبير﴾».

٢ ـ **أما خطاب العامة وخطاب الخاصة** فهي ميزة أسلوبية ـ بيانية ـ وموضوعية في وقت واحد، وكما سنزيدك بياناً وإيضاحاً في الفصل الأخير من هذا الباب. وهاتان الغايتان أيضاً متباعدتان عند الناس. فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به العامّة، ـ فضلاً عن الأغبياء ـ لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللّمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم. أما أن جملة واحدة تُلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء وغير الأذكياء، فيراها كل منهم مقدَّرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا نجده على أتمّة الا في القرآن الكريم، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلامٍ بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم، لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة. فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسّر لكلٍّ من أراد، قال تعالى: (ولقد يسَّرنا القرآن

للذِّكر فهل من مُدَّكر﴾.

٣ ـ **إقناع العقل وإمتاع العاطفة**: الكلام البليغ والبيان الكامل هو الذي يكافىء في الإنسان قوّتي التفكير والوجدان، ويؤتي النفس الإنسانية حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً. والمعهود من العلماء والحكماء من جهة، وكلام الأدباء والشعراء من جهة أخرى، أن كلاً منهما يغلو في جانب ويقصّر في جانب آخر. فأما الحكماء فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك. وأما الشعراء فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك، وتحريك أوتار الشعور من نفسك.

ولم يرَ الناس أحداً تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية على حد سواء؟! ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس فإنها لا تعمل إلا مناوبةً في حال بعد حال، وكلما تسلطت واحدة منهن اضمحلت الأخرى وكاد ينمحي أثرها، فالذي ينهمك في التفكير تتناقص قوة وجدانه، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره.

ولم يرَ الناس أسلوباً واحداً ـ كما يقرر الدكتور دراز ـ في نهاية المطاف **يتجه اتجاهاً واحداً، ويجمع هذين الطرفين معاً**، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً، أو كما يسري الروح في الجسد، والماء في العود الأخضر، لأن هذا ليس من سنن الله في النفس الإنسانية! ولكنه شأن رب العالمين.. «فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان، ألا ترى ذلك في كتابه الكريم حيث توجهت؟! ألا تراه في قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمه وعبره؟ «أولا تراه في معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق، وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب، وتبكيت أو تأنيب» يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾﴿إنه لقول فصلٌ وما هو بالهَزل﴾.

٤ ـ البيان والإجمال:

إذا عمد الناس إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل، واذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام والإلباس، أو إلى اللغو الذي لا يفيد، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد. يقول الأستاذ العلاّمة الدكتور دراز رحمه الله:

«وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف، والملاسة، والإحكام، والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كدّ خاطر، ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلاماً ولغات، بل ترى صوراً وحقائق ماثلة. وهكذا يخيَّل إليك أنك قد أحطت به خبراً ووقفت على معناه، هذا ولو رجعت إليه كرةً أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد، غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة،.. حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة وجوهاً عدة، كلها صحيح أو محتمل للصحة، كأنما هي فصٌّ من الماس يعطيك كلُّ ضلع منه شعاعاً، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملةً بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينُك وماذا تدع. ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت.. وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان يأخذ كل منهم ما يسر له، بل ترى محيطاً مترامي الأطراف لا تحدّه عقول الأفراد والا الأجيال».

هذه الدراسة القيمة التي قدمها الدكتور دراز لمزايا الأسلوب القرآني والتي حددنا لك معالمها الرئيسية، أعقبها بدراسة تطبيقية لإثبات الميزة الأولى ـ الاقتصاد في اللفظ والوفاء بحق المعنى ـ لأنها أحق الميزات جدارة بالاعتبار والدرس، ولأنها تتضمن في طياتها كثيراً مما قدمه الدارسون للبلاغة القرآنية و«دلائل الإعجاز» حول الحذف والاختصار والتقديم والتأخير، والإضمار، والالتفات، وما إلى ذلك من ميزات دقيقة كثر الحديث عنها وضرب الأمثلة والشواهد عليها.

والجدير المهم الذي يقدّمه الدكتور دراز في دراسته التطبيقية هذه أنه

اختار لها مثالاً من غير تلك الآيات الكريمة «التي وقع اختيارُ الناس عليها وتواضعوا على الإعجاب بها» كما يقول والتي مرّ طرفٌ منها حقيقةً في ثنايا الكلام الذي نقلناه لك آنفاً عن عبد القاهر الجرجاني. وفي الوقت الذي نثبت فيه هذا المثال ـ الذي أطال المؤلف رحمه الله في شرحه وتفصيله ـ فإننا نطمع كذلك في وضع نموذج أو لون من ألوان التفسير البياني الدقيق المحكم لآية من آيات القرآن الكريم، بحيث يغنينا عن إعادة القول فيه في مناسبة أخرى، ـ أو في آخر الكتاب ـ ولا نطمع في الوقت نفسه في أكثر من تبين معالم هذا اللون حتى يمكن الإفادة من خطوطه الرئيسية على الأقل في الشرح والتفسير، أو معالجة النصوص القرآنية:

يقول الله تعالى في ذكر حجاج اليهود:

﴿وإذا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله، قالوا: نُؤمن بما أنزل علينا ويكفرونَ بما وراءه، وهو الحقُّ مصدِّقاً لما معهم، قل: فلِمَ تَقتلون أنبياء الله من قبلُ إنْ كنتُم مؤمنين﴾. ـ الآية ٩١ من سورة البقرة ـ.

هذه قطعة من فصل من قصة بني اسرائيل. والعناصر التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلي:

١ ـ مقالة ينصح بها الناصح لليهود، إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.
٢ ـ إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين.
٣ ـ الرد على هذا الجواب بركنيه، من عدة وجوه.

يقول الدكتور دراز: «وأقسم لو أن محامياً بليغاً وُكلت إليه الخصومة بلسان القرآن في هذه القضية، ثم هدي إلى استنباط هذه المعاني التي تختلج في نفس الداعي والمدعو لما وسعه في أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات، ولعدَّ بعد ذلك لا يفي بما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق»!

يقول: «قال الناصح لليهود: آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة، ألستم قد آمنتم بالتوراة التي جاء بها موسى لأنها أنزلها الله، فالقرآن الذي جاء به محمد أنزله الله، فآمنوا به كما آمنتم بها.

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير في هذا اللفظ الوجيز﴿آمنوا بما أنزل الله﴾، وسرّ ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته **فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشيء بحجته**، وبذلك أخرج الدليل والدعوى في لفظ واحد.

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزّل عليه، فلم يقل: آمنوا بما أنزل الله «على محمد» مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة، أتدري لم ذلك؟. لأنه لو ذُكر لكان في نظر البيان وصفاً زائداً، وفي حكم الهداية والإرشاد أمراً مفسداً، أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها في الإلزام، فأدير الأمر على القدر المشترك الذي هو عمود الدليل. وأما الثاني فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يُخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدي إلى عكس ما قصده الداعي من التأليف والإصلاح.

ذلك إلى ما في هذا الحذف من الإشارة الى طابع الإسلام، وهو أنه ليس دين تفريق وخصومة، بل هو جامع ما فرّقه الناس في الأديان، داعٍ إلى الايمان بالكتب كلها على سواء: بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرّق بين شيء من كتبه، كما لا نفرق بين أحد من رسله.

كان جواب اليهود أن قالوا: إن الذي دعانا للايمان بالتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب، بل إننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا، والقرآن لم ينزل علينا، فلكم قرآنكم ولنا توراتُنا، ولكل أمة شرعة ومنهاج!!

هذا هو المعنى الذي أوجزه القرآن في قوله: ﴿نؤمن بما أنزل الينا﴾ **وهذا هو المقصد الأول**، وقد زاد في إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة، لأنه تقدم ذكره في نظيرتها.

من البين أن اقتصارهم على الايمان بما أنزل عليهم يومىء إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم، **وهذا هو المقصد الثاني**، ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر، فأراد القرآن أن يبرزه، انظر كيف

أبرزه؟ إنه لم يجعل ما ينبني على مذهبهم، ويشير إليه ـ مما يسمى عادة: لازم المذهب ـ في جملة ما نقله من كلامهم، بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقالتهم، فقال: (ويكفرون بما وراءه) أليس ذلك هو غاية الأمانة في النقل؟!.

ثم انظر الى التعبير عن القرآن بلفظ (ما وراءه) فإن لهذه الكلمة وجهاً تعم به غير القرآن ووجها تخصّ به هذا العموم؛ ذلك أنهم كما كفروا بالقرآن المنزل على محمد، كفروا بالإنجيل المنزل على عيسى، وكلاهما وراء التوراة، أي جاءا بعدها. ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوراة من صحف إبراهيم مثلاً. وهكذا تراه قد حدّد الجريمة تمام التحديد باستعمال هذا اللفظ الجامع المانع. وهذا هو غاية الانصاف وتحري الصدق في الاتهام.

الرد والمناقشة:

ثم جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وفيما أسرّوه؛ فتراه لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتابهم، بل يتركها مؤقتاً كأنها مُسلَّمة ليبني عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب، فيقول: كيف يكون إيمانهم بكتابهم باعثاً على الكفر بما هو حق مثله؟! لا، بل (هو الحق) كله، وهل يعارض الحقُّ الحقَّ حتى يكون الإيمان بأحدهما موجباً للكفر بالآخر؟

ثم يترقى فيقول: وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه كالأمر بين كل حق وحق؛ فقد يكون الشيء حقاً وغيره حقاً فلا يتكاذبان؛ ولكنهما في شأنين مختلفين فلا يشهد بعضهما لبعض! أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً و(مصدّقاً) لما بين يديه من الكتب، أي لما سبقه منها؛ فكيف يكذّب به من يؤمن بها؟!.

ثم يستمر في إكمال هذا الوجه قائلاً: ولو أن التحريف أو الضياع الذي نال من هذه الكتب قد ذهب بمعالم الحق فيها جُملة لكان لهم بعض العذر في تكذيبهم بالقرآن؛ إذ يحق لهم أن يقولوا: إن البقية المحفوظة من هذه الكتب

في عصرنا ليس بينها وبين القرآن هذا التطابق والتصادق، فليس الإيمان بها موجباً للإيمان به.. بل لو أن هذه البقية ليست عندهم وإنما يعرفها طائفة غيرهم، أو لو أنها كانت عندهم ولكنهم كانوا عن دراستها غافلين؛ لكان لهم مثل ذلك العذر، أما وهذا القرآن مصدّق لما هو قائم من الكتب في زمنهم وبأيديهم ويدرسونه بينهم فماذا يعتذرون وأنّى يذهبون؟ هذا المعنى كله يؤد لنا القرآن الكريم بكلمة (ما معهم).

فانظر إلى الإحكام في صنعة البيان: إنما هي كلمة رُفعت وأخرى وُضعت في مكانها عند الحاجة إليها، فكانت هذه الكلمة حسماً لكل عذرٍ وسداً لكل باب من أبواب الهرب؛ بل كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم تمت في خطوة واحدة؛ وفي غير ما جلبة ولا طنطنة.

ولما قضى وطَر النفس من هذا الجانب المطوي الذي ساقه مساق الاعتراض والاستطراد؛ استوى إلى الرد على المقصد الأصلي الذي تبجحوا بإعلانه والافتخار به، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، فأوسعهم إكذاباً وتفنيداً وبين أن داء الجحود فيهم داءٌ قديم أشربوه في قلوبهم ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضاً مزمناً، وأن الذي أتوه اليوم من الكفر بما أُنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أُنزل عليهم. وساق على ذلك الشواهد التاريخية المقطعة التي لا سبيل لإنكارها من جهلهم بالله، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه، وتمردهم على أوامره: ﴿قُل فلِمَ تقتلونَ أنبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين؟﴾.

١ - تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له في آخر المرحلة السابقة؛ إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذّبين؛ بكتابهم نفسه، وهو الذي يكذب من يصدّقك يبقى مصدّقاً لك؟!.

وغير أن هذا المعنى إنما أخذ استنباطاً من أقوالهم، وإلزاماً لهم بمآل مذهبهم، ولم يؤخذ بطريقة مباشرة من واقع أحوالهم؛ فكانت هذه هي مهمة الرد الجديد.

وهكذا كانت كلمة (مصدّقاً لما معهم) مغلاقاً لما قبلها، مفتاحاً لما بعدها، وكانت آخر درجة في سُلّم الغرض الأول هي أول درجة في سلم الغرض الثاني، فما أوثق هذا الالتحام بين أجزاء الكلام! وما أرشد هذه القيادة للنفس بزمام البيان، تدريجاً له على مدارجها، وتنزيلاً له على قدر حاجتها، وفي وقت تلك الحاجة!

٢ ـ وانظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلي وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقي لتلك الجرائم، فلم يقل: «فلم قتل آباؤكم أنبياء الله، واتخذوا العجل، وقالوا سمعنا وعصينا؟» إذْ كان القول على هذا الوضع حجة داحضة في بادىء الرأي، مثلها كمثل محاجة الذئب للحمل في الأسطورة المشهورة فكان يحق لهم في جوابهم أن يقولوا: «وما لنا ولآبائنا؟ تلك أمة قد خلت، ولا تزر وازرة وزر أخرى».

ولو زاد مثلاً: «وأنتم مثلهم، قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم» لجاء هذا التدارك بعد فوات الوقت، ولتراخى حبل الكلام وفترت قوّته.

فكان اختصار الكلام على ما ترى ـ بوقفهم بادىء ذي بدء في موقف الاتهام؛ إسراعاً بتسديد سهم الحجة إلى هدفها، وتنبيهاً في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض، وأنهم سواسية في الجرم؛ فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم، لأنهم لا ينفكون عن الاستنان بسنة أسلافهم، أو الرضى عن أفاعيلهم أو الانطواء على مثل مقاصدهم!!

٣ ـ وانظر كيف زاد هذا المعنى ترشيحاً بإخراج الجريمة الأولى وهي جريمة القتل في صيغة الفعل المضارع تصويراً لها بصورة الأمر الواقع الآن، كأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوّثة بتلك الدماء الزكية!.

٤ ـ ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح باباً من الإيحاش لقلب النبي الكريم، وباباً من الإطماع لأعدائه في نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله، فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله

(مِن قبلُ) فقطع بهذه الكلمة أطماعهم وثبَّت بها قلب نبيه الكريم ؛ إذْ كانت بمثابة وعده إياه بعصمته من الناس ، ذلك إلى ما فيها من تنبيهٍ على أصل وضع الكلام ، وعلى ما صنع به من التجوز المذكور آنفاً في الإسناد وفي الصيغة (إسنادِ الفعل اليهم بدل آبائهم ، والمجيء بصيغة المضارع دون الماضي) .

٥ - وانظر كيف جيء بالأفعال في الجرائم التالية على صيغة الماضي قال تعالى في الآية التالية رقم ٩٢ :﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتّخذتم العِجل من بعده وأنتم ظالمون﴾وذلك بعد أن وطّأ لها بهذه الكلمة (من قبل) فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعي حتى لم تبق حاجة إلى مثل التعبير الأول .

٦ - ثم انظر إلى النواحي التي أوثر فيها الإجمال على التفصيل ، إعراضاً عن كل زيادة لا تمس إليها حاجة البيان في الحال ، فقد قال : إن القرآن مصدِّق لما معهم ، ولم يبيّن مدى هذا التصديق : أفي أصول الدين فحسب ، أم في الأصول والفروع جميعاً ، أم في الأصول وبعض الفروع ، وإلى أي حد؟ ذلك أن هذا الكلام لا يتنزل إلا بقدر معلوم . وماذا يعني الداعي إلى أصل الإيمان أن يمتد التطابق بين الأديان إلى فروعها أولا يمتدّ؟ فليبحث علماء التشريع!

وقال : أنهم يقتلون أنبياء الله ، فمن هم أولئك الأنبياء ؟ . . . ليبحث علماء التاريخ! .

وقال فيما بعد : إن موسى﴿جاء بالبينات ﴾ فكم هي ، وما هي؟

وقال أيضاً : إنه﴿أخذ عليهم ميثاقهم﴾ فعلى أي شيء كان الميثاق؟ . .

إن حكمة البيان القرآني لأجلُّ من أن تعرض لهذه التفاصيل في مثل هذا الموضع ، ولو ذكرت ها هنا لكان مثلها مثل من يسأل : لم ضربت غلامك؟ فيقول : لأنه ضرب غلاماً اسمه كذا واسم أبيه كذا ، وولد عام كذا . . ألا ترى أن هذا زائد وكثير؟!

٧ - لفتة موضوعية هامة :

ولو ذهبنا نتتبع سائر ما في هذه القطعة من اللطائف لخرجنا عن حد

التمثيل والتنبيه الذي قصدنا إليه، فلنكتف بتوجيه نظرك فيها إلى سرٍ دقيق لا تراه في كلام الناس؛ ذلك أن المرء إذا أهمّه أمرٌ من الدفاع أو الاقناع أو غيرهما بدت على كلامه مسحة الانفعال بأغراضه، وكان تأثيره بها في نفسك على قدر تأثره هو، طبعاً أو تطبعاً، فتكاد تحسّ بما يخالجه من المسرة في ظفره، ومن الامتعاض في إخفاقه. بل تراه يكاد يهلك أسفاً لو أعرض الناس عن هداه إذا كان مؤمناً بقضيته مخلصاً في دعوته، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام. أما هنا فإنك تلمح وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض، قوة تؤثر ولا تتأثر، تصف لك الحقائق خيرها وشرها في عزة من لا ينفعه خير، واقتدار من لا يضرّه شر!! سبحانه وتعالى.

هذا الطابع من الكبرياء والعظمة تراه جلياً من خلال هذا الأسلوب المقتصد في حجاجه أخذاً ورداً، المقتصد في وصفه مدحاً وقدحاً.

انظر إليه يجادل عن القرآن فلا يزيد في وصفه على هذه الكلمة: ﴿هو الحق﴾. نعم إنها كلمة تملأ النفس، ولكن هل تشبعك أيها الإنسان تلك الكلمة إذا أردت أن تصف حقيقة من الحقائق التي تقتنع بها وتحبّ أن تقنع بها الناس؟!

وانظر إليه بعد أن سجل على بني إسرائيل أفحش الفُحش، وهو وضعهم البقر الذي هو مثلٌ في البلادة موضع المعبود الأقدس، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم في تأبّيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة انظر الآية السابقة ٩٢ :﴿ولقد جاءكم موسى...﴾والآية التي تليها في المصحف رقم ٩٣ ، فتراه لا يزيد على أن يقول في الأولى: إن هذا «ظلم» وفي الثانية: «بئسما» صنعتم، أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فُهمتا على وجههما، ولكن أين حدّة الألم وحرارة الاندفاع في الانتقام؟ بل أين الإقذاع والتشنيع؟ وأين الإسراف والفجور الذي تراه في كلام الناس إذا أحفظوا بالنّيل من مقامهم؟! وأخيراً يقول الدكتور دراز رحمه الله:

«لله ما أعفَّ هذه الخصومة، وما أعزّ هذا الجناب، وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، وتالله إن هذا كلام لا يصدر عن نفس بشر!».

★ ★ ★

الفصل الرابع

الفاصلة والسّجع

لعلك لاحظت أن الخصائص الأسلوبية التي تحدثنا عنها في الفصل السابق دارت حول « اللفظ والمعنى » ، أو دارت حول مزايا الأداء القرآني بوجه عام .. في حين أن الجانب الصوتي ـ أو النظم الموسيقي ـ الذي جعله بعضهم مناط الإعجاز كما رأيت لا يزال بحاجة إلى مزيد من البيان .. ويأتي الحديث هنا عن الفاصلة القرآنية والسجع القرآني ليقدم شعاعاً آخر يوضح هذا الجانب بالقدر الذي تتسع له هذه الصفحات .. يضاف إلى ذلك أن هذا الحديث عن الفاصلة والسجع يذكّرنا كذلك بمسألة الالتزام العددي ، ومسألة المتشابه اللفظي الذي عرضت فيه بعض المواقف القرآنية بآيات متقاربة ؛ اختلف فيها النظم ـ النحوي ـ مرة ، والنظم الموسيقي مرة .. وتنوعت الفاصلة والسجع هنا وهناك مرة أخرى ، والقرآن الكريم يتحدى مجاراته مع كل هذا التنويع والتلوين ... وتعدد طرق العرض واختلاف ألوانه وأشكاله . أي إننا الآن أمام « التزام » من نوع آخر ، أو التزام يضاف إلى ما سبق بيانه في مسألة الأعداد والأرقام .. ومسألة المتشابه اللفظي ، والأحرف السبعة ، ونحو ذلك من الموضوعات التي أشير اليها في السابق!

فإذا أثبتنا هنا ، أو ثبت لنا ، أن الفاصلة والسجع لم يقوما على اعتبارات شكلية محضة ، بل على العكس من ذلك : أسهم كل منهما في إحكام المبنى والمعنى جميعاً ، بل أسهما في تفسير معنى « الإحكام » الذي وصف الله تعالى به

كتابه الكريم في قوله :﴿ كتابٌ أحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدُن حكيم خبير ﴾ . إذا أثبتنا ذلك علمنا مدى أهمية الحديث عن الفاصلة والسجع، ومدى صلتهما بقضية الإعجاز الكبرى التي ما نزال ندور في فلكها في جميع فصول هذا الباب .

- ١ -

الفاصلة القرآنية

١ - تعريفها :

قال الزركشي : « هي كلمة آخر الآية ، كقافية الشعر ، وقرينة السجع » وقال الداني : « هي كلمة آخر الجملة »[1] . والفرق بين التعريفين أن الأول ربط الفاصلة برؤوس الآي ، بينما ربطها الثاني بنهاية الجملة ولو لم تكن رأس آية . ولعل هذا هو ما قصد إلى بيانه أبو عمرو الداني حين فرّق بين الفواصل ورؤوس الآي ، فقال في الفاصلة : هي الكلام المنفصل من بعده . « والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس ، وكذلك الفواصل يكنَّ رؤوس آي وغيرها . وكل رأس آية فاصلة ، وليس كل فاصلة رأس آية ؛ فالفاصلة تعمّ النوعين ، وتجمع الضربين » .

وعلى الرغم من هذا التفريق الواضح الذي ذهب إليه الإمام الداني ، إلا أن الذي وجدنا أنفساً نجري عليه خلال الأعوام السابقة عند شرح النصوص يقوم على تعريف الفاصلة بأنها الكلمة التي تختم بها الآية من القرآن . . . وهذا القدر يجب ألا يكون فيه خلاف ؛ وبخاصة إذا رجَّحنا أنها مأخوذة - كما يرى كثير من العلماء - من قوله تعالى : ﴿ كتابٌ فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾ - الآية ٣ من السورة ٤١ - قال الزركشي : « وتسمى فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان ؛ وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها »[2] .

---

(١) البرهان ١/٥٣ .

(٢) المصدر السابق ص٥٤ .

ولهذا لا يشترط في الفاصلة الموافقة في الإعراب لما قبلها ـ على تقدير عدم الوقوف ـ لأن الوقوف على رؤوس الآي سنّة متّبعة؛ ولهذا صرّح العلماء بأن «مبنى الفواصل على الوقف؛ ولهذا شاع مقابلة المرفوع بالمجرور والعكس، وكذا المفتوح والمنصوب غير المنوَّن؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إنّا خلقناهم من طينٍ لازبٍ﴾ مع تقدم قوله: ﴿عذابٌ واصبٌ﴾و﴿له شهابٌ ثاقبٌ[1]﴾ وكذا: ﴿بماءٍ منهمرٍ﴾ و(قد قُدِرَ[2])﴾».

ومع هذا، فإننا ـ في قضية تعريف الفاصلة ـ ندع الباب مفتوحاً لدراسة أنواع من الفواصل ـ الأخرى ـ التي أشار إليها الداني، ونكتفي هنا بذكر بعض الشواهد القرآنية الموضحة في الوقت الذي نخصص فيه سائر هذا الفصل للكلام على الفاصلة ـ الكلمة ـ التي تختم بها الآية من القرآن كما قلنا.

يقول تعالى في سورة «يس» ـ السورة ٣٦ ـ وقد اخترنا جميع هذه الشواهد من هذه السورة: ﴿لتُنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم، فهم غافلون. لقد حقَّ القولُ على أكثرهم، فهم لا يؤمنون﴾. ـ الآيتان ٧، ٨. وقد ميّزنا بين نوعي الفاصلة بعلامات الترقيم كما لاحظت.

وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهةً لعلّهم يُنصرون﴾ثم قال تعالى: ﴿لا يستطيعون نصرهم، وهم لهم جُند مُحضرون. فلا يحْزُنْك قولهم، إنَّا نعلم ما يُسِرّون وما يُعلنون﴾. الآيات ٧٤ ـ ٧٦.

وقال تعالى: ـ في الآيتين التاليتين: ٧٧ ـ ٧٨ ـ: ﴿أو لمْ يرَ الإنسان أنّا خلقناه من نُطفة، فإذا هو خصيم مُبين. وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يُحيي العظام وهي رميم.﴾.

وفي هذا، وشبهه من ضروب الفواصل الأخرى التي يمكن ملاحظتها في الآيات القرآنية، ما يدل على شدّة التحام أجزاء الكلام، وما توحي به آيات

---

(١) انظر الآيات ٩، ١٠، ١١ من سورة الصافات ٣٧.

(٢) انظر الآيتين ١١، ١٢ من سورة القمر ٥٤.

التنزيل من ضروب « الإيقاع » الخفيّة والظاهرة والمتماثلة والمتقاربة. وتدخل هنا قضية « الوقف والابتداء » - أو القطع والائتناف - كذلك، كواحدة من الأدلة على وقوع الفاصلة في الجملة، وليس في الآية فحسب، وبخاصة في الوقف اللازم، كما لاحظت في بعض الشواهد السابقة؛ حيث يجب الوقف على كلمة « قولهم » في الآية ٧٦.

٢ - دورها وموقعها:

إذا أردنا جلاء الدور الذي تؤديه « الكلمة » التي تختم بها الآية من القرآن - وهو أوضح لنا بطبيعة الحال من سائر الكلمات الأخرى التي قد لا تقلّ عنها أثراً في بناء الآية القرآنية، كما لاحظت من محاولة الرافعي التي أشرنا إليها - فلا بدّ لنا من الإشارة السريعة إلى البناء المجمل لهذه الآية: إنّ أدق ما يوصف به هذا البناء بأنه « محكم » وهو الوصف الذي جاء في القرآن الكريم نفسه: ﴿كتابٌ أحكمتْ آياته ثم فصّلت من لدُن حكيم خبير﴾ فالآية القرآنية بناء قد أحكمت لبناته أوثق الإحكام، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن وضعها.. « وتأتي الفاصلة هنا متمكّنة في مكانها، مستقرّة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقلة! يتعلق معناها بمعنى الكلام كلّه تعلّقاً تاماً، بحيث لو طرحت اختلّ واضطرب الفهم »[١].

أي إن الفاصلة تقوم بدورها في « إحكام » بناء الآية في الشكل والمضمون، أو في المبنى والمعنى على حد سواء؛ لأن منهج الآية في التقديم والتأخير، والحذف والزيادة، والفصل والوصل لا يقوم على اعتبارات شكلية محضة، بل يتبع كذلك المعنى فيسهم في « إحكامه » أيضاً على أوثق وجوه الإحكام. وهذا هو ما أشار إليه الزمخشري في « كشافه » القديم[٢].

أما **الإحكام اللفظي**، أو النظم الموسيقي فإن دور الفاصلة فيه شديد

---

(١) البرهان للزركشي ١/ ٧٩.
(٢) انظر المصدر السابق ص٧٢.

الوضوح.. حتى إن هذه الفواصل أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وحروف المدّ واللين.. وتلك هي الحروف الطبيعية في الموسيقى نفسها؛ قال سيبويه رحمه الله: «أما إذا ترنّموا - أي العرب - فإنهم يلحقون الألف والواو والياء؛ ما ينوَّن وما لا ينوّن؛ لأنهم أرادوا مدّ الصوت». قال: «وإذا أنشدوا ولم يترنموا: فأهل الحجاز يدعون القوافي على حالها في الترنّم! وناس من بني تميم يبدلون مكان المدّة النون»[1].

أما «إحكام» المعنى فيجب النظر فيه في سياق الآية أو الآيات ذاتها. ونحن هنا - على خلاف المعتاد من طريقتنا بعدم القطع في الموضوعات القرآنية، وبخاصّة تلك التي تحتاج إلى دوام النظر والفكر، والمعاودة بين الحين والحين - نقطع في هذا الموطن قطعاً بأن إحكام المعنى هنا قرين إحكام اللفظ، حتى ولو لاحظنا أن «إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل» - بحسب تعبير الزركشي - كان بتأخير ما أصله أن يقدّم، أو إفراد ما أصله أن يجمع، أو جمع ما أصله أن يفرد، أو تثنية ما أصله أن يفرد... إلى آخر هذه الأسباب التي عددها الزركشي في باب إيقاع المناسبة هذا!! لأننا لا نفهم هذا «الأصل» الذي يشير إليه - ولا ندري كيف صار أصلاً - إلا من زاوية ذلك الإحكام الدقيق في المبنى والمعنى جميعاً... والذي لم تسهم فيه الفاصلة فحسب، بل توّجته وأوضحته وجلّته تمام الجلاء! وقبل أن أورد لك بعض الشواهد التي توضح ما نقول - وقد وقفنا عند الكثير منها في سنوات سابقة لدى تفسير بعض السور، ووجدنا أن دلالاتها في هذا الباب أبعد مما كنا نفهم أو نظن - أورد لك من باب «إيقاع المناسبة» ذاك بعض الشواهد:

أ - قال تعالى: ﴿ما أشهدتُهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنتُ متّخذ المضلّين عضُدا﴾ - الآية ٥١ من سورة الكهف ١٨: والفواصل السابقة: «موعداً، أحداً، بدلاً» - قال ابن سيده: أي أعضاداً، وإنما أفرد ليعدل رؤوس الآي بالإفراد. والعضُد: المعين.

---

(١) الكتاب ٢/٢٩٨.

ولا ننقض هذا القول بما في كلمة «أعضاداً» من نبوّ وثقل؛ لأن هذا ليس هو موضوع الرد الأساسي؛ ولكن إذا كانت «عضُداً» هي الأليق من هذه الجهة، ومن جهة الالتحام مع سائر الفواصل... فإنها كذلك هي الأحكم من حيث المعنى لأن المضلّين جميعاً هم من الهوان والعجز في الموضع الذي يستغني الخلّاق العليم عن معونتهم... واحدهم في ذلك كجميعهم، وجميعهم كواحدهم.. ولهذا «العُدول» - ولا أدري لم كان عدولاً، ولم كان الجمع هو الأصل - أسباب وفوائد أخرى على كل حال..

ب - وقال تعالى في سورة إبراهيم ١٤: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ويُنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيةً من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خلال﴾ - الآية ٣١: والفواصل السابقة: «البوار، النار». قال الزركشي: «فإن المراد: «ولا خُلّة» بدليل الآية الأخرى، لكن جمعه لأجل مناسبة رؤوس الآي»!!

والآية الأخرى التي يشير إليها هي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلّة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ الآية ٢٥٤.

ونحن ننفي أن يكون (المراد: ولا خلّة) بل المراد: ولا خلال!! لأن ورودها بصيغة المفرد في آية لا يعني ضرورة أن تأتي بهذه الصيغة في آية أخرى... بل لعل العكس أقرب إلى الصواب؛ وذلك في ضوء ما أشرنا إليه في المتشابه اللفظي وفي صدر هذا الفصل.

وقد يطول بنا الوقوف إذا أردنا أن نثبت هنا أن «الأصل» في آية سورة إبراهيم «ولا خلال» - والحديث هنا: من حيث المعنى، بالطبع - وفي آية سورة البقرة: «ولا خلّة». والخلّة هي المودّة والصداقة؛ فآية الجمع - ولا خلال - جاءت في سياق الأمر بإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله، سراً، وعلانية... قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا تنفع فيه المودّات والصداقات.. وبعض الناس كما هو معلوم يتهاون بأمر الصلاة في الدنيا خجلاً أو مراعاة

لبعض هذه الصداقات.. وبعضهم ينفق مما رزقه الله على حال دون حال من السرّ أو العلانية بحسب الأغراض والنيات أو بحسب الظروف والأحوال.. كل هذا ـ وغيره كثير ـ يناسبه: «ولا خلال» تنفع هنا أو هناك!

أما الآية الثانية فقد وردت في سياق واحد هو الأمر بالإنفاق، أو مجرد الأمر بالإنفاق مما «رزقناكم» دون ذكر كذلك لحالتي السرّ والعلن، فقد يكون ناسبة لذلك الإفراد.. ثم إن هذه «الخلّة» قد عُطف عليها بالشفاعة.. فعاد «الجمع» الذي تحدث عنه الزركشي.. لأن الشفاعة أعلى من المودّة والصّداقة.. وهذا على مذهب من يرى في مثل هاتين الآيتين أن الجمع هو الأصل، على عكس ما أشار إليه الزركشي!.. ولا «أصل» هنا أو هناك سوى مراعاة النظم، وملاحظة الدور الذي أدّته الفاصلة في المكان الذي جاءت فيه من حيث إحكام المبنى والمعنى جميعاً.

جـ ـ وأختم لك هذه الأمثلة بشاهد ثالث لا أعلّق عليه بشيء... وإنما أدع فيه المناقشة والرد ـ على إيجازه ـ لابن قتيبة رحمه الله، قال تعالى: ﴿ولمن خافَ مقامَ ربه جنَّتان﴾ ـ الآية ٤٦ من سورة الرحمن ٥٥ ـ قال الفرّاء: «هذا باب مذهب العرب في تثنية البقعة الواحدة وجمعها»، كقوله: «ديار لها بالرقمتين» وقوله: «بطن المكّتين». قال: «وأشير بذلك إلى نواحيها، أو للإشعار بأن لها وجهين، وأنك إذا أوصلتها ونظرت إليها يميناً وشمالاً رأيت في الناحيتين ما يملأ عينك قرة، وصدرك مسرّة». ثم قال: «وإنما ثنّاهما هنا لأجل الفاصلة؛ رعايةً للتي بعدها على هذا الوزن. والقوافي تحتملُ في الزيادة والنقصان ما لا يحتمله سائر الكلام».

قال الزركشي[١]: «وأنكر ذلك ابن قتيبة عليه، وأغلظ ـ **قلتُ: وحقّ له** ذلك» ـ وقال: «إنما يجوز في رؤوس الآي زيادة هاء السكت أو الألف، أو حذف همزة[٢]، فأما أن يكون الله وعد جنّتين فنجعلهما جنّة واحدة من أجل

---

(١) البرهان ١/٦٥.

(٢) أي فيما يجوز مثله في سائر الكلام.

رؤوس الآي فمعاذ الله! وكيف هذا وهو يصفها بصفات الاثنين، قال: ﴿ذواتا أفنان﴾- الآية ٤٨ - ثم قال فيها: ﴿فيهما عينان تجريان﴾- الآية ٥٠ -.

ثم قال ابن قتيبة في تعقيب أخير لطيف؛ عارضه - إن شئت - بمسألة الأعداد والأرقام التي أشرنا إليها في فصل الإعجاز. قال: «ولو أن قائلاً قال في خزنة النار: إنهم عشرون! وإنما جعلهم الله تسعة عشر لرأس الآية؛ ما كان هذا القول الا كقول الفراء!!».

وإذا كان في هذه الشواهد - التي جاءت في سياق الرد والتصويب - ما يوضح دور الفاصلة الهائل في إحكام المبنى والمعنى جميعاً، بما يغني عن مزيد من العرض، في سياق الإثبات وإقامة الدليل، إلا أننا نورد هنا شاهداً، أو شاهدين؛ مكتفين بالإشارة إلى أن الطريقة السابقة التي نقلها أو لجأ إليها الزركشي قد هدتنا إلى جوانب إيجابية واسعة في هذا الباب نرجو أن نفصل فيها القول خلال المحاضرات، وفي مناسبة أخرى إن شاء الله.

آ - قال الله تعالى في سورة عبس: ﴿عبس وتولّى. أنْ جاءه الأعمى. وما يُدريك لعلّه يزّكّى. أو يذّكّرُ فتنفعه الذكرى. أما من استغنى. فأنت له تصدَّى. وما عليك ألاّ يزّكّى. وأمّا من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهّى...﴾ الآيات.

نزلت هذه الآيات الكريمة في عتاب النبي ﷺ حين أعرض عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وقد جاءه يطلب سماع القرآن، وأن يعلّمه النبي شيئاً مما علّمه الله سبحانه... وكان النبي ﷺ مشغولاً بنفر من كبار قريش يعرض عليهم الإسلام، يطمع في دخولهم فيه، وما يتبع ذلك من هداية من وراءهم... فعبس، - ﷺ - في وجه عبد الله وأعرض عنه؛ فنزلت الآيات مبيّنة أن ميزان الله هو الميزان، وأنه ليس للنبي الكريم أن يعرض عن رجل هو في ميزان الله فوق أولئك الرؤساء والزعماء، أصحاب الجاه الواسع، والمكانة العالية... والثراء العريض.. حتى ولو كان النبي ﷺ مشغولاً معهم بأمر يخصّ الدعوة والاسلام لا بأمر شخصي أو له علاقة بالنبي نفسه عليه الصلاة والسلام...

ونقف أولاً عند الفاصلتين الأولى والثانية. إن دور هاتين الفاصلتين من حيث إحكام اللفظ، والنسق والموسيقى مع سائر الفواصل الأخرى واضح لا يحتاج إلى تعليل.. ولكن نقول: إن وراء هذا الإحكام إحكاماً آخر كذلك من حيث المعنى والفحوى: فكلمة «تولّى» صوّرت إعراض النبي النفسي أو الداخلي إذا ما قارنتها بكلمة «عبس» التي صورت حالة النبي ﷺ التي ارتسمت على وجهه الشريف. ومعنى ذلك أن هاتين الكلمتين استقلتا بتصوير حالة الإعراض التي ألّمت بالنبي الكريم من حيث الظاهر والباطن... واذكر مع هذا أن العبوس الذي صورته «عدسة» الآيات القرآنية عن الوجه الشريف لم يره عبد الله الذي عبس النبي في وجهه لأنه كان أعمى!! واذكر كذلك أن «التولي» الذي سجّلته الآية أو الكلمة القرآنية، والذي تعجز عن تسجيله العدسات وسائر أدوات الالتقاط والتصوير... هو حالة نفسية داخلية.. وأنها لا يراها البصير.. فقد أكون مقبلاً عليك بحديثي من حيث الظاهر ولكنني مُعرض عنك من الداخل أو من الناحية النفسية الشعورية الباطنية... العبوس لم يره الأعمى، والتولي قد لا يراه البصير، ثم كانت المقابلة الهائلة والتلخيص الدقيق بكلمتين اثنتين: عبس وتولى. ولا داعي للإشارة بعد ذلك إلى أن تقديم «عبس» على «تولى» أو تأخير الثانية عن الأولى، هو الأصل من حيث ترتيب المعاني من حيث الظهور والخفاء.. وأنه كذلك هو الذي أسهم في بناء الفواصل على النسق الذي رأيت...

يضاف إلى ذلك أن الذي هيأ ومكّن لهذه الفاصلة التي رأيت هو مجيء الآيتين الأولى والثانية بصيغة الغائب، أو الشخص الثالث كما يقال، :﴿عبس وتولى. أن جاءه الأعمى﴾ ولم يخاطبه سبحانه وتعالى بقوله: «عبست وتوليت» ولو حصل ذلك لكان مفسداً لأمرْ الفاصلة والنظم الموسيقي؛ ولكان فيه كذلك إيحاش لقلب النبي الكريم حين يفاجأ بصيغة الخطاب تلك.. أو لكانت نبرة العتاب أقسى من أن يخاطب بها الله سبحانه نبيّه الكريم أو يبتدئه بها عليه الصلاة والسلام... وهذا كما هو واضح: من حيث المعنى، أو من حيث أدق

المعاني النفسية والشعورية... ولولا أن الكلام في الآيات الكريمة استوى إلى وضعه الأصلي ـ الخطاب ـ في الآية الثالثة: ﴿وما يدريك لعلّه يزكى﴾ لما علمنا بأن الآيات نزلت في شأن النبي الكريم عليه صلوات الله وسلامه مع بعض الصحابة في واقعة بعينها.

وحول الآية كذلك كلام آخر.. ولكن نكتفي بهذا القدر مشيرين إلى أن الفاصلة في الآية الثانية، وهي كلمة «الأعمى» جاءت بوصف الصحابي دون اسمه؛ تحمل في طياتها إشارة إلى سبب الإعراض عنه: أي ألأنه أعمى تعرض عنه وتقبل على رؤوس القوم؟!! أو تحمل في مدلولها الواضح القريب إشارة إلى أن هذه العاهة يجب ألا تحمل أحداً إلى يوم الدين أن يعرض عن أعمى في مثل هذا الموقف وشبهه تحت ستار أن هذا المرء لا يرى ما يجري بين يديه!!.. أو تحت أي ستار أو تعليل آخر... وفي هذا أيضاً إخراج للنص القرآني من أن تراد به حالة «تاريخية» خاصة.. وقد فهم منها بعض المفسّرين أنها تحمل ـ في إشارة أخرى ـ اعتذاراً عن عبد الله بن أم مكتوم الذي اقتحم على النبي مجلسه مع القوم!!

هذا من حيث المعنى، أما من حيث دور هذه الكلمة في بناء الفواصل مع كلمة «تولى» ثم مع سائر فواصل الآيات الأخرى «يزّكّى، الذكرى، استغنى..» فأوضح من أن يشار إليه...

ونكتفي بالحديث عن هاتين الفاصلتين، تاركين الكلام في سائرها إلى موضعه من دروس التفسير إن شاء الله. وإذا أردت أن تتابع بنفسك نمطاً من هذا القبيل ـ في ضوء ما تقف عليه من كتب التفسير ـ فإني أحيطك علماً بأن في وسعك أن تكتب في كلمتي «يسعى، يخشى» قريباً مما كتبت لك؛ لأن سعي الأعمى في طرقات المدينة صوّر حالته الجسّمية، وهو أمر ليس بالقليل في ميزان الله، ولأن كلمة «يخشى» صوّرت حالته الإيمانية الداخلية التي دفعته إلى ذلك السعي الذي لا يستوي فيه مع البصير!! وسبحان ذلك المقام الذي كانت تتنزّل منه هذه الآيات البيّنات...

ب ـ الشاهد الثاني: قال الله تعالى في سورة الحاقة ٦٩ في وصف القرآن الكريم: ﴿وما هو بقول شاعر، قليلاً ما تؤمنون. ولا بقول كاهن، قليلاً ما تذكّرون﴾ الآيتان ٤١، ٤٢.

ونقف هنا، سريعاً، أمام الفاصلة موضوع البحث، وهي الكلمة التي تختم بها الآية، دون الفاصلة الأخرى الواضحة في هاتين الآيتين.. جاءت فاصلة الآية الأولى: «تؤمنون» وفاصلة الآية الثانية «تذكّرون» فتم بهما التنويع والتلوين في النغم والنظم الموسيقي، وكانت الآية الأولى يناسبها من حيث المعنى أن تختم بما ختمت به لأن انفصال القرآن ومخالفته لنظم الشعر أمر واضح بيّن؛ فمن نسب القرآن إلى الشعر فقد قال ما قال كفراً وعناداً خالصاً... أو: لم يحمله على ذلك القول إلا الكفر والعناد، فناسب ذلك أن تختم الآية بقوله: «قليلاً ما تؤمنون»!! أما مخالفة القرآن الكريم لسجع الكهان، وكلاهما نثر، وفي القرآن الكريم عدد غير قليل من الآيات المسجوعة... فليست من الوضوح لكل أحد كمخالفة الشعر... وقد لا تظهر لبعض الناس إلا بتدبر القرآن والوقوف على أسباب بلاغته وفصاحته.. ومخالفة أسلوبه لكلام الكهان، فختمت الآية الثانية لذلك بقوله: «قليلاً ما تذكّرون»!.

اختلاف الفواصل في آيات متماثلة:

وأخيراً، فإننا تأكيداً لما ذكرناه في هذه الفقرة من أن «إحكام» المعنى الذي تؤدّيه الفاصلة القرآنية يجب البحث عنه في سياق الآية أو الآيات.. نختم الكلام هنا بشاهد قرآني اختلفت فيه الفواصل القرآنية في آيات متماثلة، وهو ما أسماه الزركشي: «اختلاف الفاصلتين في موضع، والمحدَّث عنه واحد»: قال الله تعالى في سورة إبراهيم ١٤: ﴿وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار﴾ ـ الآية ٣٤ ـ ثم قال تعالى في سورة النحل ١٦: ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفورٌ رحيم﴾ ـ الآية ١٨ ـ.

قال ابن المنيِّر المالكي: «كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها، وأنا معطيها؛ فحصل لك عند أخذها وصفان: كونك ظلوماً، وكونك كفّاراً. ولي عند إعطائها وصفان، وهما أني غفورٌ رحيم؛ أقابل ظلمك بغفراني، وكفرك برحمتي، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير، ولا أجازي جفاءك إلا بالوفاء».

وهذا حسن، كما قال الزركشي، ولكن السؤال محلّ البحث: لماذا خصصت آية سورة النحل بوصف المنعم، وآية سورة إبراهيم بوصف المنعم عليه؟ قال الزركشي: «والجواب أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جُبل عليه؛ فناسب ذكرُ ذلك عقيب أوصافه. قال تعالى: ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفُلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار. وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنّهار. وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلومٌ كفّار»﴾.

«وأمّا آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى، وإثبات ألوهيته، وتحقيق صفاته؛ فناسب ذكرُ وصفه سبحانه» (راجع الآيات من أول سورة النحل).

قال: «فتأمل هذه التراكيب، ما أرقاها في درجة البلاغة![1]».

التصدير والتوشيح:

وقد تحدث علماء البلاغة عما يكون في الآية مما يشير إلى الفاصلة ويمهد لها.. ويسمون ذلك تصديراً وتوشيحاً. أما **التصدير** فهو أن تكون الكلمة أو «اللفظة» قد تقدمت «مادّتها» في الآية ـ ويسمونه: ردّ العجز على الصدر كقوله تعالى في سورة طه ٢٠: ﴿قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾ ـ الآية ٦١ ـ ومعنى: **يسحتكم**: يستأصلكم بالإهلاك..

(١) البرهان ٨٦/١.

وكقوله تعالى في سورة التوبة ٩ :﴿فما كان الله ليظلمهم ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون﴾ـ الآية ٧٠ ـ .

وقوله تعالى في سورة الأنعام ٦ :﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزورون﴾ الآية ٣١ .

وفي ذلك وشبهه ما يدل على التحام الفاصلة بالآية التحاماً تاماً كما هو واضح :﴿ولقد استُهزىء برسل مِن قَبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾.

ويلاحظ هنا بعض المفسّرين والبلاغيين أن الآية القرآنية تهيء في بعض الأحيان لفاصلة بعينها .. ولكن سرعان ما تجد الآية قد ختمت بغيرها . . . لا في سبيل مراعاة سائر الفواصل السابقة واللاحقة في النص القرآني ، ليتم له بذلك موسيقاه الخاصة . . لا في سبيل ذلك فحسب ، ولكن في سبيل إحكام المعنى ، أو بعبارة أخرى : يأتي القرآن الكريم بغير تلك الفاصلة إيثاراً لما هو ألصق بالمعنى ، وأشد وفاءً بالمراد ، قال الله تعالى في سورة البقرة :﴿وإذْ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً! قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ـ الآية ٦٧ ـ فقد يقع في النفس أن تأتي الفاصلة يستعيذ فيها موسى عليه السلام أن يكون من المستهزئين . . ولكن عدل إلى مادة « الجهل » إشارة إلى أن الاستهزاء بالناس جهل وسفه لا يليق أن يصدر من صاحب خلق ودين ، بالإضافة إلى أن الفواصل السابقة هي : « الخاسرين ، خاسئين ، للمتقين . . » .

أما التوشيح فهو أن يكون « معنى » الآية مشيراً إلى هذه الفاصلة ؛ كقوله تعالى في سورة آل عمران ٣ :﴿إن الله اصطفى آدَم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عِمرانَ على العالمين﴾ـ الآية ٣٣ ـ « فإن معنى اصطفاء المذكورين يعلم منه الفاصلة ؛ إذ المذكورون نوع من جنس العالمين »[1] .

---

(١) البرهان ١/٩٥ .

ومثّلوا له كذلك بقوله تعالى في سورة « يس »﴿وآيةٌ لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مُظلمون﴾ - ٣٧ - .

٣ - لمحة عن أنواع الفاصلة:

تبيّن لك من خلال الشواهد التي عرضنا لها في هذا الفصل مدى إسهامها في النغم والنظم الموسيقي في القرآن. وقد يشتد هذا التقارب الموسيقي في الفواصل، حتى تتحد الفاصلتان - أو الفواصل - في الوزن والقافية، كما في قوله تعالى في سورة الطور :﴿والطُّور . وكتاب مسطور . في رقٍ منشور . والبيت المعمور﴾وقوله تعالى في سورة الغاشية :﴿فيها سُررٌ مرفوعة . وأكوابٌ موضوعة﴾ وقوله تعالى في ختامها :﴿إن إلينا إيابهم . ثم إنّ علينا حسابهم﴾. ويسمي البديعيون هذا النوع من الفواصل : المتوازي .

وقد تختلفان في الوزن ، ولكنهما تتفقان في حروف السجع ، كقوله تعالى في سورة نوح :﴿مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا﴾. ويسمون هذا النوع : المطرَّف .

وقد تتساوى الفاصلتان في الوزن دون التقفية - وهو الذي يسمونه : المتوازن - كقوله تعالى في سورة الغاشية : ﴿ونمارقُ مصفوفةٌ وزرابيُّ مبثوثة﴾ وقوله تعالى في سورة الصافّات :﴿وآتيناهما الكتاب المُستبين . وهديناهما الصراط المستقيم﴾. وقوله تعالى في سورة المعارج :﴿كلاّ إنها لظى . نزّاعةً للشوّى . تدعو من أدبَر وتَولّى . وجمع فأوعى﴾. وهذا النوع في القرآن كثير ، وفي المفصَّل خاصةً في قصاره[١] .

وأخيراً ، قد تختلفان وزناً وقافية ، ولكنهما تتقاربان كقوله تعالى :﴿الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين﴾ وقوله في سورة ق :﴿ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾وهذا لا يسمى سجعاً لأن السجع ما تماثلت حروفه .

---

(١) البرهان ١/٧٧ .

ويمكن أن نعود بهذه الأنواع إلى قسمين: ما تماثلت حروفه في المقاطع، أي الفواصل المتفقة في الحرف الأخير. وتسمى: **متماثلة**. والقسم الثاني: ما عداها وتدعى **متقاربة**، وهي التي تقاربت حروفه في المقاطع ولم تماثل. ولا تخرج الفواصل عن هذين النوعين.

هذا، وقد تتفق الفاصلتان لا في الحرف الأخير فحسب، ولكن في حرف قبله أو أكثر.. حيث يبلغ النظم الموسيقي وسائر ضروب الإيقاع قمة السلاسة واللين والجمال، على عكس ما تراه في السجع المتكلّف عند الأدباء والكتّاب، وكما سنعرض له في الفقرة التالية.

مثال التزام حرف ـ أي قبل الحرف الأخير ـ قوله تعالى في سورة الشرح: ﴿ألم نشرحْ لك صدرك. ووضعنا عنك وزْرك. الذي أنقض ظهرك. ورفعنا لك ذكْرك﴾ وقوله تعالى في السورة ذاتها: ﴿فأما اليتيم فلا تقهرْ. وأما السائل فلا تنهر﴾.

ومثال ما اتفقا في حرفين قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿وقيل: مَن راقْ. وظنَّ أنه الفراق﴾ وقوله تعالى في سورة الطور: ﴿والطُّور. وكتابٍ مسطور﴾ وفيها أيضاً: ﴿إنّ عذاب ربِّك لواقع. ماله من دافع﴾.

ومثال التزام ثلاثة أحرف: قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إنّ الذين اتّقوا إذا مسهَّم طائفٌ من الشيطان تذكّروا، فإذا هم مبصرون. وإخوانهم يمدّونهم في الغيّ، ثم لا يُقصِرون﴾ الآيتان ٢٠١ ـ ٢٠٢.

٤ ـ بين الفاصلة والسجع والشعر:

يظهر من هذا أن الفواصل تفترق عن الأسجاع عندما تكون هذه الفواصل متقاربة لا متماثلة. أما الفواصل المتماثلة فكلها مسجوعة بالطبع، ولهذا قال ابن سنان في تعريف الأسجاع إنها (حروف متماثلة في مقاطع الفواصل) قال: «وأظن أن الذي دعاهم إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً: رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من

الكلام المرويّ عن الكهنة وغيرهم! ».

ونحن لا نرى مانعاً من تسمية ما تماثلت حروفه سجعاً كما سنوضح لك في الفقرة التالية، ولكننا آثرنا هنا أن نتحدث عن الفاصلة بنوعيها الرئيسيين قبل مناقشة موضوع وقوع السجع، أو عدم وقوعه في القرآن، لأن هذه مسألة اختلف حولها البلاغيون والنقّاد، في حين أن مسألة الفواصل لم تكن موضع خلاف كما هو واضح من كلام ابن سنان.

وإذا كانت الفاصلة في الآية كالقافية في الشعر، فقد رأينا كذلك بعض ما تختلف فيه الفاصلة عن القافية؛ حينما تتقارب الفواصل ولا تتماثل. ولكن القوافي في واقع الأمر فواصل لأنها تفصل آخر الكلام، وخصت فواصل الشعر باسم القوافي لأن الشاعر يقفوها، أي يتّبعها في شعره لا يخرج عنها. قال الزركشي: « ويمتنع استعمال القافية في كلام الله تعالى لأن الشرع لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه لأنها منه، وخاصَّةٌ به في الاصطلاح. وكما يمتنع استعمال القافية في القرآن؛ لا تطلق الفاصلة في الشعر لأنها صفة لكتاب الله لا تتعداه »[1].

والأمر البلاغي، أو النقدي، الذي تفترق فيه الفاصلة القرآنية من القافية الشعرية أن من المعيب في الشعر أن تتكرر القافية قبل سبعة أبيات، وليس ذلك بعيب في الفاصلة؛ إقرأ إن شئت قوله تعالى في آخر سورة مريم ١٩: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً. تكادُ السموات يتفطَّرن منه وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبال هداً. أن دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إنْ كلُّ من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدَّهم عدّا. وكلُّهم آتية يوم القيامة فردا...﴾ ٨٨ ـ ٩٥ وانظر الآيات الثلاث المتبقية من السورة الكريمة.

ولكن يجب البحث عن سرّ هذا التكرار في سياق الآيات ذاتها التي

---

(١) البرهان ١/٥٨.

تكررت فيها هذه الفاصلة... وقد حاولنا ذلك في بعض المواطن القرآنية.. والذي يمكن قوله في الشاهد السابق ـ على سبيل المثال ـ أن هذا التكرار جاء في معرض الرد على هذه الدعوى الكاذبة، فناسبها أن تردّ هي عينها... وبحروفها، دون أدنى زيادة أو نقصان، إلى جانب ما تحمله من دلالة أخرى واضحة كذلك، وهي التي مهّد لها بكلمة «وما ينبغي»، وهي أن مقام الألوهية أعلى من أن ينفعل لمثل هذه الفرية الكاذبة، وهذا التطاول الأرعن... فلم تزد الآية الكريمة على أن ردّت عليهم قولهم ـ كما هو ـ بقوله تعالى: ﴿وما ينبغي...﴾ وهذا هو طابع الكبرياء والعظمة ـ الذي أشرنا إليه في السابق ـ تقف عليه في هذا السياق القرآني، جلياً دقيقاً، من خلال هذا التكرار للفاصلة القرآنية!

وأخيراً تحسن الإشارة هنا إلى مجيء بعض الفواصل المفردة، وبخاصة في نهاية بعض السور القرآنية، وإن كانت قد وردت كذلك في ثنايا بعض السور ـ وكل هذا مما يجعلها مغايرة للسجع والشعر ـ.

وحينما تنتهي السورة بفاصلة منفردة تكون لها كالمقطع ـ أو اللحن ـ الأخير. ويمكن لنا هنا أن نتذكر ما قدمناه، في الطرف المقابل، من الدلالة الفنية ـ أو الموسيقية ـ والدور الاستهلالي لفواتح السور. قال تعالى في ختام سورة الضحى: ﴿فأما اليتيم فلا تَقْهر. وأما السائل فلا تنْهر. وأما بنعمة ربك فحدّث﴾. وقال تعالى في ختام سورة العلق: ﴿كلا لئن لم ينته لنسفَعنْ بالناصية. ناصيةٍ كاذبة خاطئة. فليدعُ ناديه. سندع الزبانية. كلا لا تُطعه واسجُد واقترب﴾.

ولهذه الفواصل كذلك دلالات أخرى لا مجال هنا للإفاضة فيها، ولمن شاء أن يطلبها في سياق الآيات كما هو معلوم. ونقول مثل ذلك في الفواصل المفردة التي توسطت بعض السّور ـ راجع سورة عبس، وسورتي البلد والانشقاق ـ والتي تشير في بعض الأحيان الى الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله السورة، أو إلى أمر بارز يجدر بالقارىء ألا يُدغمه في سائر ألحان النص الأخرى المتقاربة أو

المتماثلة ـ وهذا الأمر كما لاحظنا يحمل طابع التفرد على وجه العموم بغض النظر عن مكان ورود هذه الفاصلة ـ وغالباً ما يكون « فاصلا » بين نوعين من أنواع فواصل النص وألحانه... غير مقطوع الصلة باللحن الأول.. وممهداً في الوقت ذاته للحن الثاني الذي يليه... والله تعالى أعلم.

★ ★ ★

- ٢ -

السجع القرآني

ونصل أخيراً للحديث الخاص، والسريع، عن السجع، بعد أن وقفنا على الكثير من مزاياه في الآيات القرآنية من خلال ما قدمناه عن الفواصل المتماثلة، وما اتفقت فيه من حروف كذلك في غير حرف السجع الأخير. ويبدو أن من أنكر وقوعه في القرآن يكتفي بالحديث عن الفواصل، يقول: وقد وصف الله تعالى كتابه بأنه (فُصلت آياته) فلا حاجة لوصفه بالسجع الواقع في كلام آحاد الناس، وكلام الله صفتُه، فلا نصف القرآن بالسجع، أو بغير ما وصفه الله تعالى نفسه.

وعلى الرغم من أن الخلاف في نهاية المطاف لفظي أو شكلي بحت، إلا أننا نؤثر أولاً أن نقدم بكلمة نلمّ فيها بمكانة السجع في الأدب العربي تكون دليلاً بين يدي الموازنة والترجيح:

تحدث بعض النقاد عن هذه المكانة فذكر أن السجع الفني كان سمة بارزة لبعض النصوص الأدبية العالية على مر العصور، وأن العصور المتأخرة إذا كانت قد أساءت فهمه لمجيئه على نحو متكلف، أو على النحو الذي أشار إليه الرمّاني حين قال في السجع: هو الذي يُقصد في نفسه، ثم يحيل المعنى عليه! أما الفواصل فهي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها؛ فإن ذلك لم يطفىء بريق الأصيل من إنتاجه في سالف العهود، ولم يذهب متعة المتذوقين لفنّه الموسيقي.

قال: «وقد بقي الكلام المسجوع على هذا النحو أعلق بالحافظة من أساليب الترسّل، لذلك ضمن حظاً من البقاء لم يتح للكلام المطلق؛ إذ كان أدنى إلى الشعر بإحكام مقاطعه، ورنَّة موسيقاه!... ولما له من دور بارز في الترجمة الصادقة عن المشاعر، والنقل الحي عن الخواطر. ولو كان مجرّد حلية لفظية

تقف عند الشكل وحده لما استطاع تخطي العصور القديمة إلى عصر الثقافة المترفة بطابعه الآسر ورنّته الساحرة.

وما كان السجع حلية شكلية إلا لدى الأدعياء من ذوي الرصف الحجري والبناء المعجمي ـ كما يقول الدكتور بيومي ـ ومثل هؤلاء لا يجدون من الإقبال والحظوة نصيباً ما إلا إذا تأخرت الأذواق في عصور النكسات الأدبية المظلمة! ».

ومهما يكن من أمر السجع في الجاهلية فإن السجع الذي ورد في القرآن كان له دوره الفني البارز في إحكام المبنى والمعنى جميعاً، وأن ما فيه من ملاءمة منسقة وإيقاع مؤثر.. وترتيب وتفصيل اتسعت للأغراض القرآنية المتعددة.. وللأغراض المكيّة على وجه الخصوص... وبعيداً، في الوقت نفسه، عن أن يُدرس أو يُحكم عليه من خلال صورة الفساد أو الخلل الذي لحق بالسجع في بعض العصور، أو من خلال عجز أصحابه عن الخروج به إلى الكثير من الأغراض والموضوعات. استمع هنا إلى هذه الآيات من سورة الواقعة، وتملَّ ما فيها من عرض وتصوير، واستمالة وتأثير، وجدل وحجاج، وحجة وبرهان... ودلالة تدخل من جميع أقطار النفس الانسانية على العليم الخبير، وعلى التنزيل الحكيم:

قال تعالى:﴿نحن خلقناكُم فلولا تصدّقون. أفرأيتُم ما تُمنون. أأنتم تخلقونه أم نحنُ الخالقون. نحن قدّرنا بينكم الموتَ وما نحن بمسبوقين. على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون.

ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكّرون، افرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاءُ لجعلناه حطاماً فظلْتم تفكَّهون، إنا لمغْرمون. بل نحن محرومون. لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون. أفرأيتم النار التي تُورون. أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون، نحن جعلناها تذكرةً ومتاعاً للمقوين، فسبِّح باسم ربك العظيم. فلا أُقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتابٍ مكنون. لا يمسُّه إلا المطهّرون. تنزيلٌ من رب

العالمين﴾الآيات ٥٧ - ٨٠ .

وإذا ثبت أن السجع المطبوع فن ضروري لا زينة شكلية ، وأنه يقدِّم من ألوان الحجاج والإقناع قدر ما يتيح من فنون البهجة والإمتاع ، فإننا نتقدم بعد ذلك إلى مناقشة القائلين بنفي السجع عن القرآن :

وأكثر من أفاض في الأسلوب القرآني ونفي السجع عنه الإمام الباقلاني في كتابه « إعجاز القرآن » . وقد قدَّم في ذلك دراسة أدبية منطقية ، وإن كانت أدلة المنطق غالبةً فيها على نواحي البيان! :

١ - قال الباقلاني : « ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك اعجاز . ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألفه الكهّان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن الكهانة تنافي النبوّات وليس كذلك الشعر[1] »!!

ومع إهمال الإشارة إلى التعميم في الحكم الذي توهمه عبارة الباقلاني : « ولو كان القرآن سجعاً » - لأن القرآن ليس جميعه مسجوعاً ، ولكن وقع فيه السجع كما قدمنا ، وإن كان الموضوع يبقى مطروحاً على كل حال - فإن هذا الكلام من الباقلاني يذكرنا بمفهوم فاسد لكلمة « النظم » لم يقصد إليه عبد القاهر ، ولا نظننا نقبله على كل حال - كما أشرنا إلى ذلك إشارة عابرة في مبحث الإعجاز - فالقرآن عند الباقلاني قد خرج عن الأساليب العربية المعهودة وسبق إلى أسلوب جديد!! ولو كان الأمر كذلك لصح الإعجاز في أول شاعرٍ وأول خطيب ، كما قال بعضهم ، والحق أن القرآن الكريم نزل بلسان عربيٍ ، وهو من حيث الأساليب البيانية نثر . والإمام عبد القاهر كما قدمنا تحدث عن هذا « النظم » النثري الفريد ، الذي باين به القرآن كلام العرب في الجاهلية بارتفاعه عليه وسموّه فوقه ؛ ولم يتحدث عن « النظم » كأسلوب جديد من

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص٨٦ .

أساليب البيان هو بين النثر والشعر!! أو من فنون النثر التي كانت معهودة عند العرب؛ قال الله تعالى: «ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا: لولا فصّلت آياته أأعجمي وعربي؟!».

أما قول الباقلاني «لو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا شعر معجز! فلا يصح على أبسط الاعتبارات لأن للشعر أوزانه وقوافيه التي تمنع أن ينتسب اليها القرآن!! وماذا علينا أن نقول: انه سجع معجز، ولا يلحق القرآن بذلك ذرة من عيب!» وإذا كان السجع مما ألفه الكهان من العرب في الجاهلية، فذلك لا يمنع أن تأتي بعض الآيات الكريمة مسجوعة دون اشتباه بينها وبين سجع الكهان ـ على الإطلاق ـ لأن السجع الجاهلي لم يكن حجراً محجوراً على الكهنة حتى يلحق به كل سجع يقال!...

٢ ـ على أن الخلاف مع الباقلاني فيما ذهب اليه من نفي السجع عن القرآن، ربما كان في واقع الأمر خلافاً لفظياً، إذا نظرنا إلى «الحد» الذي وضعه الباقلاني للسجع، استمع اليه يقول: «والذي يقدّرونه أنه سجع فهو وهمٌ، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع، وإن لم يكن سجعاً، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض؛ لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى. وفصْلٌ بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى»[1].

نعم هذا السجع من الكلام «الذي يتبع المعنى فيه اللفظ» لا وجود له في القرآن البتَّة، بل السجع الموجود في القرآن ـ كما سنوضح في دراستنا

---

(١) إعجاز القرآن ص٨٨.

التطبيقية ـ يكمل المعنى ، ويؤدّيه على أدق وجوه الأداء ، وعلى أجملها وقعاً في النفس ، وأعذبها جرساً في الأذن . . . وبخاصة إذا لاحظت أنه يقع في القرآن جزءاً من الفواصل الموسيقية التي يختلف جرسها وتتنوع نبراتها . . . شدة وليناً . وعنفاً وهدوءاً وتماوجاً وطولاً وقصراً . . الخ بحسب الموضوع الذي تعالجه الآيات ، والصور التي ترسمها . . . كل هذا بدون أن تحيف الفاصلة على المعنى ، أو الشكل على المضمون ، بل على العكس من ذلك تماماً .

فإذا لم يكن للباقلاني أن يحدّ السجع بما حدَّه به ، لأن السجع الذي يعتدّ به عند البلغاء هو ما انقاد فيه اللفظ إلى المعنى ، وانضاف اليه ، مع ذلك ، خفَّة وقعه على السمع ـ كما يُنقل عن الصاحب بن عباد حين سئل عن أجمل السجع ، فقال : ما خفَّ وقعه على السمع! فقيل له مثلُ ماذا ؟ فقال : مثل هذا ـ إذا كان هذا هو السجع فقد ورد منه في القرآن أجمله وأدقُّه وأكمله . وهذه السور القرآنية بين أيدينا مرة أخرى وهذه سورة الشمس توضح هذا الذي نقول :

قال تعالى :﴿والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاّها . والليل إذا يغْشاها . والسماء وما بناها . والأرضِ وما طحاها . ونفس وما سوَّاها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكَّاها . وقد خاب من دسَّاها . كذَّبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسُقياها . فكذَّبوه فعقرُوها . فدمْدم عليهم ربُّهم بذنبهم فسوَّاها . ولا يخافُ عُقباها﴾ .

ليس هذا فحسب ، بل إننا لنجد في هذه السورة ما يوضح الخطأ الذي وقع فيه الباقلاني أيضاً حين قال : « لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه سجعاً لكان مذموماً مرذولاً لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحاً في الكلام . وللسجع منهجٌ مرتَّب محفوظ ، وطريق مضبوط متى أخلَّ به المتكلم أوقع الخلل في كلامه ، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً ، وكان شعره مرذولاً ، وربما أخرجه عن كونه شعراً » .

نحن ما نزال في حدود خاصة وضعها الباقلاني للسجع لم تعرف! ولكننا نكتفي في هذه السورة بالإشارة إلى أن مقطعها الأول يسير على نظام مطّرد

وقياس مضبوط، وإلى أن مقطعها الثاني قد اختلف قصراً وطولاً دون أن يقلل ذلك من روعة النظم وقوة الإيقاع الذي يجري في السورة كلها - في الواقع - على لحن موسيقي واحد!! ودون أن يجور اللّفظ على المعنى بوجه من الوجوه!!

وقد أشار ابن سنان الخفاجي في كتابه «سرّ الفصاحة» إلى موضوع السجع في القرآن فرد على من قال: إذا كان السجع عندكم محموداً، فهلا ورد القرآن كله مسجوعاً... رد ابن سنان بقوله: «إن القرآن أنزل بلغة العرب، وعلى عرفهم وعادتهم، وكان الفصيح منهم لا يكون كلامه كله مسجوعاً لما في ذلك من أمارات التكلّف والاستكراه والتصنع، **ولا سيما فيما يطول من الكلام**؛ فلم يردْ كله مسجوعاً جرياً منه على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم، ولم يخل من السجع لأنه يحسن في بعض الكلام على الصفة التي قدمناها».

وكأني بابن سنان يشير إلى أمر جوهري يمكن أن يستشف من خلال كلامه، وهو يذكّرنا في الوقت نفسه بما قدمناه عند الحديث عن الخصائص الفنية لكل من الآيات المكية والمدنية، وما رجحناه من السبب الحقيقي في اختلاف هذه الخصائص؛ من أنها نابعة من اختلاف الموضوعات التي تضمنتها الآيات المكية والمدنية، وأن كل موضوع تناسبه حلية لفظية لا تناسب الموضوع الآخر.

يُفهم من كلام ابن سنان «**ولا سيما فيما يطول من الكلام**» أن السجع ليس زينة يؤتى بها - ولو على شروطنا السابقة في السجع الذي لا يكون فيه المعنى تابعاً للفظ - في كل موضع، لأن الطويل من الكلام إذا كان يصلح لأداء الأحكام التشريعية الدقيقة، وما يتبعها من مسائل الأخلاق والعادات والتسبيح والتحميد، والضراعة والدعاء... ونحو ذلك، على نحو ما جاءت الآيات المدنية كما ذكرنا، فإن السجع هنا ليس هو الحلية المناسبة، والبيان الملائم، بمقدار ما يؤدي هذا الدور في الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وذكر الجنة والنار، والزراية بالأصنام والأوثان، وسرد العبر من قصص الغابرين والهالكين...

وهذا الذي أشار إليه ابن سنان، تابعه فيه حازم القرطاجني «شيخ

البلاغة والأدب » حين قال في كتابه: « منهاج البلغاء »: « إن السجع لما كان زينة للكلام فقد يدعو إلى التكلف، فرئي ألا يستعمل في جملة الكلام، وأن لا يُخلى الكلام بالجملة منه أيضاً ولكن يقبل من الخاطر فيه ما اجتلبته عفواً، بخلاف التكلّف » وهذا هو ما ذكره قبلهما كذلك أبو الفرج قُدامة بن جعفر صاحب كتاب « نقد الشعر »[1].

ثم قال حازم في كلام العرب: « وإنما لم يجيء على أسلوب واحد، لأنه لا يحسن في الكلام جميعاً أن يكون مستمراً على نمط واحد؛ لما فيه من التكلّف، ولما في الطبع من الملل عليه. ولأن الافتنان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد » قال: « فلهذا وردتْ بعض آي القرآن متماثلة المقاطع، وبعضها غير متماثل ».

ومعنى ذلك أن لكل منحىً إيقاعه، ولكل حديث نبرته وموسيقاه؛ وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال الأسجاع نفسها في السورة الواحدة في بعض الأحيان « لأن اللّحن لا يمضي على وتيرة واحدة إلا إذا اتحد الغرض فوافق الثوبُ الجسم موافقة تنطق بالتلاؤم والتجانس، وتقرن المثيل بالمثيل » كما يقول بعض النقاد.

الأسلوب القرآني بين السجع والإرسال:

أشرنا بقولنا السابق إن في القرآن سجعاً، أو إن القرآن منه المسجوع، إلى أن منه المرسل كذلك. ونؤكد هنا ـ بما نذكره من ألوان سجع القرآن وإرساله ـ أن القرآن في كليهما يخالف ما ألف الناس في السجع والإرسال:

فالقرآن يلتزم حرف السجع في أكثر من آيتين، بل قد تكون السورة كلها على حرف واحد، كسورة « القمر » التي التُزم فيها حرف الراء. ومن أمثلة ما تعدى فيه السجع جملتين سورة « عبس » التي سبقت الإشارة إليها.

---

(١) راجع البرهان للزركشي ١/٥٩ ـ ٦٠.

وقد تكون الجملتان المسجوعتان متوازنتين في القصر، كما في قوله تعالى: ﴿إذا الشمس كُوِّرت. وإذا النجوم انكَدرتْ. وإذا الجبال سُيِّرت. وإذا العِشار عُطِّلت. وإذا الوحوش حُشرتْ﴾ وحيناً تتوازنان في الطول، ولا يكون باقياً من مظاهر السجع سوى هذه الفاصلة التي تتفق في آخر الآيات، أما الآيات نفسها فمرسلة وإن كانت لا تتفق مع مرسل كلام الناس لوجود الفاصلة المتحدة أو المتماثلة في آخرها، كما ترى ذلك في قوله تعالى في سورة «غافر» ٤٠: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً، والسماء بناءً، وصوّركم، ورزقكم من الطيبات، ذلكم الله ربُّكم، فتبارك الله رب **العالمين**.

هو الحيُّ، فادعوه مخلصين له الدِّين، الحمدُ لله رب **العالمين**.

قل إني نهيتُ أن أعبد الذين تدعون من دون الله، لمَّا جاءني البيّناتُ من ربي، وأمرت أن أسلم لرب **العالمين**.

هو الذي خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم يخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أَشُدَّكم، ثم لتكونوا شيوخاً، ومنكم من يتوفَّى من قبل، ولتبلغوا أجلاً مُسمى، **ولعلَّكم تعقلون**.

هو الذي يحيي ويميت، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كنْ فيكون﴾ الآيات ٦٤ - ٦٨.

وفي هذه الآيات، فضلاً عن ذلك، مظهر من مخالفة السجع القرآني لسجعنا العادي؛ فبينما يجلب تكرير الكلمة، لغير تورية أو جناس، ضعفاً في التأليف؛ إذْ به في نظم الآي يزيدها جمالاً ورونقاً، وكأنما هذه الكلمة لازمة النشيد! - كما يقول الدكتور بدوي - تكرّر فتزيده جمالاً وحُسنا.

تعقيب أخير على الفاصلة والسجع:

والكلمة الأخيرة التي نختم بها هذا الفصل هي أن كل هذه الألوان المونقة الزاهية... والألحان المنوّعة المتناغمة يجب أن تعود إلى تأملها وسماعها مرةً أخرى في ضوء سائر ضروب الالتزام التي حدثناك عن بعضها في مبحث

الإعجاز . . . لتشهد بنفسك مرة أخرى لوناً آخر أو فناً آخر من فنون الإعجاز البياني في هذا النظم الإلّهي الخالد!

وانظر كذلك إلى أثر هذه الألحان الفريدة التي وقفت على طرف منها في الفاصلة والسجع . . . في تسهيل حفظه على الناس . . حتى إن صفحات القرآن ـ الستمائة ـ لتحفظ عن ظهر قلب خلال شهور أو أسابيع . . . ولا أشرح لك هنا كيف أن هذا الكتاب الكريم « لا يَخلق على كثرة الرّد » ـ أي لا يملّ سماعه ولا يبلى جديده لو كُرّر ألوف المرات ـ ولكني أكتفي بهذا السؤال : ما هو عدد النصوص النثرية . . . أو عدد السطور النثرية التي يحفظها أحدنا الآن!! أو التي في وسعه أن يذكر بعضها إذا حضرت المناسبة ، وجاء الأوان . وصدق الله العظيم الذي أنزل في محكم تنزيله : « ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » وقد حدثتك في الماضي عن حفظ هذا الكتاب الكريم في الصدور . . . ولكن أذكر هنا أن هذه الآية الكريمة : « ولقد يسَّرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكِّر » قد تكررت في سورة القمر أربع مرات . . . حتى كانت لهذه السورة المكية ذات الإيقاعات السريعة العاصفة التي تلمس أوتار النفس الإنسانية مباشرة ومن أقرب طريق . . . حتى كانت لها بمثابة اللازمة التي تأتي بعد كل مشهد من مشاهد تعذيب المكذّبين من الأمم السابقين . .

هذه الآية التي تكررت في هذه السورة تشير كذلك إلى طابع التيسير وتسهيل حفظ القرآن وتيسير أسباب فهمه للناس . . وأن نكوص الناس عن ذلك وتخلّفهم عنه إنما هو لعلّةٍ في أنفسهم ، فالقرآن ميسّر ، ولكن « هل من مدَّكِّر » أي فاهم متعظ؟!! . . . ولكن لعلّ في هذا التكرار الذي جاء في هذا السياق ما يشي كذلك بأننا أمام خيارين : إما الإدّكار والفهم والعقل عن القرآن . . . وإما الشقاء والهلاك الذي حاق بأولئك المكذّبين . . وفي الفصل التالي : الكلمة الأخيرة في الكتاب عن هذا البيان . .

الفصل الخامس

الصُّورة القرآنيّة بين المضمون والأسلوب

وأخيراً، فإننا نختم هذا الباب بالعودة إلى المسألة التي عرضنا لها في فصله الأول والتي أثارها الجاحظ رحمه الله.. ووجدنا فيها لوناً من ألوان التسهيل على من تحداهم القرآن، وهي مسألة الافتراء، «فهاتوا مفتريات»[1]!

نعود إليها لنسأل في نهاية المطاف: هل معنى إعفاء العالمين الذين تحداهم القرآن الكريم من الالتزام بأي مضمون، فضلاً عن إلزامهم بشيء من العلوم والمعارف القرآنية؛ يعفينا نحن من الحديث عن العلاقة بين مضامين القرآن وأسلوبه هو نفسه! أو بعبارة أخرى: هل يعفينا نحن من التماس أثر هذه المضامين في الأسلوب القرآني.

ومرة أخرى: نحن لا نعرض للموضوع هنا من زاوية دلالته على وقوع الإعجاز، أو مدى وقوعه الهائل أو البعيد - وهو يخلي أمامهم الطريق ويعفيهم من أي التزام كما قدمنا - ولكن من زاوية أثر هذا المضمون على الأسلوب أو فنّ العرض.. أو أثره في الصورة الأدبية العامة للقرآن الكريم؛ لأن هذا من حقّنا إن لم يكن من واجبنا كذلك، وبدونه قد تبقى ملامح عامة أساسية جداً يصعب فهم الكثير من جوانبها، على الرغم من كل ما قدمناه من الدراسة

---

(١) راجع الصفحة ٢٢٠

التفصيلية التي قدمها الدكتور دراز . بل نقول أبعد من ذلك : إن مثل تلك الدراسة هي التي تسلمنا إلى هذا الفصل ، وتفرض علينا النظر في هذه المسألة ؛ لأن « إقناع العقل وإمتاع العاطفة » و« خطاب العامة والخاصّة » ميزتان علاقتهما بخطاب الإنسان إذا كانت الميزتان السابقتان ، وهما « القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى » و« البيان والاجمال » علاقتهما بنفس البيان . أي إن السؤال هنا : كيف تم لهذا « البيان » أن يخاطب الإنسان . . . العامي منه والعالم والفيلسوف والكاتب والصغير والكبير جميعاً . . لأن هذا هو معنى قولنا : أقنع القرآن العقل ، وأمتع العاطفة . . وخاطب العامّة كما خاطب الخاصّة . . . وهاتان على كل حال هما الميزتان اللتان لم يشفعهما الدكتور دراز رحمه الله بمثل تلك الدراسة التي شفع فيها حديثه عن ميزة « القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى » . . وهذا هو ما نتولى الحديث عنه في هذا الفصل الأخير لملامح الإعجاز العامة ، أو خطوطه الرئيسية كما قلنا ؛ ويكفي الدكتور دراز رحمه الله فخراً أنه استطاع « رصْد » هذه الظواهر أو المزايا . . وترك المجال بعد ذلك مفتوحاً للمزيد من التفكير والنظر والاعتبار .

إن للقرآن الكريم حقائقه ـ أو « نظريته » الخاصة ـ عن الكون والحياة والإنسان . . . و« منهجه » الخاص في عرض هذه الحقائق . . كما أن له « أسلوبه » الخاص في خطاب النفس الإنسانية . وإن عدم وقوف الدارس على ذلك المنهج وهذا الأسلوب يفقده القدرة على الإحاطة بجوانب النص القرآني وأبعاده الحقيقية . . وربما أوقعه في خطأ فهم « براعة الانتقال » في النص القرآني الواحد . . . حتى ليظن أن هذا لون من ألوان التداخل في النص أو العرض القرآني . . . بل ربما أوقعه ذلك في « تمزيق » الصورة القرآنية الواحدة ، وإضاعة « الكل » المتناسق المنسجم المتناغم!

لقد خاطب القرآن الكريم في الإنسان « جُملته أو كينونته » البشرية ـ ان صح التعبير ـ أي أنه لم يخاطبه ذهناً مجرداً مرة ، وقلباً شاعراً مرة ، وحساً متوفزاً مرة أخرى! أو بعبارة أخرى : لم يخاطب فيه في السياق الواحد عقله

المجرد مرة ، وقلبه الشاعر مرة . . . وحسّه المتوفّز مرة أخرى ؛ بل خاطبه جملة ومن أقرب طريق . . وفي سياق واحد كما يبدو للقارىء في معظم الأحيان . لقد خاطب القرآن في الإنسان ـ كل إنسان ـ العقل والبديهة والقلب والنفس والحسّ جميعاً . . . وليس في وسع أحد من الدراسين أن يصنف « العرْض القرآني » في باب الفلسفة التي تخاطب العقل ، أو في باب الأدب والشعر الذي يخاطب النفس أو الشعور ، أو في باب التصوف الذي يتعامل مع الروح . . . أو في باب الفقه أو الفن . . . ـ أو التاريخ أو الحساب ـ في الوقت الذي عرض فيه القرآن الكريم لجميع هذه الأبواب ـ وسواها ـ من أبواب المعرفة على اختلاف محلها من الجملة الإنسانية . . وعلى اختلاف وسيلتها في الخطاب ، أو اختلاف أساليب العرض الإنساني الملائم لها كما هو معلوم .

ولقد خاطب القرآن الكريم « كينونة » الإنسان أو جُملته في كل مستوياتها كذلك ، « لأن الله تعالى لم يجعل خطاب الناس ـ العالم والعامي ، والفيلسوف والكاتب ، والصغير والكبير ـ بحقائق القرآن عن الحياة موقوفاً على علم سابق لهم ، لأن هذه الحقائق هي حاجة حياتهم الأولى . والتصوّر الذي تنشئه في عقولهم وقلوبهم هو الذي يحدد لهم طريقة تعاملهم مع الوجود كله ، ويحدد لهم كذلك طريقة اتجاههم لتعلّم أي علم وطلب أي معرفة » .

ولهذا فقد أنشأ القرآن بهذا الخطاب ـ وينشىء ـ « تصورات وتأثرات وانطباعات » لحقائق الوجود كلها ، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم أن تنشئها بهذا العمق ، وبهذا الشمول ، وبهذه الدقة . وبهذا الأسلوب أيضاً .

ويمكن هنا أن نورد النقاط التفصيلية الثلاث التالية ، مشفوعة بعد ذلك ببعض التطبيقات ، التي عرض لها « سيّد » المفسّرين المشتغلين بقضايا التفسير البياني وإعجاز القرآن :

أولاً : يمتاز هذا « العرض القرآني » بأنه مبرّأ من الانقطاع والتمزيق الملحوظين في الدراسات « العلمية » والتأملات « الفلسفية » والومضات

« الفنية » جميعاً! « فهو لا يفرد كل جانب من جوانب « الكلّ » الجميل المتناسق بحديث مستقل، كما تصنع أساليب الأداء البشرية. وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول، يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة، وحياة الناس في الأرض بحياة الملأ الأعلى... في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده، لأن الأسلوب البشري عندما يحاول تقليده في هذه الخاصية تبدو فيه الحقائق مختلطة مضطربة غامضة، غير واضحة ولا محددة ولا منسقة كما تبدو في المنهج القرآني.

وهذا الاتصال والارتباط في عرض جملة الحقائق في السياق القرآني الواحد، قد يختلف فيه التركيز على أي منها بين موضع وموضع، ولكن هذا الترابط يبدو دائماً. فعندما يكون التركيز في موضع من السياق القرآني مثلاً على تعريف الناس « بربهم الحق » تتجلى هذه الحقيقة الكبيرة في آثار القدرة الإلهية الفاعلة في الكون والحياة والانسان، في عالم الغيب وعالم الشهادة سواء... وعندما يكون التركيز في موضع آخر على التعريف « بحقيقة الكون »، تتجلى العلاقة بين « حقيقة الألوهية » وحقيقة « الكون » ويتطرق السياق كثيراً إلى حقيقة الحياة والأحياء، وإلى سنن الله في الكون والحياة.. وعندما يكون التركيز على « حقيقة الانسان » يتجلى ارتباطها بحقيقة الألوهية وبالكون والأحياء، وبعالم الغيب والشهادة على السواء.. الى آخر هذا النسق من العرض الواضح الملامح في القرآن ».

ثانياً: يمتاز هذا العرض كذلك بكونه يحافظ تماماً على إعطاء كل جانب من جوانبها ـ في الكل المتناسق ـ مساحته التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله ـ وهو الميزان ـ ومن ثم تبدو « حقيقة الألوهية » وخصائصها، وقضية « الألوهية والعبودية » بارزة مسيطرة محيطة شاملة، حتى ليبدو أن التعريف بتلك الحقيقة وتجلية هذه القضية هو موضوع القرآن الأساسي... وتشغل حقيقة عالم الغيب ـ بما فيه القدر والدار الآخرة ـ مساحةً بارزة. ثم تنال حقيقة

الانسان، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، أنصبة متناسقة تناسب هذه الحقائق في عالم الواقع. وهكذا لا تُدعم حقيقة من الحقائق ولا تهمل، ولا تضيع معالمها في المشهد الكلي الذي تعرض فيه هذه الحقائق... ».

والأمر الجدير هنا بالنظر والاعتبار، والمزيد من التدبر، والذي يوضح في الوقت ذاته مدى العلاقة والأثر بين المضمون والأسلوب في صورة القرآن الأدبية، أو فيما أسميناه «العرض القرآني» بوجه عام. أو بعبارة أخرى: إن الأمر الذي «يضع» أو «يمثّل» قاعدة هذه العلاقة ومعادلتها الدقيقة العميقة هو أن هذه الحقائق كما لا يطغى بعضها على بعض، في المضمون القرآني والفلسفة القرآنية[1]، كذلك لا يطغى بعضها على بعض في «منهج العرض القرآني» لمقوّمات هذه الفلسفة، وللحقائق التي تقوم عليها تلك المضامين. أي إن «التوازن» هو طابع المضامين والأسلوب جميعاً، بحيث تبدو «كلها» واضحة في «المشهد الفريد» الذي يُرسم «للكلّ» في السياق القرآني الواحد!

ثالثاً: ومن هنا ـ فيما يبدو ـ كانت هذه الميزة الأخيرة، وهي ميزة يمكن ملاحظتها في كثير من المواقف، حيث يقدم القرآن «حقائقه» المتوازنة تلك ـ عن الكون والحياة، والألوهية والعبودية ـ في مجالات لا يخطر للفكر البشري عادةً أن يلمّ بها، لأنها ليست من طبيعة ما يفكر فيه عادة، أو يلتفت إليه على

---

(١) في هذه الفلسفة لا ينتهي الإعجاب بالكون المادي ودقة نواميسه وتناسق أجزائه وقوانينه، إلى «تأليهه» كما تفعل مؤلهة العوالم المادية والأكوان الطبيعية.

ولا ينتهي الإعجاب بعظمة «الحياة» واهتدائها إلى وظائفها، وتناسقها مع نفسها، ومع المحيط الكوني، إلى «تأليهها» كما فعل أصحاب «المذهب الحيوي».

ولا ينتهي الإعجاب بالإنسان، وتفرده في خصائصه، والاستعدادات الكامنة في كيانه.. إلى تأليه الإنسان، أو العقل، في أي صورة من الصور!

بل لا ينتهي الإعجاب ـ أخيراً ـ والإجلال «للذات الإلهية» أو «الحقيقة الإلهية» في ذاتها إلى إنكار وجود العوالم المادية أو احتقارها، كما فعلت المذاهب الهندوكية والبوذية.

إن طابع «التوازن» هو من أوضح ما يميز الفلسفة القرآنية، والفكر الإسلامي على وجه العموم. أي أن هذه المضامين لا يطغى بعضها على بعض، أو يلغي بعضها بعضاً كما فعل أصحاب هذه المذاهب. راجع تفسير الظلال.

هذا النحو. ومعنى ذلك أننا الآن أمام ظاهرة فريدة امتزج فيها المضمون بالأسلوب، على نحو معجز... أي أن الإعجاز هنا لم يكن من جهة النظم والبيان فحسب، ولا من جهة المضمون من حيث هو مضمون، ولكن من جهة «المجال» الذي يعرض فيه هذا المضمون.. والذي لا يرتاده الفكر البشري ـ كوسيلة من وسائل التعبير ـ عادةً، أو من الأصل!

وليس في هذه الميزة ما يخرجنا عن موقفنا السابق الثابت في مسألة الإعجاز الذي وقع به التحدي، وأنه وجه بياني صرف، بحجة أن هذه «المجالات» لا يرتادها الفكر الإنساني عادة... فضلاً عن أن يخرجنا إلى الساحة التي لا نميز فيها بين مسألة الإعجاز والتحدي ومسألة مصدر القرآن الكريم وأنه من عند الله... لأننا هنا أمام وسيلة من وسائل التعبير عن قضية ليست غيبية أو لا يعرفها الإنسان، بل يعرفها ويسلم بها... لكنه لا يخطر بباله أصلاً أن يرتاد في التعبير عنها مثل هذه الآفاق!

وإليك هنا، في خاتمة المطاف، مثالين يوضّحان هذه الميزة في العلاقة بين المضمون والأسلوب في صورة القرآن الأدبية... وننهي بهما كذلك الحديث عن هذه الصورة الخالدة.

قال الله تعالى في سورة «الأنعام»، **يصور حقيقة «العلم الإلهي» ومجالاته**: ﴿وعندهُ مفاتحُ الغيب لا يعلمُها إلاّ هو، ويعلم ما في البرِّ والبحر، وما تسْقطُ من وَرَقة إلاّ يعلمُها ولا حبةٍ في ظُلماتِ الأرض، ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاّ في كتابٍ مُبين﴾.

وسوف ننظر في هذه الآية من ناحية «الموضوع» ومن ناحية «الإبداع الفني في التعبير ذاته»:

١ ـ **ننظر إليها من ناحية موضوعها**، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر، فليس عليه طابع البشر والناس، إن الفكر البشري، حين يتحدث عن مثل هذا الموضوع ـ موضوع شمول العلم وإحاطته ـ لا يرتاد هذه الآفاق... إن مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع آخر،

ولها حدود؛ إنه ينتزع تصوراته التي يعبر عنها من اهتماماته. ففيم اهتمام الفكر البشري بتقصّي وإحصاء الورق الساقط من الشجر، في كل أنحاء الأرض؟ إن المسألة لا تخطر على بال الفكر البشري ابتداء. لا يخطر على باله أن يتتبع ويُحصي ذلك الورق الساقط في أنحاء الأرض. ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه، ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل.

وما اهتمام الفكر البشري بهذا الاطلاق: «ولا رطب ولا يابس»؟ إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس مما بين أيديهم... فأما التحدث عنه كدليل للعلم الشامل فهذا ليس معهوداً في اتجاه البشر وتعبيراتهم كذلك! إنما كل رطب وكل يابس شأنٌ يحصيه الخالق، ويعبّر عنه الخالق!

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة، وكل حبة مخبوءة، وكل رطب وكل يابس في كتاب مبين، وفي سجل محفوظ، فما شأنهم بهذا؟ وما الفائدة لهم؟ وما احتفالهم بتسجيله؟ وإنما الذي يحصيه ويسجّله هو صاحب الملك الذي لا يندّ عنه شيء في ملكه. الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب...

إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع... مشهد الورق الساقط من شجر الأرض جميعاً، والحبّ المخبوء في أطواء الأرض جميعاً، والرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعاً... إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري، وكذلك لا تلحظه العين البشرية، ولا تلمّ به النظرة البشرية.. إن هذا المشهد إنما ينكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده، المشرف على كل شيء المحيط بكل شيء، الحافظ لكل شيء، والذي تتعلق مشيئته وقدرته بكل شيء...

٢ - «كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع الفني في التعبير ذاته» فنرى آفاقاً من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر على هذا المستوى السامق: «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو».. آماد وآفاق وأغوار في

« المجهول » المطلق. في الزمان والمكان، وفي الماضي والحاضر والمستقبل، وفي أحداث الحياة وتصوّرات الوجدان!

« ويعلم ما في البر والبحر »... آماد وآفاق وأغوار في « المنظور » من استواء وسعة وشمول.. تناسب في عالم الشهود المشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار في عالم الغيب المحجوب!

« وما تسقط من ورقة الا يعلمها ».. حركة الموت والفناء، وحركة السقوط والانحدار من علو الى سفل، ومن حياة الى اندثار.

« ولا حبة في ظلمات الأرض ».. حركة البزوغ والنماء، المنبثقة من الغور الى السطح، ومن كُمونٍ وسكون على اندفاعٍ وانطلاق.

« ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ».. التعميم الشامل الذي يشمل الحياة والموت والازدهار والذبول، في كل حي على الاطلاق.

فمن ذا الذي يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق؟ من ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال؟.. من ذا الذي يبدع هذا كله، في مثل هذا النص القصير.. من؟ إلا الله؟!

مثال آخر: كذلك هذا النص الآخر عن « شمول علم الله »:

﴿يعْلَمُ ما يلجُ في الأرض، وما يخرجُ منها، وما ينزلُ منَ السَّماءِ، وما يعْرُجُ فيها، وَهوَ الرَّحيمُ الغفُور﴾...

يقف الانسان أمام هذه الصفحة المعروضة في كلمات قليلة، فإذا هو أمام حشدٍ هائل من الأشياء والحركات، والأحجام، والأشكال، والصور، والمعاني، والهيئات، لا يصمد لها الخيال! ولو أن أهل الأرض جميعاً وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة، مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين!

فكم من شيء من هذه اللحظة الواحدة يلج في الأرض؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يخرج منها؟ وكم من شيء في هذه اللحظة ينزل من السماء؟ وكم من

شيء في هذه اللحظة يعرج فيها؟ وكم من شيء يلج الأرض؟ كم من حبة تختبىء أو تُخبأ في جنبات هذه الأرض، كم من دودة ومن حشرة ومن هامة ومن زاحفة تلج في الأرض في أقطارها المترامية؟ كم من قطرة ماء ومن ذرّة غاز، ومن إشعاع كهرباء تندس في الأرض في أرجائها الفسيحة؟ وكم وكم مما يلج في الأرض وعينُ الله ساهرة لا تنام؟!.

كم يخرج منها؟ كم من نبتة تنبثق؟ وكم من نبع يفور؟ وكم من بركان ينفجر؟ وكم من غاز يتصاعد؟ وكم من مستورٍ يتكشف؟ وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور؟ وكم وكم مما يُرى وما لا يرى، ومما يعلمه البشر ومما يجهلونه وهو كثير؟!.

وكم مما ينزل من السماء؟ كم من نقطة مطر؟ وكم من شهاب ثاقب؟ وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد؟ وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقْدر؟.. وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله؟.

وكم مما يعرج فيها؟ كم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لا يعرفه الإنسان؟ وكم من دعوة إلى الله في علاه؟.

وكم من روح من أرواح الخلائق التي نعلمها أو نجهلها متوفاة؟ وكم من مَلكٍ يعرج بأمر من روح الله؟ وكم من روح يُرى في هذا الملكوت ولا يعلمه إلا الله؟.

ثم كم من قطرة بخار صاعدة من بحر، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم؟ وكم وكم مما لا يعلمه سواه؟!.

كم في لحظة واحدة؟ وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما في اللحظة الواحدة ولو قضوا الأعمال الطوال في العد والإحصاء؟ وعلم الله الكامل الهائل اللطيف العميق يحيط بهذا كله في كل مكان وفي كل زمان.. وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر وما له من حركات وسكنات تحت عين الله، وهو مع هذا يستر ويغفر.. وهو الرحيم الغفور[1] »..

---

(١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب رحمه الله.

الباب الخامس
ملامح فنيّة خاصّة

الفصل الأول

تشبيهات القرآن

١ - لمحة تاريخية:

لا حاجة بنا إلى الحديث عن المكانة التي يحتلها التشبيه في البلاغة العربية والأدب العربي، وبحسبنا من ذلك قول المبرّد: «لو قال قائل إن التشبيه هو أكثر كلام العرب لم يُبعد»[1]، وقول قدامة بن جعفر: إنه «من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف كان بالشعر أعرف، وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحذق أليق»[2].

ولعل هذا مما حمل ابن أبي عون، الأديب الناقد، المتوفى سنة ٢٣٣، على تصنيف كتاب في هذا الفن، جمع فيه طائفة كبيرة من تشبيهات الشعراء، ورتبه بحسب الموضوعات.

وقد قسم ابن أبي عون في مقدمة كتابه الشعر إلى ثلاثة أقسام: المثل السائر، والاستعارة الغريبة، والتشبيه النادر. وأما ما وراء ذلك، «فكلام وسط أو دون، لا طائل فيه ولا فائدة معه» ثم حكم بأن أجلها وأصعبها على صانعها هو التشبيه «وذلك أنه لا يقع إلا لمن طال تأمله، ولطف حسّه، وميّز

---

(١) الكامل للمبرد ص٨١٨، تحقيق الشيخ أحمد شاكر.

(٢) التشبيهات لابن أبي عون، تحقيق محمد عبد المعين خان.

بين الأشياء بلطيف فكره »[1].

ولم يفته أن يستهل كتابه بالحديث عن التشبيهات القرآنية، ويجعلها كالمقدمة لكتابه، وقد ميز فيها بين نوعين من التشبيهات: تشبيه الأشخاص، وتشبيه الأفعال. ومثّل للنوع الأول بتشبيه تعالى القمر بالعرجون، قال تعالى: ﴿والقمرَ قدّرناه منازل حتى عاد كالعُرجون القديم﴾ الآية ٣٩ من سورة يس ٣٦ ومثّل للنوع الثاني بتشبيه أعمال الكفار بالسراب... ﴿والذين كفروا أعمالُهم كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى جاءه لم يجده شيئاً..﴾ الآية ٣٩ من سورة النور ٢٤. واقتصر ابن أبي عون على هذا القدر للانتقال بعد ذلك إلى موضوعاته الشعرية.

أما التصنيف في تشبيهات القرآن بخاصة فقد عرفناه في كتاب « الجُمان في تشبيهات القرآن » لابن ناقيا البغدادي المتوفى سنة ٤٨٥ هـ. وقد جرت عادة المؤلف في هذا الكتاب على أن يذكر الآية التي ورد فيها التشبيه، وبعد أن يفسّرها بإيجاز، يعمد إلى الشعر الذي ورد فيه مثل ذلك التشبيه فيورده منسوباً إلى أصحابه في كثير من الأحيان، وما يزال ينتقل من شاعر إلى شاعر حتى يكاد يأتي على جميع الذين عرضوا لذلك التشبيه، واضعاً أمام القارىء صورة كاملة لتناول الشعراء لهذا المعنى، وكيف قصّر فيه بعضهم وسبق آخرون، ولكنهم جميعاً لم يستطيعوا أن يدانوا تشبيهات القرآن الكريم في إشراق الصورة، وإيجاز العبارة، وإحكام المعنى، مما يدل على إعجاز القرآن وأنه تنزيل من حكيم حميد.

ويمكن أن نميز في هذا الوجه بين نقطتين: **أولاهما**: يوضح المؤلف فيها أن القرآن الكريم نزل على مقتضى كلام العرب، ولغتها، وعلى عادتهم في التشبيه والاستعارة وضروب البيان، ومن هنا جاء استشهاده بكثير من شعر الجاهلية بخاصة. أما النقطة الثانية فيوضح فيها مدى تأثر العرب بالقرآن، ومحاولتهم

---

(١) نقد الشعر لقدامة ص٥٨

محاكاته في هذا النوع من البلاغة، على ما في محاولتهم من القصور عنه[1].

قال في قوله تعالى: ﴿خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جرَادٌ منتشر﴾. (الآية ٧ من سورة القمر ٥٣).

شبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر، كما شبههم بالفراش المبثوث لأنهم يومئذ يموج بعضهم في بعض.

وقوله «خُشَّعاً» منصوب على الحال، وقرئت «خاشعاً»، وقرأ ابن مسعود «خاشعةً أبصارهم». ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد والتذكير، ويجوز أيضاً التوحيد والتأنيث، لتأنيث الجماعة، ويجوز الجمع، تقول: مررت بشباب حسنٍ أوجُههم، قال الشاعر:

وشبـــــــابٍ حسنٍ أوجُههم   من إيـــادِ بن نزارِ بن معـــدِّ

وأما قوله في سورة القارعة﴿يومَ يكون الناس كالفراش المبثوث﴾فالفراش ما تراه كصغار البق يتهافت في النار. وهذا التشبيه كالأول.

وفي نحو ذلك يقول أبو كبير الهذلي، وأنّى له بهذا الاختصار وما يدل على المراد من الكثرة في هذا اللفظ، أنشدنيه الأسدي:

لا يُجفلون عن المضاف ولو رأوا   أولى الوعاوع كالغَطاط المقبل

يقول: إذا رأوا أعداءهم حملوا عليهم كالغطاط إذا طار. وهو طائر القطا. وقال أمرؤ القيس، وذكر الخيل:

فهُنَّ أرسالٌ كمثـــل الـــدَّبـــى   أو كقطـا كـاظمـةَ النـاهـل

(والدَّبى: أصغر الجراد)

وقال إياس بن قبيصة الطائي، وذكر كتيبة:

ومبثوثةٍ بـثَّ الـدَّبى مسبطرَّةٍ   رددت عـلى بطـائها من سراعها

وقال الأعشى.. وقال أبو جندب الهذلي... الخ».

إذا تركنا ابن ناقيا وجدنا الأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي من المعاصرين

(١) انظر مقدمتنا للكتاب المذكور.

خير من تحدث عن التشبيه في القرآن ـ بغض النظر عن كتب البلاغة والتفسير ـ وكان له في هذا الموضوع ـ وفي موضوع التشبيه بعامّة ـ نظرات دقيقة ودراسات نقدية؛ نعرض هنا لخطوطها العامّة؛ مع ما نراه من بعض الشروح والملاحظات العامّة في هذا الباب الهام من أبواب البلاغة العربية، وبخاصة فيما يتصل بموضوع الطبيعة وأثرها في التشبيهات القرآنية، ولكن نشير قبل ذاك ـ بإيجاز ـ إلى تعريف التشبيه وذكر أدواته:

٢ ـ تعريف التشبيه وأدواته:

« التشبيه في اللغة: التمثيل، وفي الاصطلاح هو: الوصف بأن أحد الموضوعين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه »[١]. وقيل: « هو أن تثبيت للمشبّه حكماً من أحكام المشبَّه به »[٢] وعرّفه عبد القاهر الجرجاني بأن « يثبت لهذا معنى من معاني ذاك، أو حكماً من أحكامه[٣] ».

ولا خلاف بعد ذلك، والتعريفات كثيرة، على أن التشبيه هو اتفاق المشبه والمشبه به في وصف يجمعهما.

وأدوات التشبيه كثيرة منها « الكاف » و« كأنَّ » و« مثل »... وربّما استغني عن هذه الأدوات بالمصدر نحو: خرج خروجَ القدْح، وطلع طلوع النجم، ومرق مروق السَّهم. قال ابن ناقيا: « ولا يكثُر مثل هذا في التنزيل، وإنما عامة التشبيهات هناك مقرونة بالأدوات ».

وربما لم تأت « الكاف » لهذا التشبيه الفني الخالص ـ علماً بأنها من أكثر أدوات التشبيه دوراناً ـ بل لإيقاع التساوي بين أمرين، كقوله تعالى: ﴿وَعد الله المنافقين والكفار نار جهنم خالدين فيها، هي حسبهم، ولعنهم الله، ولهم عذابٌ مُقيم. كالذين من قبلكم، كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فاستمتعوا بخلاقهم، فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم، وخُضتم كالذين

---

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٢٣٩.

(٢) البرهان للزركشي ج٣ ص٤١٤.

(٣) أسرار البلاغة للجرجاني ص٦٢.

خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾ الآيتان ٦٨ - ٦٩ من سورة التوبة ٩ . وقوله تعالى :﴿إنا أرسلنا اليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً . فعصى فرعونُ الرسولَ فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾الآيتان ١٥ - ١٦ من سورة المزمّل ٧٣ - فهو يعقد موازنة بينهم وبين من سبقهم ، ويبين لهم الوجوه التي يتفقون فيها معهم ، مع تذكيرهم بما أصاب سابقيهم ، حتى يصلوا بأنفسهم الى ما ينتظرهم من العواقب!

وربما جاءت هذه الكاف أيضاً للإيضاح ، كقوله تعالى :﴿خلقَ الإنسانَ من صلصالٍ كالفخار﴾الآية ١٤ من سورة الرحمن ٥٥ وقوله :﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخُ فيه فتكون طيراً بإذني﴾من الآية ١١٠ سورة المائدة .

٣ - دور التشبيه وأغراضه الفنية :

١ - يلاحظ الدكتور بدوي بادىء ذي بدء أن القدماء اعتمدوا في عقد التشبيه على العقل « يجعلونه رابطاً بين أمرين أو مفرّقاً بينهما » مغفلين وقع الشيء على النفس ، وشعورها به سروراً أو ألماً .

كما اعتمدوا في التشبيه أيضاً على الحواس .

آ - ومثال الأول قول ابن الرومي ، الذي عُدّ من مستجاد شعره! :

بذلَ الوعدَ للأخلاّء سمحاً وأبى بعد ذلك بذلَ العطاء
فغدا كالخلاف[1] يورق للعين ويأبى الإثمار كلَّ الإباء

جعلوا الجامع بين الأمرين جمال المنظر وتفاهة المخبر ، وهو جامع عقلي لا يقوم على تشبيه فني صحيح ، ذلك أن من يقف أمام شجرة الخلاف أو غيرها من الأشجار لا ينطبع في نفسه عند رؤيتها سوى جمالها ونضرة أوراقها وحسن أزهارها ، ولا يخطر بباله أن يكون لتلك الشجرة الوارفة الظلال ثمرٌ يجنيه أو لا يكون ، لأننا هنا أمام باب من أبواب الأدب والشعور ، ولسنا أمام مسألة من

---

(١) الخلاف صنف من شجر الصفصاف .

مسائل الزراعة، أو فصل من فصول السياسة والاقتصاد!!.. فلا يقلل من «قيمة» هذه الشجرة، ولا يحط من جمالها وجلالها ألا يكون لها بعد ذلك ثمر شهي!! فإذا كانت تفاهة الخبر تقلل من شأن الرجل ذي المنظر الأنيق، وتعكس صورته منتقصة في نفس رائيه، فإن الشجرة لا يقلل من جمالها لدى النفس عدم إثمارها. وبهذا اختلف الوقع لدى النفس بين المشبه والمشبّه به ولذلك لا يعدّ من التشبيه الفني المقبول.

ب - ومثال التشبيه الذي عقدت الحواس الصلة فيه وان لم تعقدها النفس أو يعقدها الشعور! قول الشاعر يصف بنفسجاً:

ولا زورْديّـــة تزهو بزرقتهـــا بين الرياض على حُمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضَعُفْن بها أوائل النار في أطراف كبريت!

يقول الدكتور بدوي: «فليس ثمة ما يجمع بين البنفسج وعود الكبريت، وقد بدأت النار تشتعل فيه، سوى لون الزرقة التي لا تكاد تبدأ حتى تختفي في حمرة اللهب، وفضلاً عن التفاوت بين اللونين - فهو في البنفسج شديد الزرقة، وفي أوائل النار ضعيفها - نجد الوقع النفسي بين الطرفين شديد التباين، فزهرة البنفسج توحي إلى النفس بالهدوء والاستسلام بينما أوائل النار في أطراف الكبريت تحمل إلى النفس معنى القوة واليقظة والمهاجمة، ولا تكاد النفس تجد بينهما رابطاً».

نضيف إلى هذا - ونرجو ألا نتوسع كثيراً في الخروج إلى ساحة النقد الأدبي - أن هذا التشبيه يحمل كذلك أسوأ المفارقات الشعورية التي لا تتأتى للناظر بغير حب الإغراب، والبعد عن المألوف، حتى ولو أخرجه ذلك إلى مثل هذه الصورة التي لم تزدنا شعوراً بجمال البنفسج.. بل نقلتنا من روضته و«جنّته» إلى «نار» الكبريت ولهبه! ولو جاز أن يكون في مثل هذا الانتقال زيادة في ذلك الشعور! كما قد يتوهم البعض، فإن هذه الصورة لا تعدو أن تكون صورة معكوسة أو مقلوبة على كل حال! فإنه لو شبّه أوائل النار تلك، وهي ومضة عارضة، بالبنفسج الذي يزهو بزرقته.. وهي لوحة مرئية «ثابتة» لا تفتقر

إلى عنصر الديمومة والاستمرار، ليوضح لك من خلالها، أو ليدعك تتأمل من خلال هذه الصورة صورةَ «أوائل النار في أطراف الكبريت» ـ لأنها لا تستمر طويلاً أمام الناظر ـ لو فعل ذلك لكان له بعض العذر، أو لكان لتشبيهه بعض الدور الذي يمكن أن يجري حوله الجدل والنقاش!

نعود من هذا الاستطراد إلى «الدلالة الفنية» للتشبيه، أو إلى الغرض منه، وفي هذا يقول الدكتور بدوي: «التشبيه لمح صلة بين أمرين من حيث وقعهما النفسي، وبه يوضح الفنان شعوره نحو شيء ما حتى يصبح واضحاً وضوحاً وجدانياً، وحتى يحسّ السامع بما أحسّ به المتكلم، فهو ليس دلالة مجردة، ولكنه دلالة فنيّة» وذلك هو الفرق بين أن تقول فلان لا ينتفع بعلمه، وقولك: إنه كالحمار يحمل أسفاراً!!

والغرض من التشبيه هو الوضوح والتأثير، أو الايضاح والتأثير... وهي رسالة سائر أبواب الأدب، أو إطاره العام القائم على نقل التجربة التي يعيشها الأديب.. والشعور الذي يخامر المتفنّن، وليس الأديب أو الشاعر هو الذي يعدّد الأشياء ويحصي أشكالها!.. ويأتي هنا دور التشبيه بوصفه أداة من أعلى الأدوات التي يتوصل بها المتفنن إلى نقل شعوره،.. فإذا لمح وضاءةً ونوراً في شيء ما فإنه يضعه بجانب شيء آخر حتى يلقي عليه ضوءاً منه.. وبهذا يوضح لك إحساسه ذاك، ويستطيع أن ينقله إليك.

وهذا هو ما سبق إلى فهمه والتعبير عنه عبد القاهر الجرجاني عندما قال في التشبيه: «إنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المشئم والمعرق. وهو يريك من المعاني الممثلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة، وينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد. ويريك التئام الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين[1]».

---

(١) أسرار البلاغة ١٠٣.

ولهذا يمكننا القول إن بعض الأغراض المعدودة في كتب البلاغة من أغراض التشبيه ـ مثل بيان أن وجود المشبّه ممكن، أو الاستطراف، ونحو ذلك ـ ليست من أغراض التشبيه الفني الذي يؤدي رسالة الإفصاح عن المشاعر، ونقل التجارب أو الخواطر...

٤ ـ أقسام التشبيه القرآني:

ويمكننا هنا أن نؤكد الغرض الحقيقي السابق من أغراض التشبيه إذا لاحظنا أن القرآن الكريم ليس فيه سوى هذين القسمين أو اللونين من ألوان التشبيه، وهما: تشبيه المحسوس بالمحسوس، وتشبيه المعقول بالمحسوس ـ أعم مما ذكره ابن أبي عون ـ.

ويقسم البلاغيون التشبيه، باعتبار طرفيه، إلى أربعة أقسام لأنهما: إما حسيّان، أو عقليان. وإما تشبيه المعقول بالمحسوس، أو عكسه. ويدخل القسم الثاني في القرآن الكريم في تشبيه المعقول بالمحسوس، نحو قوله تعالى: ﴿ثم قسَت قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة﴾ ـ الآية ٧٤ من سورة البقرة ـ.

أما القسم الرابع فقد منعه معظم البلاغيين أصلاً، لأن العقل مستفاد من الحس....) قالوا: «وإذا كان المحسوس أصلاً للمعقول فتشبيهه به يستلزم جعل الأصل فرعاً، والفرع أصلاً[1]».

قلنا: ليس هذا فحسب، بل لأن إخراج المعنى الذهني أو الأمر المعنوي أو المعقول بصورة حسيّة ـ عن طريق التشبيه ـ يعني ذلك الوضوح والتأثير.. أما العكس، وهو تشبيه المحسوس بالمعقول فلا يعني ذلك بحال، بل قد يكون أدخل في باب الإبعاد والغموض.. لأن إدراك الأمور الحسية أقرب من إدراك القضايا العقلية.. أو لأن في وسع الجميع إدراك الأمور الأولى دون الثانية.

---

(١) انظر الزركشي ٣/٤٢٠.

ولهذا أدّت تشبيهات القرآن الكريم دورها في الوضوح والتأثير على أحسن وجوه الأداء :

١ - أنظر في تشبيه المحسوس بالمحسوس إلى قوله تعالى في عاد :﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرْصَراً في يوم نحسٍ مستمرّ. تنزع الناس كأنهم أعجازُ نخلٍ مُنقعر﴾- الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة القمر - .

كيف صوّر هذا التشبيه مصرع هؤلاء بتلك الريح الشديدة التي حملت الدمار والهلاك ، فكانت تنزعهم من شعابهم ومدَّخلاتهم التي لجؤوا إليها ، وتكبّهم وتدق رقابهم . . فتتساقط على الأرض جثثهم طوالاً عظاماً محترقة كأنهم أصول نخلٍ منقلع من مغارسه ، موزع هنا وهناك بعد أن كان مكيناً ثابتاً . . فارغاً يروق النفس والعين . . . ولا تتحدث هنا عن حركة النزع الشديد التي مهدت لهذا التشبيه ، كما مهدت لفهم معنى كلمة « منقعر » أو للدور الذي أدّته في هذا التشبيه من وجه ، وفي الفاصلة القرآنية التي مرّت بك ، من وجه آخر . . فإن تشبث القوم بشعابهم وحُفرهم ، خشية الهلاك ، كان مثل تمكّن جذوع النخل في الأرض . . ثم انقلعوا ، أو انتزعوا وأهلكوا . . . كما تنتزع أصول النخل . . . ثم كانت صورتهم بعد الهلاك كصورة هذه « الأعجاز » بعد أن قُلعت من مغارسها وأرضها . . ومعنى ذلك أن آفاق التشبيه هنا أبعد من كونه تشبيه محسوس بمحسوس . . .

وانظر في سورة القمر كذلك الآية التالية ٣١ التي أشارت إلى هلاك ثمود ، بعد هلاك عاد ، قال تعالى :﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾.

والهشيم : الشجر اليابس المتهشم المتكسر . والمحتظر : صاحب الحظيرة أو الذي يعملها ، وما يُحتظر - أي يجمع - فيها ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم . كما قال أهل اللغة[1] إنها صيحة واحدة من صيحات الهلاك

---

(١) راجع تفسير الزمخشري ٤/٢٤٨ .

ألحقت بهؤلاء الطغاة الموت والدمار الشامل وبهذه السرعة الخاطفة تتناثر أجسادهم المحترقة، ويتراكم بعضها فوق بعض.. انظر إلى حظ النفس من هذا التشبيه، وما تركه من أثرٍ ووضوح هائل بلغ حد المعاينة والتجسيم...

ب ـ **أما تشبيه المعقول بالمحسوس**، أو توضيح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة عن طريق التشبيه، فشواهده في القرآن الكريم كثيرة.. منها قوله تعالى في سورة إبراهيم ١٤: ﴿مثل الذين كفروا بربهم: أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾ الآية ١٨. فهؤلاء الذين كفروا بربهم يظنون أن أعمالهم تنفعهم أو تشفع لهم.. فجاءت هذه الصورة القرآنية تضع حداً لتلك الظنون والأوهام بهذا التشبيه المرئي المحسوس.. أرأيت إلى الرماد الذي تشتد عليه الرياح في يوم عاصف فتذهب به بدداً، ما الذي يبقى منه؟!! ذلك هو ما يبقى من أعمال الكافرين التي يرجون معها النفع والفلاح!!

وقال تعالى في سورة العنكبوت ٢٩: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ الآية ٤١. فهؤلاء الذين عبدوا غير الله، واتخذوا منهم أولياء وحُماةً ينصرونهم ويدافعون عنهم إنما يلجأون إلى أوهن بيت وأوهى ملجأ وأضعف نصير!!.. بل إن الآية لتشير إلى ما هو أدق من ذلك في باب الإيضاح والتصوير... إنها لتشير إلى أن هذا الركن الذي يأوي إليه هؤلاء إنما هو من صنع أيديهم وأحلامهم.. أما هو فلا يملك في حقيقة الأمر لنفسه ـ فضلاً عن غيره! ـ نفعاً ولا ضرّاً.. كمثل العنكبوت اتخذت وصنعت بيتاً!! وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون، ولكنهم لا يعلمون حتى هذه البديهة المنظورة «فهم يضيفون إلى الضعف والوهن: الجهل والغفلة! حتى ليعجزون عن إدراك البديهي المنظور![1]».

---

(١) التصوير الفني لسيد قطب ص٣٦.

وانظر أخيراً إلى هذا التشبيه الذي جاء في حق بني إسرائيل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها؛ فقال تعالى في سورة الجمعة ٦٢ : ﴿مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا، بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الآية ٥ .

وفرق هائل يطول الحديث عنه بين الحمل على العائق أو الظهر، وبين القيام بما في الكتاب من دراية وعلم!!.. ولكن بمناسبة هذا التشبيه، أو هذه التشبيهات التي يسميها البلاغيون تشبيهات مركبة، أي انتزع فيها التشبيه من أمور مجموع بعضها إلى بعض: قال الزركشي في هذا التشبيه المركب الأخير: «إنه مركّب من أحوال الحمار؛ وذلك هو حمل الأسفار التي هي أوعية العلم، وخزائن ثمرة العقول، ثم لا يُحسن ما فيها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست في شيء، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ويتعبه![1] ».

جـ ـ وأخيراً ربما جاء المشبّه به غير محسوس إذا كانت صورته قد توضّعت في النفس ورسخت، وكان لها في النفس مثل فعل المحسوس أو يزيد.. وذلك كقوله تعالى في سورة الصافات ٣٧ : ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم. طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ الآيتان ٦٤ ، ٦٥ . فقد شبّهت شجرة الزقوم، وهي طعام أهل النار، بأن طلعها كرؤوس الشياطين «لما استقر في النفس من بشاعة رؤوس الشياطين، حتى لكأن صورة هذه الرؤوس الكريهة محسوسة ترى بالعين، وتُلمس ـ لمن أراد ـ باليد!، فلما كانت هذه الصورة من القوة إلى هذا الحد ساغ وضعها في موضع التصوير والإيضاح[2] ».

قال المبرّد: «وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين في هذه الآية فقال: إنما يمثّل الغائب بالحاضر، ورؤوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها، وهؤلاء في هذا القول كما قال تعالى: ﴿بل كذّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ ـ الآية ٣٩ من سورة يونس ١٠ ـ .

---

(١) البرهان للزركشي ٣/٤٢٢ .

(٢) الدكتور أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن.

ثم رجح أن يكون الجواب «أن الله جلّ ذكره شنّع صورة الشياطين في قلوب العباد، فكان ذلك أبلغ من المعاينة، ثم مثّل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس»[1].

وهذا هو ما أشار إليه الجاحظ حين ذكر أن صورة الشيطان تثب إلى الخيال سمجة مكروهة، تجمع كل سمات الإيحاش والتنفير والتفزيع!! والعرب تقول: «هو أقبح من شيطان»!

ولنا أن نضيف أخيراً أن هذا التشبيه هو في الحقيقة تشبيه محسوس بمحسوس.. وليس من باب تشبيه المحسوس بأمر خيالي أو غير محسوس، كما ذُكر... فالشجرة، أو طلعها وثمارها المطعومة لأهل النار، وكذلك رؤوس الشياطين... كلها محسوسات، ولكنها غير مرئية أو مشاهدة لأنها من أمور عالم الغيب، والدقّة الكاملة في هذا التشبيه أن طرفيه كلاهما من عالم الغيب، أولاً، ثم إنه مع ذلك أوضح المعنى المراد على هذه الصورة التي أشار إليها المبرّد والجاحظ وغيرهما كما رأيت.

٥ ـ خصائص التشبيه القرآني:

١ ـ أول هذه الخصائص أن عناصر التشبيه القرآني مستمدة من الكون والطبيعة، فهو لذلك يؤدي دوره أو رسالته في الإيضاح والتأثير ـ في جميع الأبواب والأغراض التي عُرضت من خلاله ـ ما بقيت الطبيعة، وهذا سر خلوده إلى يوم الدين، وسبب عمومه لجميع الناس، لأنهم يدركون عناصره، ويرونها قريبة منهم، وبين أيديهم...

ومعنى ذلك أن تشبيهات القرآن تُعدّ من أهم أبواب البيان القرآني في الدلالة على ما نسميه «البُعد التاريخي» للقرآن، أو على عمومه لجميع الناس وخلوده إلى يوم الدين. ويعود السبب في ذلك إلى أن طريقة القرآن الكريم أو منهجه في دعوة الإنسان إلى الإيمان ترتكز على دعامتين هما الإنسان نفسه

---

(١) الكامل ص٨١٨.

والطبيعة من حوله، أو هو ما أطلقنا عليه في بعض كتبنا «الطبيعة الذاتية» - الإنسان - «والطبيعة الخارجية» أي الكون!

قال تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون، وفي الأرض آيات للموقنين﴾.

فإذا كان للطبيعة مثل هذا الدور - أي دور الاستدلال بها، والانتقال منها إلى ما وراء الطبيعة - فإن تشبيهات القرآن، أو العرْض الفني القرآني - سواء أكان ذلك في باب التشبيه أو باب القسم أو باب الأمثال... الخ - يتناول كذلك الطبيعة ويقع عليها، أو هي مجاله و«موضوعه» في هذه الأبواب جميعاً... وهذا معنى قولنا: إن «الفن» في القرآن يشارك «الفكر» في الدلالة على الله واليوم الآخر، أو في الدلالة على ما وراء الطبيعة بوجه عام... وهذا يذكرنا بموضوع الإعجاز - البياني - من وجه، كما يؤكد لنا من وجه آخر قضية البُعد التاريخي وخروج القرآن الكريم من إطار البيئة والزمان اللذين نزل فيهما.. وكيف أن «البيان» القرآني أو «العرض الفني» في القرآن يشارك في أداء هذا الدور إلى يوم الدين... وهذا يفسّر - فيما يبدو - كثرة التشبيهات والأقسام - جمع قسم بمعنى اليمين - والأمثال في الآيات المكية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في مبحث المكي والمدني.

«اتخذ القرآن الكريم من الطبيعة ميداناً يقتبس منها صور تشبيهاته - بحسب تعبير الدكتور بدوي - من جمادها ونباتها وحيوانها، فمما اتخذ مشبهاً به من جماد الأرض، الجبال، والحجارة، والرماد، والعهن، والخُشُب المسنّدة، والياقوت، والمرجان، والماء النازل من السماء، والبحر اللجي... الخ.

ومما اتخذ مشبهاً به من نبات الأرض: العُرجون، وأعجاز النخل، والعصف المأكول، والحبّة تنبت سبع سنابل، والشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة، وهشيم المحتظر، والزرع الذي أخرج شطأه، والجنّة أصابها إعصار..

ومما شبّه القرآن به من حيوان الأرض: الإنسان نفسه في أحوال مختلفة، والأنعام، والجمال، والعنكبوت، والحمار، والكلب، والفراش، والجراد...

وهذا يذكّرنا كذلك بأمرين: الأول: ما سبقت الإشارة إليه، وهو الغرض

الأساسي من التشبيه ـ الوضوح والتأثير ـ والثاني : أن « قيمة » المشبّه به أو « نفاسته » ليست موضع عناية القرآن الكريم ، لأن البحث هنا عن « القيمة الفنيّة » لا عن النفاسة « الماديّة » أو « النُدرة » التي كانت موضع عناية لدى بعض الشعراء في بعض العصور!! ولهذا كذلك فإن تشبيهات القرآن لا تحمل طابع عصر معيّن أو بيئة معينة ، ولا تزيد المعنى وضوحاً ، والصورة تأثيراً في بعض العصور دون بعض ؛ كما نجد في كثير من « التشبيهات » التي استجادها النقاد أو كانت مستجادةً عندهم في عصور من العصور .. نتيجة لبعض القيم الفنية أو الاجتماعية التي سادت في ذلك العصر .

انظر هنا إلى بيت ابن المعتز ، يشبه الهلال :

انظر إليــه كزورق من فضّـــة   قــد أثقلتــه حمولةٌ من عنــبرا!

لتعلم أن « الفضّة والعنبر » لم ترفع من « قيمة » هذا التشبيه ، ولم تزدنا شعوراً بجمال الهلال ، ولا أنساً برؤيته على ذلك الأديم الأزرق الصافي الجميل ...

« بل لم يزد ابن المعتز على أن وضع لنا إلى جانب الهلال الجميل صورة شوهاء متخيَّلة ، وأين الزورق الضخم من الهلال النحيل؟! كما يقول الدكتور بدوي .

« وإن شئت فوازن بين هذه الصورة التي رسمها ابن المعتز للهلال ، وتلك الصورة التي تعبّر عن الإحساس البصري والشعور النفسي معاً حينما تحدث كتاب الله عن الهلال فقال تعالى :﴿والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعُرجون القديم﴾ ـ الآية ٣٩ من سورة يس ـ فهذا العرجون القديم ، أي العذق اليابس الدقيق النحيل المحدودب من الشجر اليابس الذي لا تكاد العين تنتبه إليه صوّر لعينك هيئة الهلال في آخر الشهر ، وحمل إلى نفسك وشعورك ضآلة أمره التي انتهى اليها وهو يتنقل في منازله بُرجاً بعد برج ، وبعد أن كان قمراً منيراً يبدد ظلمة الليل » ويُغرق بضيائه الملاطِف التلال والوهاد . ويبعث جماله

الشاحب في النفس الإنسانية أعمق الذكريات الجميلة والقاسية... ثم انتهى شعره وسحره... وحديثه وصمته! حتى عاد كالعُرجون القديم!

أين كل هذا من الزورق الفضّي المثقل ـ المثقل أي نعم! ـ بحمولة من عنبر، ولعله لو كان «مثقلاً» «بحمولة» من «مادة» أخرى.. سواء أكانت من الرمال أو الحجارة!! لما نقص شيء من فساد هذه الصورة عما هو عليه، لأن هذا الفساد يتمثل في التعبير السقيم عن الشعور الكاذب! أو قل: عن الصنعة المتكلفة.. فإنه لا شعور هنا صادق أو كاذب يصح الحديث عنه أو الإشارة إليه!..

ولعل مثل هذا البيت أن يذكّرك بصورة «الثقيل» البطي البارد، أكثر من أي أمر آخر، وبغض النظر في هذه المرة عن «نفاسة» الفضّة والعنبر، أو تعاستهما!..

التشبيهات القرآنية والبيئة العربية:

والعجيب بعد ذلك أن يقدم بعض الدارسين على محاولة إغراق تشبيهات القرآن في إطار البيئة العربية، متكئين في ذلك على أقوال المفسّرين، وبعض ما انتهى إليهم من القصص والروايات.. غير ناظرين في النص القرآني ذاته. وقد آثرنا أن نناقش هذه المحاولة، هنا، على أن نكتفي بالشواهد القرآنية التي نوردها في هذا النقاش كدليل في الوقت ذاته على الخاصة الأولى، والهامة، من خصائص التشبيه القرآني:

لا يتسع المجال هنا للنقاش الطويل، ولكننا نكتفي بذكر بعض ملاحظاتنا العامّة، في الوقت الذي استعرضنا فيه هذه المحاولة كاملة، ولم نجد فيها ما يحمل الدارس النزيه على أي لون من ألوان الاشتباه في صحة ما ذهبنا إليه... حتى بتنا نستجهل تلك المحاولة وندين منهجها التعسفي الخاطىء، وما زال

العلم ـ مع الأسف الشديد ـ يؤتى من قبل شُداة الدارسين وأنصاف العلماء والمتعلّمين[1]!..

١ ـ لا يمكن أن يقال في تشبيه ما إنه من البيئة العربية إلا ما كان من خصائص تلك البيئة وحدها، بحيث لا يشاركها فيه بيئة أخرى، أو بحيث يصعب فهمه ومعرفة مغزاه أو معناه على غير العربي الذي نشأ في تلك البيئة أو تربّى فيها.. أما إذا كان التشبيه معروفاً أو مفهوماً في البيئة العربية، وغيرها ـ ومن دون الرجوع في فهمه إلى ملابسات البيئة العربية وأوضاعها ـ فإن ربطه بالبيئة العربية وحدها تعسّف وجهل... ولا نقول أكثر من ذلك!!

ولا أدري أيهما ـ على سبيل المثال ـ من البيئة العربية: المشبّه أم المشبّه به في تشبيه السفن التي تمخر عباب المحيط بالجبال الشامخة!!! قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿وله الجواري المنشآت في البحر كالأعلام﴾ ـ الآية ٢٤ ـ هل كانت الجبال أو القمم الشامخة ـ حين توجد في مكة والمدينة وجزيرة العرب ـ وقفاً على جزيرة العرب وحدها، أو على العرب وحدهم؟!!

أم إن العرب كانوا أبناء البحار والسواحل، وأنهم ما كانوا يخشون ركوب الماء ـ على عكس ما قرأنا في تاريخهم وتاريخ الفتوح الإسلامية التي تمت على أيديهم فيما بعد ـ وإذا احتاط الدارس في ذلك فقال:

« هذه السفن التي عرفها العربي في بعض البيئات المتاخمة للبحر شبهت في عظمها وضخامتها... الخ » فهل بقي بعد ذلك ـ والعرب هم أبناء الصحراء بإجماع العقلاء، إن كان الأمر يحتاج إلى إجماع ـ مخلوق لم يعرف البيئات الأخرى، ويفهم ما يتناولها من التشبيهات؟!!

ونذكر ـ بهذه المناسبة ـ أن الله تعالى شبّه في سورة النور أعمال الكافرين، وأنها لا تنفعهم يوم القيامة، من حيث يظنون ذلك، لأنها أحبطت بالكفر، أو

---

(١) راجع كتاب: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية. تأليف واجدة مجيد الأطرقجي. نشر وزارة الثقافة والفنون بالجمهورية العراقية ١٩٧٨.

لأنها لم تؤسس على الإيمان واليقين.. شبهها في موضع واحد بتشبيهين: الأول منتزع - إن صح التعبير - من البرّ، والثاني من البحر، ليشمل الأرض بقسميها الرئيسيين كما حدثتك في هذه الخاصّة من خصائص التشبيه القرآني.

قال الله تعالى: ﴿والذين كفروا: أعمالُهم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه،والله سريع الحساب أوكظلمات في بحرٍ لُجّيٍ يغشاه موجٌ من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكَدْ يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ الآيتان ٣٩، ٤٠ من السورة ٢٤.

أما السّراب فهو صورة من الصحراء لا شك في ذلك، ولكن وقبل أن نقول إن القرآن الكريم أضاف اليها صورة أخرى لا علاقة لها بالبيئة لا من قريب ولا من بعيد... نقول هنا في التعقيب على الصورة الصحراوية: أهي خاصة بالبيئة العربية؟!! ألا يعرف السراب إلا في لغة العرب؟!! أليس هذا التشبيه مفهوماً ومدركاً - ومحققاً أبعاده وغايته - عند كل من عرف الصحراء وسمع بها وقرأ عنها في الشرق والغرب. ومع ذلك فإن الآية التالية عرضت لصورة أخرى شبّهت فيها أعمال الكافرين بالبحر اللجيّ، أي المتلاطم الذي تتواثب أمواجه العالية العاتية، ويطغى بعضها على بعض.. تأمّل إن شئت هذا التصوير المبدع للبحر اللّجي الذي يغشاه موج من فوقه موج.. والذي صوّرته الحروف والكلمات بأوضح وأدق مما ترسمه الريشة ذات الاصباغ والألوان.. لأن هذه الريشة تعجز عن تصوير «الحركة» - وهي عنصر أساسي بارز في الصورة القرآنية - كما قد تعجز عن تصوير طبقات الظلمات التي تعلو فوق طبقات الأمواج... والسحاب فوقها دانٍ قريب... كما أنها تعجز على التحقيق عن تصوير عنصر «المفاجأة» والشعور النفسي بخيبة الأمل العميق الذي يحيق بالكافر وهو يرى نتيجة أعماله يوم الحساب... الخ.

تأمّل هذا أولاً.. ثم اذكر بعده أن هذه الصورة لا وجود لها في تلك البحار

« الـتي عرفهـا العربي في بعـض البيئـات المتـاخمة للبحر » الأحمر أو البحر الأبيض... لأن هذه الصورة هي صور المحيطات وبحار الشمال كما يقال بلسان الجغرافية... والتي لم يسمع بها العربي ، فضلاً عن ان يكون قد رآها أو أن تكون من بيئته القريبة أو البعيدة!!..

ولا تنس أخيراً ـ بمناسبة هذا النص ـ صورة من صور « التناسق الفني »(١) بين هذين التشبيهين... على الرغم من أنهما من بيئتين متقابلتين تمام المقابلة.. إلا أن النص القرآني « نسّق » بينهما وأكمل صورتيهما أتم التنسيق: هذا يسعى نحو السراب يظنه ماءً زلالاً فإذا هو وهمٌ.. وإذا هي الغُلّة التي لا تنقع، والغَرق في سراب الأوهام.. وذاك يغرقه ظلام الماء والبحر المتلاطم العميق.. ظلمات النفس مع سراب الصحراء وشمسها اللافحة... وظلمات مطبقة على النفس والروح والعين في أعماق البحر اللّجي البعيد.. سراب ولا ماء ، وماء من فوقه سحاب وظلمات...

وقل مثل ذلك في سائر التشبيهات ، أو في معظم التشبيهات الأخرى التي وجدت في البيئة العربية ، ولكنها لم تكن مقتصرة عليها ، كالتشبيه بالرماد أو بالحمار أو بالحمر المستنفرة ، أو بالشجرة ، أو بالسبع سنابل ، أو بصفوانٍ عليه تراب.. أو بالكلب... وحتى برؤوس الشياطين التي أشرنا إليها لأن شناعتها لم تتقرر في نفوس العرب وحدهم دون سائر عباد الله! وكل هذه العناصر وأشباهها يدرجها بعض هؤلاء العباد في إطار البيئة العربية.. إن هذا الشيء عُجاب!

٢ ـ وإذا سلّمنا بوجود بضع تشبيهات بيئية خالصة في القرآن الكريم فإن الجزيرة العربية في هذه الحال لا تكون قد أخذت أكثر من « مساحتها » التي تستحقها بالقياس إلى الأرض جميعاً... علماً بأننا نفرّق هنا بين « أصل » التشبيه أو المشبّه به ، وتاريخه.. وبين عرضه أو سياقه في النص القرآني.. مؤكّدين أنه جاء في سياق إنساني عام يمكن للجميع فهمه بغض النظر عما يمكن

(١) انظر بحث التناسق الفني ص٣٠٣ فما بعدها.

أن يقال في أصله ومصدره وبيئته، أو بغض النظر عن علم متأمّله ودارسه بذلك المصدر أو تلك البيئة أو عدم علمه!!

وأبرز مثال أو شاهد، هنا، ـ ولعله الشاهد الوحيد ـ قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا، إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتي نقضت غَزْلها من بعد قوةٍ أنكاثاً تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم أن تكون أمّة هي أربى من أمّة، إنما يبلوكم الله به، وليَبيننَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ الآيتان ٩١، ٩٢.

دلّت هاتان الآيتان الكريمتان على أن من ينقض العهد مثله كمثل امرأة مُلتاثة تفتل غزلها وتحكم فتله، ثم تنقض ما فعلت وتحلّ ما شدت، وتتركه أنكاثاً؛ أي قطعاً صغيرة حُلّت خيوطها المبرومة أو المجدولة!.. ومن المؤكد أن هذا المعنى خارج من نطاق البيئة.. وإذا كانت العرب تقول: «أخرق من ناكثةٍ عهدها» ـ سواء أقالت ذلك بعد عصر التنزيل أم قبله ـ فإن العجم تقوله كذلك، وإذا لم تقله فإنها تفهمه إذا سمعته.. وليس فهمها له موقوفاً على أقوال بعض المفسّرين الذين سمّوا من قريش امرأة خرقاء ـ بعينها ـ كانت تفعل ذلك!! وليس من اللازم أن تكون هي المرادة بالآية على كل حال.. ولا يقوّي ذلك أن الآية الكريمة أشارت إلى المرأة التي تفعل ذلك وتنقض غزلها ـ أي ولم تشر الى من يفعل ذلك من الرجال أو من خلق الله بوجه عام ـ لأن هذه الصورة من صور الغزل والنسيج ليست من اختصاص أحد غير النساء.. حتى في عهد الثورة الصناعية وتطور وسائل الانتاج!! إلى جانب أن حلّ العزائم أو فسخ العزائم ـ كما تقول العرب ـ هي في النساء أكثر منها في الرجال... الخ..

٣ ـ وهذا هو ما يصل بنا إلى الملاحظة الثالثة، التي نكتفي بها أخيراً، في هذا الرد والتقويم السريع. وهي أن توهم ارتباط التشبيهات القرآنية بالبيئة العربية، أو بعض هذه التشبيهات، بعبارة صادقة، مصدره شروح القرآن الكريم وأقوال المفسّرين ـ أو بعض وجوه أقوالهم بتعبير أدق ـ وليس هو

النص القرآني الكريم ذاته!! وقد أشرنا إلى طرف من هذا المعنى في الفصل الثالث من الباب الأول من أبواب هذا الكتاب. والعجيب بعد ذلك أن ترفض أقوال هؤلاء المفسّرين عند بعض الناس مرة، وتقبل أو «يتكأ» عليها - بعبارة أدق - مرة أخرى! وأسوأ ما يمكن الالتجاء إليه والاتكاء عليه لا تلك الشروح التي استندت - حتى في عصرهم - إلى منهج غير سديد، بل تلك الشروح التي ظهر قصورها وعدم كفايتها، أو عدم صحتها كذلك بمقياس التجربة والعلوم بعد قرون.. وراجع في ضوء هذه الملاحظة تشبيهات الجبال بالأوتاد والسحاب والهباء المنبث... الخ.

سائر خصائص التشبيه القرآني:

٢ - نعود إلى الخاصة الثانية من خصائص التشبيه القرآني، وهي أن لهذا التشبيه مكانه في نقل «الفكرة» أو القضية وتصويرها؛ أي أنه ليس عنصراً إضافياً يأتي لإيضاح الصورة أو المعنى، ولكنه جزء أساسي «لا يتم» المعنى بدونه. ومعنى ذلك أن التشبيهات القرآنية جمعت «أصل» المعنى، و«وصفه» أو تشبيهه.. وبلغت في ذلك درجة الكمال في الوصف والتصوير، وفي الإيضاح والتأثير. وهذا أعلى أنواع الاختصار والبلاغة والإيجاز.

قال تعالى في سورة القارعة: ﴿القارعة. ما القارعة. وما أدراك ما القارعة. يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعِهن المنفوش..﴾

لخّص هذان التشبيهان - أولاً - أحداث القيامة التي تسبق الحساب... فصوّر أولهما حال الإنسان - المكلّف - وصور الثاني حالة الطبيعة؛ ممثّلة في أبرز وأرسخ معالمها، وهي الجبال... ثم كان هذا التلخيص - ثانياً - من خلال التشبيه وحده بحيث لو حُذف هذا التشبيه لذهب الأصل والوصف جميعاً... ولفقدنا علمنا بالحال - أو بأصله - التي كان يكون عليها الناس والكون يوم القيامة...

ثم كان الإيضاح والوصف والتصوير - ثالثاً - من خلال التشبيه القرآني

ذاته؛ قال الزمخشري: « شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلّة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما الفراش إلى النار » قال: « وشبّه الجبال بالعهن، وهو الصوف المصبغ ألواناً لأنها ألوان، وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها[1]... ».

قلت: وفي هذين التشبيهين من ألوان الوصف والوضوح ما نعرض له، أو ما نتابع عرضه في الفقرة الثالثة أو في الخاصة الثالثة التالية من خصائص التشبيه القرآني.

يقول الدكتور بدوي: « وقلَّ أن يأتي التشبيه في القرآن بعد أن تتضح الفكرة نوع وضوح، كما في قوله تعالى: ﴿وإذا نتقْنا الجبل فوقهم كأنه ظُلّة وظنوا أنه واقعٌ بهم﴾ ـ الآية ١٧١ من سورة الأعراف ـ ولكنك إذا تأملت أسلوب الآية الكريمة وجدت هذا التعبير أقوى من أن يقال: وإذ صار الجبل كأنه ظلّة، لما في كلمة « نتق » من تصوير انتزاع الجبل من الأرض تصويراً يوحي إلى النفس بالرهبة والفزع! ولما في كلمة « فوقهم » من زيادة هذا التصوير المفزع وتأكيده في النفس، وذلك كله مهّد للتشبيه خير تمهيد، حتى إذا جاء مكَّن للصورة في النفس، ووطّد من أركانها. ومع ذلك كله فليس التشبيه في الآية عملاً إضافياً، بل فيه إتمام المعنى وإكماله، فهو يوحي بالإحاطة بهم، وشمولهم، والقرب منهم قرب الظلّة من المستظل بها، وفي ذلك ما يوحي بخوف سقوطه عليهم ».

٣ ـ ومن خصائص التشبيه القرآني ـ التي تكاد تنقلنا نقلاً تاماً إلى فكرة « التصوير الفني »: **الدقة التامة، والإحاطة والإحكام**، حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخّاذة، وقد لا تخلو تشبيهات كثيرة في الأدب العربي من هذه الدقة، وذلك التصوير، إلا أن تشبيهات أخرى كثيرة تفتقر إلى ذلك، أو تجري على الأشكال والظواهر، في حين لا تجد في القرآن الكريم تشبيهاً واحداً يخلو من تلك الدقة واشباع المعنى والصورة غاية القوة والالتحام، هذا إلى علو

(١) الكشاف للزمخشري ٤/٦٢٩.

التشبيهات القرآنية على مثيلاتها من أدب العرب حين لا تعوز هذه التشبيهات الدقّة - والتي لم تتهيأ للأديب أو الشاعر إلا من خلال كلام طويل -، وحين تكون جميعها متواردة على محل واحد!! (وفي كتاب ابن ناقيا دليل ما نقول).

قال تعالى في شأن المعرضين عن الهداية والتذكير بالقرآن: ﴿فما لهم عن التذكرة مُعرضين. كأنهم حمرٌ مستنفرة. فرَّت من قسْورة﴾- الآيات ٤٩ - ٥١ من سورة المدثر - والقسورة هو الأسد - فلم يكتف في تصوير إعراضهم بقوله: إنهم كالحمير، بل صوّر نُفرتهم من الدعوة، وحركتهم الهوجاء التي لا تعقل - في الابتعاد عنها - بقوله: كأنهم حمر مستنفرة «تحمل نفسها على الهرب، وتحثها عليه» ثم أضاف إلى ذلك أن الذي يزيد في هربها وفرارها أسدٌ هصور يجري خلفها، فهي تتفرق في كل مكان، وتجري غير مهتدية في جريها، وهي جادة لا تلوي على شيء!!

ولم يكتف القرآن الكريم في تشبيه الناس وهم يُبعثون يوم القيامة بأنهم كالجراد، بل وصف هذا الجراد «بالمنتشر فقال: ﴿خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنَّهم جرادٌ منتشر﴾- الآية ٧ من سورة القمر - حتى يكون دقيقاً في تصوير هذه الجموع الحاشدة، خارجة من أجداثها منتشرة في كل مكان تملأ الأفق، ولا يتم هذا التصوير إلا بهذا الوصف الكاشف.

وفي وسع الدارس أن يقف على الأساليب أو الوسائل القرآنية في إحكام تشبيهاته، وإخراجها على هذه الصورة من الكمال المطلق.. أما الذي اهتدينا إليه في هذا الباب فيمكن تلخيصه في النقاط أو الوسائل التالية:

أ - **وصف المشبه به**، ففي التشبيهات الأخيرة وصف الفراش بأنه «مبثوث» ووصف العهن بالمنفوش كما وصف الجراد بأنه «منتشر». ومعنى «الإحكام» في التشبيه عن طريق وصف المشبّه به واضح لا يحتاج إلى شرح لأنه «يجلّي» صورة التشبيه و«يحدد» وجه الشبه بدقّة كما يقال. ولكن هذا الإحكام يتجلّى بأوضح صوره - وهو مما يجب ملاحظته والتفكير فيه في الوقت ذاته - حين يكون المشبه واحداً ثم يكون المشبّه به متقارباً أو متماثلاً... ثم

يوصف في كل موطن بوصف خاص أو معيَّن، لأن «إحكام» صورة التشبيه في هذا الموطن يناسبه هذا الوصف دون ذاك...

قال تعالى في آية سورة القارعة: ﴿.. يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ وقال تعالى في سورة القمر: ﴿فتولَّ عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكُر. خُشّعاً أبصارُهم يخرجون من الأجداث كأنهم جرادٌ منتشر﴾ـ الآيتان ٦، ٨ ـ.

فقد شبه الناس يوم القيامة في آية سورة القارعة بأنهم (كالفراش المبثوث) فصوّر هذا التشبيه حالة الناس يومئذ في الفوضى والاختلاط، والحركة على غير هدى، والحيرة في الذهاب والمجيء... إلى جانب ما أشار إليه الزمخشري في وجه تشبيههم بالفراش، وذكرناه قبل قليل.. وواضح أن كلمة «المبثوث» التي جاءت وصفاً للفراش، أحكمت صورة التشبيه، ودلالته على الحالة التي يكون عليها الناس في ذلك اليوم.

أما في تشبيه سورة القمر، فقد شبه الناس يوم الحشر الأعظم بـ «الجراد المنتشر».. وحركة الجراد وقوته وكثافته غير حركة الفراش.. ثم أحكم هذا التشبيه بوصف هذا الجراد بأنه منتشر، أي موزع في كل مكان... فهو جماعات جماعات، أو ثُبات ثُبات. والفرق بين هذين التشبيهين أن آية سورة القارعة صوّرت الناس في المحشر، وقد استقر بهم المقام بعد خروجهم من قبورهم وما أصابهم بعد ذلك من نصَب وخوف وترقّب حتى تم اجتماعهم على تلك الصورة الحاشدة المضطربة الذليلة المخوفة.. ينتظرون الحساب والجزاء، ولهذا جاء بعدها في السورة الكريمة: ﴿.. فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية. وأما من خفّت موازينه فأمّه هاوية..﴾ ولأن هذه السورة ـ كما أشرنا ـ كانت تومىء إلى أحداث الحشر الكبرى في خطوطها العامة الجامعة فحسب، ولهذا فإنها عرَضت لحالة الناس الأساسية أو المستقرة تلك.

أما آية سورة القمر فقد صورت مرحلة ـ أو «لحظة» ـ خروجهم من قبورهم في جنبات الأرض، وقد سمعوا صيحة الداعي إلى البعث والنشور... فانطلقت جماعاتهم نحو أرض المحشر كأنهم جراد منتشر... فالحركة والهيئة

هنا حركة الجراد وصورته.. وهذا الجراد « منتشر » أي موزع مفرّق في كل أنحاء الأرض... ثم ها هي الجموع والجماعات تأخذ طريقها إلى مصدر ذلك الصوت.. قال تعالى في الآية التالية: ﴿مُهطعين إلى الداع يقول الكافرين هذا يوم عسر﴾[1].

ب ـ اختيار الألفاظ الدقيقة المصوّرة الموحية: ففي الوقت الذي يمكن لسائر أركان التشبيه أن تؤدي بألفاظ أخرى مشتركة، فإن اختيار كلمات بعينها يسهم بشكل واضح في إحكام صورة التشبيه القرآني. ففي تشبيه سورة القارعة السابق، قال تعالى في وصف الجبال بأنها تكون يوم القيامة « كالعِهن » فقد شاركت هذه الكلمة بليونتها وهمسها الضعيف بتصوير حالة الجبال التي كانت شامخة، وربما توهم المرء بأنها تحميه حين يلوذ بها أو يلجأ إليها.. فإذا هي يوم القيامة « كالعِهن » المتماوج الضعيف. ولو قيل مكانها « كالصّوف » لاختل من إحكام هذه الصورة: هذا الإيحاء بالضعف الذي رسمته ظلال كلمة « العِهن » ـ وهو ما نودّ الحديث عنه هنا ـ إلى جانب خسارة « التلوين » في صورة الجبال، لأن « العهن » ليس هو مطلق الصوف، ولكنه الصوف الملوّن ألواناً.. وإلى جانب اختلال النظم الموسيقي أو الصوتي، كما يظهر ذلك من خلال المقارنة بين هاتين الجملتين: العهن المنفوش ـ الصوف المنفوش!.

وقد شبّه القرآن الكريم الموج في موضعين ـ في شاهد موضّح آخر ـ فقال في وصف سفينة نوح: ﴿وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال﴾ الآية ٤٢ من سورة هود ١١، وقال تعالى: ﴿وإذا غشيَهم موج كالظُّلَل دعوا الله مخلصين له الدّين﴾ الآية ٣٢ من سورة لقمان: ٣١.

فشبّهت الآية الأولى الموج بالجبال، والثانية بالظُّلل[2].. والإحكام هنا وهناك في هذا التنويع وهذا الاختيار، فقد رمَت الآية الأولى إلى تصوير الموج

---

(١) قارن بعد هذا بين هاتين الفاصلتين: « المبثوث » « منتشر » كل في سياقها الخاص من حيث إحكام النظم الموسيقي للآيات.

(٢) جمع ظلّة: الشيء يستتر به من الحر والبرد.

عالياً ضخماً عاتياً.. حتى إن الغرق قد أتى على كل شيء إلا هذه السفينة الآمنة المطمئنة.. ولم تقصد الآية إلى تخويفهم هم بالموج الذي كان يتقاذف السفينة!! بل قصدت إلى بيان معنى العبرة من نجاتهم من الغرق الذي أصاب كل شيء.. حتى الذي أوى إلى الجبال نفسها!! قال تعالى: ﴿ونادى نوحٌ ابنه وكان في معزلٍ يابني اركب معنا ولا تكُنْ مع الكافرين قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء!! قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾.

إن جبال الأمواج من حولهم تخيف مَن حولهم ولا تخيفهم هم... أما آية الظُّلل فإنها تصف الأمواج التي حاقت بسفينة يركبها قوم يذكرون الله عند الشدّة وينسونه عند الرخاء ـ وتصف موقفاً من مواقفهم كانوا فيه خائفين مرتاعين حتى إذا غشيهم هم ـ ودع عنك أمر السفينة فإن الخطر قد أحدق بهم ـ وعلاهم الموج، دَعوا الله مخلصين له الدين!!! هذا الموج وصفه الله تعالى بأنه «كالظُّلل» ألا ترى أن الموج يكون أشد إرهاباً وأقوى تخويفاً إذا هو ارتفع حتى ظلّل الرؤوس؟!! سواء أكان كالجبال أم سواها «هنالك يملأ الخوف القلوب، وتُذهل الرهبة النفوس، وتبلغ القلوب الحناجر. وفي تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين!!

«فلما كان المقام مقام رهبة وخوف، كان وصف الموج بأنه «كالظلل» أدق في تصوير هذا المقام» وأحكم[1].

جـ ـ يلاحظ المرء في التشبيهات القرآنية إحكاماً دقيقاً أو خفياً، أو من نوع آخر، يقوم في بعض الأحيان على **تشبيه الأحياء بالأحياء**: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ وعلى **تشبيه الجماد بالجماد**: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ وإذا استعرضت تشبيهات القرآن من خلال هذه الملاحظة انفسح أمامك لون جديد من ألوان البحث والدراسة والاستقصاء لا مجال هنا للحديث عنه: ﴿مَثَل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل

---

(١) الدكتور أحمد بدوي: من بلاغة القرآن.

أسفارا﴾ وقال تعالى في شأن المعرضين عن القرآن والذكر: ﴿فما لهم عن التذكرة مُعرضين. كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فرّت من قسْورة﴾. وقال تعالى في شأن من كان همّه المتاع والأكل فحسب: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾...

وقال تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب﴾.

وقال تعالى: ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾...

﴿وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمُهْل يشوي الوجوه﴾... الخ.

أما حين لا تجري تشبيهات قرآنية أخرى على هذا النسق فإنك تطالع فيها لوناً آخر من ألوان الإحكام من أجل سلب الحياة أو إثباتها... أو من أجل شيء جليل آخر.. على نحو باهر يأخذ بالألباب. أقول هنا على سبيل التأكيد العابر: إن تشبيه الحياة بالماء، وتشبيه أعمال الكافرين بالسراب أو الظلمات داخل في عمومه تحت هذه الملاحظة في باب إحكام التشبيهات القرآنية. ولكن الأمر الذي يجب التنبه إليه، والعودة في ضوئه إلى دراسة التشبيهات القرآنية من زوايا وأبواب جديدة هو تشبيه الأحياء بالجماد لأن هؤلاء الأحياء ذهبت عنهم الحياة: حقيقة أو مجازاً. ارجع إلى التشبيهين السابقين في سورة القمر: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحسٍ مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ ﴿إنا أرسلنا عليهم صحية واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ وإلى قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية﴾ وقوله تعالى في تشبيه المنافقين: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمعْ لقولهم كأنهم خَشُبٌ مُسَنَّدة يحسبون كلَّ صيحة عليهم﴾.

والأمر هنا ـ كما يتضح من تشبيهي سورة القمر وتشبيه سورة الحاقة ـ أن الإحكام الملاحظ هو في تشبيه الناس وقد ذهبت عنهم الحياة.. بالنبات وقد قُلع من مغرسه وذهبت عنه كذلك الحياة. ولعل هذا كذلك في تشبيه المنافقين السابق.

د ـ وقد يدلّنا التشبيهان السابقان من سورة القمر على لون آخر من

ألوان الدقة والإحكام في التشبيه القرآني، يقوم على **عنصر الحركة وأثره في الصورة القرآنية**: فالريح الشديدة في يوم نحسٍ مستمر صورت حركة التتابع في الفناء والهلاك التي أتت عليهم واقتلعتهم فأهلكتهم، وهذا ما ناسب تشبيههم بأعجاز النخل المنقعر... والنخل يقلع نخلة نخلة، وترمى أعجازه وأصوله في الأرض الممتدة هنا وهناك. أما في التشبيه الثاني فكانت «صيحة واحدة».. فكانوا كهشيم المحتظر!! محترقة أجسادهم، مكدّسة في صعيد مهين واحد!! وقد مرّ بك شرح هذه الصورة في هذا البحث.

هـ - وأخيراً: لعل ما أشرنا إليه عند الكلام على التشبيه برؤوس الشياطين يدخل هنا أيضاً بوصفه لوناً من ألوان الدقة والإحكام يقوم على **تشبيه الغيبي بالغيبي**: ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ مع غاية وضوحه وتأثيره، وأدائه لدوره كاملاً غير منقوص، كما رأيت.

الفصل الثاني

الفصل الثاني
التّصوير والتّناسق الفنيّ

أشرنا في مبحث الإعجاز إلى موضوع التصوير الفني في القرآن، بوصفه أحد الركائز أو الدعائم التي أسهمت في شرح قضية الإعجاز، وملأت مساحة حسنةً في الصورة التي رسمها عبد القاهر الجرجاني، أو دخلت في إطار هذه اللوحة الفنية النادرة!

ثم وجدنا أنفسنا هنا نعيش بعض جوانبها الهامة في تشبيهات القرآن... حتى نقلتنا هذه الفقرة الأخيرة حول إحكام التشبيه القرآني إلى جملة المسائل التي تناولها الأديب الناقد الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابه «التصوير الفني في القرآن». وبخاصة مسألة التناسق الفني، لأن ذلك الإحكام يمثل صوراً من صور هذا التناسق في العرض القرآني...

ولهذا فقد رأيت أن ألخص هنا، في سطور سريعة، أهم قواعد ذلك التصوير وهذا التناسق... تاركاً التوسع في عرض الشواهد القرآنية إلى موضعه من الدروس والتطبيقات إن شاء الله.

آفاق التصوير الفني في القرآن:

يرى سيد قطب رحمه الله وجوب التوسع في معنى التصوير ـ وقد مرّت بك

قاعدته الأساسية فارجع إليها[١] - حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن « فهو تصوير باللون ، وتصوير بالحركة ، وتصوير بالإيقاع . . . » يقول : « وكثيراً ما يشترك الوصف والحوار ، وجرس الكلمات ، ونغم العبارات ، وموسيقى السياق ، في إبراز صورة من الصور ، تتملاها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان » وهو يصف هذا التصوير بأنه « تصوير حي منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجرّدة وخطوط جامدة . تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات بالمشاعر والوجدانات . فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية ، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة »[٢].

وفي وسع أحدنا الآن أن يدرك أبعاد هذا الكلام ، أو هذا الإطار الجامع من خلال ما قدّمنا فيه القول مفصلاً مبوّباً من مسائل الفاصلة والسجع والنظم الموسيقي والتشبيهات . . . والتي يمكن الاستشهاد بها - هنا - جميعها لشرح فكرة سيد رحمه الله عن التصوير الذي جعله ينتظم هذه الأبواب جميعاً . . . بل يمكن ، من وجه آخر ، العودة إلى دراسة نماذجها التي استشهدنا بها ، من خلال قاعدة التصوير هذه لمن أراد ذلك . وهذا هو ما حملنا على تأخير القول في التصوير إلى هذا الموضع لأننا نؤثر ألا يأتي في أول الطريق فتُدغم في « إطاره » الواسع مسائل كثيرة من حقّها - ولو لغرَض تعليمي - أن تفرد بالدراسة والبحث .

١ - ونكتفي هنا ببعض النماذج على مسائل التصوير البارزة ، أو الموضحة لهذه القاعدة الهامة :

أ - من المعاني الذهنية التي أخرجت في صورة حسيّة قوله تعالى : ﴿إن الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتَّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنّة حتى يلج الجمَل في سَمِّ الخياط﴾ والمعنى الذهني الذي تقرره الآية هو أن الكفار لن ينالوا القبول عند الله ، وأنه يستحيل عليهم دخول الجنة! . ولكن هذا المعنى المجرد يعرض بهذا الأسلوب التصويري . . . فيدعك « ترسم بخيالك

---

(١) راجع فيما سبق ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) التصوير الفني لسيد رحمه الله ص٣٢ .

صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ في سمّ الخياط، ويختار من أسماء الحبل الغليظ اسم «الجمل» خاصة في هذا المقام، ويدع للحسّ أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثر، ليستقر في النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة في أعماق النفس»[١].

ب - وتأمّل هذا الشاهد في **تصوير الحالات النفسية والمعنوية**: ﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا، ونُردّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا، قل إن هدى الله هو الهدى، أُمِرنا لنُسلم لرب العالمين﴾الآية ٧١ من سورة الأنعام. حيث «تبرز صورة هذا المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض - ولفظ الاستهواء لفظ مصوّر لمدلوله - ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه، فتكون راحةُ ذي القصد الموحد، ولو في طريق الضلال! ولكن هناك من الجانب الآخر اخوان له يدعونه إلى الهدى، وينادونه: «ائتنا» وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء «حيران» موزع القلب، لا يدري أي الفريقين يجيب، ولا أي الطريقين يسلك، فهو قائم هناك شاخص متلفت»[٢].

جـ - وأخيراً، هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة، حيث كان للتصوير فيها نصيب وافر. قال تعالى: ﴿ولا تحسبنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار: مُهطعين، مُقنعي رؤوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم، وأفئدتهم هواء﴾.

أربع صور متتابعة متواكبة، أو أربعة مشاهد لموقف واحد، يتلو بعضُها بعضاً في الاستعراض، فتتم بها صورة شاخصة في الخيال، هي صورة فريدة للفزع والخجل، والرهبة والاستسلام، يجلّلها ظل كئيب ساهم يكمد الأنفاس![٣].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) التصوير الفني ص٣٨.
(٣) المصدر السابق ص٤٩.

التخييل الحسّي والتجسيم:

٢ - أما ما أطلق عليه: التخييل الحسّي والتجسيم، بوصفه القاعدة الأساسية التي قام عليها التصوير الفني... أو بوصفهما «الظاهرتين البارزتين في هذا التصوير» فقد مرّت بك في مبحث التشبيهات نماذج وافية منه، لأن التشبيه بمحسوس - وهو عماد تشبيهات القرآن كما رأيت - يمثل أبرز هذا التجسيم، غير أن سيد قطب لا يقصر التجسيم على التشبيه بمحسوس، وإنما يعني به «لوناً جديداً هو تجسيم المعنويات، لا على وجه التشبيه والتمثيل، بل على التصيير والتحويل»[١].

قال تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع﴾ فالقلوب كأنما تفارق مواضعها وتبلغ الحناجر من شدة الضيق! وقال تعالى: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، أو جاؤوكم حَصِرَتْ صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ أي ضاقت صدورهم من الحيرة والحرج بين أن يقاتلوكم انتصاراً لقومهم، أو يقاتلوا قومهم انتصاراً لكم.

ومنه التعبير عن عدم الهداية والانتفاع بالسماع بأن هناك حواجز مادية - مجسّمة - تفصل بينهم وبين الهدى والسماع: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾ وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ وقال عزّ من قائل: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مُقْمَحون، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾.

ومعنى: أكنّة: أغطية. والوقر: الصمم، وأصله: الثقل، والمقمحون: المرفوعوا الرأس اضطراراً.

وانظر إلى الشواهد التالية التي اجتمع فيها التخييل والتجسيم حيث صورت الآيات الأمور المعنوية جسماً محسوساً، وخيّلت حركة لهذا الجسم أو

---

(١) التصوير الفني ص٦٤.

حوله من إشعاع التعبير:

قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغُه، فإذا هو زاهق!﴾ وقال تعالى: ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ وقال تعالى: ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ وقال: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾.

«فكأنما الحق قذيفة خاطفة تصيب الباطل فتزهقه، وكأنما الرعب قذيفة سريعة تنفذ في القلوب لفورها، وكأنما العداوة والبغضاء مادة ثقيلة، تلقى بينهم فتبقى إلى يوم القيامة، وكأنما السكينة مادة مثبتة تنزل على رسول الله وعلى المؤمنين. وكأنما للذل جناح يخفض من الرحمة بالوالدين»(١).

التناسق الفني:

٣ - أما التناسق فهو الذي يبلغ الذروة في تصوير القرآن... وفي بيان القرآن... وإن آفاقه لأبعد من أن نتناولها في هذه العجالة السريعة... بل إن الدخول في مثل هذا الآفاق سوف يعيدنا مرة أخرى إلى مزايا الأداء القرآني بوجه عام... ولهذا فإننا نكتفي هنا بالماعة تعيننا على الأقل في فهم آفاق التناسق في الدراسات السابقة التي قدمناها حتى الآن... والتي بلغت ذروتها في الفقرة الأخيرة من بحث التشبيهات. حيث لاحظنا التناسق الناشيء عن تخير الألفاظ، أو عن الحركة... أو مقابلة الأحياء بالأحياء، والجماد بالجماد، والغيبي بالغيبي... في لوحات منسّقة متناسقة.

ويمكن أن نقرأ في ضوء هذه الملاحظة كذلك بحث الفاصلة والسجع، ودورهما في التناسق القائم على الإيقاع الموسيقي، أو المقابلات الدقيقة التي مرّت بك في كثير من الشواهد القرآنية. وقد أشار كثير من المفسرين والبلاغيين إلى التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض... كما تحدث الزمخشري عن التناسق النفسي بين

---

(١) التصوير الفني ص٦٧.

الخطوات المتدرجة في بعض النصوص والخطوات النفسية التي تصاحبها... انظر إلى قوله في تفسير سورة الفاتحة ـ على سبيل المثال ـ: «إن العبد إذا حمد مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله: ﴿الحمد لله﴾ الدال على اختصاصه بالحمد، وأنه حقيق به، وجد في نفسه لا محالة محركاً للإقبال عليه، فإذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله: ﴿رب العالمين﴾ الدال على أنه مالك للعالمين، لا يخرج منهم شيء عن ملكوته وربوبيته قوي ذلك المحرّك، ثم انتقل إلى قوله: ﴿الرحمن الرحيم﴾ الدال على أنه منعم بأنواع النعم جلائلها ودقائقها، تضاعفت قوة ذلك المحرك، ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام، وهي قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء، تناهت قوته، وأوجب الإقبال عليه وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات: ﴿إياك نُعبد وإياك نستعين﴾... الخ[1].

ونشير هنا إلى طرف من الخطوط العامة لهذا التناسق، نستعين بها، أو نحاول ملاحظتها وبيان جزئيات صورها فيما بعد... عند الشرح والتطبيق.

أ ـ فهنالك التناسق الناشىء عن المقابلات الدقيقة بين الصور التي ترسمها التعبيرات «والتقابل طريقة من طرق التصوير، وطريقة من طرق التلحين، كما يقول سيد قطب» من ذلك هاتان الصورتان اللتان يعرضهما لإماتة الأحياء، وإحياء الموتى في قوله تعالى: ﴿أولَم يهدِلهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم! إن في ذلك لآيات، أفلا يسمعون. أولَم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجُرُز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم، أفلا يبصرون﴾.

«ففي ومضة عين نقلهم من القرى المهلكة الداثرة بعد الحياة والعمران، إلى الأرض المرعة بعد الموت والإجداب. هذه المقابلة تكاد تطّرد في صور النعيم والعذاب في الآخرة».

---

(١) الكشاف للزمخشري: ١/٧.

وهنالك أيضاً المقابلة النفسيّة بين الكافرين والمؤمنين، والتقابل بين صورة حاضرة الآن، وأخرى ماضية في سابق العهد والأوان: ﴿خلَق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾. وقال تعالى: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سَموم وحميم، وظل من يحموم لا باردٍ ولا كريم. إنهم كانوا قبل ذلك مترفين. وكان يصرّون على الحنث العظيم﴾.

فالسموم والحميم، والظل الذي ليس له من الظل إلا اسمه لأنه «من يحموم» «لا بارد ولا كريم»... صورة هذا الشظف تقابل صورة الترف: «إنهم كانوا قبل ذلك مترفين».

يقول سيد قطب رحمه الله بعد ذلك في التعقيب على هذه الآية ـ وهو تعقيب جدير بالتدبر والتأمّل... والإفادة منه في فهم نصوص وصور قرآنية أخرى كثيرة في كتاب الله عز وجل ـ يقول: «وهنا موضع تأمل لطيف في هذا التصوير وفيما يماثله: فهؤلاء المتحدَّث عنهم يعيشون في الدنيا الحاضرة، وصورة الترف هي الصورة القريبة، أما ما ينتظرهم من السموم والحميم والشظف فهو الصورة البعيدة. ولكن التصوير هنا لفرط حيويته يخيل للقارىء أن الدنيا طويت، وأنهم الآن هناك، وأن صورة الترف قد طويت كذلك، وصورة الشظف قد عرضت. وأنهم يُذكَّرون في وسط السموم والحميم بأنهم «كانوا قبل ذلك مترفين»!... وذلك من قوة الإحياء حتى لينسى المشاهد أن هذا مثل يُضرب، ويحسّ بأنه حاضر يُشهد!»[1].

ب ـ وهنالك تناسق بين أجزاء الصورة القرآنية المعروضة، من حيث ما يسمَّى بوحدة الرسم، أي عدم التنافر بين جزئيات الصورة، ثم توزيع تلك الأجزاء على الرقعة بنسب معيّنة لا يزحم بعضها بعضاً، ولا يطغى في ذلك بعضها على بعض، ويأتي أخيراً دور اللون الذي ترسم به، والتدرج في الظلال بما يحقق الجو العام المتسق مع الفكرة والموضوع[2].

---

(١) التصوير الفني ص٧٩.

(٢) راجع للتوسع في هذا اللون كتاب التصوير الفني ص٩٠ فما بعدها.

يقول الأستاذ سيد رحمه الله : « خذ سورة من السور القصيرة التي ربما يحسب البعض انها شبيهة بسجع الكهان . . . خذ سورة الفَلَق . فما الجو المراد إطلاقه فيها؟ إنه جو التعويذة ، بما فيه من خفاء وهيمنة وغموض وإبهام ، فاسمع :

﴿قُل أعوذُ بربّ الفَلَق . مِن شرّ ما خلق . ومن شر غاسقٍ إذا وَقَب . ومن شرّ النفّاثات في العُقَد . ومن شر حاسدٍ إذا حسد﴾.

فما الفلق الذي يستعيذ بربه؟ نختار من معانيه الكثيرة معنى الفجر . . . لأنه أنسب في الاستعاذة به من ظلام سيأتي . . .

يعوذ برب الفجر « من شر ما خلق » هكذا بالتنكير ، وبـ « ما » الموصولة الشاملة . وفي هذا التنكير يتحقق الغموض والظلام المعنوي في العموم ، « ومن شر غاسق إذا وقب » : الليل حين يدخل ظلامه إلى كل شيء ويمسي مرهوباً مخوفاً . « ومن شر النفاثات في العُقَد » وجو النفث في العقد من الساحرات والكواهن كله رهبة وخفاء وظلام ، بل هنّ لا ينفثن غالباً إلاّ في الظلام . « ومن شر حاسدٍ إذا حسد » والحسد انفعال باطني مطمور في ظلام النفس ، غامض كذلك مرهوب .

« الجو كله ظلام ورهبة ، وخفاء وغموض ، وهو يستعيذ من هذا الظلام بالله ، والله رب كل شيء ، فلم خصصه هنا « برب الفلق »؟ لينسجم مع جو الصورة كلها ، ويشترك فيه . ولقد كان من المتبادر أن يعوذ من الظلام بربّ النور ، ولكن الذهن هنا ليس المحكم ، إنما المحكّم هو حاسّة التصوير الدقيقة ، فالنور يكشف الغموض المرهوب ، ولا يتسق مع جو الغسق والنفث في العقد ، ولا مع جو الحسد ، و« الفلق » يؤدي معنى النور من الوجهة الذهنية ، ثم يتسق مع الجو العام من الوجهة التصويرية ، وهو مرحلة قبل سطوع النور ، تجمع بين النور والظلمة ، ولها جوّها الغامض المسحور .

«ثم ما هي أجزاء الصورة هنا أو محتويات المشهد؟ » .

هي من ناحية : « الفلق والغاسق » مشهدان من مشاهد الطبيعة ، ومن ناحية : « النفاثات في العقد » و« حاسد إذا حسد » مخلوقان آدميان .

وهي من ناحية: «الفلق» و«الغاسق» مشهدان متقابلان في الزمان، ومن ناحية: «النفاثات» و«الحاسد» جنسان متقابلان في الإنسان.

وهذه الأجزاء موزعة على الرقعة توزيعاً متناسقاً، متقابلة في اللوحة ذلك التقابل الدقيق، ذات لون واحد، فهي أشياء غامضة مرهوبة، يلفها الغموض والظلام، والجو العام قائم على أساس هذه الوحدة في الأجزاء والألوان».

وتأمل هنا ـ بلمحة خاطفة ـ وحدة الصورة، أو اللوحة القرآنية، التي رسمت في الآيات التالية من سورة الرعد بخطوطها العريضة: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر، كلٌّ يجري لأجلِ مسمًّى، يدبِّر الأمر، يفصِّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ الآية ٢. ثم قال تعالى في الآية التالية ـ وما تزال الآيات تعرض لتلك الخطوط العريضة فحسب، ولكن لاحظ كيف ينزل الخط التصويري إلى الأرض ـ: ﴿وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغشي الليلَ النهارَ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ الآية ٣. وتأمل على سبيل التذكير الخطوط المتقابلة في هذه الصورة: الرواسي والأنهار... وزوجان اثنان من كل الثمرات... والتي رسمت على الرقعة الممتدة: «وهو الذي مدّ الأرض...» الخ الآية.

أما الآية الثالثة من السورة فقد صورت «لقطة» من صورة الأرض هذه... فيها خطوط أكثر تفصيلاً... ﴿وفي الأرض قطع متجاورات، وجنّات من أعناب وزرعٌ ونخيلٌ صِنوان وغير صِنوان يُسقى بماء واحد...﴾ الآية. ولاحظ في هذه اللوحة التناسق في اللون والشكل، وأثر ذلك في ملء فراغات اللوحة كما يقال، بين جنّات الكروم المعروشة... والزرع المنبسط، والنخيل السامق!!...

وانظر أخيراً إلى هذه اللوحة الطبيعية التي رسُمت ببضع لمسات عريضة، قال تعالى في سورة الغاشية: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت. وإلى السماء كيف رُفعت. وإلى الجبال كيف نُصبت. وإلى الأرض كيف سُطحت﴾ إنها

لوحة قاعدتاها : السماء والأرض : اتجاهان أفقيّان . بينهما في الاتجاه الرأسي : الجبال والجمال . . . أبرز الأشكال والأحجام على الأرض في عالم الجماد وعالم الحيوان . . . والجمل هو الحيوان المناسب في الاتجاه الرأسي على كل حال . . . بالإضافة إلى أنه أليف الصحراء الفسيحة التي تحدها السمّاء والجبال!! . . .

وانظر كذلك هذه الدعوة إلى النظر والتأمل كيف بدأت بالإبل . . . تلك المخلوقات البارزة على الأرض التي يقف عليها الإنسان ، ثم انتقلت به من تلك النقطة الرأسية إلى السماء في اتجاه الصعود إلى فوق . . . ثم كيف نزل ذلك الخط التصويري بالناظر المتأمل من السماء الى الجبال إلى الأرض . . . حيث مواقع أقدامه ، مرة أخرى .

وفي سورة الغاشية لوحات بلغ فيها التناسق الفني هذا أوجه كذلك . . . سنعرض لها في دروس التفسير إن شاء الله ، كما أننا سنعرض - إن شاء الله - للحديث عن ألوان أخرى من التناسق . . . وبخاصة ذلك التناسق الذي تستقل برسمه كلمة واحدة في بعض الأحيان . . . والتناسق الناشىء عن المدة المقررة لبقاء المشهد أو الصورة معروضة على الأنظار في النفس والخيال . . . علّنا ندرك الأبعاد الكاملة ، أو شيئاً غير قليل من هذه الكلمة التي ختم بها الأستاذ سيد قطب بحثه الدقيق والواسع في التناسق والتصوير عندما قال :

« وهكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق من التناسق والاتّساق : فمن نظم فصيح ، إلى سرد عذب ، إلى معنى مترابط ، إلى نسق متسلسل ، إلى لفظ معبّر ، إلى تعبير مصوّر ، إلى تصوير مشخّص ، إلى تخييل مجسّم ، إلى موسيقى منغَّمة ، إلى اتساق في الأجزاء ، إلى تناسق في الإطار ، إلى توافق في الموسيقى ، إلى تفنّن في الإخراج .

« وبهذا كله يتم الإبداع ، ويتحقق الإعجاز » .

الفصل الثالث

القَسَم في القرآن

أقسام القرآن - جمع قسم بمعنى الحلف واليمين - من الموضوعات التي أفردت بالتصنيف، نظرا لأهميتها وتنوع المقسم به والمقسم عليه تنوعاً يدعو الى التأمل والبحث. ونوجز في هذه الصفحات طرفا من كتاب «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم وبعض النظرات الأخرى من كتاب «إمعان في أقسام القرآن» للفراهيدي مع ما نراه من ملاحظات لا بد من اعتبارها في هذا الباب.

١ - صيغة القسم:

الصيغة الأصلية للقسم أنه يؤتى بالفعل «أقسم» أو «أحلف» متعدياً بالباء إلى المقسم به، ثم يأتي المقسم عليه - وهو المسمى بجواب القسم - كقوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لا يبعثُ الله من يموت﴾ - الآية ٣٨ من سورة النحل ١٦ - فأجزاء صيغة القسم ثلاثة: الفعل الذي يتعدى بالباء، والمقسَم به، والمقسم عليه. ثم اختصر، نظرا لكثرة القسم في الكلام، فصار يحذف فعل القسم، ويكتفي بالباء، ثم عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة كقوله تعالى: ﴿والنجم اذا هوى ما ضلَّ صاحبكم وما غوَى. وما ينطق عن الهوى﴾ - الآيات ١ - ٣ من سورة النجم ٥٣ - وبالتاء في لفظ الجلالة كقوله: ﴿وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولُّوا مُدبرين﴾ - الآية ٥٧ من سورة الأنبياء ٢١ - واستعمال الواو أكثر. «وأكثر الأقسام في القرآن المحذوفة الفعل لا تكون إلا

بالواو، فإذا ذكرت الباء أتى بالفعل، كقوله :(وأقسموا بالله) ولا تجد الباء مع حذف الفعل . . »[1] .

٢ ـ المقسم به في القرآن :

قال ابن القيم : « وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور، وإنما يقسم بنفسه وبصفاته، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته » . قال : « وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته » . وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في ثمانية مواضع، وسائر القسم فيه بمخلوقاته سبحانه، كقوله : ﴿والفجرِ وليالٍ عشر . والشفع والوتر . .﴾ ـ السورة ٨٩ ـ ﴿والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلّى . وما خلق الذَّكر والأنثى﴾ ـ السورة ٩٢ ـ وقوله : ﴿فلا أُقسم بالخُنَّس . الجوارِ الكُنَّس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفّس﴾ الآيات ١٠ ـ ١٨ من سورة التكوير . وقوله :﴿والتينِ والزيتونِ . وطورِ سينين . وهذا البلد الأمين﴾ . . إلخ هذه الأقسام الكريمة .

والذي يظهر من كلام ابن القيم أنه اعتمد في تفسير أقسام القرآن على أصلين : الأول : أن الله تعالى إنما أقسم بنفسه وآياته، وأن القسم بالمخلوقات أيضاً من باب القسم بذاته فإنها من آياته . وأراد بهذا الأصل إزالة شبهة تعظيم المخلوق فوق مكانته، بناء على القول بأن القسم يتضمن تعظيم المقسم به . قال ابن أبي الإصبع : القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، اذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل[1] .

الأصل الثاني : هو أن الأقسام كلّها دلالات علم المقسَم عليه « ولهذا جاء القسم في القرآن كما سنذكر على أمور، كالمعاد والتوحيد والرسالة تأكيداً للمنكرين » وفسر ابن القيم أكثر آيات القسم على طريق يظهر به دلالة المقسم به على المقسم عليه، واذا أشكل عليه الربط جعل المقسم عليه محذوفاً، وجعل

---

(١) الاتقان للسيوطي ٢/١٣١ .

(٢) الاتقان للسيوطي ٢/١٣٤ .

القسم دالا على صفات الله وغيرها. ومع هذا الوهن في جوابه، والتصريح أحياناً بأن القسَم لتعظيم المقسم به، فقد أجاد ابن القيم في هذا الموضوع في غير موضع من كتابه رحمه الله.

نعود الى موضوعنا السابق عن المقسم به لنقول إن تعظيم المخلوق لا يزول بمثل التأويل الذي أشار اليه ابن القيم، فإن القسم تعلق صريحاً بالمخلوقات، وكونها من آيات الله عز وجل ودلائل صفاته لا يخرجها عن كونها المقسم بها!

وهذا يضعنا وجها لوجه أمام المراد من القسم في لغة العرب تمهيدا للوقوف على السبب الحقيقي لتنوع المقسَم به في القرآن الكريم.

القسم في الأصل أسلوب من أساليب التأكيد عند الأمم، وربما عبروا عنه بأخذ اليمين، كما كانت عليه الحال عند العرب والروم والعبرانيين، فإذا أخذ بعضهم يمين بعض عند معاهدة أو أمر عظيم، كان ذلك عنواناً على العزم والتأكيد، وكأنهم بذلك يقولون: قد رهَنّا بهذا الأمر أيماننا، ولذلك سموا القَسَم يميناً. ومن هنا تضمن القسم معنى الكفالة والضمانة، أو معنى التأكيد المطلق الذي لا يحتاج معه الى وجود المقسَم به أو الى تقديره في كل موضع. واذا راجعنا سائر الكلمات التي كثر استعمالها للقسم يتبين لنا أن القسم لا يلزمه المقسم به، فضلا عن تعظيمه كما يقول ابن القيم.

أما حين يتضمن القسم مقسماً به، فإن هذا المقسم به كان يرد في الأصل لمعنى الاستشهاد به، ـ وإنما كان تعظيمه عارضاً من عوارض القسم حين يكون بالله عز وجل وبشعائره ـ يدل على ذلك أنهم كانوا يأتون بالمقسم به في كثير من الأحيان على وجه الاستدلال به لا غير. وهذا النوع كثير في كلام العرب، فقد كانوا يشهدون بأشياء لم يعبدوها ولا عظّموها، وانما أرادوا الاستدلال بجعل المقسَم به شاهداً على أقوالهم.

إذا تبين لنا أن القسم «أصله» **الاستشهاد**، ـ وأنه لا يراد منه التعظيم إلا اذا كان بالله تعالى وبشعائره ـ وأنه ربما جاء «لمحض» الاستدلال، لم يكن هنالك ما يدعو الى تفسير المقسَم به في القرآن ـ والمقسِم هو الله تعالى ـ بمثل ما

فسّره به ابن القيم، والا فكيف نفسر قسمه تعالى بالخيل العادية، والريح الذارية، وقد صرح بكون هذه الأمور المقسم بها من السماء والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والسحاب.. وغيرها مسخرة مذللة طائعة، فتعظيمها غير مراد، ولكن المراد من القسم بها محضُ الإشهاد بها.

يضاف إلى ذلك ما ترى من المناسبة الظاهرة بين المقسم به والمقسم عليه، فإن القرآن وضع أكثر هذه الأقسام بحيث لا يخفى على المتأمل جهة دلالتها على ما أقسم عليه، ولذلك ترى الرازي صاحب «التفسير الكبير» مع ظنه بأن القسم للتعظيم وتكلّفه لبيان فضائل التين والزيتون - وقد أقسم الله تعالى بهما في القرآن - لم تَخْفَ عليه جهة عامة في دلالة الأقسام التي جاءت في أوائل بعض السور - سورة الذاريات - فقال «إنها كلها دلائل أخرجها في صورة الأَيمان». ولو تأمل في سائر أقسام القرآن التي جاءت على وجه الاستدلال لعله كان يختار في جميعها هذا التأويل والله أعلم.

ومما يزيد الأمر وضوحاً أن بعض الأقسام جاء التنبيه بعدها على كونها دلائل وبصائر، قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿فلا أُقسم بمواقع النجوم. وإنه لقَسَم لو تعلمون عظيم﴾ الآيتان ٧٥، ٧٦. فنبّه على أن فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة، فصرح بعظمة القَسَم لا بعظمة المقسم به!!

وقريب منه ما ترى من وصف المقسَم به بصفة خاصة تشير إلى جهة الاستدلال، كقوله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى﴾ وقوله: ﴿فلا أقسمُ بالخُنَّس. الجوارِ الكُنَّس﴾ وقوله: ﴿والصافات صفّاً. فالزاجرات زجراً. فالتاليات ذِكراً﴾ وقوله: ﴿والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يُسرا. فالمقسِّمات أمرا﴾ وقوله: ﴿ولا أُقسم بالنفس اللّوامة﴾ وغيرها..

فهويُّ الثريا، وخنوس النجوم، وصفّ الملائكة، وذرو الرياح وتقسيمها الأمور، وملامة النفس، أقرب الى الاستدلال منها الى التعظيم، كما هو واضح.

وهذا فيما يبدو هو الذي يفسر تعدد المقسم به في القرآن، تعدداً لا يضارعه

إلا الآيات التي جاءت في القرآن دالة على وجود الله وعلى قدرته ونحو ذلك، لأن هذين النوعين من الآيات يخرجان من مشكاة واحدة، ففي الوقت الذي أقسم الله تعالى بالسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، وأقسم بالفجر، والضحى، والريح، والسحاب، والجبال والبحر، والبلد، والإنسان، والوالد، والولد، والذكر والأنثى.. قال تعالى ـ كذلك ـ: ﴿إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناسَ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرضَ بعد موتها، وبثَّ فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون﴾ الآية ١٦٤ من سورة البقرة. وأمثال هذه الآية كثير في القرآن.

ولكن أسلوب القسم ـ بهذه الأشياء وأمثالها ـ يتضمن فوائد بلاغية كثيرة لا توجد في أسلوب العرض العادي، كما سنتبين ذلك بعد قليل.

شواهد وتطبيقات:

وننهي هذه الفقرة ببعض الأمثلة على المقسم به في القرآن ـ الله تعالى ومخلوقاته ـ مصحوبة ببعض الملاحظات الإضافية:

١ ـ قلنا إن الله تعالى أقسم بنفسه في القرآن في ثمانية مواضع، استعملت فيها جميعا لفظة «الرب»، في ثلاث منها أمرٌ من الله لنبيه أن يقسم به ﴿قلْ بلى وربّي﴾ في موضعين، و﴿قل إي وربّي﴾ في موضع واحد[1]. والقسم هنا للتأكيد والتعظيم لأنه جار على لسان النبي ﷺ. ولكن لفظ «الرب» في المواضع الأخرى ورد مضافاً إضافات تدعو الى التأمل، وتذكّر في نفس الوقت

(١) قال تعالى في سورة سبأ ٣٤: (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة! قل بلى وربي لتأتينكم..) الآية ٣. وقال تعالى في سورة التغابن ٦٤: ﴿زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا! قل: بلى وربي لتبعثن، ثم لتنبؤن بما عملتم، وذلك على الله يسير﴾ الآية ٧. وقال تعالى في سورة يونس ١٠: ﴿ويستنبؤنك أحق هو! قل إي وربي إنه لحق، وما انتم بمعجزين﴾ الآية ٥٣.

مما أشرنا اليه من معنى الاستدلال في القسم، حتى حين يكون القسم بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما تُوعدون. فوربِّ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ الآيتان ٢٢، ٢٣ من سورة الذاريات ٥١. أضاف لفظ الرب الى السماء والأرض لما في هذه الإضافة من الإشارة الى خضوع السماء والأرض لأمره، وفي ذلك تنبيهٌ إلى ضرورة الاستدلال بهما، فوق ما فيه من تعظيم لشأنه سبحانه. وفي آية أخرى أضيف لفظ الرب الى المشارق والمغارب، فقال: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين﴾ الآيتان ٤٠ - ٤١ - من سورة المعارج ٧٠. لما توحي به هذه الإضافة من القدرة البالغة التي تسخر هذا الجرمَ الهائل، وهو الشمس، فيشرق ويغرب في دقة وإحكام.

٢ - أما الأقسام الكثيرة بمخلوقات الله فتأمل منها جمال القسم في قوله تعالى في سورة الشمس: ﴿والشمس وضُحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاَّها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دسَّاها﴾.

«أولا ترى هذا القسم - كما يقول بعض النقاد - مثيراً في النفس أقوى إحساسات الإعجاب بمدبر هذا الكون، ومنظم شؤونه هذا التنظيم المحكم الدقيق! أو ليست هذه الشمس التي تبلغ أوج مجدها وجمالها عند الضحى، وهذا القمر يتلوها إذا غابت، وكأنه يقوم مقامها في حراسة الكون وإبهاجه، وهذا النهار يبرز هذا الكوكب الوهاج، ثم لا يلبث الليل أن يمحو سناه، وهذه السماء وقد أحكم خلقها، واتسقت في عين رائيها على هذا الوجه المحكم الدقيق، وهذه الأرض وقد انبسطت في سَعَة، وهذه النفس الإنسانية العجيبة الخلقة التي يتسرب إليها الضلال والهُدى في دقة وخفاء... أليس في ذلك كله ما يبعث النفس الى التفكير العميق والاستدلال بها على الخالق لها سبحانه..».

وتأمل جلال القسم في قوله تعالى: ﴿فلا أُقسم بمواقع النجوم، وإنه لقَسَمٌ لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون..﴾ الآيات ٧٥ - ٧٨ من

سورة الواقعة ٥٦ ، وقوله سبحانه : ﴿والنجم إذا هوى ، ما ضلَّ صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحيٌ يوحى﴾ الآيات ١ ـ ٤ من السورة ٥٣ . وانظر كيف وجّه النظر الى ما حفظ تلك النجوم في مواقعها فلا تسقط ولا تضطرب ؛ من قدرة قادرة على هذه الصيانة والضبط ، وما يبعثه هويّ النجوم من رهبة في النفس . وكلا الأمرين دلالة على الخالق ، ومثار إعجاب بخلقه ، وإيمان به عز وجل .

٣ ـ المقسم عليه :

١ ـ الغالب في المقسم عليه أن يكون جملة خبرية كقوله تعالى : ﴿فوربِّ السماء والأرض إنه لحق﴾ وقد يكون جملة طلبية كقوله : ﴿فوربِّك لنسألنّهم أجمعين عمَّا كانوا يعملون﴾ الآيتان ٩٢ ، ٩٣ من سورة الحجر ١٥ . مع أن هذا قد يُراد به تحقيق المقسم عليه فيكون من باب الخبر!

٢ ـ والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، أو يأتي القسم على التوحيد أو القرآن أو على شيء من أصول الإيمان .

أ ـ فمثال القسم على التوحيد قوله تعالى : ﴿والصَّافَّات صفّاً . فالزاجرات زجراً . فالتاليات ذكراً . إن إلهكم لواحد . ربّ السموات والأرض وما بينهما وربُّ المشارق﴾ الآيات ١ ـ ٥ من السورة ٣٧ . ومثال القسم على القرآن وأنه حق قوله : ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم﴾ وقوله في سورة الزخرف ٤٣ : ﴿حم ، والكتاب المبين إنَّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ وقوله في سورة الدخان ٤٤ : ﴿حم . والكتاب المبين . إنَّا أنزلناه في ليلة مباركة﴾. والقسم على الرسول كقوله ﴿يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم﴾ السورة ٣٦ . هذا وقد أقسم الله تعالى على الجزاء والوعد والوعيد ، وعلى بعض أحوال الإنسان ، وما فُطر عليه من صفات .

ب ـ أما حذف جواب القسم ، فإنه أكثر ما يرد ـ كما يقول ابن القيم ـ اذا كان في نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه ، فان المقصود يحصل بذكره فيكون

حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز، كقوله: (ص. والقرآن ذي الذّكر) ـ السورة ٣٨ ـ فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذو الذكر ـ المتضمن لتذكير العباد وما يحتاجون اليه، والشرف والقدر ـ ما يدل على المقسم عليه، وهو كونه حقاً من عند الله غير مفترى... ولهذا قال كثيرون: إن تقدير الجواب: إن القرآن لحق. وهذا يطرد في كل ما شابه ذلك، كقوله: ﴿ق. والقرآن المجيدِ): وكقوله: ﴿لا أقسمُ بيوم القيامة﴾ فإنه يتضمن إثبات المعاد...

وفي الوقت الذي يذكرنا هذا بالقسم الاستدلالي، ضرورة، فانه يذكرنا كذلك بما ذهب إليه بعض الباحثين من ضرورة البحث عن المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، وهذه المناسبة عندهم أخص وأدق من أن يكون تنوع المقسم به إمعاناً في الدلالة على الله تعالى أو على قدرته وعظمته... بأدلة كثيرة متنوعة، على نحو ما أشرنا اليه في القسم الاستدلالي، بل يرون في هذا المقسم به بالذات على الأمر المقسم عليه في هذا الموطن صلة مباشرة، أو مناسبة ظاهرة أو خفية، ومن الأمثلة لهذه الصلة أو المناسبة الظاهرة قوله تعالى مخاطبا نبيه عليه السلام: ﴿والضحى. والليل اذا سجى. ما ودَّعك ربك وما قلى﴾ قال في الإتقان: «وتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل، المقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: ودَّع محمداً ربُّه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه»[1]. ومثله قوله: ﴿والنجم اذا هوى. ما ضلَّ صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى﴾ اختار القسم بالنجم اذا هوى وخرج عن مداره على «أن النبي لم يضلّ ولم يخرج عن حدود الرسالة التي أرسل بها، والتي أمر بإبلاغها الى الناس، ولهذا قال ﴿وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحيٌ يُوحى﴾ فليس الأمر أمره، ولا القرآن كلامه: ﴿ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين﴾ ـ الآيات ٤٤، ٤٧ سورة الحاقة ـ.

---

(١) الاتقان ١٣٥/٢ وقارن بالتصوير الفني في القرآن ص ٩٧.

- في سورة العاديات يقسم الله تعالى بصورة من صور الغزو والعدوان ﴿والعاديات ضَبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمُغيرات صبحاً ، فأثرنَ به نقعا ، فوسطْنَ به جمعا﴾، صورة الخيل التي تضبح بأنفاسها ، وتوري النار بوقع حوافرها ، تغير في وقت الأمن والنوم على قبيلة أخرى أو أناس آخرين . . إلخ هذه الصورة من حياة الإنسان . . . يقسم بها الله تعالى على أن الانسان منكرٌ للنعمة كنود جحود﴿إن الإنسان لربه لكنُود﴾والمناسبة بين الأمرين واضحة . .

وهنا نصل الى الحديث عن الدور البلاغي الذي تؤديه أقسام القرآن :

٤ ـ الدور البلاغي لأقسام القرآن :

١ ـ يدل أسلوب القسم في القرآن على إظهار التأكيد والجد في القول ، كما ترى في قوله تعالى :﴿والسماء ذاتِ الرَّجع ، والأرض ذات الصَّدْع إنه لقولٌ فصل . وما هو بالهزل﴾ وقد علموا أن الحرَّ إذا أقسم على أمر فقد بالغ في إظهار الجد منه ، ونفى عن نفسه الإهمال والتهاون ؛ ولذلك كثر القسم في أوائل النبوة حتى تبين لهم جدّ الداعي فيما يدعو إليه .

٢ ـ القسمُ يبهم على الخصم طريق الإنكار ، لأن القسم إنشاء وليس بخبر ، فإن شاء الخصم أنكر جواب القسم حين يكون خبراً ، ولكن لا تسنح له فرصة إنكار نفس القسم ، كما أنه لا يتوجه الى انكار الصفة ، مع أنهما في الحقيقة من الأخبار! وربما جمعت بعض أقسام القرآن بين هذين الخبرين ، كالقسم « بالقرآن المجيد » أو « باليوم الموعود » أو « بالصافات صفا » فإنك لو حللت هذه الأقسام لرأيت فيها جملتين خبريتين : إن هذا القرآن مجيد ، إن لهم يوماً موعوداً . إن الملائكة صافون كالعبيد .

فإن كان ذلك مما ينتبه الخصم لإنكاره فتارة يصرف الخطاب الى النبي كقوله تعالى :﴿يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين﴾ وتارة يحذف جواب القسم الذي يكون جملة خبرية ، ويكتفي بالمقسم به ، ليبادرهم بكلام آخر مؤيد لما حذف!! لكيلا يجد الخصم فرصة لتحويل الإنشاء إلى الخبر فينازع فيه ، وكأن القسم بهذا يهيء فرصة للسماع وانتظار الجواب فيهجم عليه ما يؤيد الاستدلال

المقصود من الكلام السابق، كقوله تعالى: ﴿ص. والقرآن ذي الذّكر، بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ فاكتفى بالجملة الإنشائية واجتنب الخبرية، واستغنى عنها بما ذكر في القسم من صفة القرآن، كأنه قيل: « قد شهد القرآن إنه لذكر لهم ونصح » ثم ذكر من خصائلهم ما لا ينكرونها، بل يباهون بها، وأشار الى أن إنكارهم ليس إلا لحميتهم الجاهلية وجدالهم بالحق.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ق. والقرآن المجيد. بل عجبوا أن جاءهم مُنذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ أي قد شهد القرآن إنه لنذير مُبين من الله تعالى بالبعث، ولكنهم ينكرونه لما يعجبون أن يأتي به منذر منهم!

فأما إذا كان القسم مما لا ينكرونه لم يحذف الجواب كقوله تعالى: ﴿حم. والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ الزخرف ٤٣ فذكر في القسم كونه كتاباً مبيناً، وفي الجواب كونه قرآنا عربياً، ولا ينكرون شيئاً منهما.

٣ - إيجاز هذا الأسلوب للاستدلال، ومن فوائد الإيجاز - المعدود من أهم أبواب البلاغة كما هو معلوم - أنه يمكنك من أن تجمع دلائل عديدة قرب بعضها بعضاً، أو على صعيد قريب واحد، فإذا وجدت في القرآن أنها دلت على أمر واحد من جهات مختلفة، كانت أشد أثراً وأحكم أمراً، كما ترى في أقسام سور الطور، والبلد، والتين. قال تعالى في سورة الطور: ﴿والطور. وكتاب مسطور. في رقٍ منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع. ماله من دافع..﴾ السورة ٥٢.

٤ - وأخيراً فإن أسلوب القسم يعطي أوائل السور من نضرة بهجتها ورونق ديباجتها، فتلمع الأقسام في قسمات السور كالغرة البارقة، وأما الذي جاء في أثناء السورة فإنما هو قليل، ومثاله كمجيء المطلع في أثناء القصيدة، وليس معنى ذلك أن في كل قَسَم تزييناً، ولكنه لما كان مما يستفتح به الكلام جعل سبباً لتزيين الفواتح.

والواقع أن هذه الأقسام ساهمت في التصوير وتوشية مطالع السور بألوان

كثيرة ، ولعل القسم من أصلح أساليب الكلام للتصوير ، فإن الذي أقسمتَ به كأنّك دعوته كالشاهد فأوقفته بين يدي المخاطب ، فلما أراد الله تعالى أن يوشي عنوان السور بألوان الصور بدأها بأقسام خاصة . فترى أحياناً صورة واحدة كالقلم الكاتب و « النجم الثاقب » والخيل العاديات ، والرياح الذاريات . وتنظر مرة أخرى الى صور عديدة يضمها أمر جامع بينها كالتين والزيتون ، وطور سينين ، والبلد الأمين ، أو كالطور والكتاب والمسطور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور . أو كالشمس والقمر والليل والنهار ... الخ . وأهمية التصوير في عرض الفكرة وتجليتها وحمل المخاطب على فهمها والاحاطة بجوانبها والتأثر بها .... كل هذا معلوم لا يحتاج الى دليل .

الفصل الرّابع

الفصـل الـرّابع

القصّـة القرآنيَّة

أولاً : هذا الفن!

تمثل قصص القرآن الكريم واحداً من أبرز وسائل « العرض الفني » في القرآن الكريم . ولعل الحديث عن هذه القصص من هذه الوجهة الفنيّة الخالصة أن يكون لوناً من ألوان الدراسة الأدبية الحديثة أو المعاصرة . وفي الوقت الذي يذكرنا ذلك بقضية الإعجاز ـ البياني ـ الذي تحدثنا عنه ـ وأن في وسع الأجيال أن تقف على أطراف منه خلال العصور ـ فإنه يؤكد لنا أمراً هاماً ، وهو أن القرآن الكريم يخلو ـ في الوقت ذاته ـ من أي عبء أو قصور يمكن أن يلحق بأي لون أو فن من هذه الفنون الأدبية التي تضمنّها أو أشار إليها . . . بل إن الدراسة الموضوعية المتأنية لتهدي الناقد البصير في وقت مبكر لنشأة هذه الفنون إلى عيوبها القائمة في سوق الآداب الإنسانية . أو التي سيُهتدى إليها في وقت قريب أو بعيد .

وهذا الأمر عندنا جزء من رأي نجزم به ، وهو أن القرآن الكريم هو المقياس على صحة الأدب ـ كما هو المقياس على صحة اللغة ـ ، هذا من وجه ، ومن وجه آخر : هو المقياس على مدى استحقاق هذا الأدب للحياة والخلود . . . أو مدى « إنسانيته » وخروجه من الطابع الإقليمي أو الطارىء أو الموقوت ،

وبغض النظر في هذه المرة عن فنون القول وأشكال التعبير.

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل القول في هذا الذي ذهبنا إليه، ولكن بحسبنا هنا مراعاة هذا الأمر ونحن نكتب هذه السطور السريعة في موضوع القصة، او الفن القصصي في القرآن الكريم... والذي يومىء إلى ذلك القول ويشير إليه على أقل تقدير...

لقد شاعت القصّة في أوائل هذا القرن، وأثيرت حولها ضجّة واسعة مبالغ فيها... حتى خيّلوا إلى الناس أن فنون الأدب كلها عالة عليها، وأنه لا كتابة لمن ليست له قصّة! وكان ذلك ـ كما يقول الأستاذ المفكر الناقد عباس محمود العقاد ـ «على إثر ضجة أخرى هي ضجة الكلام الكثير في الدراسات النفسية و«السيكولوجية» بأنواعها، فبدا لبعضهم أن القصّة هي المعرض الوحيد لتطبيق هذه الدراسات في الكتابة الأدبية، وإنها هي الوسيلة القريبة لفهم العلاقات بين النفوس البشرية، وتفسير المواقف والمشكلات التي تنجم عن غرائب الطباع. ولم تخل ضجة القصة من أسباب قوية غير «السيكولوجية» وكثرة الكلام فيها، فإن شيوع القراءة بين الدهماء قد أشاع معها القصة التي تفهمها الدهماء وتؤثرها على غيرها من الفنون الأدبية» هذا، إلى جانب الأسباب الأخرى، كشيوع الصور المتحركة بعد شيوع القراءة... وشيوع المذاهب الجماعية التي ركن أصحابها إلى القصة من أجل الترويج لدعواهم بين العامة... الخ.

ولهذا فقد كثر الجدال والنزاع حول هذا الفن، وحول قيمته الأدبية، وبخاصة أنه لم يعرف ذلك الشيوع إلا مقترناً ببعض المضامين والمذاهب الاجتماعية والأخلاقية الخاصة... حتى صار الرأي الناقد فيه رأياً فيما يمثّله هذا الفن ويعبّر عنه ويشير إليه، أو كان رأيا لا يخلو من المواقف الفكرية المسبقة في كثير من الأحيان.

وقد لا نستطيع هنا أن نضع القصص القرآني في موضعه الصحيح، ونتبين معالم هذا الفن من فنون العرض القرآني بدون الإلمام السريع بأبرز ملاحظات

النقّاد حول هذا الفن، حتى يتأكد لنا خلوّ القصص القرآني من كل هذه السلبيات التي لحقت بسائر القصص الأخرى، بل حتى تتمكن كذلك من الصعود في بيان المزايا والخصائص التي انفردت بها القصة القرآنية... والتي مثّلت بها في واقع الأمر وجهاً من وجوه الإعجاز التي لا يصعب الاهتداء إليها، أو لا يصعب ملاحظتها عند العامّة والخاصّة في آن.

١ ـ لعل أبرز نقدٍ واجهته القصة في الأدب العربي المعاصر كان على لسان العقّاد رحمه الله، الذي كان يعتمد في ترتيب الآداب بوجه عام على مقياسين اثنين يغنيان عن مقاييس أخرى كثيرة، وهما: «الأداة بالقياس إلى المحصول، ثم الطبقة التي يشيع بينها كل فن من الفنون» يقول: «فكلما قلّت الأداة وزاد المحصول إرتفعت طبقة الفن والأدب، وكلما زادت الأداة وقلّ المحصول مال إلى النزول والإسفاف.

وما أكثر الأداة وأقل المحصول في القصص والروايات!! إن خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذي يعطيكه بيت كهذا البيت:

وتلفّتتْ عيني فمذ بعدت ... عني الطلول تلفّت القلب

أو هذا البيت:

كأن فؤادي في مخالب طائر ... إذا ذُكرت ليلى يشدّ به قبضا

أو هذا البيت

ليس يُدرى أصنع إنسٍ لجنٍّ ... سكنوه أم صنع جنٌّ لإنس!

لأن الأداة هنا موجزة سريعة، والحمصول مسهب باق، ولكنك لا تصل في القصة إلى مثل هذا والمحصول إلا بعد مرحلة طويلة في التمهيد والتشعيب. وكأنها الخرنوب الذي قال التركي عنه ـ فيما زعم الرواة ـ إنه قنطار خشب ودرهم حلاوة!

أما مقياس الطبقة التي يشيع بينها الفن فهو اقرب من هذا المقياس إلى

إحكام الترتيب والتمييز. ولا خلاف في منزلة الطبقة التي تروج بينها القصة دون غيرها من فنون الأدب، سواء نظرنا إلى منزلة الفكر أو منزلة الذوق، أو منزلة السّن، أو منزلة الأخلاق! فليس أشيع من ذوق القصة ولا أندر من ذوق الشعر والطرائف البليغة، وليس أسهل من تحصيل ذوق القصة، ولا أصعب من تحصيل الذوق الشعري الرفيع حتى بين النخبة من المثقفين»[1].

وخلاصة القول في هذا النقد ـ العقادي ـ المشهور، أن فن القصّة يقوم على الإنشاء، أو على جانب الإسراف والإملال في القول... حتى يصل بالقارىء من خلال قنطار خشب إلى درهم حلاوة!، كما أنه يصلح لخطاب العامة دون الخاصة، وإذا كان هذا وذاك من أبسط ما خرج عنه أسلوب القرآن الكريم كما حدثتك فيما سبق... فإن في القصة القرآنية ما يوضح لك هذا الأمر، ويثبت لك أن «العرض الفني» للقصة في القرآن الكريم من أصلح الأساليب لخطاب العامّة والخاصّة، كما أنه يقدم لك قناطير مقنطرة من المعاني بدراهم معدودة من الألفاظ والكلمات!...

٢ ـ ثم إن القصة التي تحدث عنها العقاد، ويتحدث عنها في العادة سائر الأدباء والنقّاد، هي ذلك العمل الفنّي الحرّ الطليق، الذي لا يتقيد فيه الأديب بوقائع مضت، أو حوادث وقعت؛ أو بعبارة أخرى: ذلك العمل الفني الذي يستقل فيه الكاتب بصنع الحوادث، ورسم الشخصيات، وإدارة الحوار، واختيار الزمان والمكان وافتراض ما يشاء من عناصر الإثارة والتشويق، وذلك عن طريق تصوير البطل... أو من خلال التخييل العميق، والتصوير الدقيق للأحوال والمواقف... الخ... حتى يستوي له من خلال هذه المجموعة من الافتراضات والتصورات قصة مؤثرة يحمّلها ما شاء من الأمور التي يرمي إلى تحقيقها في باب العواطف الانسانية، أو في باب القضايا الاجتماعية، أو ما شاء من أبواب الأدب والحياة! وقد يكون الإبداع في هذا الفن رهن العبقرية القادرة على لمس أدق الانفعالات النفسية والشعورية لدى القارىء،

---

(١) عباس محمود العقاد: في بيتي، ص٢٨ ـ ٢٩.

والتأثير عليها من خلال ذلك الوصف والتصوير، والعرض والتحليل.

فإذا كانت القصة القرآنية «ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه، كما هي الحال في القصة الحرة التي أشرنا اليها، بمعنى أنها - أي القصة القرآنية - لا ترمي إلى أداء غرض فني مجرد، بل الى غرض ديني فوق ما فيها من التزام بحوادث وقعت، وأخبار حصلت؛ فإن الذي يتأكد لنا، من خلال جميع ذلك: ضرورة البحث في القصة القرآنية من خلال النقاط الثلاث التالية:

١ - الخصائص الفنية للقصة القرآنية لإيضاح أنها تصلح لخطاب العامّة والخاصّة، وأن المحصول فيها - كسائر الأبواب القرآنية الأخرى - مسهب باقٍ، فوق ما أشار إليه العقاد في باب الشعر.

٢ - أغراض القصة القرآنية، لبيان مدى الالتزام بمجموعة من المبادىء والأغراض التي لم تخرج عنها قصص القرآن، أو انطلقت من رعايتها واعتبارها وهدفت إلى تحقيقها. ولبيان أثر هذه الاغراض في الخصائص... الفنية السابقة، أو مدى الملاءمة والتوافق بين هذه الأغراض وتلك الخصائص فضلاً عن أن هذا «الالتزام» بهذه الأغراض لم يؤثر على ذلك العرض الفني، بل أظهر فيه مزيداً من ألوان السموّ والارتفاع الأدبي...

٣ - بيان القيمة التاريخية للقصة القرآنية، أو إقامة الدليل السريع على أن القصص القرآني تاريخ ثابت، وأخبار سلفت، وحوادث وقعت، وأن الخيال أو الافتراض، لا وجود له لا في وقائعها، ولا في أبطالها... وذلك لا لدفع بعض الظنون والأوهام والجهالات - وإن كنّا سندفع ذلك في طريقنا بطبيعة الحال - ولكن من أجل التأكيد على «التزام» من نحو آخر... ونحن نرى أن الأغراض السابقة قد تم عرضها جميعاً لا من خلال خيال خصب! أو فن طليق! ولكن من خلال تاريخ واقع... ولنرتفع من ثم إلى فهم تلك الخصائص الفنية من خلال هذا وذاك. ونبدأ بعرض هذه النقاط بأوجز قدر ممكن، وبعكس هذا الترتيب:

ثانياً : القصة القرآنية حقيقة تاريخية :

لا حاجة بنا إلى أن نذكّر بمصدر القرآن الكريم ، وبما أشرنا إليه من الأدلة القليلة ـ والكافية ـ في هذا الباب ، ومعنى ذلك أن القرآن الكريم حق كلّه ، لأنه تنزيل من حكيم حميد . ولكننا نذكر هنا بنقطتين اثنتين : **الأولى** : أن القرآن الكريم ورد فيه التعبير عن « القصص » في مجال « الأخبار » الواردة عن الأمم السابقة ، وعلى وفق معنى المادة اللغوية ، كذلك . فالقصّ هو تتبع الأثر واقتفاؤه ؛ يقال : قصصت أثره أي تتبعته . ولفظ القصص : مصدر ؛ قال تعالى :﴿فارتدّا على آثارهما قصصا﴾ـ الآية ٦٤ من سورة الكهف ـ وقال تعالى : ﴿وقالت لأختيه قصّيه﴾ـ الآية ١١ من سورة القصص ـ أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه ـ موسى عليه السلام حين ألقته أمّه في اليم ـ وتنظري ما ينتهي إليه أمره ومستقره . ومن هذا الباب : قصّ الرؤيا ، اي تتبع المنام ، وذكره والتحدث به ؛ قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام مخاطباً ابنه يوسف : ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾.

ولهذا وصف الله تعالى قصص القرآن بأنها حق ، فقال تعالى : ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾ ـ الآية ٦٤ من سورة آل عمران ـ وقال تعالى:﴿نحن نقصّ عليك نبأهم بالحق﴾ ـ الآية ١٣ من سورة الكهف ـ وقال عزّ من قائل : ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق﴾ ـ الآية ٣ من سورة القصص ـ .

ومعنى ذلك أن الأصل اللغوي والشرعي ـ الاصطلاحي ـ لمعنى « القصة » يؤكد صدقها ووقوعها . . . وعلى هذا جرى الاستعمال القرآني كما رأيت . . . وإذا أُخرجت « القصة » في هذا العصر ، لغرض فني أو غير فني ، عن هذا الإطار أو الاستعمال ، فإن من العجيب الغريب أن يحكم على القرآن باصطلاح أو باستعمال وعُرفٍ حادث بعد نزوله ؛ وقد عُلم أن من أبسط أصول التفسير أن القرآن الكريم لا يُفسّر باصطلاح أو عرفٍ حادثٍ بعد نزوله . وقد سبق لنا شرح هذه القاعدة من أصول التفسير في أكثر من مناسبة . . .

ولا أجد عندي، وأنا أكتب هذه السطور، حماسة للإشارة إلى مصدر الشبهة في القيمة التاريخية للقصص القرآني؛ لأن الأمر كما سيتضح لك من خلال الشواهد بعد قليل... أهون من أن نطيل أمامه الوقوف؛ وتلك شنشنة نعرفها من أخزم! لولا هذا التلبيس على العباد الذي يلبس مسوح العلم، «ويتردى» بطيلسان الموضوعية والحرية والعقلانية... الخ هذا الشريط الطويل: يقول المستشرق المجري اليهودي المعروف: «جولد تسيهر»: «إذن ما كان يبشر به محمد خاصاً بالدار الآخرة ليس إلاّ مجموعة مواد استقاها بصراحة من الخارج يقيناً!! وأقام عليها التبشير...» ثم يقول: «أفاد محمد من تاريخ العهد القديم. وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء».

ولأستكمل لك معالم هذه الصورة - مرة واحدة - فأنقل لك خلاصة رأي جولد تسيهر وضربائه من «العلماء» المحققين!!، قال بعد ذلك: فتبشير النبي العربي ليس إلاّ مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثيراً عميقاً، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه» اهـ[1].

قلت: وإذا كان مجرد ذكر بعض الأنبياء، أو قصصهم، في التوراة أو الكتاب المقدّس ليس كافياً لإثبات هذه القصص، أو لإثبات وجود تلك الشخصيات من الأصل، على ما يذهب إليه مؤرخو الأديان العلمانيون من الغربيين... وكانت هذه القصص قد انحدرت إلى محمد - صلوات ربي عليه وسلامه - من العهد القديم كما حدثك طيب الذكر «جولد تسيهر» بهذه المؤكّدات اللفظية!! - حتى لكأن الكلام يكسب بُرهانه ودليله من كثرة ما يذكر فيه من ألفاظ «اليقين» و«الصراحة» وسائر هذه الترتيبات والتركيبات - فقصص القرآن إذن أساطير من الأساطير!! وليصل هذا «الوحي» أو الإيحاء بتعبير أفضل حتى لا نسيء إلى تلك الكلمة - إلى طه حسين أو إلى خلف الله

---

(١) راجع كتاب: العقيدة والشريعة لجولدتسيهر ص١٢ - ١٥. ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وزميليه.

أحمد، أو إلى صاحبة تشبيهات القرآن، ومن قبلها في العراق أيضاً أصحاب الكراسة الرمادية المشهورة[1] . . . الخ . ليصل هذا العلم بالإيحاء، أو الإيحاء بالعلم لأمثال هؤلاء حتى يصيروا به محققين، وللقرآن ناقدين، ولهذا فقد اخترت لك في النقطة الثانية التالية شخصية أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، أثبتها لك بمقياس أولئك العلماء العلمانيين، ليكون في ذلك ردٌّ وتقويم لهؤلاء الذين اشرت إليهم مجتمعين . . .

وهل يستكثر هؤلاء وأمثالهم على العالمين أن يبقى بين أيديهم «أُفق» واحد ثابت لا يتطرق إليه الخلل والشك، يرتفع بالإنسان المعاصر من وهداته التي انحدر اليها . . . ويرسم له إطاراً يعمل من خلاله بعد كل هذه الرحلة الطويلة من التعب والشقاء . . . أم إن النفوس الصغيرة لا تقنع إلا بالتطاول على أرفع الأشياء لأنها تعاني من عقدة نقص تتعدى «الحدود»!! فلا يقنع أحدهم بأنه موجود إلاّ بأن يتطاول على رب الوجود؟!! . . .

وإلاّ، فمتى استقى محمد معلوماته من الخارج، وكيف . . . ومن هي «تلك العناصر اليهودية والمسيحية وغيرها» التي «اتصل» بها محمد صلوات الله عليه وسلامه ـ وأخذ منها «مزيجاً منتخباً» كما قال خاتمة المحققين والمدققين الأستاذ جولد تسيهر!! كيف يأخذ من العهد القديم، والقرآن يرد عليه ويصحّحه؟! كيف يأخذ من المسيحيين وهو يقوّم عقائدهم، ويحصي عليهم ما حرّفوه في دينهم، وما خالفوا فيه تعاليم نبيّهم عيسى ابن مريم عليه السلام؟!!! هذا بابٌ الدخول فيه يطول، والكلام فيه رحب واسع، والأدلة القاطعة التي بلغت في هذا العصر منزلة العلم الضروري أن القرآن الكريم وحي يوحى، وقد مرّ بك بعضها، تغنينا عن الإعادة والتكرار . . . وأدعك هنا ـ فقط ـ تتملى هذه الآيات البيّنات: قال تعالى في سورة يوسف: ﴿إنا أنزلنا إليك هذا القرآن، عربياً لعلكم تعقلون، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك

---

(١) أنظر مقال «رماد ولا نار» لعباس محمود العقاد، نشر في كتاب له، رحمه الله، بعنوان: الإسلام والحضارة الإنسانية، ص٦٨ .

هذا القرآن، **وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾ وقال تعالى في سورة هود ـ بعد قصة نوح ـ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا، فاصبر إن العاقبة للمتقين[1]﴾ وقال تعالى في سورة آل عمران في بدء عرضه لقصة مريم عليها السلام: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيُّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون[2]﴾ ثم قال تعالى بعد قصة خلق عيسى عليه السلام: ﴿إن هذا لهو القصص الحق، وما من إله إلاّ الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ الآية ٦٢.

وجاء في سورة القصص، قبل عرض قصة موسى: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ ـ الآية ٣ ـ وبعد انتهائها: ﴿وما كنت بجانب الغربّي إذ قضينا الى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين. ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمرُ، وما كنت ثاوياً في أهل مدْين تتلو عليهم آياتنا، ولكنا كنّا مرسلين. وما كنت بجانب الطور إذ نادينا، ولكنْ رحمةً من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾ الآيات ٤٤ ـ ٤٦ من السورة ٢٨.

هذا الآيات لا تؤكد أن القصة «حق» فحسب، بل تشير فوق ذلك إلى أن القصة القرآنية تهدف من جملة ما تهدف إليه ـ أي أن ذلك أحد أغراضها التي سنتحدث عنها بعد قليل ـ إثبات الوحي والرسالة، فمحمد ـ ﷺ ـ لم يكن كاتباً ولا قارئاً؛ قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ ـ الآية ٤٨ من سورة العنكبوت ـ كما أنه ـ ﷺ ـ لم يعرف عنه أنه كان يجلس إلى أحبار اليهود والنصارى، ثم جاءت هذه القصص في القرآن الكريم، وبعضها جاء في إسهاب وتتبع للكثير من الدقائق والتفاصيل، كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى... إن في ذلك لدليلاً على أن ذلك الكتاب وحيٌ يوحى.

---

(١) الآية ٤٩ من السورة ١١. وانظر فيها الآيات ٢٥ ـ ٤٩.

(٢) الآية ٤٤، وانظر الآيات السابقة واللاحقة، وتأمّلها بعناية.

أما **النقطة الثانية** فهي التي أشير إليها بقوله تعالى في هذا الكتاب الكريم: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد﴾ ومعنى الآية الكريمة أن القرآن مبرّأ من أن يلحقه خطأ وخلل وباطل لا من جهة ما أشار إلى وقوعه قبل عصر نزول القرآن، ولا من جهة ما دلّ على وقوعه بعد ذلك العصر. أو يقال في معنى الآية: إن البشرية لن تقف على أي أمر تاريخي أو حاضر أو مستقبل يخالف ما حدّث به القرآن ودلّ عليه أو بشّر به. فلو أن الاحافير والبحوث التاريخية الثابتة أو الموثوقة انتهت إلى شيءٍ أخبر القرآن بخلافه لقيل: إن الباطل لحق القرآن من بين يديه، ولو أن العلوم التجريبية، والبحوث الفلكية انتهت إلى نظريات ثابتة ارتفعت من درجة الفروض إلى مقام الحقائق العلمية التي لا يتطرق إليها الشك... ووجدنا في هذه الحقائق ما نصّ القرآن على خلافه؛ لقلنا إن الباطل قد لحق بالقرآن من خلفه... ولكننا نقول هنا، على وجه اليقين الجازم، وعلى وجه المناجزة والتحدي كذلك: إن باطلاً ما لن يلحق بالقرآن لا من بين يديه ولا من خلفه، الآن وغداً وبعد غدٍ... وحتى يقوم الناس لرب العالمين.

فإذا أخبر القرآن أن «قصصه» «حق» فهي حق واقع، وليست بتمثيل ولا خيال ذاهب. وأكتفي هنا **بشاهد واحد** يغني عن عشرات الأمثلة والشواهد:

مؤرخو الأديان العلميون - كما يدعون - من الغربيين، لا يقولون بإثبات أي شخصية من شخصيات التاريخ، فضلاً عن وقائعه وأحداثه، لمجرد أنه ورد ذكره أو بعض قصصه في الكتاب المقدس، بل لا بد لإثباته من أن تثبته الأحافير والوثائق ومواد التاريخ ووثائقه العلمية الأخرى... ومن يطلع على ما كتبه اسبينوزا - على سبيل المثال - في رسالته المشهورة «في اللاهوت والسياسة» يعلم، أو يستطيع أن يقدّر مدى حاجة القوم إلى مثل ذلك المنهج العلمي، أو الوثائقي، المشار إليه... يوم كانت أسانيد العهد القديم ونصوصه لا يثبت معظمها أمام قواعد النقد والتمحيص، كما أوضحه الفيلسوف المشهور

في كتابه المشار إليه.

ومن هذا المنطلق بقي هؤلاء العلماء منكرين أو متشككين في **الوجود التاريخي لإبراهيم عليه السلام**، ولمرويّات كتبهم الدينية عنه... حتى وضع «ليوناردو وولي Woolley» كتاباً عن إبراهيم بعد الأحافير والدراسات التي قام بها في أرض الجزيرة في شمال سورية، ونشر خلاصتها في أواخر الربع الأول من هذا القرن، مؤكداً وجوده، وعارضاً لحياته، وجملة ما كان عليه قومه من العقائد، وما دعاهم هو إليه في باب العقائد والعبادات... ويهمنا هنا الإشارة إلى عبادة قوم إبراهيم للكواكب، وعبادتهم للأصنام... وما دعاهم إليه إبراهيم من التوحيد، وما علّمهم من الصفات الإلهية... والذي أثبته «وولي» في كل ذلك يمكن عدّه ترجمة قريبة وصادقة لقصة إبراهيم مع قومه، كما وردت في القرآن الكريم! ويبدو ـ بهذه المناسبة ـ أن طه حسين قال في شأن إبراهيم عليه السلام ما قال في ظل المناخ السابق، لا في ظل اكتشاف «وولي» اللاحق!! غفر الله له ـ أي لطه حسين، فقد سمعت منه في أواخر حياته ما يدل على موت هذا التطاول الجاهل في نفسه ـ قال طه ـ يومذاك ـ: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللإنجيل أن يحدثنا عنهما، وللقرآن أن يفعل ذلك، ولكن هذا لا يكفي لإثبات وجودهما بهذا الدليل».

وقد لخّص العقاد ما قاله «وولي» وغيره من علماء مقارنة الأديان، في كتابه الجامع عن «إبراهيم أبي الأنبياء»، ومما قاله في باب حديثنا هذا عن «وولي» ودراساته وأحافيره:

«وعلم المقابلة بين الأديان حديث كعلم المقابلة بين اللغات، فإذا جاء هذا العلم الحديث مطابقاً للأخبار الأولى عن ديانة القوم في عصر إبراهيم، فتلك قرينة ثبوت وليست بقرينة شك، ومن خالف ذلك فهو لا يفرق بين الشك والثبوت».

ثم بعد أن يتحدث عن بعض العقائد التي صارت حقيقة واقعة «لأننا فككنا ألغاز الكتابة، واستخرجنا أسرار الأحافير، وعلمنا منها تسلسل

العبادات، واختلاط السكان والحدود، وتطور العقائد...» يقول:

وقد علمنا اليوم ان عبادة القمر سابقة لعبادة الشمس، خلافاً لبادرة الظن الأولى؛ إذ يسبق الى الخاطر أن الشمس أكبر وأحق أن يبدأ بها في العبادة... بل علمنا اليوم أن رب الأرباب عند اليونان هو كوكب المشتري، وليس الشمس أو القمر، ولهذا يطلقون عليه اسم «جوبيتير» ويستمدون هذا الاسم من كلمتين بمعنى أبي الآلهة.

«وفي القرآن الكريم: ﴿فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً، قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون[1]﴾.

«ومما علمناه اليوم أنهم أقاموا للكواكب تماثيل لا تغيب عن أبصارهم إذا غابت الكواكب، فعبدوها مع عبادة الكواكب على سبيل التقريب والتمثيل...

«وفي القرآن الكريم: ﴿إذْ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون[1]﴾... وفيه: ﴿قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعلمون﴾

«ومما علمناه اليوم من مقابلات الأديان... أن أهل بابل كانوا يرون في قصة الخليقة أن الإله الأكبر خلق الأرباب كما خلق سائر الموجودات الأحياء وغير الأحياء، وتوحيد الإله على هذا النحو هو الذي يسمونه في العصر الحديث بالهينوثيزم Henotheism ويطلقونه على طور خاص من أطوار التوحيد... وفي القرآن الكريم: ﴿فجعلهم جُذاذاً إلاّ كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون﴾ وفيه: ﴿... قالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله

---

(١) الآيات ٧٦ - ٧٨ من سورة الأنعام ٦

(٢) الآية ٥٢ من سورة الأنبياء ٢١. ولاحظ في الآية الكريمة لفظ «التماثيل» بدل الاصنام أو الاوثان... مثلاً.

كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ (الآيتان ٦٢ - ٦٣ من سورة الأنبياء ٣١).

«أما عبادة الملوك في بابل القديمة فنحن نعلم اليوم أنهم كانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم هبطوا من السماء بعد الطوفان، لأننا قرأنا الآثار وكشفنا عن الأحافير وادعاء الملوك أنهم آلهة يملكون زمام الحياة والموت واردٌ في القرآن الكريم: ﴿إذْ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت، قال أنا أُحيي وأُميت!!﴾...

وأخيراً يقول عباس محمود العقاد: هذه المطابقات نعلمها اليوم من الكشوف والأحافير. وسواء آمن العالم العصري بالقرآن أو لم يؤمن به، فالمسألة هنا هي مسألة التفرقة بين قرائن الثبوت وقرائن الشك في سيرة إبراهيم، فليس من قرائن الشك على كل حال أن تروي أخبار العبادة عن عصر إبراهيم على الوجه الذي حققته الكشوف الحديثة، وعلى خلاف القصص التي تخترع اختراعاً بغير سند من الواقع...»[1]

هذا مثال واحد من عشرات الأمثلة والشواهد التي انتهى فيها علماء الأديان المقارنة إلى ما ذكره القرآن وقرره منذ قرون... وقل مثل ذلك في كل ما أشار إليه القرآن الكريم وأخبر به وتحدّث عنه... ولا ندري على كل حال إن كان في عالم اليوم من يشك في أن القرآن أقدم وثيقة تاريخية لم يلحقها أدنى خطأ أو انتقاص أو تشويه... ثم لا شأن لنا بعد ذلك بمن تخامره الشبهات والشكوك حول مصدر هذا الكلام الخالد «المحفوظ» من التبديل والتغيير، والله تعالى يقول: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب! أو ألقى السمع وهو شهيد﴾.

ثالثاً: أغراض القصة القرآنية:

أشرنا قبل قليل إلى أن إثبات الوحي والرسالة يأتي في طليعة أغراض القصة في القرآن الكريم: قال تعالى بعد قصة نوح: ﴿تلك من أنباء الغيب

---

(١) «إبراهيم أبو الأنبياء» بقلم عباس محمود العقاد، ص١٨٠ - ١٨٢ دار الهلال.

نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾- ٤٩ سورة هود- وقال تعالى في سورة طه ٢٠ بعد قصة موسى عليه السلام مع قومه وأخيه هارون ومع السامري :﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ، وقد آتيناك من لدنّا ذكراً﴾- الآية ٩٩- فنصّت الآية على مصدر القرآن الكريم ، وهو الذكر ، بقوله تعالى « من لدنّا » في الوقت الذي نسبت فيه إلى الله تعالى أنه هو الذي « قصّ » تلك الأنباء السابقة على نبيّه ﷺ ، كما أشارت من وجه آخر حين جمعت بين كلمات « قصّ » و« أنباء » و« ما قد سبق » إلى أن قصص القرآن حق لا تخييل ، كما أوضحنا لك في الفقرة المتقدمة.

ثم تتسلسل الأغراض العامّة أو البارزة للقصص القرآني في أغراض كثيرة ، يطول بنا أمر تقصّيها وإحصائها ، كما يطول بنا - ويستحيل علينا أيضاً - الوقوف أو مجرد الإشارة إلى الأغراض الكثيرة المتشعبة ، أو الدروس والعبر والإشارات والدلالات التي انطوت عليها هذه القصص ، أو أومأت إليها . . . أو التي يمكن أن تفهم وتلاحظ من تأمّل هذه القصص ، والعكوف عليها بالدراسة والتحليل . . . حتى ليمكننا هنا القول : إن القصص القرآني هي المعرض الواسع ، والمعين الثرّ ، والمنجم البكر الذي يقف فيه المرء على السنن النفسية والسنن الاجتماعية ، والسنن الإيمانية في الفرد والمجتمع ، والناس والأمم . وعلى مدى ارتباط هذه السنن بعضها ببعض ، أو مدى ارتباط السنن الإيمانية بالسنن الطبيعية كذلك . . . هنا يقف الدارس البصير على تاريخ الحضارة ، وتاريخ الإنسان ، وتاريخ النفس والاجتماع . . . وتاريخ التاريخ! إن البحث هنا يحتاج إلى مجلّدات ، وكل ما قد يحق لنا أن نذكره في هذه العُجالة - تاركين أمر تفصيل القول فيه إلى مناسبات أخرى - أن القصص القرآني يدلنا على ما يمكن لنا أن نسميه « وحدة التاريخ » من وجه ، و« وحدة الإنسان » من وجه آخر . . . وما أجدر الإنسان في كل عصر ، وبخاصة في هذا العصر ، أن يقف على هذه الوحدة علّه يجد نفسه التي أضاعها في ركام الأثاث ، وتكديس الأشياء . . . ظناً منه بأن هذه هي الحضارة ، أو ظناً منه أن « العلم » يغني عن

« المبادىء » وأن عالم الأشياء يغني عن عالم الأفكار!!... إن « إنسانية » الإنسان ـ إن صح هذا التعبير ـ ثابتة مكينة ، وهي الأصل في العمل والتعامل... وهي مقياس تقدمه الروحي والأخلاقي سواء أصنع آلات أم لم يصنع!! إن عليه أن يصنع وأن يتقدم في هذا الجانب الشيئي أو الصناعي... ولكنه لن يجد « نفسه » فيها بحال...

تمثل « القصة القرآنية » في أبرز ما تمثله حياة الإنسان أو تاريخ الإنسان... وإذا كان القرآن الكريم إنساني الرسالة ، وكان يمثل الخطاب الإلهي الأخير الجامع لهذا الإنسان إلى يوم الدين ، فإن ذلك هو سر هذا الاستعراض الشامل لقصص الأنبياء وتاريخ الأمم ، حتى لقد تكرر بعض هذا القصص أكثر من مرة تبعاً لتنوع الأغراض ، وتعدد العبر والدروس المستفادة من تلك القصص ـ كما سنحدثك بعد قليل ـ وشغلت قصص القرآن ـ تبعاً لذلك ـ مساحة كبيرة في النص القرآني الكريم . وإذا كانت هذه القصص تمثل ، من وجه آخر ، الصورة التطبيقية ، أو الواقع العلمي ، أو مدى استجابة « الإنسان » ـ سلباً أو إيجاباً ـ لرسالات الأنبياء السابقين على وجه الخصوص ، فلا ندري إلى أي حدٍ نملك أن نقول هنا : إننا نقرأ في القصص القرآني « **وحدة الهداية** » **أو الرسالة** ، ووحدة الإنسان أو التاريخ ، كما قرأنا في تشبيهات القرآن ـ على سبيل المثال ـ وحدة الكون والطبيعة!...

إن المجال هنا كما قلت رحب واسع ، وإن الحديث عن هذه « الإنسانيات » التي يمكن الوقوف عليها من خلال قصص القرآن طويل ومتشعب ، ولكن في وسعنا هنا ـ وقد يكون من واجبنا ـ أن نشير إلى أمر واحد ، أو شرط واحد من شروط حياة هذه المجتمعات الإنسانية ، ومستلزمات بقائها واستمرارها ، وأن نعلّق كذلك على واحدة من اللمحات واللفتات التي تأتي في سياق تلك القصص... حتى يتأكد لنا على الأقل ، وقبل أن نستوي إلى الحديث عن الأغراض العامة الجامعة لقصص القرآن ، أن هذه القصص ينطبق عليها ما ينطبق على سائر المواضيع والأغراض القرآنية من أنها تخاطب العامّة

والخاصّة... وأن ما أشار إليه العقاد عن فن القصة بعامّة تخرج منه القصة القرآنية على التحقيق... بل إن تلك الميزة التي حدثناك عنها فيما سبق تتجلى في القصة القرآنية بأوضح صورها... لأنها مما تألفه العامّة، وتطرب له، وتصغي إليه، وتجد فيه من متعة التسلسل والسّرد... والواقعية والمثال الحيّ ما لا تجده في باب الأوامر والنواهي، والتجريد الذهني، والعرض المجرد ـ ولهذا كان التنويع طابع معظم سور القرآن الكريم ـ كما تجد فيه الخاصّة إلى جانب تلك المتعة التي تشارك فيها العامّة على التحقيق ـ وبخاصة إذا ذكرنا طريقة العرض القرآني القاصد إلى جانب التنويع السابق ـ أعمق الإشارات والدلالات في باب النفس والاجتماع والحضارة والتاريخ...

نذكر هنا إذاً واحدةً من هذه **الدلالات**، وإشارةً واحدةً من تلك الإشارات:

١ ـ يحدثنا القرآن الكريم من خلال قصص السابقين، عن الترف والظلم الاجتماعي، وما ينشأ عنه وعن العناية بأشياء الحياة وأثاثها دون قيمها ومبادئها... من فساد العمران وزوال الأمم:

قال تعالى في سورة الأنبياء ٢١ :﴿وكم قصمنا من قريةٍ كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين. فلما أحسّوا بأسنا إذا هم منها يركضون!. لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تُسألون. قالوا يا ويلنا إنا كنّا ظالمين. فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ الآيات ١١ ـ ١٥ . وقال تعالى في سورة القصص ٢٨ : ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا، وكنا نحن الوارثين. وما كان ربك مُهلك القرى حتى يبعث في أمّها رسولاً يتلو عليهم آياتنا، وما كنّا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ الآيتان: ٥٨ ـ ٥٩ . والقرى: الأمم.

وقال تعالى في سورة هود ١١ :﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض إلاّ قليلاً ممن أنجينا منهم، واتّبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مُجرمين﴾ ١١٦ ـ ١١٧ . وقال تعالى في الآيات السابقة ١٠٠

ـ ١٠٣ : ﴿ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك منها قائم وحصيد. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب. وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

وقد يتسع المجال هنا للإشارة إلى أن القرآن الكريم يدلنا في مواضع متعددة على أن المترفين كانوا يبادرون إلى التكذيب بدعوات الأنبياء ـ ركوناً إلى أموالهم وأولادهم ظانّين أنها المقياس وأنها القيمة وأنها الاعتبار ـ قال تعالى في سورة سبأ ٣٤ : ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنّا بما أُرسلتم به كافرون!!. وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذَّبين. قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زُلفى إلا من آمنَ وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضِّعف بما علموا وهم في الغُرُفات آمنون﴾ ٣٤ ـ ٣٧.

وانظر إلى هذا التلبيس العقائدي الذي يفعله المترفون، حفاظاً على امتيازاتهم وأوضاعهم، وخوفاً من أثر التغيير العقائدي أن يمتد إليها... وكيف أن الله سبحانه يفجؤهم بالمقياس الحقيقي لصلاح المبادىء أو فسادها، وهو الهداية والرشد الإنساني!! قال تعالى في سورة الزخرف ٤٣ : ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قريةٍ من نذير إلاّ قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مقتدون﴾ الآية ٢٣، ثم يعقبه الجواب والرد : ﴿قال : أوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟! قالوا : إنا بما أُرسلتم به كافرون﴾! الآية ٢٤... وهكذا افتضح أمرهم، فأعلنوا عن خيبة ما تنطوي عليه نفوسهم : إنا بما أُرسلتم به كافرون! هكذا... بكل ما يحمله هذا الإعلان المفاجىء من غرور وصلَف!

وأخيراً انظر إلى نهاية حضارة المتاع، وحضارة الأشياء والأثاث... والتي قد تمثل عند بعض الناس الذروة والسنّام! فإذا بها هنا لا تعصم من وقوع الزلزال، إن لم تكن تمثل بداية السقوط، وأول طريق الانحدار... قال تعالى

في سورة مريم: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً﴾ ـ الآية ٧٤ ـ جاءت هذه الآية القرآنية الكريمة تشير إلى الأمم السابقة التي أُهلكت ـ والتي وردت قصصها في القرآن في مواضع أخرى ـ رداً على أولئك الذين لم يعرفوا التفريق بين المبادىء والأشياء... أو قدّموا الأشياء والأثاث على هداية المبادىء والقيم والأفكار،! قال تعالى ـ في الآية السابقة ٧٣ ـ ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين كفروا للذين آمنوا: أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ ندياً﴾... فجاء الجواب: ﴿وكم أهلكنا قبلهم...﴾ الآية.

وقد يمثّل القرن الذي نعيش فيه أبعاد هاتين الآيتين الكريمتين... فأنت إذا دعوت الناس بهداية القرآن حدَّثك البعض عن حضارة الآخرين... ورفاهيتهم. حتى لقد اصبح هذا القرن عند الجميع قرن الرفاهية المادية والتكاثر الشيئي والتسابق في المقتنيات والتطاول في البنيان! بل «لقد غدا فيه الإعلان عن (الأشياء) علماً له أصوله ومناهجه... وغدت أحاديث الناس في المجتمعات اليومية تنصب في معظمها على التزود بالحاجيات المستجدة، وملاحقتها واصطيادها، والتباهي بتكديسها في غرف البيوت وصالاتها حتى ولو لم يكن وراءها اي منفعة!!... بل غدا «الديكور» هو الآخر علماً له أصوله ومناهجه... يتهافت الناس على اصحابه من أجل أن يبدوا أحسن أثاثاً ورئياً!!

«إن الجانب المادي من الحياة ليس سوى تراكم شيئيّ... تكديس أثاث بعضه فوق بعض... ولم يكن بمقدور الأثاث يوماً... مهما كان جميلاً ومتقدماً ومتقناً أن يقف في مواجهة المصير... أن يخلّص أمّة لم تحسن التعامل مع القيم التي هي أكبر من الأشياء والأثاث و«الديكورات» يخلّصها من مصائرها المفجعة... من الهلاك النفسي والأخلاقي والصحّي والاجتماعي والأدبي الذي يقتحم عليها جدرانها الشيئية كالطاعون، ويكتسحها وأثاثها ورواءها الخارجي من مسرح التاريخ[1]...

(١) أنظر مقالاً قيماً بعنوان «إشارات قرآنية» للدكتور الفاضل عماد الدين خليل في مجلة العربي، العدد ٢٤٧ رجب ١٣٩٩ هـ ص١٤ ـ ١٧.

٢ ـ أما الإشارة التي وردت كواحدة من مئات الإشارات عبر القصص القرآنية، فقد وردت في قصة يوسف عليه السلام، وفي هذه القصة كنز من العبر والدلالات... وفيها الكثير من المواقف والنفسيات التي حلّل القرآن الكريم بعضها، وأشار الى بعضها الآخر في سياق الآيات... ونشير هنا إلى لفتة واحدة في قوله تعالى: ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ ـ الآية ٧١ ـ.

لما دخل إخوة يوسف عليه، وقد رجعوا هذه المرة «بأخ لهم من أبيهم»[١] آوى إليه أخاه... ثم دبّر أمر بقاءه عنده على هذا الوجه: ﴿فلما جهّزهم بجَهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذّن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ ـ الآية ٧٠ ـ.

وقف مؤذن الملك لينادي بهذا النداء وقد بدأت القافلة الحركة والسير... راجعة بالميرة والطعام. لقد فوجىء إخوة يوسف بهذا الاتهام الظالم، وذهلوا من هذا النداء على رؤوس الاشهاد... ولربما جال في أنفسهم في هذه اللحظة أنهم لو اتهموا بأمر آخر أظهره الله على يد هذا العزيز القوي لكان الى ذلك سبيل... لقد انتبهت قصة يوسف في أذهانهم لحظات حتى تنفسوا الصّعداء، وهم يقولون لهذا العزيز بعد قليل: ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل!!﴾. ـ الآية ٧٧ ـ.

ولكن المهم الآن: هل هم سارقون حقاً؟ وكيف تصرفوا في هذا الموقف للدلالة على براءتهم من هذه التهمة الظالمة؟ وما الذي يمكن أن يفعله البريء في مثل هذا الموقف؟ اننا بالطبع لم نحبس أنفاسنا أمام هذا النداء ﴿ايتها العير انكم لسارقون﴾ لأننا على علم بتدبير يوسف... ولكن كيف سيجري التحرّي والتحقيق؟ وكيف سيدلّون هم على براءتهم من هذا الأمر؟

لقد كانت حركتهم في الدلالة على براءتهم عفوية وساذجة... ففي حين استوضحوا من جند الملك عن طبيعة الشيء المسروق: «قالوا ماذا تفقدون»

---

(١) أنظر الآية ٥٩ فما بعدها من السورة المذكورة: ١٢.

فإنهم لم يقفوا مكانهم يسألون منه ويستوضحون، أو يحاولون الرد منه على هذا الإتهام الغريب... بل رجعوا أدراجهم إلى المؤذن والجنود «وأقبلوا عليهم» وجاءت هذه الجملة معترضة في الآية الكريمة لقولهم السابق: «قالوا - وأقبلوا عليهم - ماذا تفقدون»؟ جاءت لتدل على حركتهم النفسية التي ترفض هذا الاتهام... والتي مشت في ركابها - بيسر وسهولة - أقدامهم لتعلن عن استعدادهم لتفتيش جيوبهم وبضاعتهم جميعاً...

ماذا عسى السارق أن يفعل في موطن اتهام مثل هذا الموطن؟ إن غاية ما يقوى عليه أن يثبت في مكانه فلا يفرّ، وأن يجيب منه بصوت جريء لا أثر فيه لخوف أو اضطراب... فإن دفع التهمة عن نفسه وأقنع متهمه برباطة جأشه ومتين أعصابه... وإلاّ لاذ بالفرار حيث يسعه الفرار. وربَّما خلّف بضاعته إن كانت ستعيقه عن الهرب... أما أن يكون رجوعه إلى المنادي مقروناً بسؤاله واستفساره المباشر، فتلك أمارة البراءة في نفسية البريء.

الأغراض العامة:

إذا عدنا إلى الحديث عن الأغراض العامة للقصص القرآني، فإن من أوضح هذه الأغراض: الأغراض التالية:

١ - بيان أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح عليه السلام إلى عهد محمد ﷺ، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، ضاربة في جذور التاريخ، يضمهم ركب واحد مبارك... وأن الله الواحد الأحد هو رب الجميع. «وكثيراً ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة في صورة واحدة، معروضة بطريقة خاصة، لتؤيد هذه الحقيقة»[1].

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين، الذي يخشون ربهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون، وهذا ذكرٌ مبارك أنزلناه، أفأنتم له منكرون؟﴾.

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص١١٢.

﴿ ولقد آتينا ابراهيم رُشدَه من قبلُ، وكنّا به عالمين، إذ قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكفون؟ قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾، إلى قوله: ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الاخسرين، ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ نافلةً وكلاً جعلنا صالحين، وجعلناهم أئمة يَهدُون بأمرنا، وأوحينا إليهم فعلَ الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وكانوا لنا عابدين ﴾(1).

﴿ ولوطاً آتيناهُ حُكماً وعلماً، ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قومَ سَوءٍ فاسقين، وأدخلناه في رحمتنا، إنه من الصالحين ﴾.

﴿ونوحاً إذ نادى من قبل، فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم، ونصرناه من القوم الذين كذّبوا بآياتنا إنهم كانوا قومَ سَوءٍ فأغرقناهم أجمعين ﴾.

﴿وداودَ وسليمان إذ يحكمان في الحرْث، إذ نفشتْ فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمانَ ـ وكلاً آتينا حكماً وعلماً ـ وسخرنا مع داود الجبالَ يُسبحن والطيرَ، وكنا فاعلين، وعلمناه صَنعةَ لبَوس لكم لتحصنكم من بأسكم، فهل أنتم شاكرون؟ ﴾.

﴿واسماعيل وإدريس وذا الكفل، كل من الصابرين؛ وأدخلناهم في رحمتنا بكل شيء عالمين، ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك، وكنا لهم حافظين ﴾.

﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له، فَكشفنا ما به من ضُرّ، وآتيناه أهله، ومثلهم معهم، رحمةً من عندنا، وذكرى للعابدين ﴾.

﴿واسماعيل وإدريس وذا الكفل، كل من الصابرين؛ وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾.

---

(1) أنظر الآيات ٥١ ـ ٧٣ من سورة الأنبياء ٢١.

﴿وذا النون إذْ ذهب مُغاضباً ، فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى في الظلمات أنْ لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين﴾.

﴿وزكريا إذ نادى ربه : رب لا تَذَرْني فرداً ، وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجَهُ ، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ، ويدْعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين﴾.

﴿والتي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آيةً للعالمين﴾.

﴿إن هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدون﴾

الآيات ٧٤ ـ ٩٢ . وهذا هو الغرض الأصيل من هذا الاستعراض الطويل ، وغيره من الأغراض الأخرى يأتي عَرضاً وفي ثناياه . . .

٢ ـ ومن أغراض القصة بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة ، وأن استقبال قومهم لهم متشابه ـ فضلاً على أن الدين من عند إله واحد ، وأنه قائم على أساس واحد ـ وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة أيضاً ، مكررة فيها طريقة الدعوة ، على نحو ما جاء في سورة « هود » : ـ الآيات ٢٥ ـ ٩٥ :

﴿ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه : إني لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلاّ الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نَراك إلاّ بشراً مثلنا ، وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلُنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾ . . . إلى أن يقول : ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إنْ أجريَ إلاّ على الله﴾ . . . وإلى أن يقولوا له : ﴿يا نوحُ قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدُنا إن كنت من الصادقين﴾ . . . الخ .

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إنْ أنتم إلاّ مفترون ، يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إنْ أجري إلاّ على الذي فَطرَني ،

أفلا تَعقلون؟ ﴾ . . . إلى قوله : ﴿قالوا يا هودُ ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلاّ اعتراك بعضُ آلهتنا بسوءٍ قال إني أُشهد الله واشهدوا أني بريء مماتُشركونَ . من دونه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظرُون ﴾ . . . الخ .

﴿وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرُه ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربّي قريبٌ مجيب ، قالوا : يا صالحُ قد كنتَ فينا مرجوّاً قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ . . . الخ .

٣ ـ وكان من أغراض القصة البارزة كذلك : بيان أن الله ينصر أنبياءه في النهاية ويهلك المكذبين ، وذلك تثبيتاً لنبيّه محمد ﷺ وتأثيراً في نفوس من يدعوهم إلى الإيمان : ﴿وكلاًّ نقص عليه من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ ، وتبعاً لهذا الغرض كانت ترد قصص الأنبياء مجتمعة مختومة بمصارع من كذبوهم ، ويتكرر بهذا عرض القصص كما جاء في سورة « العنكبوت » : ـ الآيات : ١٤ ـ ٤٠ ـ :

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، فأنجيناه وأصحاب السفينة ، وجعلناها آية للعالمين

وإبراهيمَ إذ قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . . . ﴾ إلى أن يقول : ﴿فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا : اقتلوه أو حرّقوه ، فأنجاه الله من النار ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ . . . الخ .

﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين . . . ﴾ إلى أن يقول : ﴿إنا مُنزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يَفسقون ، ولقد تركنا منها آية بينةً لقوم يعقلون .

وإلى مدْين أخاهم شعيباً فقال : يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ،

ولا تعثوْا في الأرض مُفسدين ، فكذبوه فأخذتهم الرجفةُ ، فأصبحوا في دارهم جاثمين .

وعاداً وثمودًا ـ وقد تبين لكم من مساكنهم ـ وزَيّن لهم الشيطان أعمالهم ، فصدَّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين

وقارونَ وفرعونَ وهامانَ ، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين .

فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحةُ ومنهم من خسفنا به الأرضَ ، ومنهم من أغرقْنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكنْ كانوا أنفسَهم يَظلمون﴾ ، وتلك هي النهاية الواحدة للمكذبين[1] .

رابعاً : أسلوب العرض والخصائص الفنية :

قد تختلف أساليب العرض في الفن الواحد من الفنون الأدبية تبعاً لاختلاف الأغراض والمقاصد ، لأن أسلوباً ما من أساليب العرض ـ أو أكثر ـ قد يكون أكثر ملاءمة لأداء هذا الغرض ، أو الوصول إلى ذلك الهدف ، من سائر الأساليب الأخرى .

وأغراض القصة القرآنية التي أشرنا إلى بعضها . . . هذه الأغراض على تنوعها وتعددها ـ كما رأيت ـ لا تخرج عن غرض ديني واضح ، أو عن غرض الهداية والعبرة ، والدعوة إلى الله واليوم الآخر . . . يضاف إلى ذلك ـ كماأوضحناه لك كذلك ـ أن الوصول الى هذا الغرض كان من خلال قصص واقعي ليس فيه مخالبةٌ ولا افتراض .

ومعنى ذلك أن العرض القرآني لهذا الفن من الفنون الأدبية كان فيه « التزامان » بارزان لا يخفيان على أحد : الغرض الديني ـ الذي يشمل في الواقع سائر أبواب القرآن الكريم في الدعوة والهداية والإرشاد ـ والصدق التاريخي .

---

(١) أنظر تفصيلات هذه الأغراض واغراضاً أخرى كثيرة في كتاب التصوير الفني في القرآن لسيد قطب .

وإذا كان كل كاتب قصّة له غرضٌ ما من الأغراض ـ في الأدب الجادّ أو المقروء بالطبع ـ فإن الصدق التاريخي هنا، الذي حدثتك عنه، لا بد من الإشارة الى أهمية «الالتزام» به بين يدي الكلام على أسلوب الفن القصصي في القرآن، وخصائص هذا الأسلوب الفنية العالية...

إن الصدق الفني ـ بمعنى الشعور الصادق عند الأديب أو الكاتب ـ هو عماد فن القصة فيما نقدّر، أما الصدق التاريخي ـ أي بمعناه الأخلاقي هنا ـ فقد يكون بالنسبة للكاتب أو الأديب عاملاً معوِّقاً عن الوصول بعمله من الوجهة الفنية الخالصة إلى الذروة العليا من الإحكام والنجاح... فإن انعدم عند الكاتب ذلك الشعور الصادق مع رغبته في الالتزام بالسّرد التاريخي الحقيقي أو الثابت... أُلحق عمله بكتب التاريخ، وخرج من نطاق الأدب من الأصل!! إن «المادة الأدبية» في فن القصّة لا تتأتى بغير ذلك الشعور الصادق الذي هو ضرورة لازمة في كل فنون الأدب بطبيعة الحال، ولكنه هنا في فن القصة يبدو أكثر إلحاحاً، وأوضح ضرورةً... بل إن الكاتب هنا يزداد عمله نجاحاً كلما قوي شعوره الأدبي هذا على ركوب الخيال المجنّح، أو اعتمد على المخالبة المؤثرة... أو التهويل المخوِّف... حتى لكأن الجمع بين نوعي الصدق ـ بمعناه الفني والأخلاقي ـ يكاد يكون في هذا الفن من الأمور البعيدة، أو أن أحدهما يجور فيه على الآخر على الدوام... ومن هنا فيما يبدو جاء قولهم في القصص الواقعية الناجحة: «إنها أقوى من الخيال!!» ولعل الكلمة التي تروى عن الأصمعي في الشعر: «الشعر نَكِدٌ يقوى في الشر، ويضعف في الخير...» أن تصح أول ما تصح على فن القصّة، وأن يكون الشعر آخر ما تصح هذه المقولة عليه!!... هذا إذا كان الكذب رأس الشرور... وإنه لكذلك.

أقول: فإذا وقفت بعد ذلك على هذا التنوّع الفنّي الهائل في أسلوب العرض القرآني للقصة، تبعاً لأدق المعاني والمواقف الفرعية الدقيقة التي تساق القصة التاريخية من أجلها ـ في موطن من المواطن القرآنية ـ فعليك أن تقدر أهمية هذا التنوّع، وقيمته «الفنية» الرفيعة التي ترفد موضوع الإعجاز في

باب واسع... وبخاصة حين تلاحظ ـ على سبيل المثال ـ أن هذا التنوع برز في معظم الأحيان من خلال تكرار قصّة بعينها في أكثر من موطن... كما سنحدثك بعد قليل، وكما أشرنا إليه عند الكلام على المتشابه اللفظي في بحث سابق.

ونلخص هنا هذا الأسلوب القرآني في عرض القصة على النحو الذي أشار إليه الأستاذ الناقد سيد قطب رحمه الله في دراسته المبتكرة التي عرضها في كتابه «التصوير الفني في القرآن»، والذي اعتبره ـ أي هذا الأسلوب ـ أثراً من آثار خضوع القصة القرآنية للغرض الديني[1]، بحسب تعبيره رحمه الله.

١ ـ **تكرار القصة** في مواضع شتى «ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها ـ غالباً إنما هو تكرار لبعض حلقاتها، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها، أما جسم القصة كله فلا يكرر إلاّ نادراً، ولمناسبات خاصة في السياق.

وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظاً السياق الذي وردت فيه، يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً، في اختيار الحلقة التي تعرض هنا أو هناك، وفي طريقة عرضها كذلك»[2].

ومعنى ذلك أن القصص القرآني ليس فيه تكرار مطلق، كما قد يتوهم بعض المتعجّلين لقراءة القرآن الكريم... كما أن أداء بعض هذه القصص ـ التي جاءت مطوّلة في بعض المواطن ـ بعبارات أقل لا يمكن إلاّ مع تجاوز لبعض الأغراض التي جاءت في العرض المطوّل... أما «مبدأ» الإيجاز والاختصار فقد جاء في النص القرآني ذاته!!

فإذا ذكرنا أغراض القصة في القرآن من إثبات وحدة الإلَه، ووحدة الدين، ووحدة الإنسان... أدركنا معنى هذا العرض لشريط الأنبياء والرسل... وأدركنا ما فيه من جمال فني حيث يخيل للمتأمل أنه نبي واحد،

---

(١) التصوير الفني في القرآن، ص١١٨ فما بعدها.

(٢) انظر تفصيل هذه النقطة وتطبيقاتها الواسعة في الكتاب السابق ص١١٩ ـ ١٢٤.

وأنها إنسانية واحدة على تطاول الأزمان والآماد!...

٢ - تعرض القصة في القرآن بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغرض، ومن الحلقة التي تتفق معه، وبدون تجاوز بطبيعة الحال للوقائع التاريخية، - وهذا من وجوه التمييز بين العرض الأدبي والعرض التاريخي المحض- فمرة تعرض القصة من أولها، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها. وتارة تعرض كاملة، وتارة يكتفى ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك، حسبما تكمن العبرة في هذا الجزء أو ذاك[١].

وقد نشأ عن هذا ما يشبه أن يكون نظاماً عاماً، ذلك أن آخر حلقة تعرض - بحسب ترتيب السور- تتفق مع أظهر غرض ديني وردت القصة من أجله، وفي الوقت ذاته يتفق هذا الختام مع الأصول الفنية، ويبدو كأنه ختام فني لذاته، لا للغرض الديني من ورائه.

هذه قصة سيدنا إبراهيم ترد في حوالي العشرين موضعاً، ثم يكون آخر موضع يرد فيه هو «سورة الحج» (١٠٣) فتعرض منها الحلقة التالية: ﴿وإذا بوأنا لابراهيم مكانَ البيت وأذنْ في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فَجٍّ عميق﴾.

فهنا - من الوجهة الدينية- ربط بين شعائر الحج في الاسلام وشعائره في دين إبراهيم: وذلك غرض - كما قلنا - مقصود، وقد ورد في ختام السورة نفسها آخر ذكر لابراهيم في قوله: ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سَمَّاكم المسلمين من قبل﴾ ولكن لننظر من الوجهة الفنية البحتة، أكان هناك مشهد تختم به قصة إبراهيم، أليق من مشهده يؤذن في الناس للحج، وهو باني البيت، ومودع طفله إسماعيل هناك قبل البناء؟ إنه أليق ختام بلا جدال، ولو لم يكن الغرض الديني هو اقتضاه.

وهذه قصة عيسى بن مريم ترد وروداً أساسياً في ثمانية مواضع، وآخر حلقة

---

(١) انظر التفصيلات والشواهد القرآنية في التصوير الفني ١٢٤ - ١٢٨.

منها تعرض في سورة المائدة «١١٦» على النحو التالي: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّيَ إلَهين من دون الله؟! قال: سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنتُ قلتُه فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب، ما قلتُ لهم إلا ما أمرْتني به: أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم، فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد، إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾.

فهذا الختام هو ختام ديني فني في آن واحد، لقصة كقصة عيسى، مولده عجيب، وعن هذا المولد نشأت الشبهات...، وحول هذه النقطة ثارت المشكلات، فها هو ذا في اللحظة الأخيرة أمام خالقه يعترف بعبوديته، ويشهد بما قاله لقومه، ويفوض الأمر إلى الله العزيز الحكيم[1].

٣ - مزج التوجيهات الدينية بسياق القصة، قبلها وبعدها، وفي ثناياها كذلك. والذي يتتبع قصص القرآن يجد عقب كل قصة تعقيباً دينياً يناسب العبرة فيها وأما ما يذكر من التوجيهات في ثناياها، فنورد منه هذين المثالين:

أ - في قصة سليمان مع بلقيس يقول الهدهد: ﴿إني وجدتُ امرأة تملكهم وأوتيتْ من كل شيء، ولها عرْش عظيم، وجدتها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، ألا يسجدوا لله الذي يُخرج الخَبءَ في السموات والأرض، ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلاّ هو رب العرش العظيم﴾، كل هذا يقوله هدهد في ثنايا القصة، ليهتدي الآدميون بهداه فيما يقول!

ب - وفي قصة يوسف مع خادمي الملك، يفسر لهما الرؤيا ثم يقول: ﴿ذلكما مما علمني ربي، إني تركتُ ملةَ قوم لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون، واتبعتُ ملةَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، ما كان لنا أن نشرك بالله من

(١) التصوير الفني ص١٣٤.

شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾: وهكذا لا يسير سياق القصة إلاّ وفي ثناياه تلك التوجيهات، زيادة على المغزى الذي تؤدي إليه بحوادثها دون توجيهاتها[1].

اما الخصائص الفنية للقصة فيمكن تلخيصها بما يلي:

١ - تنوع فنّ الإخراج:

١ - فمرة يذكر ملخص للقصة يسبقها، ثم تُعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها، وذلك كطريقة قصة «أصحاب الكهف» فهي تبدأ هكذا:

﴿أمْ حَسِبْتَ أن أصحابَ الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً؟ إذ أوَى الفتيةُ إلى الكهف، فقالوا ربنا آتنا من لَدُنْكَ رحمةً، وهيء لنا من أمرنا رَشداً، فضربنا على آذانهم في الكهف سِنينَ عَدَداً، ثم بعثناهم لنعلم أيّ الحزبين أحْصَى لِمَا لبثوا أمَداً﴾.

ذلك ملخص للقصة، ثم تتبعه تفصيلات تشاورهم قبل دخولهم الكهف، وحالتهم بعد دخوله، ونومهم، ويقظتهم، وإرسالهم واحداً منهم ليشتري لهم طعاماً، وكشفه في المدينة، وعودته، وموتهم، وبناء المعبد عليهم، واختلاف القوم في أمرهم... الخ فكأن هـذا التلخيص كان مقدمة مشوقة للتفصيلات.

٢ - ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها، ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها، وذلك كقصة موسى في سورة القصص، وهي تبدأ هكذا: ﴿طَس تلك آيات الكتاب المبين، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون، إن فرعون علا في الأرض، وجعل أهلها شيعاً: يستضعف طائفة منهم يُذبّح أبناءهم ويَسْتَحي نساءهم، إنه كان من المفسدين، ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضْعفوا في الأرض، ونجعلَهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونُمكنَ

---

(١) التصوير الفني ص١٣٠.

لهم في الأرض ، ونُريَ فرعون وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ .

ثم يمضي في تفصيلات قصة موسى : مولده ونشأته ، ورضاعه ، وكبره ، وقتله المصري وخروجه . . . ، فكأن هذه المقدمة ، التي تكشف الغاية من القصة كانت تمهيداً مشوقاً لمعرفة الطريقة التي تتحقق بها الغاية المرسومة المعلومة .

٣ - ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ، ويكون في مفاجآتها الخاصة ما يغني ، مثال ذلك قصة مريم عند مولد عيسى ، ومفاجآتها معروفة وسنعرضها بالتفصيل في ختام هذا البحث ، وكذلك قصة سليمان مع النمل والهدهد وبلقيس .

٤ - ومرة يحيل القصة تمثيلية ، فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبه إلى ابتداء العرض ، ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بوساطة أبطالها ، وذلك كهذا المشهد من قصة إبراهيم وإسماعيل :

﴿وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل ﴾ هذه إشارة البدء ، أما ما يلي ذلك فمتروك لابراهيم وإسماعيل : ﴿ربنا تقبلْ منا إنك أنت السميع العليم . ﴾ إلى نهاية المشهد الطويل ، ولهذا نظائره في كثير من قصص القرآن الكريم .

٢ - تنوع طريقة المفاجأة :

١ - فمرة يُكتمُ سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة ، حتى يُكشف لهم معاً في آن واحد ، مثال ذلك قصة موسى مع العبد الصالح العالم في سورة الكهف . « راجع الآيات ٦٠ - ٧٨ ، ثم ٧٩ - ٨٢ » .

فنحن في الآيات الأولى أمام مفاجآت متوالية ، لا نعلم لها سراً ، وموقفنا منها كموقف بطلها موسى ، بل نحن لا نعرف من هو هذا الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة ولا ينبئنا القرآن باسمه ، تكملة للجو الغامض الذي يحيط بنا .

ثم يأخذ السر في الآيات التالية : ٧٩ - ٨٢ في الظهور ، فيعلمه النظارة حين يعلمه موسى :

﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم مَلكٌ يأخذ كل سفينة غصْبا ، وأما الغلامُ فكان أبواه مُؤْمنيْن... ﴾ الآيات .

٢ ـ ومرة يُكشف السر للنظارة ، ويتركُ أبطال القصة عنه في عماية ، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون بالسر ، وأولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين ، وأغلب ما يكون ذلك في معرض السخرية ، ليشترك النظارة فيها منذ أول لحظة ، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين!

مثل قصة أصحاب الجنة (البستان) الذين أرادوا حرمان الفقراء من نصيبهم : ﴿إذ أقسموا ليصرمُنها مُصْبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فاصبحت كالصريم﴾[١] .

وبينما نحن نعلم هذا ، كان اصحاب الجنة يجهلونه . ﴿فتنادوا مُصبحين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون : ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حَرْد قادرين ﴾ .

وقد ظللنا نحن النظارة نسخر منهم ، وهم يتنادون ويتخافتون ، والجنة خاوية كالصريم ، حتى انكشف لهم السر أخيراً بعد أن شبعنا تهكماً وسخراً : ﴿قالوا : إنا لضالون ، بل نحن محرومون ﴾! وذلك جزاء من يحرم المساكين!

٣ ـ ومرة يُكشف بعض السر للنظارة ، وهو خاف على البطل في موضع ، وخاف على النظارة وعن البطل في موضع آخر ، في القصة الواحدة ، مثال ذلك قصة عرش بلقيس الذي جيء في غمضة ، وعرفنا نحن أنه بين يدي سليمان ، في حين أن بلقيس ظلت تجهل ما نعلم : ﴿فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك؟ قالت كأنه هو﴾! فهذه مفاجأة عرفنا نحن سرها سلفاً ، ولكن مفاجأة الصرح الممرد من قوارير ، ظلت خافية علينا وعليها حتى فوجئنا بسرها معها حينما ﴿قيل لها : ادخلي الصرح ﴾[٢] .

---

(١) أنظر الآيات ١٧ ـ ٣٣ من سورة القلم ٦٨ ، وانظر الصفحتين ٤٠٢ ـ ٤٠٣ من هذا الكتاب .
(٢) أنظر الآيات ١٧ ـ ٤٤ من سورة النمل ٢٧ .

٤ - ومرة لا يكون هناك سر، بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد، ويعلمان سرها في الوقت ذاته: وذلك كمفاجآت قصة مريم، حين تتخذ من دون أهلها حجاباً، فتفاجأ هناك بالروح الأمين في هيئة رجل، فتقول: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنتَ تقياً﴾، نعم إننا عرفنا قبلها بلحظة «الروح» ولكن الموقف لم يطل فقد أخبرها: ﴿قال: إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيًّا!﴾ وقد فوجئنا كذلك معها إذ أجاءها المخاض إلى جذع النخلة ﴿قالت: يا ليتني متُّ - قبل هذا وكنت نَسياً منسياً، فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريًّا... الخ﴾

٣ - **الفجوات بين المشهد والمشهد**، التي يتركها تقسيم المشاهد و«قص» المناظر بحيث تترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال، ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق.

وهذه طريقة متبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب. وانظرها هنا في قصة يوسف التي قسمت إلى ثمانية وعشرين مشهداً، فلنعرض بعض مشاهدها:

لقد قدم إخوة يوسف ﴿على خزائن الأرض﴾ في سنوات الجدب، يطلبون القمح، فطلب إليهم أن يحضروا أخاهم الآخر - شقيقه - فأحضروه، على كره من أبيه، ثم وُضع صُوَاع الملك في رحله وأُخذ به رهينة، باسم أنه سارق، ليبقيه يوسف عنده!

ثم ها هم أولاء إخوته ينتحون جانباً ليتشاوروا في أمرهم، وقد أبى عليهم يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه ﴿فَلما استيأسوا منه خلصوا نجياً، قال كبيرهم: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، ومن قبلُ ما فرَّطتم في يوسف؟ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين، ارجعوا إلى أبيكم، فقولوا: يا أبانا إن ابنك سرقَ وما شهدْنا إلا بما علمنا، وما كنا للغيب حافظين، واسأل القرية التي كنا فيها، والعيرَ التي أقبلنا فيها، وإنا لصادقون﴾.

وهنا يسدل الستار ، لنلتقي بهم في مشهد آخر لا في مصر ولا في الطريق ، ولكن أمام أبيهم ، وقد قالوا له ما وصاهم به أخوهم دون أن نسمعهم يقولونه ، إنما يرفع الستار مرة أخرى لنجد أباهم يخاطبهم :

﴿قال : بل سَوَّلتْ لكم انفسكم أمراً ، فصبرٌ جميل ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، انه هو العليم الحكيم﴾ ويسدل الستار .

وهنا نرى مشهداً آخر بين يعقوب وبنيه ، نراه قد ابيضت عيناه من الحزن ، وهو دائم الحسرة على يوسف ، وأبناؤه يستنكرون عليه هذا كله :

﴿وتولَّى عنهم ، وقال : يا أسفا على يوسف ، وابيضتْ عيناه من الحزن فهو كظيم ، قالوا : تالله تفتأ تذكرُ يوسف حتى تكون حرضاً[1] أو تكون من الهالكين ، قال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون ، يا بَنِيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأسُ من روْح الله إلاّ القوم الكافرون﴾.

وهنا يسدل الستار ، ويطوون الطريق لا نعلم عنهم فيه شيئاً ، إنما يرفع الستار فنجدهم في مصر أمام يوسف : ﴿فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيزُ مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزْجاة ، فأوف لنا الكيلَ وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين﴾ ... وهكذا .

وتسير قصص أهل الكهف ومريم وسليمان على النسق نفسه .

٤ ـ التصوير او العرض التصويري :

وأخيراً يقول الاستاذ سيد قطب :

« إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها ، فتستحيل القصة حادثاً يقع ومشهداً يجري ، لا قصة تروى ولا حادثاً قد مضى » . ثم يقول :

---

(١) ذائباً من الهم والحزن .

إن هذا التصوير في مشاهد القصة ألوان: لون يبدو في قوة العرض والإحياء، ولون يبدو في تخييل العواطف والانفعالات، ولون في رسم الشخصيات، وليست هذه الألوان منفصلة، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين، فيسمى باسمه. أما الحق فإن هذه اللمسات الفنية كلها تبدو في مشاهد القصص جميعاً... وهنا يوضح المثال، ما لا يوضحه المقال:

ها نحن أولاء نشهد «أصحاب الكهف» يتشاورون في أمرهم بعدما اهتدوا إلى الله بين قوم مشركين:

﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق: إنهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربنا رب السموات والأرض، لن ندعو من دونه إلهاً، لقد قلنا إذاً شططاً، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة، لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن! فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً﴾.

بهذا ينتهي المشهد، ويسدل الستار، فإذا رفع الستار مرة أخرى، وجدناهم قد نفذوا ما استقر عليه رأيهم، فها هم أولاء في الكهف، وها هم أولاء نراهم يقيناً:

﴿وترَى الشمس إذا طلعتْ تَزَاورُ عن كهفهم ذاتَ اليمين، وإذا غرَبت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه﴾... أنقول: إحياء المشهد! إن المسرح الحديث بكل ما فيه من طرق الاضاءة ليكاد يعجز عن تصوير هذه الحركة المتاوجة، حركة الشمس وهي «تَزَاور» عن الكهف عند مطلعها فلا تضيئه، (واللفظة ذاتها تصور مدلولها) وتجاوزهم عند مغيبها فلا تقع عليهم، ولقد تستطيع السينما بجهد أن تصور هذه الحركة العجيبة التي تصورها الألفاظ في سهولة غريبة...

ثم لننظرهم «وهم في فجوة منه»، إن الألفاظ لتقوم بالمعجزة مرة أخرى،

فتنتقل هيئتهم وحركتهم كأنما تشخصُ وتتحرك على التوالي :

﴿وتحسبهمْ ايقاظاً وهم رُقودٌ ، ونقلبهم ذاتَ اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعتَ عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملئتَ منهم رُعباً ﴾، وهكذا تضطلع الألفاظ بالتصوير وبالحركة في كل هذه السهولة وفجأة تدب فيهم الحياة ، فلننظر ولنسمع :

« وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم : كم لبثتم؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم! قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فلينظرْ أيها أزكى طعاماً ، فلْيأتكم برزق منه ، وليتلطف ، ولا يُشعرنَّ بكم أحداً ، إنهم إنْ يَظهروا عليكم يَرْجمونكم أو يعيدوكم في ملَّتهم ، ولن تفلحوا إذاً أبداً » .

وهذا هو المشهد الثالث ـ أو بقية المشهد الثاني ـ فهم قد استيقظوا ، فكان أول ما يسألون عنه : كم لبثتم؟ فيكون الجواب لبثنا يوماً أو بعض يوم ، وإنا لنعلم أنهم لبثوا أطول من ذلك جداً ، فقد عرفنا ملخص قصتهم قبل تفصيلها ، أما هم فجائعون معجلون عن التحقق ، ثم إنهم مؤمنون ، فليكن مظهر إيمانهم أن يقولوا :

« ربكم أعلم بما لبثتم » ، وهم متخوفون أن ينفضح أمرهم ، فهم يوصون رسولهم ان يتلطف ولا يشعرن بهم أحداً ، لئلا يعرف القومُ مقرهم فيرجموهم أو يعيدوهم في ملتهم ، أما نحن فنعرف أن لا أحد هناك يرجمهم أو يردهم عن دينهم ، ولكن لنتبع هذا الرسول في المشهد الثالث :

أين هو هذا المشهد؟ هنا فجوة متروكة للخيال ، فنحن لا نجد إلاّ أن أمرهم كشف وعثر الناس عليهم ، وإن كان الناس يومئذ مؤمنين لا كافرين . . . الخ هذه المشاهد في هذه القصة[1] .

---

(١) تابع سائر حلقات القصة في الآيات القرآنية ، وانظر الشرح والتعليق في التصوير الفني ص١٤٧ فما بعدها .

وإليـك الآن هـذا اللون الثـاني من ألوان التصوير في القصـة : **تصوير العواطف والانفعالات**، كما تبدو ملامحها في قصة مريم وولادة عيسى عليهما السلام :

قال تعالى : ﴿واذكرْ في الكتاب مريمَ إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً ﴾.

فها هي ذي في خلوتها ، مطمئنة إلى انفرادها . . . ولكن ها هي ذي تفاجأ مفاجأة عنيفة تنقل تصوراتها نقلة بعيدة ، ولكنها بسبب مما هي فيه ايضاً : ﴿فأرسلنا إليها رُوحنا ، فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً ﴾ إنها انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل في خلوتها ، فتلجأ الى استثارة التقوى في نفسه : « إن كنت تقيّاً »!

ولئن كنا نحن نعلم « الروح الأمين » فإنها هي لا تعلم إلاّ أنه رجل ، وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة الطيبة البريئة ، وقد تربت تربية صالحة وكفلها « زكريا » بعد أن نذرت لله جنينا . . .

هذه هي الهزة الأولى .

﴿قال : إنما أنا رسولُ ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ ، ثم ليتمثل الخيال مرة أخرى مقدار الفزع والخجل ، وهذا الرجل الغريب ـ الذي لم تثق بعد بأنه رسول ربها ، فقد تكون حيلة فاتكٍ يستغل طيبتها ـ يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول وهو أنه يريد أن يهب لها غلاماً ، وهما في خلوة وحدهما!!

وهذه هي الهزة الثانية .

ثم تدركها شجاعة الأنثى تدافع عن عرضها : ﴿قالت : أنّى يكونُ لي غلامٌ ولم يمسسني بشرٌ ، ولم أكُ بغيّاً؟﴾ هكذا ، صراحة ، وبالألفاظ المكشوفة ، فهي والرجل في خلوة ، والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفاً ـ فما تعرف هي بعد كيف يهب لها غلاماً ، وما يخفف من روع الموقف أن يقول لها : « إنما أنا رسول ربك » فقد تكون هذه خدعة فاتكٍ كما قلنا ـ فالحياء إذن ليس يجدي ،

والصراحة هنا أولى.

﴿قال: كذلك قال ربك: هو علي هيِّن، ولنجعله آية للناس، ورحمة منا، وكان أمرا مقضيّاً﴾.

ثم ماذا؟

٤٠. هنا نجد من فجوات القصة، فجوة فنية كبرى، تترك للخيال أن يتصورها. ثم تمضي القصة في طريقها، لنرى هذه العذراء المسكينة في موقف آخر أشد هولاً:

﴿فحملته، فانتبذتْ به مكاناً قصيّاً، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة، قالت: يا ليتني مِتُّ قبل هذا، وكنت نَسياً منسياً﴾.

وهذه هي الهزة الثالثة.

فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة، ثم هي تواجه آلاماً جسدية بجانب الآلام النفسية، تواجه الألم الجسمي الحاد الذي «أجاءها» إجاءةً الى جذع النخلة، وهي وحيدة فريدة، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض، ولا علم لها بشيء، ولا معين لها في شيء، فإذا هي قالت: «يا ليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسياً» فإننا لنكاد نرى ملامحها، ونحس اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الألم فيها!!

﴿فناداها من تحتها: ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريّاً، وهزي إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطباً جنيّاً، فكُلي واشربي، وقري عينا، فإمّا تَرَيَنَّ من البشر أحداً فقولي إني نذرتُ للرحمن صوماً فلن أكلِّم اليوم إنسيّاً﴾.

وهذه هي الهزة الرابعة، والمفاجأة العظمى، وإنا لنكاد نحن - لا مريم - نهب على الأقدام وثباً، روعة من الهزة وعجباً: طفل ولد اللحظة، يناديها من تحتها، ويمهد لها مصاعبها، ويهيء لها طعامها، ألا إنها الهزة الكبرى!

ونحسبها قد دهشت طويلاً، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط

عليها رطباً جنيَّاً ـ لتتأكد على الأقل، ويطمئن قلبها لما تواجه به أهلها ـ ولكن هنا فجوة تترك للخيال أن يقيم عندها قنطرة، ويعبرها...

﴿فأتت به قومها تحمله﴾!

فلتطمئن الآن مريم، ولتنقل الهزات النفسية إلى سواها، ﴿قالوا: يا مريم لقد جئت شيئاً فريَّاً، يا أخت هارون! ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغيَّاً﴾.

إن الهزة لتطلق ألسنتهم بالسخر والتهكم على «أخت هارون»! وفي تذكيرها بهذه الأخوة ما فيه من مفارقة، فهذه حادثة في هذا البيت لا سابقة لها «ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغيا».

﴿فأشارت إليه﴾، ويبدو أنها كانت مطمئنة لتكرار المعجزة هنا، أما هم فما عسى أن نقول في العجب الذي يساورهم، والسخرية التي تجيش بها نفوسهم، وهم يرون عذراء تواجههم بطفل، تتبجح فتشير إليهم ليسألوه عن سرها؟ ﴿قالوا: كيف نكلِّم من كان في المهد صبيَّاً؟﴾!

ولكن ها هي ذي المعجزة المرتقبة: ﴿قال إني عبد الله، آتانيَ الكتاب، وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيَّاً، وبراً بوالدتي، ولم يجعلني جبارا شقياً، والسلام عَليَّ يوم وُلدت ويوم أموت، ويوم أُبعث حيَّاً﴾.

لولا أننا قد جربنا من قبل، لوثبنا على أقدامنا فزعاً، أو لسمّرنا في مواضعنا دهشاً، أو لفغرنا أفواهنا عجباً، ولكننا جربنا، فلتفض أعيننا بالدمع من التأثر، وفي هذه اللحظة يسدل الستار، والأعين تدمع للانتصار، وفي هذه اللحظة نسمع في لهجة التقرير، وفي أنسب فرصة للاقناع والاقتناع:

﴿ذلك عيسى بنُ مريم، قولَ الحق الذي فيه يمترون، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه! إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون، وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾.

ونكتفي بهذا القدر من هذا الاستعراض الرائع الذي قدمه الأستاذ سيد قطب، في مجال القصة القرآنية بوجه عام، وفي مجال التصوير فيها بوجه خاص، مؤكدين أن أي اقتباس من كتابه «التصوير الفني» لا يغني عن الرجوع إليه، والإفادة منه في باب التفسير البياني للقرآن بوجه خاص، وفي باب الأدب والنقد بوجه عام.

هذا، مع الإشارة أخيراً إلى أنه ـ رحمه الله ـ قد أفرد للحديث عن «شخصيات» القصص القرآني حديثاً مطولاً... تحدث فيه عن كيفية رسم هذه الشخصيات وإبرازها في القصة القرآنية... وعن الملامح الخاصة أو «النموذج الإنساني» الذي يمثّله أو يعبِّر عنه كل واحد من هذه الشخصيات. ولا مجال عندنا هنا لمثل هذا الاستعراض الذي ندعه إلى موضعه من دروس الشرح والتفسير إن شاء الله.

الباب السادس

لمحة عن نشأة التفسير وتطوره

الفصل الأول
حول نشأة التفسير

نزل القرآن بلغة العرب، وعلى أساليبهم في الكلام، قال الله تعالى: ﴿إنّا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون﴾ الآية ٢ من سورة يوسف. وقال تعالى: ﴿بلسانٍ عربيٍّ مُبين﴾ الآية ١٩٥ من سورة الشعراء. والآيات التي تتحدث عن «لغة» القرآن وتؤكد أنها «عربية» كثيرة. وما يذكره بعض المفسرين من «القسطاس» و«سجيل» وكلمات أخرى من أنها رومية أو حبشية، فالمراد أن لغة العرب وافقت فيها لغة الروم ـ ولهذا كانوا يقولون في شرح هذه الكلمات: معناها في الفارسية أو الحبشية كذا ـ أو أن العرب أخذت هذه الكلمات وهضمتها وأجرت عليها قوانينها، فكأن الحديث إنما هو عن «أصل» هذه الكلمات ـ على طريقة جميع اللغات الأخرى ـ لا عن أنها غير عربية، وأن القرآن فيه ما ليس بعربي؛ قال الطبري: «ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن إنها بالفارسية أو الحبشية أو النبطيّة أو نحو ذلك: إنما اتفق فيه توارد اللغات؛ فتكلّمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد».

والمعلوم أن النبي ﷺ كان يتلو عليهم هذه الآيات، فلو كان فيه لغة غريبة لردوا عليه! والذي يؤكد أن هذه الكلمات كانت العرب قد أخذتها في الجاهلية فعربتها أن لأكثرها تصرفاً واشتقاقاً، على القانون العربي.

ونزل القرآن كذلك على أساليب العرب في كلامها، ففيه الحقيقة وفيه

المجاز، وفيه الصريح والكناية، وفيه المتشابه والمجمل.. إلخ، على نمط العرب في حقيقتهم ومجازهم وسائر ضروب كلامهم.

قال ابن خلدون: «اعلم أن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه...»[1].

- أما لماذا اختيرت هذه اللغة واختير العرب لحمل آخر الرسالات، فحديثه طويل متشعب، وله مجال آخر غير هذا المجال، وإن كنا قد ألمحنا إلى بعضه في أكثر من موضع سابق من هذا الكتاب.

وقبل أن نوجز تاريخ التفسير بأقل قدر ممكن من «الكلمات» بين يدي بعض الشروح البيانية - لبعض السور - نوضح الفرق بين «التفسير» و «التأويل».

١ - التفسير في اللغة: الاستبانة والكشف، وفسّر الشيء يُفسّره وفَسَّره: أبانه، قال تعالى: ﴿ولا يأتونَكَ بِمَثَلٍ إلاّ جِئناكَ بالحقِّ وأحْسَن تفسيرا﴾ أي بياناً، ولم تَرِد لفظة «تفسير» في القرآن في غير هذا الموضع: سورة الفرقان ٢٥، الآية ٣٣، وانظر الآيات السابقة.

ولم يختلف المفسرون في أن المراد من «تفسير القرآن» - على تعدد تعريفاتهم للتفسير اصطلاحاً[2] - بيان معانيه على أي وجه من وجوه البيان قال

---

(١) المقدمة ص١١٣٠ بتحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي.

(٢) يعرف أكثرهم التفسير بأنه «علم يُبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية» يشيرون بذلك إلى إخراج الدراسات المتعلقة بالقرآن من جهة غير جهة دلالته السابقة... من نطاق التفسير، كبعض علوم القرآن... علم القراءة، على الرسم العثماني... إلخ - وقيد «الطاقة البشرية» لبيان أن عدم العلم بالمتشابه أو بفواتح السور على ما ذهب إليه بعضهم - لا يقدح في التفسير.

وفي الوقت الذي تعتبر فيه علوم القرآن - في الواقع - مدخلاً إلى تفسير القرآن وطريقاً إليه، إلا أن قسماً كبيراً منها، حتى بعد أن اتخذ هذا المصطلح شكله النهائي فيما بعد، يدخل في نطاق التفسير. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا الشطر الكبير جدير بأن يسمى: «علوم التفسير».

بعضهم: «والتفسير هو علم بمعاني القرآن، وناسخه ومنسوخه، ومجمله ومبيّنه، ومتشابهه ومحكمه».

٢ ـ **والتأويل في اللغة**: مصدر أوّلَ يؤوِّل تأويلاً، وهو من آل الشيء إلى كذا أي رجع إليه، قال أبو عبيدة معمر بن المثنّى: «التأويل: التفسير والمرجع والمصير» وقال أبو جعفر الطبري: «وأما معنى التأويل في كلام العرب فإنه التفسير والمرجع والمصير... وقد قيل: إن قوله تعالى: ﴿وأحسنُ تأويلاً﴾ أي جزاءً، وذلك أن الجزاء هو الذي آل إليه أمر القوم وصار إليه»[1].

فالتأويل في اللغة يراد به ـ إذن ـ «التفسير» كما يراد به «المرجع والمصير» لأن أحدهما مغاير للآخر ـ وإن كان اشتقاق الكلمة يرجح أن يراد من التفسير ما يحتاج منه إلى النظر والفكر ليصح معنى الرجوع؛ ولهذا ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم في مواطن دقيقة يحتاج فيها المعنى إلى مثل ذلك، كما في آية المتشابه ـ الآية ٧ من سورة آل عمران[2] ـ وكما في الآيات ٦، ٢١، ١٠١ ـ وكقوله تعالى في السورة ذاتها على لسان الملأ: ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ ـ الآية ٤٤ ـ وكقوله حاكياً عن يوسف عليه السلام ﴿يا أبتِ هذا تأويل رؤيايَ من قبل﴾ ـ الآية ١٠٠ ـ وكقوله في سورة الكهف: ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ ـ الآية ٧٨ ـ سواء في ذلك استعملت في تأويل الكلام والمعنى كما في آية المتشابه؛ أم في تأويل الرؤى والأحلام كما في قصة يوسف عليه السلام، أو تأويل الأعمال كما في قصة موسى عليه السلام مع الرجل الصالح.

هذا وقد جرى استعمال الطبري وأكثر المتقدمين «للتأويل» على أنه مرادف للتفسير، وقد جرت عادة الطبري في تفسيره باستعمال عبارة: (القول في تأويل قوله تعالى كذا...) وعبارة: (واختلف أهل التأويل في هذه الآية) وإنما يعني بذلك التفسير كما هو معلوم.

---

(١) أنظر كتابنا: الحاكم الجشمي ص٢٢٣.

(٢) راجع بحث المحكم والمتشابه.

أما التأويل في الاصطلاح فهو: إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب من التجوز، من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقاربه... أو غير ذلك من الأشياء التي تُعورفت في أصناف الكلام المجازي »(١) ويقرب من هذا التعريف الذي ذكره ابن رشد ما عقّب به الغزالي على تعريفه هو للتأويل حين قال: « ويشبه أن يكون كل تأويل صرفاً للّفظ عن الحقيقة إلى المجاز ».

وكأن الحاجة إلى التأويل تظهر بعد « تفسير » الألفاظ الواردة من النص لمعرفة ما يدل عليه ظاهره، فيحمل دليل ما ـ عقلي أو نقلي أو عُرفي ـ على أن المراد بالكلام غير ظاهره » وأنه يجب حمله على المجاز فيؤول؛ أي فيحمل على المجاز دون الحقيقة.

وبذلك يكون التأويل خطوة تالية لخطوة التفسير، كما عبر بعض الباحثين.

أما الراغب الأصبهاني فقد جعل التفسير أعم من التأويل لأن أكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، قال في شرح قوله تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ الآية ١٤ من سورة الفجر ـ تفسيره: إنه من الرصد، يقال رصدتُه: رقبتُه، والمِرصاد مِفعال منه. وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه، سبحانه وتعالى(٢).

مصادر التفسير ومراحله:

قلنا إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم. وينبغي على هذا أن يكون مأخذ تفسير القرآن من اللغة، أو بعبارة أخرى: أن تكون اللغة العربية طريق معرفة القرآن، قال تعالى: ﴿حَم، تنزيلٌ من الرحمن الرحيم. كتاب فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾ الآيات ١ ـ ٣ من سورة فصّلت، دلت هذه الآيات على أن العالم باللغة محجوج بالقرآن، ويدل قوله: (لقوم

(١) فصل المقال لابن رشد، ص١٤ وقارنه بتعريف الإمام الغزالي رحمه الله في المستصفى: ١/١٥٧.
(٢) أنظر مقدمة الراغب ص٤٠٣ المطبعة الجمالية بمصر.

يعلمون) على أن التفسير لمن عرف اللغة جائز. ومن هنا جاء قول ابن خلدون: « فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه وتراكيبه » علماً بأن الصحابة كانوا متفاوتين في هذا العلم، وربما ندّ عن بعضهم مدلولات بعض الألفاظ، أو المراد من بعض العبارات والتراكيب.

ولكن لا خلاف على كل حال أن أكثر آيات القرآن الكريم واضحة المعنى، وهي تلك التي تتعلق بأصول الدين وأصول الأحكام، وهذا النوع من الآيات يستطيع فهمه جمهور الناس، ولا سيما من كانوا عرباً بسليقتهم. وفيه إلى جانب ذلك آيات مبهمة أو متشابهة، يصعب فهمها على العامة، ولا يقف على معناها إلا الخاصة، وفي هذا أيضاً يأتي القرآن على قواعد العرب وعادتهم في الكلام كما يقول ابن قتيبة وكما أشرنا إلى ذلك في السابق.

وكان الصحابة ـ الذين عاصروا التنزيل وشاهدوه ـ أقدر الناس على فهم القرآن على الرغم من قلة ماروي عنهم في التفسير، الذي اختلفوا فيه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، كما شرحه ابن تيمية في رسالته « مقدمة في أصول التفسير »[1].

ويعود السبب في هذا الاختلاف إلى تفاوت حظهم من المعرفة بالأدب الجاهلي وغريبه، وإلى تفاوتهم في ملازمة النبي ﷺ والوقوف على أسباب نزول الآيات. بالإضافة إلى اختلافهم في معرفة عادات العرب في أفعالهم وأقوالهم، ونحو ذلك من الأسباب.

والمهم هنا أن المؤرخين للتفسير والمشتغلين بعلوم القرآن اصطلحوا على تسمية تفسير القرآن بالقرآن، والتفسير المرفوع إلى النبي، والمنقول عن الصحابة بـ « التفسير بالمأثور » فقد قالوا في تعريفه « هو ما جاء في القرآن والسنة وكلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى من كتابه ».

---

(١) إرجع إلى هذه المقدمة، بتحقيقنا. وانظر فيها تفصيل القول فيما أجملنا خطوطه الرئيسية في هذا الفصل، حول أصول التفسير، وطبقات المفسرين، وحكم التفسير بالرأي... وغير ذلك. وانظر تعليقاتنا هناك.

أما تفسير القرآن بالقرآن فهو من أولى خطوات المنهج السليم في تفسير القرآن كما سنشير إلى ذلك في صفحة قادمة، وإن كانت تسميته تفسيراً « بالمأثور » فيها نظر. أما المرفوع إلى النبي ﷺ - الذي أنيطت به مهمة البيان عملاً بقوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتُبيّن للناس ما نُزِّل إليهم﴾[1] - فهو لُبُّ - التفسير بالمأثور، وإن كان مقداره ليس كبيراً إلى جانب التفسير الاجتهادي. أما المنقول عن الصحابة فهو عندنا تفسير « بالمأثور » إن كان فيما لا مجال فيه للرأي - كسبب النزول ونحوه - وإلا فهو داخل في حدود « الاجتهاد » في تفسير القرآن، بحسب المعرفة باللغة وبشروط التفسير الأخرى؛ لأن المصدر الثاني للتفسير عندهم بعد « المأثور »: الرأي أو الاجتهاد، وعليه أن يعرف مع ذلك الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد في مثله من الشعر الجاهلي ونحوه، ويقف على ما صح عنده من أسباب النزول، وقواعد الترجيح... يُقدم المفسر مستعيناً بهذه الأدوات ويفسر القرآن بحسب ما أداه إليه اجتهاده. والواقع أن كثيراً من الصحابة كان يفسر الآيات من القرآن بهذا الطريق.

ويبدو أن هذين الاصطلاحين (التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي) لم يَدُلاَّ على منهجين متميزين في التفسير إلا في آخر هذه الخطوات التي تلخص تاريخ التفسير وتدوينه على حد سواء، والتي نوجزها فيما يلي:

١ - اتخذ التفسير في مرحلته الأولى شكل الحديث، بل كان جزءاً منه وباباً من أبوابه. ومن المعلوم أن الحديث كان هو المادة الواسعة التي شملت جميع المعارف الدينية تقريباً، لأنه كان يقوم على الرواية، التي هي الأصل في نقل جميع العلوم الدينية واللغوية والأدبية...

وفي هذه المرحلة أخذ المؤلفون في آخر العصر الأموي وأول العباسي يجمعون « الأحاديث » المتشابهة المتعلقة بموضوع واحد، كما فعل الإمام مالك في « الموطأ » ومحمد بن إسحاق في كتاب « السيرة النبوية ».

ويلاحظ في هذه المرحلة أن ما روي عن الصحابة في تفسير القرآن كان

---

(١) الآية ٤٤ من سورة النحل ١٦.

قليلاً وأن أكثر الصحابة قولاً في التفسير: ابن عباس، وابن مسعود، وأبيّ بن كعب، وعلي بن أبي طالب. كما يلاحظ أن «طبقات المفسرين» بدأت تتضخم شيئاً فشيئاً، لأن «التابعين» «رووا» كل ما ذكره الصحابة - نقلاً أو اجتهاداً - ومنهم من «فسر» أيضاً، ثم جاءت الطبقة التي تلتهم ففعلت مثل ذلك. وكان لبعض رجال هذه الطبقات اتصال ببعض رجال أهل الكتاب - اليهود - الذين دخلوا في الإسلام، وكان هذا مبدأ دخول «الإسرائيليات» في كتب التفسير، وإن كان عدم التزام المنهج العلمي والموقف الذي أمر النبي باتخاذه من رواياتهم - كما فصله ابن تيمية بدقة في مقدمته في أصول التفسير - قد أدى في المراحل القادمة إلى نتائج سيئة!! حيث ألحقت تشويهاً ببعض كتب التراث، أو ببعض صفحاته على الأقل. وقد قال النبي ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم. إما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه». قال ذلك في الوقت الذي سمح بالتحديث عن بني إسرائيل.. إشارة إلى أننا نملك أداة الحكم على مروياتهم وكتبهم... من خلال المقياس الذي لا يلحقه خلل ولا نقص ولا تشويه، وهو القرآن الكريم... ولكن ولع بعض المفسرين بالغرائب أو بتفصيلات وفرعيات لا طائل تحتها... أوقعهم في كثير من المحاذير، حتى صعب على بعض الناس في بعض العصور - جهلاً أو رغبة في الإساءة والتشويه - أن يفرقوا بين فهم المفسر للقرآن، وبين النص القرآني نفسه... وأوضح ما كان ذلك في الإسرائيليات التي دارت حول الكون والطبيعة، وحول قصص الأنبياء وحياتهم...[1].

٢ - وفي الخطوة - أو المرحلة - الثانية تم تجريد ما ورد في الحديث المرفوع والموقوف من «التفسير»، وقد عُني بذلك قوم من التابعين حيث تخصص - أولاً - كل جماعة بجمع تفسير عالم مصرهم، ثم جاءت طبقة جمعت كل أقوال الصحابة والتابعين في الأمصار المختلفة، شأنهم في ذلك شأن المحدثين، كسفيان بن عيينة (ت١٩٨)، ووكيع بن الجراح (ت١٩٦) وإسحاق بن راهويه (ت٢٣٨)، الذين

(١) أنظر تعليقنا حول هذا الموضوع في مقدمة ابن تيمية السابقة.

كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبوابه.

٣ ـ ثم تم بعد هذا الجمع الخاص الشامل: اعتبار التفسير علماً قائماً بنفسه بعيداً عن الحديث، ووضع التفسير لكل آية من القرآن بحسب ترتيب المصحف، كما فعل بقي بن مخلد الأندلسي (ت٢٧٦) وابن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠).

٤ ـ وهنا نصل إلى تميز المنهجين السابقين، حين وُجِدَ أن ما نقل عن النبي والصحابة في تفسير القرآن لم يكن يشمل جميع القرآن، وإنما كان تفسيراً لما غمض أو لما كان من «غريب» القرآن بالنسبة لهم أو لبعضهم. وكانت الحاجة إلى التفسير تزداد يوماً بعد يوم، كلما بعد الناس عن عصر النبي والصحابة. وكلما اتسعت الفتوح وكثر اختلاط العرب بالعجم والموالي، فاجتهد المجتهدون وقامت حركة التفسير، ونشطت، واستوت على سوقها، وآتت ثمراتها... حيث ولدت مدرستان كما حصل في الفقه والتشريع «مدرسة أهل الرأي ومدرسة أهل الحديث فتعمقت فكرة التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي».

ولما دوِّنت علوم اللغة والنحو والفقه، وأثيرت مسائل الفلسفة والكلام وبحثت في العصر العباسي أثّرت في علم التفسير أثراً كبيراً، وبخاصة إذا ذكرنا أن القرآن الكريم هو عماد الأمة والمجتمع والدولة... وأن عقيدة المسلمين كانت نابعة منه، وراجعة إليه، فإذا كانت حركة البدء والانطلاق والتكوين منه وفي رحابه، فإن أي أمر طارىء كذلك لا بد من أن يحكم هو فيه، لأن هذا الأمر الطارىء ـ كما حصل أيام الترجمة ـ لا يكون مقبولاً، ولن تكتب له الحياة إلا بمقدار موافقته. فكتب النحاة في «إعراب القرآن» والفقهاء في «تفسير آيات الأحكام» ودخل المتكلمون ـ وعلى رأسهم المعتزلة ـ باب «التأويل» لطائفة معينة من الآيات، واصطدموا مع المحدِّثين، وأسسوا ما دُعي بالمنهج العقلي في تفسير القرآن، الذي يدخل إلى تفسير النص القرآني بمقدمات عقلية ومقررات فكرية مسبقة!! كما حاول الصوفية أن يجدوا مواجيدهم ومذاويقهم في ظلال النصوص القرآنية بإشارات بعيدة أو قريبة فولد «التفسير

الإشاري » . ـ وقد تعرضنا لنقد هذه المناهج في مقدمتنا لرسالة ابن تيمية في أصول التفسير ، وفي بعض كتبنا الأخرى ـ وبحسبنا هنا بمناسبة هذه الإشارة إلى التفسير الإشاري أن نفرّق فيه بين صنفين : صنف اخترعته الزنادقة ليعطلوا أحكام الشريعة ، أو ليقلبوا حكمة القرآن إلى معان سخيفة ـ كما يقول محمد الخضر حسين رحمه الله ـ وهذا باطل ببداهة العقول ، وهذا الصنف يعرف عادة بالتفسير الباطني ، أو تفسير أهل الباطن . وصنف ينسب إلى الصوفية ، وهو الذي يدعى عادةً بالتفسير الإشاري . والفرق بين هذا التفسير وتفسير الباطنية : « أن الباطنية يفسّرون الآيات بتلك المعاني المنبوذة على أنها هي المقصود من القرآن ، أما أصحاب الإشارة فيسلّمون أن المراد من القرآن تلك المعاني التي يذكرها أهل العلم بالتفسير ، غير أنهم يذكرون عند تفسير الآية معاني تخطر أذهانهم عند التلاوة وإن لم تدل عليها الآية بطريق من طرق الدلالات المعروفة في الاستعمال العربي »[1] .

يقول الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله : « ومع هذا الفرق الواضح بين صنفي التفسير بالباطن ، فإن الاقتصار في تفسير ألفاظ القرآن على ما يقتضيه استعمالها العربي ، يكفي لتقويم العقول ، وتزكية النفوس وإرشادها إلى وجوه الإصلاح الذي تدرك به السّعادة في الآخرة والأولى »[2] .

ونضيف إلى ذلك أن السماح بالخروج عن الاستعمال العربي ، وعن المواضعات اللغوية طريق محفوف بالمخاطر ، كما رأينا ذلك في بعض التفاسير الصوفية المتداولة ، والتي عرف أصحابها فيما نعلم بنزاهة القصد ، وصحة العقيدة ، ولا يُزكى على الله أحد ، والله تعالى أعلم[3] .

---

(١) من بلاغة القرآن للشيخ محمد الخضر حسين ص٢٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) أنظر خلاصة لنقد تأويلات الباطنية في كتابنا « متشابه القرآن » دراسة موضوعية . طبع دار الفتح بدمشق .

الفصل الثاني

الفصل الثاني
معالم التفسير البياني

أما معالم « التفسير البياني » للقرآن ، فقد وزعت بين كتب الاعجاز وكتب البلاغة ، وفي كثير من الصفحات المتقاربة في كتب التفسير ـ على اختلاف ألوانها ـ وفي بعض الصفحات المتباعدة في كتب الأدب والثقافة العامة ، وبخاصة كتب الأمالي . وقد اشتهرت بعض التفاسير بعنايتها بإظهار مواطن الجمال والإعجاز في النص القرآني ، مثل كتاب « الكشاف » للزمخشري . وسواء أكان ذلك مبالغاً فيه أم لا ؟ فقد أثبتنا في صفحة قادمة تفسير الزمخشري لسورة من السور القصار ، لينظر فيه القارىء ما اشتهر فيه صاحبه ـ رحمه الله ـ في هذا الباب ، وليرى فيه صورة من صور التفسير القديمة على كل حال .

وقد تحدث العلّامة عبدالرحمن بن خلدون رحمه الله عن هذا اللون من ألوان التفسير مع الصنف الثاني من صنفي التفسير : الأول « النقلي المسند إلى الآثار المنقولة عن السلف » ـ على ما وجه اليه من نقد بسبب التساهل في قبول الأخبار والروايات[1] ـ « والصنف الآخر : هو ما يرجع إلى اللسان من معرفة

(١) قال ابن خلدون : « وتساهل المفسرون في مثل ذلك ، وملؤوا كتب التفسير بهذه المنقولات . . . فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص ، وجاء أبو محمد ابن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلخص تلك التفاسير كلها ، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى ، وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق » مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي ص :١١٣٢ .

اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب » ولم يفته، رحمه الله، أن يلاحظ أن هذا الصنف من التفسير قلّ أن ينفرد عن الأول، ولكن « إنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة » قال: « نعم، قد يكون في بعض التفاسير غالباً. ومن أحسن ما اشتمل على هذا الفن من التفاسير كتاب (الكشاف) للزمخشري من أهل خوارزم العراق ».

وهذا الغالب هو ما نودّ هنا أن نشير إلى منهجه الخاص، أو قواعده التي يسير عليها... والتي يمكن من خلالها - مرة أخرى - التمييز بين أصناف، أو « ألوان » من هذا التفسير الأدبي نفسه.

والأصل في منهج التفسير الأدبي أو البياني: أن يُقدم الدارس على دراسة النص القرآني وتحليله على نحو ما يفعل في سائر النصوص الأدبية العالية من منظوم ومنثور - وإن كان لا سبيل إلى مقارنتها بالقرآن الكريم في إعجازه البياني كما رأيت - وليس في هذا ما يخرجنا من نطاق « التفسير » إلى نطاق « الأدب » من كل وجه، لأن التحليل الأدبي للقرآن لا يستغني عن بعض قواعد التفسير الخاصة حتى لا يخطىء الدارس في فهم المعنى المراد - كما رأينا في بحث سبب النزول - ويضيع عليه، من ثم، فهم المفردات والتراكيب ونواحي البيان!

ويمكن إجمال هذه القواعد بالأمور التالية:

١ - ضرورة الوقوف على سبب النزول، لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبَّب، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع في الماضي، وقلنا في مثل قوله تعالى: ﴿فمن حجّ البيتَ أو اعتمرَ فلا جُناحَ عليه أن يطوَّف بهما﴾ - أي الصَّفا والمَرْوَة - ان كلمة « لا جناح » جاءت لسبب تاريخي معين!...

٢ - ان يهتدي الدارس بمألوف استعمال القرآن نفسه للألفاظ والأساليب، ولا يتم ذلك إلا بمعاناة كثير من نصوصه المكية والمدنية، والوقوف - مهما أمكن - على المعاني التي تدور عليها اللفظة الواحدة في استعمالاتها المختلفة، كما أوضحنا ذلك في لفظة « الهداية » و« الضلال » وبعض الألفاظ

الأخرى خلال شرحنا لبعض النصوص[1].

ولو أن دارساً لنص قرآني دراسة أدبية حمل قوله تعالى: ﴿والذي قَدَّر فَهَدى﴾ - في سورة الأعلى - على غير الهداية العامة التي تشمل جميع المخلوقات، لذهب بمعنى الآية ونظم السورة جميعاً! يقول الشيخ محمد عبده: « فعلى المحقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله، والأحسن ان يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، فربما استُعمل بمعان مختلفة، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملته من الآية، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه ».

٣ - ثم يقول الأستاذ الامام رحمه الله: « إن القرآن يفسر بعضه بعضا، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ: موافقته لما سبق من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته! ».

ومعنى ذلك انه لا بد للدارس هنا أن يراعي التناسب بين السابق واللاحق: بين فقرات الآية الواحدة، وبين الآيات بعضها وبعض، أي إن وجه هذا الارتباط بين الآية الواحدة، وبينها وبين سائر الآيات، يجب ألا يهمل على الاطلاق للمفسر بوجه عام، ولعل الخلافات الشديدة التي قامت بين المتكلمين وبين الفقهاء في فهم الآيات كان مصدرها - أو أحد مصادرها الأساسية - عدم مراعاة هذا الارتباط وهدم فكرة النظم - كما تدعى في بعض الأحيان - .

إن الواقف على الصورة الأدبية للقرآن، الملم باعجازه وأسلوبه، لا يقبل ان يقدّر في أسلوب القرآن تلك التقادير البعيدة والمجازات المعقدة التي تجوز على شعر الشمَّاخ والطرمّاح، كما يقول أبو حيان في مقدمة تفسيره الواسع: « البحر المحيط »[2]. ولهذا فهو أولى « المفسرين » بمراعاة ذلك التناسب، وهو

---

(١) راجع على سبيل المثال شروح القاضي عبد الجبار لهاتين اللفظتين في كتابه « متشابه القرآن » الذي نشرناه في القاهرة عام ١٩٦٩.

(٢) كلام الله تعالى أفصح كلام، فلا يجوز فيه ما يجوزه النحاة في شعر امرىء القيس وغيره! انظر مقدمة البحر المحيط المذكورة. وراجع البرهان ٣٠٦/١.

في نفس الوقت أقدرهم على الكشف عنه من أقرب طريق . . . ومن هنا صح لبعض الدارسين المحدثين ما نادى به من ضرورة تقدم « الدراسة الأدبية للقرآن » لأية دراسة أخرى لهذا الكتاب الكريم[1] ، ـ سواء أخرجتنا هذه الدراسة من نطاق « التفسير » إلى « نطاق الأدب » من جميع الوجوه ، أم من وجه دون وجه ـ تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن : « إن الدراسة الأدبية لأثر عظيم كهذا القرآن هي ما يجب ان يتقدم كل دراسة أخرى فيه ، لا لأنه كتاب العربية الأكبر فحسب ، ولكن ـ كذلك ـ لأن الذين يُعنون بدراسة نواح أخرى فيه ، والتماس مقاصد بعينها منه ، لا يستطيعون ان يبلغوا من تلك المقاصد شيئاً دون أن يفقهوا أسلوبه الفذ ويهتدوا إلى أسراره البيانية ، كيلا يختلط عليهم الأمر أو يغيب عنهم شيء من مدلول اللفظ القرآني وايحاء التعبير به . فسواء أكان الدارس يريد ان يستخرج من القرآن أحكامه الفقهية ، أو يستبين موقفه من القضايا الاجتماعية أو اللغوية أو البلاغية ، أم كان يريد أن يفسر آيات الذكر الحكيم تفسيراً عاماً على النحو الذي ألفناه في كتب التفسير ، فهو مطالب بأن يتهيأ أولاً لما يريد ، ويعدّ لمقصده عدته : من فهم مفردات القرآن وأساليبه ، فهماً يقوم على الدرس الأدبي المتذوق ، المدرك لأقصى ما يستطيع من إيحاء التعبير »[2] .

وأخيراً ، فإن الوقوف على « الصور » و« الأفكار الأساسية » للنص القرآني ، ومعرفة طرف من قيمتها الحقيقية ، تحتم على الدارس أن يكون ملماً بالحالة التي كان عليها العرب في الجاهلية وفي عصر التنزيل ـ مع الإلمام بأحوال الجاهليات الأخرى كذلك ـ حتى يدرك معنى الجديد ، الإنساني والعالمي ، الذي جاء به القرآن ، ومدى الأثر و« التأثير » الذي أحدثه في النفس العربية . . . وفي العالم ! وليقف على البُعد الاجتماعي لهذا الكتاب الخالد ! . . . وقد روي عن

---

(١) الشيخ أمين الخولي والدكتورة عائشة عبدالرحمن في مقدمة كتابها ـ أو سلسلتها ـ : التفسير البياني للقرآن الكريم .

(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم للدكتور عائشة عبدالرحمن ٧/١ .

عمر بن الخطاب في ذلك كله كلمة بعيدة الدلالة حين قال: «إن جهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذي يخشى أن ينقض عرى الإسلام عروة عروة!» لأن من جهل تلك الأحوال يجهل معاني القرآن ويجهل أثره... ويجهل جديده الذي جعله الله مغيراً لأحوال الناس... هذا، وإن ميزة الوقوف على أحوال الجاهلية العربية أوضح بطبيعة الحال من أجل فهم اللغة العربية ومدلولاتها...

ونعيد ـ هنا ـ ما فصّلنا فيه القول في عدة محاضرات: إن سبيل التفسير ـ مهما كان لونه ـ لا يتم بدون معرفة رسالة القرآن الأساسية ووجهه الأول، وهو أنه «**كتاب هداية وتشريع، ودستور جامع للحياة الانسانية**» على ما احتوى عليه من حقائق كثيرة وإشارات متنوعة عن النفس والطبيعة والسنن الكونية والحضارة والتاريخ والاجتماع... لأن هذه الحقائق وتلك الإشارات إنما جاءت في معرض الدلالة والعظة والتفكر والاعتبار... ويجب ان تفهم و«تفسر» في ظل الرسالة السابقة والوجه الأول، بحيث ننزّه النص القرآني عن «الفروض» العلمية، والآراء «النظرية»! ونخرجه عن أن يصبح كتاباً في «تاريخ العلم» أو تاريخ الأحياء... على نحو ما فعل بعض «المفسرين» في أسوأ حالات «الجزر النفسي» الذي عانت منه الأمة الإسلامية في وقت ليس بعيداً! ونكتفي هنا بهذه الاشارة عن الكلام المطوّل الذي قدمناه في هذا الباب عند شرحنا لبعض النصوص[1].

ألوان التفسير الأدبي:

وإذا كان التفسير الأدبي ـ أو محاولة الوقوف على «الصورة الفنية» في القرآن، وجعل «النص» القرآني موضوعاً لدراسة أدبية ـ أو في صميم «الأدب» ـ قد وزع في القديم على كتب كثيرة كما قدمنا، فإن الأيام القريبة

(١) انظر حيث شئت في تفسير طنطاوي جوهري: جواهر القرآن، وارجع مرة اخرى إلى ما قدمناه في بعض فصول الباب الأول من هذا الكتاب.

قد شهدت كثيراً من البلاغيين والنقاد وأساتذة الأدب ـ داخل أسوار الجامعات العربية وخارجها ـ يخصون هذه الدراسة بكتب وبحوث ومحاضرات مستقلة، على نحو ما فعل الأستاذ الشيخ أمين الخولي ـ وتلميذته الدكتورة عائشة عبدالرحمن ـ والأستاذ سيد قطب والشيخ عبد القادر المغربي، والأستاذ محمد المبارك، والأستاذ شوقي ضيف، والشيخ الطاهر بن عاشور... وغيرهم.

وعلى الرغم من وحدة الإطار الجامع الذي يلف دراسات هؤلاء الباحثين ـ وهو الإطار السابق ـ فقد تعددت «ألوان» دراساتهم، واختلفت في «أدوات» العرض، ووسائل البحث «التطبيقي»: كان **الشيخ أمين الخولي** يلح على «التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد» ومتابعة «اللفظة» الواحدة كيف دار استعمالها في القرآن الكريم، وكيف تم تركيبها في الجمل في مناسباتها الكثيرة، ويرى أن هذه الطريقة تمكّن من «الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظ القرآن، وإلى استجلاء ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية». وكان **الشيخ المغربي**، ومعه **الأستاذ الشيخ بهجة البيطار**، يعنى بجانب المفردات اللغوية، ومسائل التصريف والاشتقاق. وكان **للأستاذ سيد قطب** فضل الكشف والعناية بجانب «التصوير الفني» و«التناسق الفني» والموسيقى التي تنبعث من داخل «النص» القرآني، سواء أكانت طريقة تأليفها في التراكيب والجمل (الفاصلة، السجع، النغم... الخ) إلى جانب عنايته بمزايا الأداء القرآني بوجه عام، وقد خلّف لنا في ذلك كتاب «التصوير الفني في القرآن» وكتابه «مشاهد القيامة في القرآن» وصفحات مطولة في تفسيره ظلال القرآن.

وحاول أستاذنا **محمد المبارك** أن يحيط بأركان الدراسة الأدبية في دراساته القليلة ـ والعميقة ـ لبعض النصوص القرآنية في كتابه «من منهل الأدب الخالد» وفي بعض محاضراته الأخرى. فقد اعتاد أن يقدم أولاً «المعنى الاجمالي للسورة القرآنية أو النص القرآني» ثم يتبعه بالحديث عن «أقسامه» أو مقاطعه الرئيسية، وعن «خصائصه الفكرية» ـ كالوحدة الموضوعية مثلا،

واحتفال النص بمشاهد الطبيعة، أو قضايا التاريخ . . . الخ ـ ثم يفرغ بعد ذلك للحديث عن « فن العرض، أو الطريقة الأدبية: قَسَم، تشبيه، تصوير، تخييل . . . » وعن صياغة الآيات والجمل، والأثر الأدبي لجميع ذلك. وربما ختم هذا التحليل بالحديث عن « موسيقى النص » المنبعثة من الألفاظ المختارة، ومن « الفاصلة القرآنية » والدور الذي تؤديه في ذلك مع السجع إلخ . . . وقد اخترنا من دراساته تلك تفسيره لسورة « العاديات ».

أما الأستاذ شوقي ضيف في كتابه « سورة الرحمن وسور قصار » فقد عني بشيء من طريقة أمين الخولي ـ التي اتبع فيها الشيخ بدوره الأستاذ الإمام محمد عبده ـ مع تقديم عرضٍ بين يدي شرح السورة وتفسيرها، كما حفل بالتفسير المأثور وبعض النقول الإشارية عن الصوفية والرد على الاسرائيليات، على شيء من الاستطراد الذي كان يحمل عليه التدقيق والتحقيق، واستعراض « الصور » المشابهة والقريبة، وتلك التي تجلّي المعنى في السور الأخرى . . . حتى كانت الإفادة من كتاب الأستاذ الدكتور شوقي لا تقتصر على السورة أو النص محل الشرح والتفسير، بل تتجاوزه لإعطاء معلومات قيمة عن كثير من الألفاظ اللغوية والمصطلحات والمعاني التي تتكرر في القرآن الكريم.

وفي الوقت الذي اتبعنا هذا الفصل بنماذج من تلك التحليلات الأدبية لمعظم هؤلاء الباحثين، مكتفين من تحليلاتنا الخاصة بما قدمناه حتى الآن من سور النبأ وعبس والغاشية وآيتي المواريث مما دوّن في خلال المحاضرات، وبسورة البلد التي ألحقناها بتلك الاختيارات، ومكتفين أيضاً بالأمثلة والشواهد الكثيرة التي عرضنا لها، أو سنعرض لها خلال شرحنا لقضايا الإعجاز وأسلوب القرآن وتشبيهاته وأقسامه وقصصه . . .

فإن الذي أحب أن ألفت اليه النظر: هو ضرورة الإفادة ـ في ميدان الدراسة الأدبية لنصوص القرآن ـ من هذه التحليلات وتلك الشواهد . . . تاركاً للطالب اتخاذ الطريقة التي يراها أقرب « الخطوات » أو الأشكال، تعبيراً عن تذوقه للنص القرآني، ولأسلوبه ولمواطن الجمال التي يراها فيه، على أن يبدأ

شرحه بعرض المعنى الاجمالي للنص، والعرض الأساسي، أو الموضوع الذي يدور حوله. وألا يهمل بعد ذلك الإشارة إلى « فقرات » النص أو أقسامه الرئيسية، ووجه ارتباطها وارتباط الآيات بعضها ببعض. مع التركيز في نهاية المطاف - أو الاستشهاد والتطبيق - على الأمر البلاغي، أو الباب الذي يراد منه شرحه وبيانه من خلال هذا النص، مثل قضية الفاصلة، أو القسم، أو التشبيه، أو التصوير، أو نحو ذلك. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل الثالث

تعريف بظلال القرآن

الظلال بين كتب التفسير

ولا نستغني في هذه العجالة عن التعريف بأشهر تفاسير العصر، وهو تفسير الداعية الأديب الناقد المفكر الأستاذ سيد قطب تغمده الله برحمته ورضوانه. وهو التفسير الذي اشتهر عند العامة بتفسير الظلال؛ آخذاً من التسمية التي أطلقها المؤلف على كتابه الجامع وهي: «في ظلال القرآن» مشيراً بذلك ـ فيما يبدو ـ إلى أنه لا يريد أن يزعم لنفسه أنه يكتب تفسيراً للقرآن، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.. وإن كان قد فعل ذلك، رحمه الله، على أدق ما يكون تعريف التفسير وأحكمه، على الرغم من المنحى الخاص، الذي نحاه في كتابه هذا، ولأسباب موضوعية بحتة؛ كما سنبين بعد قليل.

والواقع أن بعض الناس ظنوا أن «الظلال» ليس بتفسير؛ بناء على ما ألفوه من كتب التفسير ودرجوا عليه... وربما صرّح بعضهم بذلك وهو يرى الظلال لا يثير مسائل لغوية في باب الاشتقاق والتصريف والإعراب.. ولا يجادل ويناقش في قضايا الفقه والأصول.. ونحو ذلك من المسائل التي يقف عندها المفسرون في الأعم الأغلب.

وإذا كانت كتب علوم القرآن، على كثرتها وتعدد مناهج مؤلفيها، قد أشارت إلى التفاسير القديمة وعرّفت بها ـ وقد أشرنا نحن إلى طرف من ذلك في تعليقاتنا على مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ـ فإن الذي تحسن الإشارة

إليه هنا هو التعريف بهذا التفسير المعاصر ـ الظلال ـ الذي يعتبر من اكثر كتب التفسير رواجاً ، وأقربها من نفوس الطلاب والدارسين ، وبخاصة طلبة الجامعات على اختلاف اختصاصاتهم واهتماماتهم . وسوف نحاول من خلال ذلك وضع هذا التفسير في موضعه . . ولو اضطرنا ذلك الى تلخيص ملاحظاتنا العامة على التفاسير القديمة مرة أخرى .

١ ـ الصحابة وتفسير القرآن :

كان جيل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين هو الجيل الذي رباه القرآن ، وأخرجه للناس جيلاً مثالياً لم يسبق له وجود في تاريخ بني الانسان . وكان هذا الجيل الكريم الأمثل هو الجيل الذي تمثل فيه الهدف العملي للقرآن ، أو الهدف العملي الواقعي القريب في هذه الحياة الدنيا ، وهو إنشاء الأمة الوسط ، أو الأمة المثال والأنموذج ، وتبديل واقع الناس من الضلال الى الهدى ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور!

ولقد تحقق ذلك في هذا الجيل القرآني الفريد ، وهو جيل الصحابة الذي تربى خطوة خطوة ، ويوماً بعد يوم ، وقام بناؤه الشامخ لبنة لبنة ؛ على نحو نزول القرآن الكريم آية وراء آية ، ومجموعة من الآيات وراء مجموعة أخرى ، . . على اختلاف الأوقات والأزمان ، والدواعي والأسباب . . حتى تحقق ذلك الغرض العملي من كتاب الله الكريم . ويدل على ذلك ـ بايجاز ـ قول أنس بن مالك رضي الله عنه : « كنا إذا نزلت علينا الآيات لم نتجاوزها حتى نعمل بما فيها ، فتعلمنا العلم والعمل جميعاً » . . . هذا العمل أو هذا السلوك الحي ، أو هذا الاستلهام للروح القرآنية ، والعمل بموجبها ومقتضاها هو ما انصرفت اليه همة الصحابة ، وتجردوا له رضي الله عنهم .

ولهذا نجد أن الصحابة ـ وكثيراً من التابعين من بعدهم ـ لم يُعنوا بتدوين التفاسير المطولة للقرآن الكريم ، يثقلونها بتفصيل القول في علوم القرآن ، أو علوم التفسير الواسعة ، ومدلولات الآيات البعيدة ، أو إشاراتها العميقة . . . ولم يكن ذلك لنقص في علمهم بكتاب الله ، كما ظن بعضهم ، بل لمزيد من هذا العلم

من حيث الفهم الصحيح والمتكامل لكتاب الله ؛ نظراً لمعرفتهم باللغة ، ومعاصرتهم للتنزيل ، وفهمهم لجميع نصوصه في سياقها وسباقها الصحيح ، ومناسبتها الواضحة - بناء على ذلك التدرج - ولاستلهامهم لتلك الروح القرآنية العالية ، وعملهم بموجبها يوماً بعد يوم . . يُخلون أمامها الطريق وهي تهدم كل رواسب الجاهلية ، وأفكارها ، وتصوراتها ، وقيمها ، وموازينها . . . حتى علا ذلك البنيان الشامخ الفريد .

ولهذا فإن ما خلّفه لنا الصحابة والتابعون في تفسير القرآن الكريم لا يصور لنا الغرض الأساسي الذي نزل القرآن من أجله ، والذي وعاه الصحابة رضوان الله عليهم وطبقوه ، وعاشوه واقعاً وعملاً . وإذا رجعنا الى ما أُثر من تفسيرهم للقرآن الكريم لوجدنا أنه نوع من التفسيرات اللغوية ، أو شرح لبعض الجمل والتراكيب ، بالإضافة الى بيان المناسبات ونحوها مما له علاقة بالأماكن والوقائع والأرقام والأعلام ، والذي كانوا يجدون فيه ما يكفي لرفع قارىء القرآن إلى مستوى إدراكهم وتحسّسهم للغرض الأساسي من القرآن الكريم ، بدليل أن ابن عباس رضي الله عنهما لم يؤثر عنه ، وقد دعا له النبي ﷺ بأن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل ، لم يؤثر عنه في تفسير القرآن إلا نحو من مائة أثر أو مسألة كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه . وهذا قدر قليل جداً من ترجمان القرآن إذا ما قسناه بالمطولات وكتب التفسير التي دونت فيما بعد .

ولهذا كان اختلاف الصحابة والسلف في التفسير اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، كما لاحظ ابن تيمية رحمه الله[1] **ولهذا أيضاً** كانت كتب تفسير القرآن في مرحلة نشأتها كتباً شارحة للغريب ، لأن من الراجح أن سبيل التفسير في ذلك العصر القريب من عصر التنزيل كان يستوي بمثل هذا الشرح . ومن هنا كان من الصواب ما ذكره بعض المحققين من أن هذه الاسماء : « غريب القرآن » و« معاني القرآن » و« مجاز القرآن » كانت في عُرف المتقدمين مترادفة أو كالمترادفة .

---

(١) انظر مقدمته في أصول التفسير ، نشر دار القرآن الكريم .

أما فيما وراء ذلك، فالقرآن الكريم النابض بالحياة، المبدّل للنفوس والعقول، والذي أوجد ذلك الجيل، وأوجد هذه الأمة - وفي العصور الأولى على وجه الخصوص- هذا القرآن لا يمكن تحصيل معانيه من خلال تراث الصحابة رضوان الله عليهم في تفسير القرآن، وانما ينبغي تحصيله - لمن قدر على ذلك- من خلال ذلك التمثل الكامل للقرآن. والذي تجلّى في حياة الصحابة وسلوكهم وفهمهم عن الله سبحانه، ومن خلال روحهم العظيمة تلك التي سرت في العالم فأحيت موات النفوس، ونشرت دوارس العقول، ووصلت الخلق بالخالق بحبله المتين، ونوره المبين... هذا القرآن الكريم.

بل ينبغي تحصيل هذا التفسير، قبل ذلك، من خلال السيرة النبوية الشريفة وخُلُق النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه.. هذا الخلق الذي كان الصورة العملية الكاملة للقرآن الكريم، كما قالت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وقد سُئلت عن خلقه عليه الصلاة والسلام فأجابت بتلك الكلمة العبقرية الفذة: «كان خُلقه القرآن!» ولهذا صح لعلمائنا السابقين رحمة الله عليهم أجمعين ما قالوه في تعريف التفسير بالمأثور من أنه «ما أثر عن النبي ﷺ والصحابة - والتابعين- تفسيراً للقرآن الكريم» ولكن ما أثر عنهم - كما رأيت- لا ينبغي أن يكون مقصوراً على الاقوال، بل يجب أن يتعداه، أو يسبقه، إلى السلوك والأعمال.

ولهذا لم يشتغل جميعهم بكتابة تفسير القرآن، ولعلّ مَن اشتغل به منهم كان يرى أن جلاء تلك المفردات أو الكلمات، وبيان تلك الشروح والمناسبات كافٍ لرفع قارىء القرآن الى مستوى إدراكهم هم، وتحسسهم للغرض الأساسي العملي لكتاب الله الكريم.

على أننا حين نقرر هذا كقاعدة عامة نقيم بها ما ورد عن الصحابة والتابعين في تفسير القرآن لا نعني فتحاً لمجال الترخص بإهمال ما ورد عنهم، وإهمال آرائهم وأقوالهم - وهم أدرى الناس به لما شهدوه وعاصروه، ولما اختصوا به من المنازل والاحوال- وانما نعني أن ما ورد عنهم من الأقوال لا يكفي وحده لفهم

المدلولات العملية للقرآن الكريم؛ في ضوء فهمهم العميق للغرض الأساسي لنزول القرآن، والذي لم يدونوه بأقلامهم رضي الله عنهم، أما الاستظهار بما ورد عنهم، والاستفادة من أقوالهم وتعليقاتهم فأمر لا يستغني عنه مَن أراد فهم القرآن وتفسيره من جديد!

٢ ـ المفسّرون والغرض الأساسي للقرآن الكريم:

ومن المعلوم أن شيخ المفسرين والمؤرخين الامام أبا جعفر محمد بن جرير الطبري (المتوفي سنة ٣١٠ هـ) قد ضُم تفسيره (الموسوم بجامع البيان عن تأويل آي القرآن، والمشهور بتفسير الطبري) قد ضم كتابه هذا على تفسير الصحابة والتابعين وغيرهم من عصور السلف الاولى، أو القرون المشهود لها بالخيرية والفضل. ولكن تفسير الطبري ينطوي كذلك على ما يسمى بالتفسير بالرأي؛ يظهر ذلك على أجلى ما يكون في اختيارات الطبري نفسه، وترجيحاته، وما يذهب اليه في تفسير الآية أو الآيات؛ لأن هذه الاختيارات والآراء تجاوزت الرواية المأثورة الى ما هو أعم وأوسع؛ كل ذلك على ما تقتضيه اللغة والشريعة وأصول التفسير. ولهذا يعتبر تفسير الطبري أول خطوة هامة أو أبرز خط في السلّم البياني الذي يمكن رسمه لتاريخ التفسير لا يضارعه في ذلك سوى تفسير بقي بن مخلد الاندلسي (المتوفي سنة ٢٧٦) كما ذهب الى ذلك ابن بشكوال، وقطع به ابن حزم رحمه الله،وسواء أكان هذا أم ذاك، فهما يمثلان هذه المرحلة على كل حال. ثم تلت بعد ذلك معالم بارزة وخطوط عريضة لعلها تتمثل بعد ابن جرير أو ابن مخلد ـ وإذا تجاوزنا مجموعة كبيرة من التفاسير المخطوطة، والتي يأتي في طليعتها تفسير «الخازن» أو المختزن لأبي الحسن الأشعري، و«تأويلات أهل السنة» «لأبي منصور الماتريدي» ـ تتمثل في تفسير ابن عطية: «المحرر الوجيز» وتفسير الزمخشري «الكشاف[1]» ثم في تفسير الفخر الرازي (المتوفي سنة ٦٠٦) وأخيراً في تفسير الحافظ ابن كثير الدمشقي (المتوفى

---

(١) توفي ابن عطية سنة ٥٤٦ وتوفي الزمخشري سنة ٥٢٨. راجع مقدمة ابن تيمية.

سنة ٧٧٤) الذي يمثل علامة بارزة في ذلك الخط البياني حتى العصر الحديث. ولسنا هنا في معرض تقييم هذه التفاسير، أو سواها، وبيان مزاياها وأهميتها، ولكننا في معرض بيان القيمة الاساسية أو العامة لهذه التفاسير، وما هو الدور الذي قامت به في رسم الصورة الصحيحة أو الكاملة للغرض الاساسي الذي نزل القرآن الكريم من أجله، والذي يتمثل ـ كما أشرنا ـ في اقامة الشخصية الاسلامية، وبناء أمة لها خصائصها ومميزاتها، وانشاء جيل على قواعد من التربية الربانية تجعله صورة ناطقة عن الحق الذي نزل به القرآن... ليكون بذلك خير أمة أخرجت للناس.

ولكن علينا، قبل أن نبحث في تحقيق هذه التفاسير لذلك الغرض، أن نتذكر البيئة التي كان يعيش فيها هؤلاء المفسرون الأعلام، والجو الذي كانوا يتنسمونه وينطلقون فيه؛ لأن الجزء الذي أغفلوه من ذلك الغرض الأساسي كان متحققاً من حولهم في مجتمع اسلامي، وشريعة حاكمة، وسلطان إن لم يأخذ نفسه بأحكام الاسلام، فإنه لا يستطيع الخروج عليها، فضلاً عن استحالة إقدامه على محاربتها، أو تنشئة الأطفال على خلافها... ولهذا كان همّ المفسرين القدامى مصروفاً إلى «تثقيف» المسلم، وتقديم القدر الذي يتمكن منه المفسر، من العلوم والمعارف اللغوية والتاريخية، ونحوها لقارىء التفسير، وبخاصة الأحكام الشرعية التي يخاطب بها المكلف، ومن هنا طال وقوفهم، وتشعب، أمام آيات الاحكام أكثر من سواها، حتى صارت عماد بعض التفاسير كما هو معلوم. الشخصية المسلمة موجودة، والمجتمع الاسلامي قائم... والقرآن الكريم هو الذي أوجد من الأصل هذا المجتمع وتلك الشخصية... ثم بقي ـ وسيبقى ـ هو زاد هذا المجتمع ومحوره ودليله... والمفسرون خلال التاريخ الاسلامي كانوا يقدمون هذا الزاد، ويدورون حول هذا المحور؛ بحيث يمكن القول: إن من أراد أن يؤرخ للحياة العقلية أو الاجتماعية عند المسلمين فعليه أن يفعل ذلك من خلال تفاسيرهم للقرآن الكريم في الاعتبار الاول؛ والسؤال الآن: هل نجح المفسّرون خلال العصور في تقديم هذا الزاد الكافي أو اللازم للمجتمع الإسلامي، والشخصية الاسلامية؛ ترميماً تارة، وإعادة صياغة، مرة،

وإحياء ونفخاً للروح مرة أخرى!؟

في الإجابة عن هذا السؤال أمامنا هنا ملاحظتان نوردهما بعكس ترتيبهما الزماني:

الملاحظة الأولى: أن المفسرين على وجه الاجمال بقوا على طريقتهم السابقة في التعامل مع النص القرآني، تثقيفاً للمسلم، وإغناءً له بأنواع العلوم والمعارف، حتى إن وقوفهم الطويل أمام آيات الاحكام الذي كان له ما يبرره لم يشفع، والمجتمع الاسلامي آخذ في التدهور، وصورة المسلم الفاعل المؤثر آخذة في التشتت والانفعال، لم يشفع ـ على الأقل ـ بالاتجاه الى السياق الذي وردت فيه تلك الآيات، والذي يشكل الخلفية أو الجو المساعد الذي يخاطب الفرد المسلم ليتقبل هذه الاحكام.. لم يتجهوا إلى هذا السياق ليسلطوا عليه الأضواء، وليكون موضع المدارسة والبحث والوقوف الطويل... بل بقي، يكاد يكون في الظل! فضلاً عن بعض الأخطاء الأخرى التي لا مجال هنا للإفاضة في الحديث عنها في هذه العجالة السريعة...

وهذه **الملاحظة** تبرز مدى المحاكاة والنقل والتقليد الذي ساد المجتمعات الإسلامية بعد عصر ابن كثير على وجه الخصوص... حتى انتهى الامر الى مجموعة من الحفظيات يستعرض المفسر من خلالها عشرات الاقوال ليقال إنه بحر علم! بعيداً عن الصورة القرآنية المحركة للنفوس والقلوب والعقول جميعاً. حتى إذا صحا العالم الاسلامي على حقيقة أحواله بعيد مداهمة الحضارة الأوروبية الاستعمارية لدياره وعقيدته نهض ليدفع عنه تهمة الجهل بالعلوم الطبيعية والمعارف الانسانية، وليعيد للشخصية الإسلامية من خلال القرآن الكريم توازنها وفاعليتها.. إذا به، في أول عهد الصدام، لا يهتدي إلى الغرض الاساسي أو الرئيسي من نزول الكتاب الكريم، وأنه دستور شامل للحياة الإنسانية، وأنه كتاب هداية وتشريع هدفه إنشاء أمة لها خصائصها ومميزاتها، إذا به لا يهتدي إلى ذلك... فيضيع البقية الباقية التي انحدرت إلى المفسرين قبله، أو التي بقوا محافظين عليها، منطلقين في ظلها، فكتب طنطاوي

جوهري (المتوفى سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٤٠ م) كتاباً في التفسير فيه كل شيء إلا التفسير! ولكن يمكن اعتبار هذا التفسير أول محاولة أخلّت برتابة كتب التفسير قبله، على فساد هذه المحاولة في المنهج وطريقة العرض....... ثم تبعتها في علامة بارزة أخرى - في ذلك الخط البياني - محاولات الشيخ محمد عبده «وتفسير المنار»، قبل أن ننتقل إلى المحاولة الناضجة الأخيرة المتمثلة في «ظلال القرآن»، والتي سنعرض لها بعد قليل.

الملاحظة الثانية: ان حركة التفسير منذ عصر التدوين، أو منذ أن تأصّل الخلاف بين المتكلمين وأصحاب الفرق كانت صورة عكست نقاط الخلاف، وكانت في بعض الأحيان استجابة لها، أو محاولة لتأكيدها والانتصار لها، كما يلاحظ ذلك في كتابي الأشعري والماتريدي، وفي كتاب الرازي الذي مثَّل من وجه آخر اهتمامات العصر الطبعيّة والفلسفية على منهج لا يمكن وصفه بالأصالة والوحدة، وهذا فضلاً عن تفاسير المعتزلة الكثيرة التي انطلقوا فيها من مجموعة من المسلّمات التي أسموها أصولاً، وحاولوا حمل الآيات عليها بتأويل قريب مرة، وبعيد مرات أخرى.

والواقع أن هذه الصورة تمكننا من تلخيص ملاحظتنا الثانية هذه بأن معظم المفسرين على اختلاف نزعاتهم الكلامية والمذهبية دخلوا الى النص القرآني - بصورة عامة - بمقرر فكري أو موقف سابق؛ حتى صار ميزان المحكم والمتشابه - على سبيل المثال - متأرجحاً بين الآيات الموافقة من حيث الظاهر للمذهب أو المخالفة له[1].. ومن هنا مهّد المتكلمون جميعاً الطريق أمام التأويل.

ولكن علينا أن نذكر هنا، بكل تأكيد، أن هذا المقرر الفكري المسبق لم يكن شيئاً آخر خارجاً عن القرآن والحديث، من موروثات أو آثار مترجمة أو منقولة كما يزعم بعض المستشرقين، ولكنه موقف اجتهادي نابع من طبيعة اللغة العربية وطبيعة اختلاف الفكر والنظر العقلي، كما يذكر الإمام الغزالي

(١) راجع كتابنا: متشابه القرآن: دراسة موضوعية.

رحمه الله. وإذا كان لنا هنا من ملاحظة نعلل بها عدم اختلاف الصحابة والتابعين في التفسير كما فعل مَن جاء بعدهم، أو نعلل بها لماذا كان اختلافهم اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، فإننا نقول: ان مرد ذلك الى مزيد معرفة وعلم عند الصحابة رضوان اللهعليهم، نظراً لمعاصرتهم للتنزيل، ومشاهدتهم لأحواله، وإدراكهم لطبيعة نصوص القرآن الكريم ومدلولاتها الدقيقة من خلال السياق والسباق، ومدى مساهمة هذه النصوص في رسم أجزاء الصورة للموضوع القرآني الواحد، الذي ربما توزعت صورته هذه على صفحات وأزمان متباعدة. ولم يكن هذا الفهم المتكامل الجوانب لكتاب الله العزيز، وبخاصة في مسائل الاعتقاد التي ثار حولها الخلاف، هوالأصل أو القاعدة في تفسير الخلف اللاحقين؛ حيث عمدت المدارس الكلامية الى بعض اجزاء صورة الموضوع الواحد فجعلتها أصلاً كاملاً - أو مقرراً فكرياً مسبقاً - مما اضطرها الى إدخال سائر أجزاء صورة الموضوع الواحد في باب التأويل[1].

ومعنى ذلك أن المقرر الفكري المسبق الذي لم يكن شيئاً خارجاً عن النص القرآني نفسه، لان هذه هي حال جميع الفرق والمذاهب التوحيدية في الاسلام؛ لم يحصل - في الوقت ذاته - لان الخلف كان عندهم من العلم في كتاب الله ما ليس عند السلف! أو لأنهم، بعيد انتهاء المد الروحي الاول، تفرغوا لملاحظة التعارض في بعض النصوص القرآنية، كما زعم أحمد أمين وضرباؤه من النقلة والمترجمين، لأن «مصدر» التعارض هنا أو سببه ليس نصوص القرآن الكريم، ولكنه فهم المفسر أو عقله، أو تجزيئه للصورة القرآنية الواردة في

---

(١) فسر بعضهم «الهداية» حيث وردت في القرآن بأنها خلق الايمان في قلب المؤمن، مما اضطره الى تفسير قوله تعالى: ﴿فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ بأن معناه هدينا المتقين منهم! كما فسر قوله تعالى: ﴿وما الله يريد ظلما للعباد﴾ بأنه لم يرد أن يظلمهم وان كان أراد أن يظلم بعضهم بعضاً؛ لأنه قرر ذلك بناء على المفهوم الانساني للظلم. وليقرأ من شاء تمحّلات المعتزلة وتأويلاتهم لمثل قوله تعالى ﴿الى ربها ناظرة﴾، وقوله: ﴿وسع كرسّيه السموات والأرض﴾ أو المتاهات التي يجدها القارىء عند القاضي عبد الجبار في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام...﴾ الآية.

موضوع واحد، بغض النظر عن أسباب هذا التجزيء.

٣ ـ الظلال وشروط التفسير المعاصر:

وإذا ربطنا أخيراً بين هاتين الملاحظتين وبين حديثنا السابق عن التفسير بالمأثور أدركنا الأهمية القصوى لكتابة تفسير للقرآن الكريم يمتاز بثلاثة أمور:

الأمر الاول: انطلاقه ـ أو ملاحظته ـ للغرض الاساسي الذي نزل القرآن الكريم من أجله، والمتمثل ـ كما قلنا ـ في انشاء أمة لها خصائصها ومميزاتها، وتربية جيل على قواعد من التربية الربانية تجعله صورة ناطقة عن الحق الذي نزل به القرآن. كل ذلك بما يتناسب ـ في هذا العصر ـ مع غياب المجتمع الاسلامي، والدولة الاسلامية... بل بما يذكر بظروف نشأة الإسلام الاولى، والمسلمون قلة؛ وأعداء الاسلام يتربصون بهم وبدعوتهم الدوائر؛ وبحيث لا يكون الانطلاق من فكرة تقديم ثقافي للمسلم، بل إعادة صياغته وفقاً لمنهج كتاب الله من جديد.

الأمر الثاني: تسجيله لمعاني القرآن التي فهمها الصحابة رضوان الله عليهم، واستلهموها وعاشوا تطبيقها العملي الواقعي الذي لم يعرف تفريقاً بين النظرية والتطبيق ـ كما يقال ـ والتي يمكن الاهتداء اليها في ضوء اختلاف التنوع فيما أثر عنهم من كلام مكتوب؛ وفي ضوء الاهتمامات العملية لحركة المجتمع في مواجهة أعدائه.. لتكون كلمة الله هي العليا، كما تتضح في موقف الصحابة ـ على سبيل المثال ـ يوم بني قريظة، حين عجل بعضهم صلاة العصر وأخرها البعض الآخر.

الأمر الثالث: محاولته تجاوز عصر الخلاف، أو عصر المذهبية الفكرية في تفسير القرآن التي وقعت في خطأ المقرر الفكري المسبق كما أشرنا؛ وذلك خضوعاً للمدلولات القرآنية المباشرة، أو بصورة مباشرة. على ما يحتاج اليه هذا الامر من ثقافة واسعة، وحس مرهف، وتمكن علمي يؤهل صاحبه لمثل

هذا الفهم المتكامل الذي يتخلص من التجزيء أو من أخذ الصورة القرآنية تفاريق!

وعندنا أن «في ظلال القرآن» امتاز بهذه الأمور الثلاثة؛ فلم يكن بذلك من أهم المعالم الرئيسية في تاريخ التفسير، فحسب، بل كان كذلك تفسير العصر الذي لا يغني عنه أي تفسير آخر من تفاسير علمائنا الاوائل رحمهم الله تعالى، وجزاهم عن كتابه أحسن الجزاء: ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾. ولكن قد يكون من المقدمات الضرورية لفهم الظلال والاخذ عنه - نظراً لضعف السليقة اللغوية في أبناء العصر - دراسة كتاب دقيق في غريب القرآن، كمختصر تفسير الطبري، أو مفردات القرآن للراغب الأصفهاني.

أما الأمر الاول فانه يشكل قاعدة هذا التفسير، ونسيجه المتفرد الخاص، كما هو واضح لأي قارىء شدا طرفاً من العلم والمعرفة. وليس ادراك الامر الثاني في تفسير الظلال بأبعد منالاً من إدراك الأمر الأول؛ لأنهما ينبعان من مشكاة واحدة؛ فقد تمثلت في جيل الصحابة أمة القرآن بكل خصائصها ومميزاتها.. وهذه هي الامة التي كانت تتراءى لسيد رحمه الله من خلال نصوص القرآن الكريم، وهو يبنيها لبنة لبنة، وآية آية؛ في السلم والحرب، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، وفي سائر الاوضاع والاحوال. إن معاني القرآن الكريم التي عاشت في نفوس الصحابة والجيل الاول - والتي لم يؤثر عنهم إلا دليلها اللغوي مدوناً في كتب التفسير - تمثلها سيد رحمه الله وفهمها، والله أعلم، بحسه المرهف، وايمانه العميق، وثقافته الواسعة، وتجربته الطويلة، وحركته الدائبة في حقل الدعوة والامة، والمجتمع والناس.... أو على الأقل: استشعرها من خلال هذا كله، واستطاع أن ينقلها بلغته وعباراته على الورق والصحائف!

الظلال - اذن - دليل عملي مكتوب، إن صح مثل هذا التعبير، الى المجتمع الاسلامي والأمة الاسلامية، وليس دليلاً ثقافياً لعلوم القرآن أو علوم التفسير، أو علوم الثقافة الاسلامية من فقه وأصول وتاريخ جدل أو خلاف!

ومن ظن أن هذا هو تعريف « التفسير » ، أو أن تقديم ذلك الدليل الثقافي يجب أن يكون مهمة جميع المفسرين في جميع العصور ، فليعد على معلوماته بالمراجعة والتحليل ، وليعد الى الغرض الأساسي أو الأول من نزول القرآن الكريم بالنظر والتأمل! ولا نقول - هنا - أكثر من ذلك.

أ - من أخطاء التعامل مع الظلال :

والذي نقدره - بهذه المناسبة - أن عدم ادراك هذا الأمر أو هذا الاصل من أصول ظلال القرآن هو الذي أوقع بعض القراء في بعض الاخطاء والتصورات المناقضة أو البعيدة عن الصواب ؛ فعندما كان يتحدث سيد، رحمه الله ،عن « مواصفات » المجتمع الاسلامي وشروطه ؛ عقيدة وتشريعاً ؛ ايماناً وعملاً وسلوكاً . . الخ كان يرسم بذلك - ومن خلال نصوص القرآن الكريم وواقع الامة الاسلامية وسلوك السلف الصالح - صورة المجتمع الذي يجب علينا العمل والتحرك لقيامه وتحقيقه . . ولم يكن يرسم في الفراغ ، كما لم يكن يقدم معلومات أو قضايا نظرية أو فلسفية ، بحيث يمكن التحاكم فيها إلى مصطلحات أو مسلّمات نشأت في عصر من العصور الإسلامية من خلال حركة المجتمع الاسلامي - الذي كان قائماً في ذلك الحين - وتفاعل هذا المجتمع مع القرآن والحديث ؛ مما نطلق عليه الآن مصطلح « التراث » .

فإذا كنا هنا - على سبيل المثال - أمام مصطلحي دار الحرب ودار الاسلام ، فليس معنى حديث سيد ، رحمه الله ، عن المجتمع الجاهلي أن نسارع إلى تخريجه على دار الحرب ، وسحب أحكام هذه الدار - التي ذكرها الفقهاء - على هذا المجتمع بحجة أنه ليس دار اسلام فهو إذن دار حرب[١]! ليس هذا ما عناه سيد رحمه الله ، بل لعل هذا الفهم لكلامه من أسوأ ما يمكن تأويله به أو حمله عليه! ولست هنا بسبيل التفصيل في هذه النقطة أو سواها لبيان أننا نعيش في مجتمع كان يوصف بأنه إسلامي ، وأنه لا ينطبق عليه واحد من المصطلحين الفقهيين السابقين . . أو لبيان أن وصف هذه المجتمعات بالجاهلية وصف لها

---

(١) أي ونطبق عليه من ثم احكام دار الحرب التي ذكرها الفقهاء ، كما فهم بعض الشباب المسلم .

بوصفها « مجتمعات » لا تدين بحكم الله، ولا تعمل بشريعته، وأن حكم الجاهلية أو الكفر لا يمكن أن يلحق بكل فرد من أفرادها... الخ هذه التفصيلات التي سنعرض لها في دراسة موسعة مستقلة نعدها عن منهج سيد، رحمه‌الله، في التفسير.

بل لعل هذا الخطأ في الفهم والتأويل - في هذا المثال وأمثاله - جزء من خطأ اكبر في التعامل مع الظلال والاخذ عنه، وهو **خطأ اعتماد مفهوم المخالفة لكلام سيد رحمه الله**، والتي لو طرحها القراء والدارسون في فهم كلامه رحمه الله لانتهت أكثر المشاكل من أذهان اصحابها والله أعلم. على أن هذا المفهوم ذاته جزء من المشكلة الرئيسية التي طرحناها قبل قليل، والتي تكمن في الفهم الجامد أو الراكد، والذي يتعامل مع الذهن والنظر على أرض النظريات الثابتة الملامح والسمات! في حين أن صاحب الظلال عليه الرحمة والرضوان كان يحاول تصوير حركة البناء في فهم حي متحرك، أو فيما أسماه رحمه الله: فقه الحركة، على النحو الذي صورته ودلت عليه الآية القرآنية الكريمة: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون﴾.

فقد دلت الآية الكريمة على أن الخروج إلى الجهاد هو فقه في الدين، ودلت كذلك على أن هذا الباب من أبواب الفقه لا يشترط في تحصيله المشاركة العملية فيه من قبل الجميع؛ اشارة الى أن الامر ليس كذلك في سائر أبواب الفقه في الدين: عقيدة وشريعة، والله أعلم: « وما كان المؤمنون لينفروا كافّة »!..

وليس من شك - ولا ندخل هنا في الشرح والتفصيل كما قلنا - في أن الفرق كان بعيداً جداً بين طريقة تلقي الصحابة رضوان الله عليهم لمثل قوله تعالى: ﴿وما رميتَ إذ رميت ولكن الله رمى﴾ وتفسيرهم له، وتعاملهم معه - وهم يعلمون دورهم ودور النبي ﷺ في الإعداد والرمي - وبين طريقة المفسرين من أصحاب المذاهب الكلامية في تناول هذه الآية او تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ أو لقوله: ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ فنحن هنا - كما قلت - نواجه مشكلة الركود النظري الذي قد يكون

مخلاًّ بالمدلول الدقيق لهذه النصوص ، ونواجه تبعاً لذلك مشكلة عدم وضع هذا المدلول في مكانه الطبيعي أو الحقيقي بين الآيات الاخرى التي تواردت على الموضوع ذاته ، وعالجته من زواياه الأخرى المختلفة : العملية والنظرية ، والتي رسمت صورته الواحدة في القرآن الكريم . وربما أمكننا القول باختصار : أن الزاوية العملية أو الصعيد العملي التطبيقي ، مراعى فيه البعد الزمني لنزول القرآن الكريم ، هو السبب في عدم نشوء هاتين المشكلتين جميعاً عند الصحابة والتابعين على وجه العموم .

ولهذا فاننا نقول الآن بتقديم أي تفسير لهذه الآيات القرآنية الكريمة ، أو للقرآن الكريم على وجه العموم ينجح معه المفسر في وضع هذه الآيات في موضعها الصحيح الذي ينفي وقوع الاشكال ، ويغنينا ـ تبعاً لذلك ـ عن اللجوء إلى التأويل ، كما ينجح في رسم صورة الوحدة الموضوعية للمسألة الواحدة ، وللسورة القرآنية أيضاً ، وربما للنص القرآني الكريم من أوله الى آخره . . . نقول بتقديم هذا التفسير لأننا نلمح فيه صورة من صور المطابقة ـ والله أعلم ـ لما فهمه الصحابة من القرآن وعملوا عليه .

ب ـ الظلال يتجاوز عصر الخلاف الجدلي أو الكلامي :

وهنا يأتي دور الاشارة الى النقطة الثالثة ، أو الأمر الثالث من مزايا ظلال القرآن ، وهو تجاوزه عصر الخلاف ، أو عصر المذهبية الفكرية في تفسير القرآن الكريم ؛ لان خطأ المقرر الفكري المسبق انما كان من قبل ذلك التجزيء الذي أشرنا اليه ، والذي رفضه صاحب الظلال رحمه الله ، أو بعبارة أدق : لم يقع فيه ، كما لم يقع فيه الجيل القرآني الأول كما قدمنا . وهذا ما دعانا إلى المقارنة أو الدعوى السابقة بأن سيداً رحمه الله استشعر معاني القرآن كما عاشت في نفوس ذلك الجيل الفريد ، ونقلها أو عبر عنها بلغته العالية على الورق والصحائف ، والله أعلم .

وتحسن الإشارة هنا ـ بهذه المناسبة ـ إلى الخطأ الشنيع الذي يقع فيه بعض القراء والدارسين ، وبخاصة ممن شدا شيئاً من علمي التفسير والخلاف ؛ حين

يحاكمون الظلال الى الصورة الكلامية التي انتهت اليهم، أو تلقوها ونشأوا عليها وآمنوا بها... سواء في ذلك الصورة الأشعرية - وقد تكون أقرب المذاهب الكلامية من الصورة القرآنية الكاملة، من حيث النتائج لا من حيث المنهج - أو الاعتزالية، أو صورة المرجئة أو الخوارج أو الماتريدية.... بحيث إن لم يدخل سيد رحمه الله في باب التأويل لبعض النصوص أو إن خرج عن مدلول المذهب الاشعري في بعض المواقف، ظن القارىء أنه وافق الخوارج في تفسير الآية الفلانية، والمعتزلة في تفسير الآية الفلانية... الخ.. كما صرح بذلك بعض من نظر في الظلال من « العلماء » والدارسين!! والذي نرجحه أنهم إنما طلبوا تفسير هذه الآيات، أو نظروا فيه في بعض الصفحات؛ وحاكموا الأمر إلى ما استقر عندهم لا إلى ما دلت عليه الآيات القرآنية بسياقها وسباقها، وموضعها من سائر أجزاء الصورة القرآنية؛ وبطريق الاستلهام المباشر للآيات القرآنية بعيداً عن التعمل والتجوز والتأويل!!

ونحن نقول هنا بوضوح كامل: إن آراء رجال المذاهب الكلامية ليست أصلاً تفسّر في ضوئه نصوص القرآن! وليست مقرراتهم الفكرية المسبقة مقدمات ضرورية لفهم القرآن، علماً بأن هذه المقررات ليست إلا فهماً مجزءًا للنص القرآني! إن الاصل عندنا لا يصير فرعاً، والفرع لا ينقلب أصلاً!! إن سيداً رحمه الله لم يذهب مذهب الخوارج في مسألة، ولا رأي المعتزلة في مسألة أخرى، ولا رأي المرجئة في مسألة ثالثة - وهؤلاء جميعاً وقعوا في خطأ التجزيء، وخطأ التعصب للرأي المبني عليه، وليسوا على التحقيق كفاراً ولا زنادقة كما نعتقد، وندين به أمام الله سبحانه وتعالى!! - ولكنه كان يستلهم النص القرآني الكريم، بتلك الثقافة العالية، وذلك الإحساس المرهف، وتلك التجربة العملية الناضجة في حقل إقامة أمة القرآن، وإعادة صياغة المسلم وفقاً لمنهج الله مرة أخرى،.. كان يستلهم النص القرآني الكريم لينطق بما يدل عليه - لا بما يريد المفسّر أن ينطقه به هو بناء على مقدماته السابقة - فإن صادف أن هذا المدلول المباشر ذهب إلى مثله خارجي أو معتزلي - مثلاً - فهذا تفسير للقرآن، أو مدلول من مدلولاته، وليس اعتزالاً أو خروجاً أو هرطقة، أو غير ذلك مما

يظنــه بعــض القراء والــدارسين!! ومن العجيــب حقــاً أن يتجــاوز مفسر مثل سيد، رحمه الله، مثل ذلك المدلول المباشر لآية قرآنية، ويسلك فيه سبيل التأويل؛ خشية أن يطابق هذا المدلول رأياً مغايراً لرأي الاشعري أو الماتريدي... كأن القوم معصومون عن الخطأ في الفهم، أو كأن رأيهم هو الأصل الذي يجب أن تؤول الآيات لتطابقه ولا تخالفه!! إن هذا الموقف يمثل عندنا تعصباً مقيتاً لا نتردد في رفضه والزراية به. وإن من المذهل حقاً أن يستنكر بعض الناس التعامل المباشر مع القرآن لمن يقدر على ذلك!... فضلاً عمن حل معضلات القرون، ونفى عن القرآن الكريم ظن التعارض الذي ألجأ السابقين إلى التأويل، وفي أدق قضايا العقيدة وغيرها كذلك.

ج ـ الظلال والوحدة الموضوعية للسورة القرآنية:

ولعل هذه المناسبة من أصلح المناسبات للاشارة إلى أن سيداً، رحمه الله تعالى ورضي الله عنه، لم ينجح في القضاء على ذلك التجزيء والدخول الى النص القرآني بمقرر فكري مسبق، ومن ثَمَّ تقديم صورة الموضوع الواحد متكاملة متوازنة متناسقة لا تعارض فيها ولا إشكال.. أقول: لم ينجح في هذا فحسب، بل لعله كذلك أول مفسر في تاريخ القرآن الكريم أبرز الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية المفردة طالت أم قصرت! أبرزه بشكل عملي مكتوب، أو طبقه أروع تطبيق وأعمقه في كتابه العظيم رحمه الله. والذين سبقوا سيداً من المفسرين، منهم من لم يلاحظها ولم يسلم بوجودها، ومنهم من ذهب إلى القول بها، ولكنه عجز عن ملاحظتها وتقديمها فيما كتبه للناس من تفسير لكتاب الله تعالى[1]. ثم جاء سيد ليؤكد على هذه الوحدة المحورية في السورة الواحدة، وليضع أيدينا بعد ذلك برفق وسهولة ولين على وجه الانتقال من موضوع الى موضوع، ولعل سر نجاح سيد رحمه الله في ذلك يعود إلى ملاحظته الأساسية المتمثلة في أن مجال البناء الاصلي في القرآن هو البناء الفكري والعقيدة، وأن سلوك الانسان وتصرفاته العملية هي النتيجة

---

(١) راجع تفسير: نظم الدرر للبقاعي.

الطبيعية لإحكام هذا الجانب الفكري والعقدي بحيث ينطلق في كل أمر توجبه الفكرة والعقيدة، أو تمليه الحركة، من أصول وقواعد راسخة، ومن ربط واضح محكم بين الفكرة ومقتضياتها العملية، وبين العقيدة ولوازمها السلوكية كذلك. ولذلك نجد ـ على سبيل المثال ـ أن وقوفه عند الآيات المكية كان أطول من وقوفه عند الآيات المدنية او آيات الاحكام، وأنه قد كثرت عنده في آيات العقيدة: الاشراقات واللمحات، والظلال، والايقاعات، كما نجده يعطي لكل سورة شخصيتها المتميزة، وملامحها الواضحة؛ في الوقت الذي شدد فيه النكير على من ينتزع آية من القرآن الكريم ويسلخها عن السياق الذي ذكرت فيه، سواء أكانت من آيات العقائد أو آيات الاحكام، وإن كانت الخطورة في آيات العقيدة أشد! لأن النصوص التشريعية قد لا يختلف معناها أو مدلولها من حيث هي قانون أو أحكام، وإن كان قطعها عن إطارها التربوي والأخلاقي غير محمود الاثر ـ وقد أفردنا الحديث عن هذه النقطة في بحث خاص ـ أما نصوص العقائد فالإختلاف في معناها مع ذلك القطع والسلخ ـ ـ وبخاصة وهي نصوص تفصيلية كثيرة، وليست كآيات الاحكام ـ أشد وأخطر! كمن احتج، مثلاً، على مذهبه في مسألة « خلق الافعال » ـ كما دُعيت ـ بقوله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾! علماً بأن الآية الكريمة جاءت على لسان سيدنا ابراهيم في الاحتجاج على قومه حين وجدهم يعبدون الاصنام التي نحتوها بأيديهم: ﴿قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾؟! ولم تأت في سياق الحديث عن التكليف وأفعال العباد ـ بغض النظر عن مذاهب المتكلمين في هذه المسألة ـ وإلا لكانت الآية حجة لعباد الأصنام لا حجة عليهم!!

وأخيراً فإننا نحب أن نؤكد ملاحظاتنا العامة هذه حول الظلال، وبخاصة رفض سيد، رحمه الله، الدخول إلى النص القرآني بمقرر فكري مسبق ـ مهما كان أثر هذا المقرر ضعيفاً أو حتى معوقاً عن الفهم المباشر عن القرآن، ولو بأقل درجات الخدش والتأثير ـ ! نحب ان نؤكد ذلك بالاشارة إلى طريقته التي كان يفسر بها القرآن الكريم، والتي كانت تقوم على مرحلتين: **الأولى**: قراءته

للسورة القرآنية كاملة عدة مرات ، وربما عاود قراءتها والنظر فيها يوماً بعد يوم ، حتى يهتدي ـ رحمه الله ـ إلى موضوعها الرئيسي ، ومحورها العام الذي تدور حوله سائر موضوعاتها الفرعية الأخرى . . . حتى إذا اهتدى إلى ذلك ، وفتح الله تعالى عليه به عكف على تفسيرها بأقل قدرٍ ممكن من الجلسات ، ولو أمكنه أن يفعل ذلك في مقام واحد لفعل . . . ويتبع في تفسيره بطبيعة الحال ما تهديه اليه ثقافته وفهمه وشفافية روحه وحسه اللطيف المرهف . . الى آخر العناصر الأخرى التي أشرنا اليها في موضع سابق من هذا الفصل ، حتى إذا فرغ من تفسيرها جاءت المرحلة الثانية ، وهي النظر في كتب التفسير ؛ يستدرك بها سبباً من أسباب النزول ، أو يوضح من خلالها مسألة من مسائل الفقه ، أو يستشهد منها بحديث أو رواية صحيحة وردت في تفسير بعض الآيات ـ وربما مال الى ترجيح رواية على أخرى مساوية أو مقاربة لها في درجة الصحة من خلال آفاق النص ونظمه أو لارتباطه الأوثق ببعض مواقف السيرة وحياة النبي ﷺ ، كما لاحظنا . ولست هنا في معرض ذكر الأمثلة والشواهد . وكأن هذه النقطة أو المرحلة الثانية تكفي للدلالة على حرص سيد رحمه الله على عدم التأثر المسبق بأي لون من ألوان التفسير والتأويل ، من جهة ، كما تكفي للدلالة على حرصه في الوقت ذاته على عدم الخروج عن الروايات الصحيحة في التفسير بالمأثور . . . وأذكر ـ والله أعلم ـ أن هذه الاضافات والتوضيحات قلّما بنى عليها تعديله أو إلغاءه لتفسير بعض الآيات على النحو الذي سبق له تدوينه وكتابته[1] .

د ـ تفسير وتفسير!

وبعد ، فإن هذا الدليل العملي المكتوب ، والذي جمع هذه المزايا التي تحدثنا عنها ، قد بلغ ذروته في هذه وتلك يوم مهره سيد ، رحمه الله ، بدمه الزكيّ الطاهر ، وليقرأ من شاء قصة شهادته من خلال تفسيره لسورة البروج ، وليلاحظ تخطي هذا التفسير كل ما يعيق وصول معاني القرآن القريبة والمتكاملة إلى جميع

(١) راجع مجلة « حضارة الاسلام » الدمشقية العدد الأول ـ السنة العشرون ص٣٤ .

المسلمين في مشارق الارض ومغاربها؛ على اختلاف مذاهبهم وآرائهم وانتماءاتهم التاريخية حتى جاء تفسيره لكلام الله تعالى أشبه ما يكون بالجدول المنساب المترقرق الذي يأخذ طريقه الى الحقول والمزارع وديعاً ساكناً مطمئناً.. ليخرج نباتها الطيب بإذن ربها، ولتنبت أجيال القرآن نباتاً حسناً تعيد سيرة أجيال القرآن الاولى إن شاء الله.

ومن يدري؟ فلعل هذا القبول الذي كتبه المولى سبحانه لهذا التفسير يعود الى هذا الذي ذكرنا، وإلى أن سيداً رحمه الله قد كتب تفسيره مرّتين: مرةً بِمداد العالم، وأُخرى بدم الشهيد!.

حروف القرآن نور،

ودماء الشهداء نور،

و« ظلال القرآن » نور على نور.

الفصل الرابع

من ألوان التفسير الأدبي

سُورَة «الفجر»

بسم الله الرحمن الرحيم

« والفجرِ وليالٍ عَشْرٍ ، والشَّفعِ والوَتْرِ ، والليلِ إذا يَسْرِ ، هل في ذلك قَسم لذي حِجْرٍ؟ ألم تَرَ كيفَ فعل ربُّك بعادٍ إِرَمَ ذاتِ العِمادِ ، التي لم يُخلقْ مثلُها في البلاد ، وثمودَ الذين جابوا الصخرَ بالوادِ ، وفرعونَ ذي الأوتادِ ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفسادَ ، فصَبَّ عليهم ربُّك سَوْطَ عذابٍ ، إِن ربَّك لَبالمرصادِ ، فأما الإنسانُ إذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمَه ونعَّمه فيقولُ : ربِّي أكرَمْنِ ، وأما إذا ما ابتلاه فَقَدَر عليه رزقه فيقول : ربِّي أهانَن . كلاّ ، بل لا تُكرمون اليتيم ، ولا تَحاضُّون على طعام المسكين ، وتأكلون التُّراثَ أكلاً لَمّاً ، وتحبون المال حباً جمّاً ، كلاّ إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً ، وجاء ربُّك والمَلَكُ صفّاً صفّاً ، وجيء يومئذٍ بجهنَّم يومئذٍ يتذكَّرُ الإنسان ، وأنّى له الذِّكرى ، يقولُ يا ليتني قدَّمتُ لحياتي فيومئذٍ لا يعذِّبُ عذابَه أحد ، ولا يوثِقُ وَثاقَه أحد . يا أيتها النفس المطمئنة ارْجِعي إلى ربِّكِ راضيةً مَرْضية ، فادخُلي في عبادي وادخُلي جنتي » . « صدق الله العظيم » .

هذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء الأخير في الهتاف

بالقلب البشري إلى الايمان والتقوى واليقظة والتدبر. ولكنها تتضمن ألواناً شتى من الجولات والإيقاعات والظلال، ألواناً متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحناً واحداً متعدّد النغمات موحد الإيقاع!

في بعض مشاهدها جمال هادىء رقيق ندي السمات والإيقاعات، كهذا المطلع الندي بمشاهده الكونية الرقيقة، وبظل العبادة والصلاة في ثنايا تلك المشاهد...

«والفجر وليالٍ عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر».

وفي بعض مشاهدها شدٌّ وقصف، سواء مناظرها أو موسيقاها، كهذا المشهد العنيف المخيف: «كلا. إذا دكت الأرض دكاً دكاً، وجاء ربك والملك صفاً صفاً، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنَّى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي. فيومئذ لا يعذِّب عذابه أحد ولا يوثِق وَثاقه أحد».

وفي بعض مشاهدها نداوة ورقة ورضى يفيض، وطمأنينة، تتناسق فيها المناظر والأنغام كهذا الختام: «يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضيةً مَرضية، فادخُلي في عبادي وادخلي جنتي».

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين، وإيقاعها بين بين، بين إيقاع القصص الرخي وإيقاع المصرع القوي: «ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرَمَ ذاتِ العِمَاد. التي لم يُخلق مثلها في البلاد، وثمودَ الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعونَ ذِي الأوتاد الذين طغَوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد».

وفيها بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانية وقيمه غير الإيمانية. وهي ذات لون خاص في السورة تعبيراً وايقاعاً. فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعَّمه فيقول: ربي أكْرَمَنِ. وأما إذا ما ابتلاه فقدَر عليه رزقه فيقول ربي أهانَنِ..».

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه

التصورات. وهي تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم: «كلا. بل لا تكرمون اليتيم. ولا تحاضُّون على طعام المسكين. وتأكلون التراث أكلاً لمّاً وتحبون المال حباً جمّاً».

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم، فقد جاء بعده «كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً الخ...» فهو وسط في شدة التنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير!

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة في مشاهد السورة. وإيقاعاتها في تعبيرها وفي تنغيمها. كما يبدو تعدد نظام الفواصل وتغير حروف القوافي بحسب تنوع المعاني والمشاهد، فالسورة من هذا الجانب نموذج وافٍ لهذا الأفق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني. فوق ما فيها عموماً من جمال ملحوظ مأنوس!

فأما أغراض السورة الموضوعية التي يحملها هذا التعبير المتناسق الجميل فنعرضها فيما يلي بالتفصيل:

«والفجر وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر. هل في ذلك قسم لذي حجر». هذا القسم في مطلع السورة يضم هذه المشاهد والخلائق ذات الأرواح اللطيفة المأنوسة الشفيفة. «والفجر» ساعة تنفس الحياة في يُسر وفرح، وابتسام وايناس ودودٍ نديّ، والوجودُ الغافي يستيقظ رويداً رويداً، وكأن أنفاسه مناجاة، وكأن تفتّحه ابتهال.

«وليال عشر» أطلقها النص القرآني ووردت فيها روايات شتى... قيل هي العشر من ذي الحجة، وقيل: هي العشر من المحرَّم. وقيل: هي العشر من رمضان. وإطلاقها هكذا أوقع وأندى. فهي ليال عشر يعلمها الله، ولها عنده شأن. تلقي في السياق ظل الليلات ذات الشخصية الخاصة. وكأنها خلائق حية معينة ذوات أرواح، تعاطفنا ونعاطفها من خلال التعبير القرآني الرفاف!.

«والشفع والوتر» يطلقان على روح الصلاة والعبادة في ذلك الجو المأنوس الحبيب، جو الفجر والليالي العشر... «ومن الصلاة الشفع والوتر» - كما

جاء في حديث أخرجه الترمذي- وهذا المعنى هو أنسب المعاني في هذا الجو، حيث تلتقي روح العبادة الخاشعة، بروح الوجود الساجية! وحيث تتجاوب الأرواح العابرة مع أرواح الليالي المختارة. وروح الفجر الوضيئة.

« والليل إذا يَسْر »... والليل هنا مخلوق حي، يسري في الكون، وكأنه ساهر يجول في الظلام! أو مسافرٌ يختار السرى لرحلته البعيدة! يا لأناقة التعبير! ويا لأنس المشهد! ويا لجمال النغم! ويا للتناسق مع الفجر، والليالي العشر، والشفع والوتر! إنها ليست ألفاظاً وعبارات، إنما هي أنسام من أنسام الفجر، وأنداء مشعّة بالعطر! أم إنه النجاء الأليف للقلب؟ والهمس اللطيف للروح؟ واللمس الموحي للضمير؟ إنه الجمال... الجمال الحبيب الهامس اللطيف. الجمال الذي لا يدانيه جمال التصورات الشاعرية اللطيفة. لأنه الجمال الإبداعي، المعبّر في الوقت ذاته عن حقيقة. ومن ثم يعقب عليه في النهاية: - (هل في ذلك قسم لذي حجر)؟ وهو سؤال للتقرير. إن في ذلك قسماً لذي لبٍّ وعقل، إن في ذلك مقنعاً لمن له إدراك وفكر. ولكن صيغة الاستفهام- مع إفادتها التقرير- أرق حاشية، فهي تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق!

أما المقسم عليه بذلك القسم، فقد طواه السياق، ليفسره ما بعده، فهو موضوع الطغيان والفساد، وأخذ ربك لأهل الطغيان والفساد، فهو حق واقع يقسم بذلك في تلميح يناسب لمسات السورة الخفيفة على وجه الاجمال.

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرمَ ذات العماد، التي لم يُخلق مثلُها في البلاد؟ وثمودَ الذين جابوا الصخر بالواد؟ وفرعونَ ذي الأوتاد... الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب؟ ان ربك لبالمرصاد ».

وصيغة الاستفهام في مثل هذا السياق أشد إثارة لليقظة والالتفات. والخطاب للنبي ﷺ ابتداء، ثم هو لكل من تتأتى منه الرؤية او التبصر في مصارع أولئك الأقوام، وكلها مما كان المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفونه،

ومما تشهد به الآثار والقصص الباقية في الأجيال المتعاقبة. وإضافة الفعل إلى «ربك» فيها للمؤمن طمأنينة وأنس وراحة. وبخاصة أولئك الذين كانوا في مكة يعانون طغيان الطغاة وعسف الجبارين من المشركين، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد. وقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم. مصرع: «عاد إرم» وهي عادٌ الأولى. وكان مسكنهم بالأحقاف وهي كثبان الرمال في جنوبي الجزيرة بين حضر واليمن. وكانوا بدواً ذوي خيام تقوم على عماد... وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوى قبيلة في وقتها وأميزها «التي لم يخلق مثلها في البلاد» في ذلك الأوان﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾... وكانت ثمود تسكن بالحجر في شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام. وقد قطعت الصخر وشيّدته قصوراً، كما نحتت في الجبال ملاجىء ومغارات.

﴿وفرعونَ ذي الأوتاد﴾... وهي على الأرجح الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة. وفرعون المشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار.

هؤلاء هم﴿الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد﴾... وليس وراء الطغيان إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف المعمر الباني إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنه يجعل الطاغية أسير هواه، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفُسد هو أول من يفسد، ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف، وكذلك قال فرعون﴿أنا ربُّكُمُ الأعلى﴾ عندما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد. ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، مع السخط الدفين والحقد الكظيم، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الابتكار المتحررة

التي لا تنمو في غير جو الحرية. والنفس التي تستذل تأسُن وتتعفّن، وتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة. وميداناً للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك. وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد...

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة، لأنها خطر على الطغاة والطغيان فلا بد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة مستساغة... وهو فساد أي فساد!

فلما أكثروا في الأرض الفساد، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد: ﴿فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لبالمرصاد﴾!..

فربك راصدٌ لهم ومسجل لأعمالهم؛ فلما ان كثر الفساد وزاد صبّ عليهم سوط عذاب. وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب، حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد!

ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان. ومن قوله تعالى ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ تفيض طمأنينة خاصة. فربك هناك راصد لا يفوته شيء، مراقب لا يندّ عنه شيء. فليطمئن بال المؤمن، فإن ربه هناك!... بالمرصاد... للطغيان والشر والفساد!

«إن ربك لبالمرصاد»... يرى ويحسب ويجازي، وفق ميزان دقيق لا يخطىء ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء. فأما الإنسان فتخطىء موازينه، وتضل تقديراته، ولا يرى إلا الظواهر، ما لم يتصل بميزان الله.

﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقولُ ربي أكرمنِ. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول: ربي أهاننِ﴾...

فهذا هو تصور الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال، ومن بسط وقبض، ومن توسعة وتقدير... يبتليه بالنعمة والإكرام، بالمال أو المقام. فلا يدرك أنه الابتلاء تمهيداً للجزاء، إنما يحسب هذا الرزق وهذه المكانة دليلاً على استحقاقه عند الله للإكرام، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره، يعتبر البلاء جزاءً والامتحان نتيجة! ويقيس الكرامة عند الله بعرض هذه الحياة! ويبتليه بالتضييق عليه في الرزق، فيحسب الابتلاء جزاء كذلك، ويرى في ضيق الرزق مهانة عند الله، فلو لم يرد مهانته ما ضيق عليه رزق... وهو في كلتا الحالتين مخطىء في التصور ومخطىء في التقدير. فبسط الرزق أو قبضه ابتلاء من الله لعبده، ليظهر منه الشكر على النعمة أو البطر، ويظهر منه على المحنة أو الضجر، والجزاء على ما يظهر منه بعد. وليس ما أعطي من عرض الدنيا أو منع هو الجزاء. وقيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عرض الدنيا، ورضى الله أو سخطه لا يستدل عليه بالمنح والمنع في هذه الأرض. فهو يعطي الصالح والطالح ويمنع الصالح والطالح. ولكن ما وراء هذا وذلك هو الذي عليه المعمول إنه يعطي ليبتلي ويمنع ليبتلي. والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء!

غير أن الانسان حين يخلو قلبه من الإيمان لا يدرك حكمة المنع والعطاء، ولا حقيقة القيم في ميزان الله... فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك. وخفت في ميزانه الأعراض الزهيدة، وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء فعمل له في البسط والقبض سواء. وأطمأن الى قدر الله به في الحالتين، وعرف قدره في ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء؟.

﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضون على طعام المسكين. وتأكلون التراث أكلاً لمّاً، وتحبون المال حباً جماً﴾...

كلا ليس الأمر كما يقول الإنسان الخاوي من الإيمان. ليس بسط الرزق دليلاً على الكرامة عند الله، وليس تضييق الرزق دليلا على المهانة والاهمال. إنما الأمر انكم لا تنهضون بالأمر بحق العطاء، ولا توفون بحق المال؛ فأنتم لا تكرمون اليتيم الصغير الذي فقد حاميه وكافله حين فقد أباه، ولا تتحاضون

فيا بينكم على إطعام المسكين: الساكن الذي لا يتعرض للسؤال وهو محتاج، وقد اعتبر عدم التحاض والتواصي على إطعام المسكين قبيحاً مستنكراً. كما يوحي بضرورة التكافل في الجماعة في التوجيه إلى الواجب والى الخير العام، وهذه سمة الإسلام.

... إنكم لا تدركون معنى الابتلاء. فلا تحاولون النجاح فيه، بإكرام اليتيم والتواصي على إطعام المسكين، بل أنتم - على العكس - تأكلون الميراث أكلاً شرهاً جشعاً، وتحبون المال حباً كثيراً طاغياً، لا يستبقي في نفوسكم أريحية ولا مكرمة مع المحتاجين إلى الإكرام والطعام.

وقد كان الاسلام يواجه في مكة حالة التكالب على جمع المال بكافة الطرق، تورث القلوب كزازة وقساوة. وكان ضعف اليتامى مغرياً بانتهاب أموالهم وبخاصة الإناث في صور شتى. وبخاصة ما يتعلق بالميراث، كما كان حب المال وجمعه بالربا وغيره ظاهرة بارزة في المجتمع المكي قبل الإسلام، وهي سمة الجاهليات في كل زمان ومكان!

وفي هذه الآيات، فوق الكشف عن واقع نفوسهم، تنديد بهذا الواقع، وردع عنه يتمثل في تكرار كلمة «كلا»، كما يتمثل في بناء التعبير وإيقاعه. وهو يرسم بجرسه شدة التكالب وعنفه:

﴿وتأكلون التراث أكلاً لماً وتحبّون المال حباً جماً!﴾...

وعند هذا الحد من فضح حقيقة حالهم المنكرة، بعد تصوير خطأ تصورهم في الابتلاء بالمنع والعطاء، يجيء التهديد الرعيب بيوم الجزاء وحقيقته، بعد الابتلاء ونتيجته في إيقاع قوى شديد:

﴿كلا إذا دُكت الأرض دكاً دكاً، وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم. يومئذ يتذكر الانسان وأنّى له الذكرى؟ يقول: يا ليتني قدمتُ لحياتي فيومئذ لا يعذّب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد﴾.

ودك الأرض: تحطيم معالمها وتسويتها، وهو أحد الانقلابات الكونية التي

تقع في يوم القيامة. فأما مجيء ربك والملائكة صفاً صفا، فهو أمرٌ غيبي لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الأرض، ولكننا نحس وراءه التعبير بالجلال والهول! كذلك المجيء بجهنم: نأخذ منه قربها منهم وقرب المعذبين منها وكفى. فأما عن حقيقة ما يقع وكيفيته فهي من غيب الله المكنون ليومه المعلوم.

إنما يرتسم من وراء هذه الآيات، ومن خلال موسيقاها الحادة التقسيم، الشديدة الأسر، مشهد ترجف له القلوب، وتخشع له الأبصار. والأرض تدك دكا دكا! والجبار المتكبر يتجلّى ويتولّى الحكم والفصل، ويقف الملائكة صفا صفا. ثم يجاء بجهنم متأهبة هي الأخرى!!

﴿يومئذ يتذكر الإنسان﴾... الإنسان الذي غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء الذي أكل التراث أكلا لما، وأحب المال حبا جما، والذي لم يكرم اليتيم، ولم يحض على طعام المسكين، والذي طغى وأفسد وتولى... يومئذ يتذكر. يتذكر الحق ويتعظ بما يرى، ولكن لقد فات الأوان «وأنى له الذكرى»... ولقد مضى عهد الذكرى، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحداً! وإن هي إلا الحسرة على فوات الفرصة في دار العمل في دار الحياة الدنيا؟.

وحين تتجلى له هذه الحقيقة: ﴿يقول يا ليتني قدَّمتُ لحياتي﴾... يا ليتني قدمت شيئاً لحياتي هنا، فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة، وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها. يا ليتني... أمنية فيها الحسرة الظاهرة، وهي أقصى ما يملكه الإنسان في الآخرة!

ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة ﴿فيومئذ لا يعذِّب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد﴾... إنه الله القهار الجبار، الذي يعذب يومئذ عذابه الفذ الذي لا يملك مثله أحد. والذي يوثق وثاقه الفذ الذي لا يوثق مثله أحد. وعذاب الله ووثاقه يفصّلهما القرآن في مواضع أخرى في مشاهد القيامة الكثيرة المنوعة في ثنايا القرآن كله. ويجملهما هنا حيث يصفهما بالتفرد بلا شبيهٍ من عذاب البشر ووثاقهم، أو من عذاب الخلق جميعاً

ووثاقهم، وذلك مقابل ما أسلف في السورة من طغيان الطغاة ممثّلين في عاد وفرعون، وإكثارهم من الفساد في الأرض مما يتضمن تعذيب الناس وربطهم بالقيود والأغلال. فها هو ذا ربك ـ أيها النبي وأيها المؤمن ـ يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم.

ولكن شتان بين عذاب وعذاب، ووثاق ووثاق... وهان ما يملكه الخلق من هذا الأمر، وجلَّ ما يفعله صاحب الخلق والأمر. فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم ما يكون، فسيعذبون ويوثقون عذاباً ووثاقاً وراء التصورات والظنون!!

وفي وسط هذا الهول المروع، وهذا العذاب والوثاق، الذي يتجاوز كل تصور تُنادى «النفس» المؤمنة من الملأ الأعلى:

﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾...

هكذا في عطف وقرب «يا أيتها» وفي روحانية وتكريم «يا أيتها النفس»... وفي ثناء وتطمين. «يا أيتها النفس المطمئنة» وفي وسط الشد والوثاق، الانطلاق والرخاء: «ارجعي الى ربك» ارجعي إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد. ارجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة... «راضية مرضية» بهذه النداوة التي تفيض على الجو كله بالتعاطف والرضى... «فادخلي في عبادي»... المقربين المختارين لينالوا هذه القربى «وادخلي جنتي»... في كنفي ورحمتي...

إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة... منذ النداء الأول: «يا أيتها النفس المطمئنة»... المطمئنة إلى ربها. المطمئنة إلى طريقها. المطمئنة الى قدر الله بها. المطمئنة في السراء والضراء، وفي البسط والقبض، وفي المنع والعطاء. المطمئنة فلا ترتاب. والمطمئنة فلا تنحرف. والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق. والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول العريب!

ثم تمضي الآيات تباعاً تغمر الجو كله بالأمن والرضى والطمأنينة،

والموسيقى الندية حول المشهد ترف بالود والقربى والسكينة.

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية، تطل من خلال هذه الآيات... وتتجلى عليها طلعة الرحمان الجليلة البهية[1]...

(١) في ظلال القرآن ٢٩/١٥٢ - ١٦٠.

سُورَة «التكاثر»

بسم الله الرحمن الرحيم :

« ألهاكُم التكاثُر ، حتى زُرْتُمُ المقابر ، كَلاّ سوفَ تعلمونَ . ثُم كَلاّ سوف تعلمونَ ـ كَلاّ لو تعلمونَ علمَ اليقينِ ، لَتَرَوُنَّ الجحيم . ثم لترونَّها عينَ اليَقين . ثم لتُسألُنَّ يومئذٍ عنِ النَّعيم » . صدق الله العظيم

ألهاه عن كذا وأقهاه : إذا شغله ، و« التكاثر » التباري في الكثرة والتباهي بها ، وأن يقول هؤلاء : نحن أكثر ، وهؤلاء نحن أكثر . روي ان بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عدداً ، فكثَّرهم بنو عبد مناف ، فقالت بنو سهم : ان البغي أهلكنا في الجاهلية فعادُّونا بالأحياء والأموات ، فكثّرتهم بنو سهم .

والمعنى : أنكم تكاثرتم بالأحياء حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى المقابر فكاثرتم بالأموات : عبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة المقابر تهكماً بهم!!

وقيل : كانوا يزورون المقابر فيقولون : هذا قبر فلان وهذا قبر فلان ، عند تفاخرهم . والمعنى : ألهاكم ذلك ـ وهو مما لا يعنيكم ولا يجدي عليكم في دنياكم وآخرتكم ـ عما يعنيكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعنى من كل مهم .

أو أراد : ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم ، منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها ، إلى أن أتاكم الموت ، لا هم لكم غيرها ، عما هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم والعمل لآخرتكم . وزيارةُ القبور عبارة عن الموت .

وقرأ ابن عباس : « أألهاكم؟ » على الاستفهام الذي معناه التقرير . « كلا » ردع وتنبيه على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه « سوف تعلمون » إنذار ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم .

والتكرار : تأكيد للردع والإنذار عليهم . و« ثم » دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد ، كما تقول للمنصوح : أقول لك ثم أقول لك : لا تفعل . والمعنى : سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدّامكم من هول

لقاء الله. وإن هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم. ثم كرر التنبيه أيضاً وقال: «لو تعلمون» محذوف الجواب، يعني: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين، أي كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور التي وكلتم بعلمها هممكم: لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه، ولكنّكم ضلّال جهلة.

ثم قال: «لترون الجحيم» فبين لهم ما أنذرهم منه وأوعدهم به، وقد مر ما في إيضاح الشيء بعد إبهامه من تفخيمه وتعظيمه، وهو جواب قسم محذوف، والقسم لتوكيد الوعيد، وإن ما أوعدوا به ما لا يدخل فيه الريب، وكرره معطوفاً بـ «ثم» تغليظاً في التهديد وزيادة في التهويل.

«عين اليقين» أي الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته. ويجوز أن يراد بالرؤية: العلم والإبصار.

«عن النعيم» عن اللهو والتنعم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه. فإن قلت: ما النعيم الذي يسأل عنه الإنسان ويعاتب عليه؟ فما من أحد إلا وله نعيم؟ قلت: هو نعيم من عكف همته على استيفاء اللذات، ولم يعش إلا ليأكل الطيب ويلبس اللين، ويقطع أوقاته باللهو والطرب، ولا يعبأ بالعلم والعمل، ولا يحمل نفسه مشاقهما، فأما من تمتع بنعمة الله وأرزاقه التي لم يخلقها إلا لعباده، وتقوّى بها على دراسة العلم والقيام بالعمل، وكان ناهضاً بالشكر، فهو من ذلك بمعزل، وإليه أشار رسول الله ﷺ فيما يروى: أنه أكل هو وأصحابه تمراً وشربوا عليه ماءً، فقال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين[1].

وقارن هذا اللون من ألوان التفسير بما كتبه سيد قطب حول السورة نفسها، بلون آخر، ومن وجهة ثانية تؤكد أن هذه الألوان يكاد لا يغني بعضها عن بعض قال رحمه الله:

«هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق، وكأنما هي صوت نذير قائم على شرف عال، يمد بصوته ويدوّي بنبرته، يصيح بنوّم غافلين مخمورين

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤/٦٣١.

سادرين، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة، وحسّهم مسحور؛ فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ:

«ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر»...

أيها السادرون المخمورون، أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون. أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه، أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيّقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر... استيقظوا وانظروا... فقد «ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر».

ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر في إيقاع عميق رزين:

«كلا سوف تعلمون».

ويكرر هذا الإيقاع بألفاظه وجرسه الرهيب الرصين:

«ثم كلا سوف تعلمون».

ثم يزيد التوكيد عمقاً ورهبة، وتلويحاً بما وراءه من أمر ثقيل، لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار:

«كلا لو تعلمون علم اليقين».

ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطوية الرهيبة:

«لترونّ الجحيم».

ثم يؤكد هذه الحقيقة، ويعمق وقعها الرهيب في القلوب:

«ثم لترونّها عين اليقين»:

ثم يلقي بالإيقاع الأخير الذي يدع المخمور يفيق، والغافل ينتبه، والسادر يتلفت، والناعم يرتعش ويرتجف مما في يديه من نعيم:

«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»!

لتسألن عنه من أين نلتموه؟ وفيم أنفقتموه؟ أمن طاعة وفي طاعة؟ أم من

معصية وفي معصية؟ أمن حلال وفي حلال؟ أم من حرام وفي حرام؟ هل شكرتم؟ هل أديتم؟ هل شاركتم؟ هل استأثرتم؟.

«لتسألن» عما تتكاثرون وتتفاخرون... فهو عبء تستخفونه في غمرتكم ولهوكم، ولكن وراءه ما وراءه من همٍّ ثقيل!

* * *

إنها سورة تعبر بذاتها عن ذاتها، وتلقي في الحسّ ما تلقي بمعناها وإيقاعها، وتدع القلب مثقلاً مشغولاً بهمٍّ الآخرة عن سفساف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التي يهشّ لها الفارغون!

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل...

«ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر»... وتنطوي ومضة الحياة الدنيا وتنطوي صفحتها الصغيرة... ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال؛ ويقوم الأداء التعبيري ذاته بهذا الإيحاء؛ فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيري الفريد...

وما يقرأ الإنسان هذه السورة الرهيبة العميقة، بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة في الفضاء إلى بعيد... في مطلعها، الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق... في نهايتها؛ حتى يشعر بثقل ما على عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التي يحياها على الأرض، ثم يحمل ما يحمل منها ويمضي به مثقلاً في الطريق! ثم ينشىء يحاسب نفسه على الصغير والزهيد!!.»

سُورَة «العَاديات»

بسم الله الرحمن الرحيم

والعادياتِ ضبْحاً . فالُموريَاتِ قَدحاً . فالمغيراتِ صبْحاً . فأثرْنَ به نقعاً . فوسطنَ بهِ جمْعاً . إنّ الإنسان لربهِ لكنُودٌ وإنّه على ذلك لشهيدٌ . وإنه لحُبِّ الخَير لشدِيدٌ . أفلاَ يعلمُ إذا بُعثِر ما في القبور . وحصِّل ما في الصُّدور . إنَّ ربَّهم بِهمْ يومئذٍ لخبيرٌ .

المعنى الإجمالي للسورة :

والخيل التي تعدو عدواً يسمع منها صوت أنفاسها فتوري النار بحوافرها ، إذ تغير في الصباح فتثير الغبار فتتوسط جماعة العدو .

إن الانسان كفور بنعمة ربه وعالمٌ بذلك من نفسه ، وهو شديد الحب للمال ، أفلا يعلم ويتصور كيف تكون حاله حين تُثار القبور ويخرج من فيها ، وتجمع حصائل الأعمال من الصدور ، إن ربهم يومئذ عليم بأعمالهم وسيحاسبهم عليها .

أقسام السورة وموضوعها الرئيسي :

يمكن أن نقسم السورة بحسب مضمونها إلى أقسام ثلاثة وخاتمة أو نتيجة .

أما القسم الأول : فهو مشهد من مشاهد صراع الإنسان في هذه الحياة للتسلط وكسب المال ، مشهد فرسان يغيرون على جماعة أخرى ليأخذوا مالها ويتسلطوا عليها . ولئن جاء هذا الصراع هنا في صورة غزوة من الغزوات التي عرفها العرب وألفوا أمثالها ، فإن هذه الصورة ترمز إلى جميع أنواع العدوان في ميادين الصراع بين البشر الذي يكون الاعتداء طريقه ، والتسلط والسلب غايته!

وأما القسم الثاني : فهو تحليل سريع موجز لنفسية الإنسان : إنه شديد الحب للمال ، كفورٌ بنعمة الله ، وهو يعرف ذلك من نفسه . وإن حبه هذا ، الشديد للمال مع الغفلة عن تذكر المنعم وشكره هو الذي يدفعه إلى الإعتداء

على الآخرين ، ولو كان ذاكراً لنعمة الله لصدّه ذلك عن الإعتداء على عباده!

والقسم الثالث : إهابة وتنبيه وتذكرة بالمصير بعد الفناء ؛ إذ يبعث البشر من قبورهم وتجمع حصائل الأعمال من الصدور التي هي كناية عن النيّات والدوافع التي بها تقاس الأعمال إن كانت خيراً أو شراً .

وتختتم الأقسام الثلاثة بهذه الآية التي هي آخر المراحل ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾. فمن صراع في هذه الحياة التي يعيش فيها الانسان مدفوعاً بدافع من حب المال وفي غفلة عن تذكر الخالق المنعم ، إلى موت يعقبه بعث وحساب على الأعمال والنيّات حيث يكون المحاسب هو الله الخبير بأحوال العالم ، وبأعمالهم ، المطلع على نيّاتهم .

إن هذا النص كما ترى غني بمشاهده وأفكاره بالنسبة الى قصره وإيجازه ، ولكن الفكرة الأساسية التي يبدو أنها هي المقصودة من السورة هي الفكرة المتجلية في الآية الأخيرة والتي نستطيع أن نلخصها في قولنا إنها (مسؤولية الإنسان العظمى أمام الخالق بعد هذه الحياة) وكل ما تقدمها من مشاهد وأفكار كان وسيلة للوصول إليها وتثبيتها في الفكر والقلب . . .

وإن فكرة مسؤولية الإنسان العظمى هذه من الأفكار بل العقائد الأساسية التي تضمنها القرآن ، وكررها في أشكال وصور متنوعة كثيرة وجعلها ركيزة أساسية في نظامه الاخلاقي والتشريعي وجزءاً من فلسفة الحياة التي جاء بها .

خصائص النص الفكرية :

١ - تبدو في النص وحدة موضوعية واضحة تدور حول فكرة المسؤولية .

٢ - ولذلك كان بين أجزاء النص ارتباط وتسلسل ، فمن مشهد الغزو ، إلى تحليل العوامل النفسية الدافعة ، إلى النهاية والمصير ، فالحساب والمسؤولية .

٣ - ويعتمد النص على العنصر النفسي سواء في تحليل نفسية الإنسان أو في تسجيل الأعمال (وحُصّل ما في الصدور) واعتبار النيات في تحديد المسؤولية .

فن العرض أو الطريقة الأدبية:

إذا كانت الفكرة الأساسية هي أن الإنسان مسؤول بعد هذه الحياة عن أعماله ودوافعه، فكيف عرضت هذه الفكرة، وهل كان في طريقة عرضها فنٌّ خاص؟

١ - لقد وضعنا النص رأساً أمام مشهد واقعي حيٍّ من مشاهد الحياة ينبض بالحركة والحياة، إذ تعدو أمام بصرنا كوكبة من الفرسان، نحس بحرارة أنفاس خيلها، ونسمع حفيفها، ونبصر الشرر المتطاير من حوافرها، وما تثيره من الغبار حولها، حتى تصل في وقت الصبح إلى الجماعة التي تريد مباغتتها!!

لقد اعتمد النص في هذا القسم الأول على الوصف الذي يكاد يكون على إيجازه قصة أو مشهداً من قصة، وقد تضمن هذا الوصف عناصره الأساسية من تصوير **الحركة** (العاديات، المغيرات، أثرن، وسطن) الى تصوير **الأشكال والألوان** (الموريات قدحاً، النقع، توسط الجمع) إلى سماع **الأصوات** (ضبحاً) هذا مع انتقاء النقط البارزة **والخطوط المشخصة** للمشهد (العدو، الشرر، الغبار) وتحديد الزمان (**الصبح**).

لقد كان افتتاح السورة بهذا المشهد مفاجأة مثيرة للخيال، ولا سيما بالنسبة للعرب الذين تثيرهم صورة الغزو بل خبره وحكايته، وكان عرض هذا المشهد نقطة انطلاق للتأمل والتفكير، وكان في الوقت نفسه صورة رمزية تدل على اعتداء الانسان، أورد مورد القسم، وكثيراً ما يأتي القسم في القرآن للإيقاظ والتنبيه وإثارة النفس وإعدادها لما يأتي من المعاني.

٢ - أما طريقة القسم الثاني من النص فقد كانت التحليل النفسي، فقد انتقلنا من مشهدٍ واقعي من مشاهد الحياة إلى التأمل في نفسية الإنسان، ومن الصور الحية النابضة المجردة النفسية، وكان عرض الأفكار في هذا القسم عرضاً مباشراً مجرداً خالياً من التصوير او الوصف المادي.

٣ - وقد عاد النص في القسم الثالث إلى طريقة الوصف والتصوير، فإذا

بنا ننتقل من ذلك التأمل النفسي، ومن مشاهد الحياة اليومية الى نهاية الحياة وإلى ما بعد الموت في صورة حسية قوية تبعث الروع؛ في أشد إيجاز وأقوى تعبير (أفلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور) تقترن بها صورة رمزية ترمز إلى جمع الأعمال وتشير إلى اعتبار النية فيها (وحُصّل ما في الصدور). فكأن هذا القسم في طريقته حاكى القسم الأول في آيته الأولى، والثاني في آيته الثانية، فجمع بين التصوير الحسي الرائع والتحليل النفسي العميق في آيتين تصفان حادثة واحدة.

٤ ـ أما الخاتمة فقد جاءت على طريقة الأحكام المجردة بعد أن هيئت النفس بتلك الصورة الحسية المثيرة للخيال، والصورة النفسية الباعثة على التأمل لتلقي هذا الحكم خالصاً مجرداً.

وهكذا جمعت هذه السورة بين طريقة التصوير والوصف، وطريقة التحليل والعرض المباشر للأفكار، مع إيجاز وسرعة انتقال، هذا عدا ما في القسم الأول من فنٍ عجيب في قطع سلسلة المشهد ليتمّها القارىء بخياله، إذ تقف قصة الغارة عند التقاء الجمعين. ولك أن تتصور أيها القارىء ما تتصور من جرائم النهب والسلب والقتل والاعتداء، تلك الأعمال التي تستدعي الحكم الوارد في القسم الثاني على الإنسان الكفور الجاحد!

صياغة الآيات، أو التراكيب والجمل[1]:

ولو ألقينا نظرة على الآيات وترتيبها وتركيبها لوجدناها متناسبة مع الأفكار وخصائصها، ولوجدنا تنوعها مقابلاً لتنوع الأفكار.

إننا نجد في تركيب جمل الآيات الاقسام التالية التي تقابل الاقسام الفكرية السابقة.

١ ـ آيات قصيرة تتألف كل واحدة منها من كلمتين أولاهما اسم فاعل بمعنى الفعل، أو فعل (والعاديات ضبحاً، فأثرن... فوسطن به جمعاً) وكلها

(١) أو التناسب بين الشكل والمضمون.

أفعال تدل على حركات أو أعمال حسية، وثانيتهما أحد المفاعيل، وتخلو هذه الجمل أو الآيات من الزوائد، وتتوالى سراعاً كما تتوالى الخيل في عدوها، وهي كلها جمل فعلية أو بحكم الفعلية تصور الحركات والحوادث.

٢ - أما آيات القسم الثاني فهي تتألف من جمل اسمية تستعمل عادة للتعبير عن الحقائق العامة مصدرة كلها بـ« إنّ » المستعملة لتأكيد هذه الأحكام مع اللام المقرونة بالخبر.

٣ - وتعود الآيات في القسم الثالث إلى الجمل الفعلية لتصوير مشهد خاطف ليوم القيامة، ولكنها تأتي هنا مصدّرة بالاستفهام الاستنكاري المثير « أفلا يعلم اذا **بُعثر** ما في القبور، **وحُصّل** ما في الصدور ».

ويلفت النظر في هاتين الآيتين استعمال الأفعال المبنية للمجهول، واستعمال « ما » الموصولة المشعرة بعدم التحديد، وفي ذلك فسح المجال للخيال ليتصور ما شاء أن يتصور.

٤ - وتعود الخاتمة مرة أخرى، وهي حقيقة كبرى تمثل الفكرة الاساسية في النص، إلى الجملة الاسمية المؤكدة بإنّ واللام على طريقة القسم الثاني.

لقد كانت الآيات إجمالاً قصيرة في جميع أجزاء السورة، متناسبة في قصرها مع سرعة الانتقال في تصوير الحركات، أو مع ايجاز الأفكار في التحليل النفسي، ومقتصرة على العناصر الاساسية للجملة، خالية من الزوائد خلوّ الأفكار والمشاهد من التفصيلات، متناسبة في تنوعها وانتقالاتها مع تنوع الموضوع، من فِعلية غير مؤكدة إلى اسمية مؤكدة إلى استفهامية.

الموسيقى في السورة

يشعر المرتل لهذه الآيات أن لها طابعاً موسيقياً واضحاً، وإذا قرأها قراءةً فنية ـ وذلك هو الترتيل ـ لاحَظَ انقسامها الى عدة نغمات متناسبة مع أقسام النص من **الوجهة الفكرية والنحوية**.

فالقسم الاول يتألف من خمس فقرات موسيقية ذات نغمة واحدة تقلّ فيها

المدود ، وكلٌّ فقرة منها تتألف من كلمتين: أولاهما تحتوي على بعض المدود الطويلة. وثانيتهما وهي فاصلة الآية، كلمة ثلاثية لامَدّ إلا في آخرها (ضَبْحا ، قَدْحا ، صُبحا ، نقعا ، جمعا) وهذه الفقرات تمثل بقلة مدودها وتوالي حروفها المتحركة حركة الخيل في عدوها ووقع حوافرها ثم ارتفاعها.

أما القسم الثاني من السورة فهو أطول نفساً وأكثر مدوداً ، وكأنه يشير بمدوده الطويلة الى التأمل الطويل والهدوء النفسي. وتختلف كلمة الفاصلة في هذا القسم اختلافاً كبير في جرسها الموسيقي عن فاصلة القسم الاول (كنود ، شهيد ، شديد).

والقسم الثالث يجمع بين المدود الطويلة في بعض اجزائه (أفلا يعلم إذا) وتوالي الحركات في كلمات أخر (بعثر)، كما أن فاصلته تختلف عن القسمين السابقين في نبرتها وقوة جرسها (قبور ، صدور).

ويعود القسم الأخير في نغمة هادئة ناشئة عن المدود والميم الساكنة والتنوين الى فاصلة تأخذ الباء من القسم الثاني والراء من الثالث.

ويلاحظ أن لبعض الفاظ السورة جرساً موسيقياً واضحاً مناسباً لمعناها مثل (قدحاً ونقعاً) المناسبة لوقع حوافر الخيل و(بعثر) المناسبة لانتشار أجساد الموتى بعد خروجها من الأرض ، ومثل (حصّل) الدالة بصادها المشددة على شدة التقصّي والجمع!

فموسيقى النص في جملتها وتفصيلها ، أي في **نغمة الجمل وجرس الألفاظ وفواصل الآيات**، مناسبة للمشهد والافكار ومقابلة لها ، وتتنوع بتنوعها وتنسجم انسجامها.

والخلاصة:

أن هذه السورة تضمنت موضوعاً أساسياً هو مسؤولية الإنسان العظمى ، وأفكاراً أخرى أحاطت به من وجود الله وحدوث البعث ، ونفسية الإنسان وصراعه في هذه الحياة. وكلها أفكار أساسية في الحياة ، تسمو بالقارىء إلى

مستوى عالٍ من التفكير والشعور.

وكان عرضها عرضاً منطقياً جميلاً قويّاً، قوامه مشاهد من الحياة الواقعية المحسوسة، والحياة الأخرى المغيبة، والإنسان في صورته النفسية معروض بينهما، وكان هذا العرض المستند إلى التصوير الحسي والتحليل النفسي قوياً سريعاً موجزاً، اشترك فيه الفكر والخيال والحس، وتعاونت الألفاظ والتراكيب، فجاء نثراً فنياً كاملاً، ليعبر عن أخطر مسألة في حياة الإنسان وهي «مسألة المصير والمسؤولية»[1].

(١) دراسة أدبية لنصوص من القرآن لأستاذنا محمد المبارك ص ١٠ ـ ٢٠ «باختصار قليل».

فهرس (علوم القرآن)

الكتاب	المؤلف
فوائد قرآنية	عبد الرحمن السعدي
الفوائد المجموعة	الشوكاني
في التاريخ الإسلامي	عماد الدين خليل
في رحاب الأقصى	يوسف العظم
قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة	ابن تيمية
القرآن والمبشرون	محمد عزة دروزة
قصة الإيمان	نديم الجسر
كلمة الإخلاص وتحقيق معناها	ابن رجب – الألباني – الشاويش
الكلم الطيب	ابن تيمية – الألباني
كيف تتعلّم الإسلام بدون معلّم	محمود مهدي الاستانبولي
كيف ندعو الناس	عبد البديع صقر
الكيمياء العامة	حمزة – مليباري – حجازي
لبيك	يوسف العظم
لمحات في أصول الحديث	أديب صالح
لمحات في علوم القرآن	محمد الصباغ
لمعة الاعتقاد	ابن قدامة
المأثورات	حسن البنا
ما دلّ عليه القرآن	محمود شكري الآلوسي